الحركة العربية السرية

(جماعة الكتاب الأحمر)

١٩٣٥ـ١٩٤٥

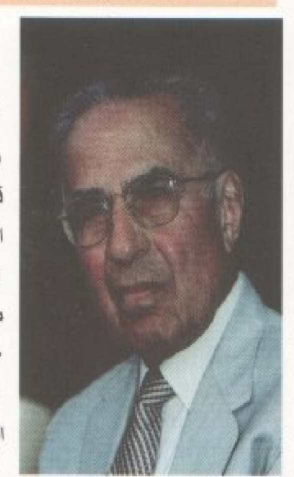
كتاب

القومية العربية

بقلم أحد أعضائها

شفيق جحا





شفيق جحا:

من مواليد بشمزين الكورة. أنهى الدروس الابتدائية والتكميلية في مدرسة بشمزين والثانوية بمدرسة الصبيان الاميركية في طرابلس. تخرج في قسم التاريخ بالجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٣٣. التحق بانترناشيونال كوليج مدرساً سنة ١٩٣٣ ورئيساً لقسم العلوم الاجتماعية فيها من ١٩٤٤ ـ ١٩٨٠. ودرس محاضراً بدائرة التربية بالجامعة الاميركية من ١٩٥٤ ـ ١٩٧٠. تقاعد سنة ١٩٨٠. مؤلف مشارك في حوالى اربعين كتاباً مدرسياً. اول من ادخل تدريس مادة التربية الوطنية والاخلاق بشكل نظامي في لبنان وذلك قبل ان تدرج هذه المادة في المنهاج الرسمي اللبناني بعدة سنوات. مؤسس مدرسة بشمزين العالية سنة ١٩٣٧. أحد مؤسسي نقابة معلمي المدارس الخاصة في لبنان ١٩٣٨. عضو مجلس أمناء مدرسة البشارة الارثوذكسية في بيروت خلال الستينات. عضو مجلس أمناء دار الندوة في بيروت منذ ١٩٨٥.

أحدث مؤلفاته:

الدستور اللبناني تاريخه وتعديلاته ونصه الحالي سنة ١٩٩١ والطبعة الرابعة ٢٠٠٣، دارون وأزمة السنة ١٨٨٢ بالجامعة الاميركية سنة ١٩٩١ وقد ترجم الى اللغة الانكليزية سنة ٢٠٠٣، معركة مصير لبنان في عهد الانتداب الفرنسي ـ جزآن ـ سنة ١٩٩٥، والحركة العربية السرية في سنة ٢٠٠٣.

يَروي هذا الكتاب قصة حركة عربية قومية سرية، نشأت وانتشرت وزالت في بعض أقطار المشرق العربي وخارجه، قبل ما يزيد على الستين سنة. لقد ساهمت هذه الحركة في تطوير الفكر العربي القومي، واشتركت في حركات النضال الوطني لتحرير الأقطار العربية وتوحيدها، ودعت لمعالجة أدواء المجتمع العربي وعلله والنهوض به من دركات التخلف والجهل إلى مراتب التقدم وميادين الحضارة الحديثة. بالنظر إلى اعتماد الحركة سياسة السرية الكاملة، لم يرد لها أي ذكر على الاطلاق في الصحف والمجلات والكتب، وبقي أمرها مكتوماً ولم يسمع بها أحد، لا في حينه ولا بعدها ببضعة عقود من الزمن. والآن، وقد رحل جميع مؤسسيها ومعظم أعضائها فإن ذكرها يكاد أن يَمّحي كلياً من الخواطر والأذهان، ويضيع خبرها وكل أثر لها، وتداركاً لحصول مثل هذه الخسارة وخدمة للحقيقة والتاريخ، وُضع هذا الكتاب الذي يروي لأول مرة القصة الكاملة لهذه الحركة، بالاستناد إلى الوثائق والمراجع المتوفرة بشأنها.

J. H. Moustafa 961 3 88 26 40

ISBN 9953-417-23-7



شفيق جحا

الحركة العربية السرية

(جماعة الكتاب الأحمر)



الحركة العربية السرية

(جماعة الكتاب الأحمر)

الحركة العربية السرية

(جماعة الكتاب الأحمر)

1935 ـ 1945

بقلم أحد أعضائها

شفيق جحا



* اسم الكتاب: الحركة العربية السرية - جماعة الكتاب الأحمر.

* المؤلف: شفيق جحا.

* الطبعة الأولى: كانون الثاني 2004

ISBN: 9953-417-23-7

* الناشر:

الفرات للنشر والتوزيع

ص.ب: 113-6435 بيروت - لبنان

هاتف: 961-1-750054 - فاكس 961-1-750053

* التوزيع عبر الانترنت:

www.alfurat.com

المحتويات

المقدمة

كان من المؤمل أن يكتب هذه المقدمة المرحوم الدكتور قسطنطين زريق. فمن أولى منه بذلك، وهو أحد المؤسسين الرئيسيين للحركة العربية السرية موضوع هذا الكتاب، وأول رئيس لها لبضع سنوات. لقد أثنى على عزمي على تدوين تاريخ الحركة، وأعجبه التصميم العام الذي وضعته لهذه الدراسة، ووعد بكتابة المقدمة بعد انتهائي من تحرير النص النهائي الكامل. ولكن القدر كان الأسبق، فرحل قسطنطين زريق مأسوفاً عليه[1] قبل انجاز هذا العمل، وترتب عليّ أن أكتب هذه المقدمة بنفسي. وإن كان لي، ما أقوله فيها بهذا الصدد، فهو أني أحررها وأنشر هذا التاريخ تكريماً لذكرى قسطنطين زريق الطيبة وإظهاراً لدوره القيادي الفاعل في تاريخ الحركة العربية السرية.

* * *

في سنة ١٩٣٥ تأسست حركة قومية عربية سرية في بيروت، وانتشرت فروعها في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق والكويت وألمانيا وأميركا الشمالية، وكان لها وجود محدود في بعض بلدان أخرى عربية وأجنبية. لم يعطها مؤسسوها اسماً محدداً لأسباب أمنية، ولكنها اشتهرت بعد أن انكشف أمرها في

(١) توفي قسطنطين زريق في بيروت، السبت في ١٢ آب سنة ٢٠٠٠.

السنوات الأخيرة باسم «الحركة العربية السرية ـــ جماعة الكتاب الأحمر»، تمييزاً لها عن سواها من التشكيلات القومية العربية الأخرى؛ وللاختصار ندعوها أيضاً في هذا الكتاب باسم «الحركة» فحسب.

مارست الحركة نشاطها في مجالات الفكر والسياسة والعمل الاجتماعي. قامت في مجال الفكر بشرح معنى القومية العربية بعمق وشمول، وعملت على نشرها وسعت إلى تحقيق أهدافها، مستخدمة لهذه الغاية مختلف الوسائل الإعلامية والأساليب التوجيهية والتربوية. وقامت في مجال السياسة بنشاط واسع فعال. فما من حدث مهم وقع في العالم العربي بوجه عام وفي بلدان الهلال الخصيب بوجه خاص، ما بين ١٩٣٥ و١٩٤٥، إلا وكان للحركة فيه دور ونصيب. كما أنها لم تقصر في القيام بدورها في المجال الاجتماعي.

وبالرغم من ذلك نجد أن الصحف والمجلات وكتب التاريخ الصادرة في تلك الحقبة، وما بعدها على مدى أربعين سنة، خالية كلياً من ذكر الحركة، أو الاشارة إليها بأي شكل من الأشكال. وكيف للصحافيين والمؤرخين أن يذكروها وهم يجهلون وجودها، ولم يسمعوا بها، أو يلحظوا أي أثر ملموس لها في ما كان يجري في الساحة العربية من أحداث مهمة؟

ويرجع هذا الصمت المطبق عن الحركة في الصحافة وكتب التاريخ، إلى السرية المطلقة التي اعتمدتها الحركة في تنظيمها الداخلي، بحيث لا يعرف معظم الأعضاء بعضهم بعضاً، وفي علاقاتها الخارجية بحيث لا يتسرب شيء من أخبارها وأسرارها خارج نطاقها الحزبي المحدود. وللمحافظة على هذه السرية لم تكن الحركة تقوم بأعمالها وتنفيذ مشاريعها وخططها بصورة مباشرة، أو بأية وسيلة يمكن أن تكشف أمرها وتدل عليها. فإن قام أعضاؤها بعمل ما فإنهم كانوا يقومون به في الظاهر بصفتهم الشخصية، ومن دون الإشارة إلى علاقاتهم الحزبية. أما مشاريع الحركة ومخططاتها الخاصة فكانت تنفَّذ بواسطة أحزاب وهيئات وأشخاص غير منتمين رسمياً إلى الحركة ويجهلون وجودها ولكنهم قريبون منها فكرياً وعقائدياً وسياسياً. وكانت الحركة تعتبر هؤلاء الأعوان «نقط اعتماد» لها. فكانت الإنجازات التي تحققها تنسب إلى «نقط الاعتماد» هذه، التي

هي الوسيلة والأداة، وليس إلى الحركة ذاتها التي هي النبع والأصل.

مرَّ على الحركة أكثر من نصف قرن، وكاد أن يلفها النسيان، لولا مناسبات جرت خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وورد فيها عرضاً، وبشكل مجتزءٍ محدود، في سياق مذكرات، وسير ذاتية، ومقابلات صحافية، ومدونات أدبية، وأبحاث تاريخية، بأقلام، وعلى ألسنة حركيين قدامى وباحثين. ولكن ذلك كله لا يغني، لأنه لا يعطي الصورة الحقيقية الكاملة للحركة.

إن الحركة تشكل صفحة في تاريخ الفكر القومي العربي والنضال السياسي الوطني التحرري، ولا يجوز طيها وطمسها. فالأمانة للحقيقة والتاريخ تفرض على المؤرخين السعي لإنقاذ هذه الصفحة المميزة من التلف والضياع، وذلك بوضع دراسة تاريخية شاملة عن الحركة تتناول بالشرح والتوضيح أهدافها وتنظيمها وأساليب عملها ومنجزاتها في مختلف المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية، وفي سائر الأقطار التي تأسست فيها.

وبدعوة كريمة من صديقنا وصديق الحركة وابنها الروحي البار الأستاذ رفعت صدقي النمر بداره في رأس بيروت في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٤، اجتمعنا نحن الحركيين القدامى الدكتور قسطنطين زريق، والأستاذ وصفي كمال، والسفير السابق نديم دمشقية، والسفير السابق يوسف شديد، وأنا (شفيق جحا)، وبحضور صاحب الدعوة ومشاركته. كان اجتماعنا ممتعاً حقاً، إذ خصصناه للحديث عن الحركة، ونشاطاتنا فيها وذكرياتنا عنها قبل نصف قرن من الزمن. وكان الإجماع تاماً في الرأي في نهاية الاجتماع حول أمرين: أولهما، الإعراب عن الأسف الشديد للصمت الذي لف الحركة، وعن الخوف من أن هذا الصمت والإهمال إذا ما استمرا، سيؤديان بالنتيجة إلى حذف صفحة الحركة ومحو ذكرها كلياً من تاريخ المنطقة. وهذا أمر لا يجوز، ويجب تداركه بسرعة وقبل فوات الأوان. وثانيهما، الإجماع على ضرورة السعي لتدوين تاريخ الحركة بشكل شامل مفصل ووفيٍّ لها، واعترافاً بدورها في تاريخ القومية العربية والمنطقة، وصوناً لهذه الصفحة وهذا الدور من النسيان والضياع. وقد تمنى علي الرفاق المجتمعون أن أضع هذا التاريخ المطلوب.

لم تكن المهمة التي تطوعت للقيام بها سهلة، وكان أصعب ما فيها أن معظم سجلات الحركة وأوراقها كانت قد أتلفت في مطلع الحرب العالمية الثانية لأسباب أمنية احترازية. وقد تجاوزتُ هذه العقبة وباشرت العمل معتمداً على المصادر التالية:

١ ــ ميثاق الحركة، أو دستورها المعروف باسم «الكتاب الأحمر»، والمنشور بعنوان «كتاب القومية العربية ــ حقائق وإيضاحات ومناهج[٢]».

٢ ــ أوراق كاظم الصلح الخاصة. وقد تكرم نجله الدكتور رغيد الصلح بتزويدي بصورة عن بعضها، فوجدت فيها وثائق وأوراقاً كثيرةً غنيةً بالمعلومات عن الحركة.وكذلك تكرم الأستاذ واصف كمال[٣] بتزويدي بوثيقة «حركيّة» بخط يد فؤاد خليل مفرج أحد مؤسسي الحركة. فللصديقين الكريمين رغيد الصلح وواصف كمال شكري وامتناني.

٣ ــ خبرتي الشخصية في الحركة ومعلوماتي الخاصة عنها شكلت مصدراً آخر من مصادر بحثي. لقد كنت أحد الأوائل الذين انضموا إلى الحركة حين تأسيسها. وكان لي رفاق وأصدقاء بين مؤسسيها وفي مجلس قيادتها. وكان وجودنا معاً في محيط الجامعة الأميركية في رأس بيروت يوفر لنا الفرص الكثيرة للقاء والتحدث في مختلف الأمور. ثم إني كنت برتبة «عون» بمجلس عمالة لبنان فترة طويلة[٤]. فأتاحت لي هذه العلاقات أن أطلع على قدر من شؤون الحركة أكبر مما كان متيسراً للعضو العادي فيها، وأقل مما كان متاحاً «للأركان» أعضاء مجلس القيادة الأعلى، الاطلاع عليه من الأسرار والمعلومات.

٤ ــ المذكرات والتذكارات، والسير الذاتية، والأحاديث الصحافية، التي أخذت تُنشر تباعاً منذ أواخر السبعينات في القرن العشرين، وحتى الوقت الحاضر، وهي بأقلام وعلى ألسنة حركيين قدامى مثل قسطنطين زريق، وواصف كمال، ومنير الريس، وزهير عسيران، ومحمد علي حماده، ومالك المصري،

---

(٢) يراجع الملحق رقم ١: ص ٣٧٩.

(٣) توفي واصف كمال في بيروت الاثنين في ١٩ تشرين الثاني سنة ٢٠٠١.

(٤) أوراق كاظم الصلح، مجموعة بطاقات الهوية الحزبية.

ونديم دمشقية، ويوسف شديد وسواهم. تضمنت هذه المنشورات نبذات عن الحركة متفاوتة بالطول والقصر، فمنها ما لا تزيد عن بضعة أسطر، ومنها ما تُشغل بضع صفحات أو أكثر من ذلك. ومثلما تختلف هذه النبذات بأحجامها، فإنها تختلف إلى حد ما بمضمونها وأهميتها. فكل مؤلف أو متحدث تحدث عن الحركة كما عرفها واختبرها من الموقع الذي كان يحتله فيها.

٥ ـــ مقابلات خاصة كثيرة عقدتها مع العديد من الحركيين القدامى من مختلف الأقطار. واستمعت إليهم يروون تذكاراتهم عن الحركة، فاستقيت منها معلومات جديدة، ووجدت فيها فوائد جمة ساعدتني في تدوين هذا التاريخ.

٦ ـــ الاستعانة بتاريخ البلد. إن تحرك الحركيين السياسي لم يكن يحصل في فراغ، بل كان جزءًا من الأحداث التي كانت تجري في ساحة كل قطر، والتي دخلت التاريخ الخاص بذلك القطر. وقد استعنت بهذا التاريخ، لأبين دور الحركة بتلك الأحداث. فالحركيون، مثلاً، اشتركوا في ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦ ـــ ١٩٣٩ فكان لا بد من الرجوع إلى تاريخ تلك الثورة أو بعضه لإظهار الدور الذي لعبه الحركيون فيها. وكذلك، فإن دور الحركيين في الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١ كان رئيسياً ومهماً، ولا يمكن تحديده وإبرازه دون الاستعانة بتاريخ العراق في تلك الحقبة التي ساهم فيها الحركيون في صنع تاريخها.

هذه هي المصادر التي اعتمدتها في إعداد هذه الدراسة عن الحركة العربية السرية. وإن كان لدى بعض الحركيين السابقين، وثائق أو معلومات عن الحركة العربية السرية، غير ما ذكرت في هذا الكتاب، فأني أرجو منهم أن يتكرموا بموافاتي بها أو بصور عنها، مشكورين، للاستفادة منها في المستقبل، خدمة للحقيقة وأمانة للتاريخ. وإني أرجو أن يكون وضع هذا الكتاب قد حقق الغاية الأساسية المرجوة منه، وهي تتلخص في الأمرين التاليين:

أولاً ـــ جمع الوثائق، والتعرف إلى المصادر، وتسجيل المعلومات المتوفرة عن الحركة العربية السرية وحفظها، لتكون شاهداً قاطعاً على وجود الحركة، وليستفيد منها من يحتاج إليها من المؤرخين والباحثين.

ثالثاً ـــ هدم جدار الصمت المضروب حول الحركة، والتعريف بها على حقيقتها، وإبراز دورها المميز في تطوير الفكر القومي العربي ونشره، والاطلاع على مشاركتها في معارك النضال الوطني الهادف إلى تحرير البلدان العربية من الهيمنة الأجنبية، وتوحيدها، وتحرير المجتمع العربي المتخلف من علله وآفاته، والسعي الجاد للنهوض به إلى مستوى المجتمعات المتحضرة المتقدمة الحديثة.

بيروت، سنة ٢٠٠٣م

شفيق جحا

الفصل الأول

المدخل

١ ـ الإطار التاريخي العام

خلال العشرينات من القرن العشرين، كانت الساحة اللبنانية ميداناً لنشاط كثيف من التجاذب والاستقطاب بين أربعة تيارات سياسية هي: تيار الشيوعية الأممية، وتيار القومية السورية، وتيار القومية العربية، وتيار القومية اللبنانية. ومنذ مطلع الثلاثينات أخذت هذه التيارات العامة تتبلور وتتشكل في أحزاب عقائدية ذات مبادئ معلنة صريحة، وأهداف محددة، ودساتير مدونة، وهيكلية منظمة، وعضوية منضبطة ملتزمة، مثل الأحزاب العقائدية السياسية الحديثة التي كانت شائعة في ذلك الحين في البلدان الأوروبية: مثل الحزب الشيوعي في روسيا، والحزب النازي في ألمانيا، والحزب الفاشستي في إيطاليا. وبنتيجة هذا التوجه الجديد، تأسس الحزب الشيوعي اللبناني في سنة ١٩٣٠[١]، والحزب السوري القومي في سنة ١٩٣٢[٢]، وحزب عصبة العمل القومي في سنة ١٩٣٣[٣]. وتبعها تأسيس التنظيم السياسي المعروف باسم «الحركة العربية السرية»، موضوع هذا الكتاب، في سنة ١٩٣٥[٤].

ولما لم تكن، لا سلطات الانتداب الفرنسي، ولا السلطات الوطنية اللبنانية، تسمح بقيام مثل هذه الأحزاب التي كانت مبادئها وأهدافها تبدو مغايرة لوجود الكيان اللبناني المستقل، وتشكل تهديداً له وخطراً عليه، فقد لجأت تلك الأحزاب العقائدية إلى الاحتماء بالسرية والعمل في الظلام بصورة غير شرعية

وخارج نطاق القانون والنظام العام.

وكرد فعل على نشاطات هذه الأحزاب، التي بالرغم من سريتها لم يخفَ أمرها كلياً على الناس، انبرى أصحاب العقيدة اللبنانية إلى تشكيل الأحزاب القومية اللبنانية لمقاومة الدعوات المغايرة للكيان اللبناني المستقل. فتشكلت بضعة أحزاب «لبنانية» كان حزب الكتائب اللبنانية، الذي تأسس في سنة ١٩٣٦، أكثرها تنظيماً وأوفرها نشاطاً وأوسعها نفوذاً وانتشاراً وأدقها تعبيراً عن فلسفة القومية اللبنانية وأهدافها. وكان حزب الكتائب اللبنانية، بخلاف الأحزاب المغايرة السرية، حزباً شرعياً مرخصاً، ويمارس نشاطاته بصورة قانونية علنية في كافة الأنحاء اللبنانية.

في هذا الإطار التاريخي العام، إذاً ، تأسست «الحركة العربية السرية» في سنة ١٩٣٥، واستمرت حوالى عشر سنوات، تفككت بعدها وانتهت بأواساط الأربعينات.

٢ ـ إحياء ذكرى الحركة

لقد قيل وكتب الشيء الكثير عن الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي وعصبة العمل القومي وحزب الكتائب اللبنانية. والمكتبة العربية غنية بالكتب، وزاخرة بالمعلومات القيّمة عن هذه الأحزاب الأربعة، ولكنها خالية تماماً من أي مرجع متخصص بالحركة العربية السرية ذاتها كتنظيم حزبي سياسي عربي مستقل له كيانه الذاتي وتاريخه المميز. ويرجع السبب في ذلك إلى السرية المطلقة التي اعتمدتها الحركة في جميع شؤونها، وإلى التكتم الشديد الذي مارسه أعضاؤها بكل ما يتعلق بها من قريب أو بعيد. فحال ذلك دون صدور أي بحث أو دراسة عنها. وهذا ما جعل بعض مؤرخي حركات القوميين العرب ممن نمي إليهم بعض المعلومات القليلة الغامضة عن وجود الحركة العربية السرية يترددون في تصديقها، ويتخبطون في استنتاجاتهم وأحكامهم الشخصية بشأنها، مثال ذلك ما نجده في كتاب باسل الكبيسي، بعنوان «حركة القوميين العرب» الصادر في بيروت في سنة ١٩٧٤، من أخطاء وأحكام غير دقيقة عن الحركة العربية السرية وعلاقة الدكتور قسطنطين زريق بها. ففي عرضه لتطور الحركات

القومية وظهور الأحزاب العربية في فترة الثلاثينات ينتقل المؤلف رأساً من الحديث عن عصبة العمل القومي المنشأة في سنة ١٩٣٣ إلى الحديث عن دور ساطع الحصري في أوائل الأربعينات وحزب البعث العربي الاشتراكي في أواسطها، من دون أية إشارة أو ذكر للحركة العربية السرية التي تأسست فيما بين هذين التاريخين في سنة ١٩٣٥. ليس هذا فحسب، بل إن المؤلف الكبيسي ينفي أي وجود لهذه الحركة عندما يؤكد بقوله إن:

«الدكتور زريق اكتفى بشرح المبادىء القومية دون أية محاولة من جانبه لتنظيم الطلبة في نشاطات سياسية[١]».

ويحصر المؤلف دور الدكتور زريق بتقديم المشورة فحسب إلى العاملين في الحقل القومي العربي فيقول:

«وعدا ذلك (تقديم المشورة) لا يوجد أي برهان يدل على أن الدكتور زريق قام بلعب أي دور آخر مع القوميين غير دور السلطة المعنوية[٢]».

وبصدد ماكان يتردد أحياناً من تصريح أو تلميح عن وجود الحركة العربية السرية يقول الكبيسي بتحفظ:

«إنه كثيراً ما قيل أن الحركة كانت امتداداً لمنظمة قومية سابقة هي «جماعة القوميين العرب» التي أسهم الدكتور زريق في تنظيمها في أواخر العشرينات[٣]».

وهنا أيضاً نجد أن المؤلف قد ارتكب خطأين تاريخيين كبيرين، أولهما، أن قسطنطين زريق في أواخر العشرينات لم يكن موجوداً في لبنان، ولم يكن قد بدأ نشاطه القومي السياسي، بل إنه كان طالباً يتابع دراسته في جامعات الولايات المتحدة الأميركية، وإنه لم يرجع إلى بيروت ويباشر التدريس بالجامعة الأميركية في بيروت قبل خريف عام ١٩٣٠. وثانيهما، أن عبارة المؤلف «وكثيراً ما قيل»

---

(١) باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب، منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين رقم ١٢، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤)، ص ٥٨ ـ ٥٩. يشار إليه بعد الآن هكذا: باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب.

(٢) المصدر ذاته، ص ٥٩.

(٣) المصدر ذاته، ص ٥٩.

توحي بمعنى الشك، إن لم نقل النفي، لوجود الحركة المذكورة. وهذا أيضاً مخالف للحقيقة والواقع لأن الحركة التي يشير إليها المؤلف بشيء من التحفظ والشك كانت قد تأسست وانتشرت وبدأت نشاطها، ولكن ليس في العشرينات، كما يقول، بل في منتصف الثلاثينات.

ولكن هذا الوضع القلق المتمثل في كتاب الكبيسي بدأ يتغير بعد صدور ذلك الكتاب في سنة ١٩٧٤ بوقت قصير. فإنه ما بين أواسط السبعينات وأواسط الثمانينات ظهرت بضعة كتب ومقالات صحافية عن موضوع القومية العربية وحركاتها، منها ما نشره أو صرح به «حركيون» قدامى سابقون وذكروا فيها الحركة العربية السرية بشكل واضح صريح، ومنها ما دبجته يراعة كتاب غرباء عن «الحركة»، ويجهلون حقيقتها، فجاء ما أوردوه عنها قلقاً مضطرباً محيراً. وكان من أهم ما ظهر في تلك الفترة من المراجع التي كان فيها للحركة العربية السرية من الذكر نصيب، العناوين التالية:

أولاً — في سنة ١٩٧٧ كان منير الريس قد بدأ بنشر مذكراته في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان «الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي[٤٥]». تحدث المؤلف في الجزء الأول منه عن الثورة السورية الكبرى، وفي الجزء الثاني عن الثورة الكبرى في فلسطين، وفي الجزء الثالث عن دوره في الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١.. كان منير الريس مناضلاً قومياً من حملة قطناً في دمشق، وأحد أقطاب الحركة العربية السرية وعاملها في سوريا. فتحدث بتفصيل في أقسام مختلفة من الكتاب عن مساهمة الحركة العربية السرية في تلك الثورات ضد قوات الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان وضد الوجود البريطاني في فلسطين والمارة شرق الأردن والعراق. ولا شك في أن مذكراته قد ألقت بعض الضوء على الحركة العربية السرية ونبهت الباحثين إلى حقيقة وجودها. ولكن لا بد من التذكير بأن غرض الريس الأساسي لم يكن التعريف بالحركة أو كتابة

---

(٤٥) منير الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، ٣ أجزاء، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٧). يشار إليه بعد الآن هكذا: منير الريس، الكتاب الذهبي.

تاريخها، وأن ما جاء في كتابه عن الحركة من مقاطع وفقرات متقطعة وموزعة في بضعة مواضع في الكتاب، إنما جاء في سياق حديثه عن أخبار تلك الثورات لا غير. لذلك جاءت مساهمة مذكرات الرئيس في الكشف عن سر الحركة العربية السرية وحقيقتها وطبيعتها محدودة جداً، وكان على الباحثين أن ينتظروا ظهور مراجع أخرى أكثر غنى وتنوعاً بالمعلومات المحددة الموثوقة.

ثالثاً ــ وفي سنة ١٩٨١ وضعت الباحثة الدكتورة بيان نويهض الحوت كتاباً بعنوان «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨»، ونشرته مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت. وكان في جملة الشخصيات الفلسطينية الذين قابلتهم، وتحدثت إليهم وأخذت منهم ومعهم المعلومات المتعلقة بموضوع كتابها، السيد والمصنف كمال. والسيد كمال فلسطيني مقيم في بيروت وقطب سابق من أقطاب الحركة العربية السرية. وفي المقابلة التي أجرتها معه الدكتورة نويهض الحوت بتاريخ ٧ أيلول سنة ١٩٧٧ تحدث إليها والمصنف كمال بالتفصيل عن تأسيس الحركة العربية السرية وأقطابها وانتشارها وتنظيمها ووسائلها وسريتها ومواثيقها المعروف باسم «الكتاب الأحمر» وزودها بنسخة منه اقتطفت بعض فقراته ونشرتها في كتابها المذكور أعلاه(٥٥). وقد يكون من الضروري تسجيل الملاحظتين التاليتين بصدد كتاب بيان نويهض الحوت: أولاً، إن مصنف نويهض الحوت هو أول كتاب وردت فيه عن الحركة العربية السرية من أحد أقطابها السابقين معلومات دقيقة ومفصلة نوعاً ما، تسمي الأشخاص وتذكر الأماكن وتحدد التواريخ وتأتي على ذكر الأهداف مستندة إلى وثائق رسمية ومراجع بشرية أولية. وإنه بذلك يكون قد أزال ما كان يساور نفوس البعض من شك في حقيقة وجود الحركة، وإن القول المأثور «قطعت جهينة قول كل خطيب» ينطبق تماماً على بيان نويهض الحوت فيما يتعلق بوجود الحركة العربية السرية، وإن كتابها هذا كان الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح للبحث

(٥٥) بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨. (بيروت، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١). ص ٤٩١ ـ ٤٩٣. يشار إليه بعد الآن هكذا: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين.

مسألة الحركة. ثانياً، ولكن يجب الاعتراف بأن كثيرين ممن لم يتيسر لهم الاطلاع على كتاب بيان نويهض الحوت وعلى ما صدر بعده من معلومات عن الحركة العربية السرية استمروا في الحيرة والشك بأمر «وجود» الحركة العربية السرية بدليل ما ظهر لاحقاً من مقالات وأبحاث تعرب عن هذه الحال من الحيرة والشك. مثال ذلك قول محمد أحمد الجواهري مؤلف كتاب «تاريخ الحركة العربية المعاصرة في العراق ١٩٣٤ ــ ١٩٤٢» الصادر سنة ١٩٨٤، «والحقيقة فإنه ليس من الواضح تماماً حتى الآن إذا كانت تلك الجمعيات مستقلة في تنظيمها أو أنها واجهات محلية لحزب سياسي أوسع نطاقاً[٦]».

وشبيه بما وقع فيه الكبيسي سنة ١٩٧٤، والجواهري سنة ١٩٨٤، من حيرة وشك بشأن وجود الحركة العربية السرية أو عدم وجودها، نجده أيضاً في كتاب «حركة القوميين العرب وانعطافاتهم الفكرية» للباحثة سهير السلطي التل، الصادر في بيروت سنة ١٩٩٦. فليس في هذا الكتاب أي ذكر أو إشارة إلى وجود الحركة العربية السرية، بالرغم من أن سرها كان قد انكشف منذ أواخر السبعينات، وورد ذكرها في بضعة مصادر، خلال الثمانينات. ففي حديثها في الفصل الأول من الكتاب عن نشأة الحركة القومية العربية، تقول المؤلفة ما يلي:

«جاءت حركة القوميين العرب... نتيجة لمجموعة من العوامل، أبرزها: الأجواء الفكرية والسياسية التي وفرتها الجامعة الأميركية وجمعياتها الطلابية، وأبرزها جمعية العروة الوثقى، التي شكلت الميدان الذي بدأ فيه تحرك القادة المؤسسين تحت رعاية الأب الروحي للجمعية قسطنطين زريق وفكره الليبرالي القومي[٧]».

---

(٦) محمد أحمد الجواهري، تاريخ الحركة العربية المعاصرة ـ نادي المثنى وواجهات التجمع القومي في العراق ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢. (بغداد، دار الجاحظ، ١٩٨٤)، ص ١٢٥. يشار إليه بعد الآن هكذا: محمد أحمد الجواهري، تاريخ الحركة العربية المعاصرة.

(٧) سهير السلطي التل، حركة القوميين العرب وانعطافاتهم الفكرية. ص ٢٧. (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦). يشار إليه بعد الآن هكذا: سهير السلطي التل، حركة القوميين العرب.

وتستهل المؤلفة الفصل الثاني بالفقرة التوضيحية التالية لوضع الحركة في إطارها الزمني، فتقول:

«نشأت حركة القوميين العرب في أوساط الجامعة الأميركية، بعد تجارب سياسية وعسكرية عدة مخفقة، وكنتيجة مباشرة لحرب عام ١٩٤٨[٨]».

إن المؤلفة في الفقرة الأولى تحصر علاقة قسطنطين زريق بجمعية العروة الوثقى بأبويته الروحية للجمعية، مما يعني ضمناً عدم اعترافها له بأي دور تنظيمي في الجمعية وفي الجامعة. والواقع هو أن جمعية العروة الوثقى ومجلتها، وما كان يجري فيهما، كان الواجهة العلنية لجانب واحد من عدة جوانب لنشاط التنظيم القومي العربي السياسي السري الذي كان قسطنطين زريق رئيسه وأحد مؤسسيه.

وفي الفقرة الثانية تقول المؤلفة إن حركة القوميين العرب نشأت كنتيجة مباشرة لحرب عام ١٩٤٨. وهنا أيضاً خطأ في التحديد الزمني. ففي سنة ١٩٤٨ كان قد مضى ثلاثة عشر عاماً على تأسيس الحركة العربية السرية، وثلاثة أعوام على زوالها.

ثالثاً ـ وفي العام ١٩٨٢ وضع السفير السابق حليم ابو عز الدين مذكراته في كتاب بمجلدين بعنوان «تلك الأيام. مذكرات وذكريات، سيرة إنسان ومسيرة دولة ومسار أمة». وقد أتى فيه على ذكر الحركة العربية السرية في الجامعة الأميركية وفي رأس بيروت، وروى كيف أقسم اليمين وانتسب إليها وسمى رفاقه في الخلية السرية التي التحق بها[٩]. ويعتبر كتاب ابو عز الدين، مثل كتاب بيان نويهض الحوت، دليلاً مادياً ومصدراً موثوقاً على حقيقة وجود الحركة.

وفي العام التالي، ١٩٨٣، أجرت الصحافية منى سكرية مقابلة مع السفير السابق محمد علي حمادة كان الغرض منها أن يتحدث فيها السفير عن سيرة حياته ودوره في حركة النضال القومي، وعمله في السلك الدبلوماسي اللبناني

---

(٨) سهير السلطي التل، حركة القوميين العرب، ص ٥١.

(٩) حليم ابو عز الدين، تلك الأيام. مذكرات وذكريات: سيرة إنسان ومسيرة دولة ومسار أمة، جزآن. (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢) ص ٧٠. يشار إليه بعد الآن هكذا: حليم ابو عز الدين، تلك الأيام.

طوال بضع سنوات. ومحمد علي حمادة من مؤسسي الحركة العربية السرية وأحد أقطابها. فكان من الطبيعي أن يأتي في حديثه بالمقابلة على ذكرها. ويبدو أن الصحافية سكرية اكتشفت في قصة الحركة العربية السرية موضوعاً بكراً مثيراً وسبقاً صحافياً جذاباً يجب استغلاله إلى أبعد حد، فراحت تمطر السفير حمادة بالأسئلة طالبة إليه أن يمدها بالمزيد من المعلومات والتفاصيل. ولاقت أسئلة سكرية هوى في نفس حمادة فتوسع في الحديث عن تأسيس الحركة وأعضائها، وتنظيمها وانتشارها وأهدافها وميثاقها في «الكتاب الأحمر»، وزودها بنسخة منه. ونشرت سكرية خلاصة المقابلة بمقال نشر بمجلة «الشراع» البيروتية في العدد ٥٦٠ من سنتها الثالثة[١٠٠]. ونشرت في عدد لاحق من الشراع صورة فوتوغرافية في ١١٤٤ صفحة تضمنت النص الكامل لميثاق الحركة بالكتاب الأحمر[١١١]. فكان ما نشرته مجلة الشراع أوفى ما كان قد نشر وذاع عن الحركة حتى ذلك الحين. ويظهر أن ما ينشر بالمجلات والصحف يلقى رواجاً إعلامياً أوسع وأشمل مما ينشر في الكتب. فقد أحدث ما نشر في مجلة الشراع عن الحركة ضجة واهتماماً بها في الأوساط السياسية والعلمية، وحظيت الحركة بسببه بدعاية واسعة لم تكن قد حظيت بمثلها من قبل.

وفي ١١٩٩ نيسان سنة ١١٩٩٧٨٣ عقدت ندوة بقاعة النادي الثقافي العربي بمركزه في رأس بيروت لتقديم كتاب السفير حليم ابو عز الدين إلى الجمهور. وكان محمد علي حمادة أحد المتكلمين. وقد استغل ما ورد في الكتاب المذكور عن الحركة العربية السرية ليسترسل في الحديث عنها، مثلما كان قد فعل قبل ذلك في اللقاء مع مي سكرية مندوبة مجلة الشراع. وتكلم في تلك الندوة عن الحركة أكثر مما تكلم عن الكتاب ذاته. أصغى الحاضرون بلهفة ولذة إلى ما كان السفير حمادة يتحفهم به من معلومات جديدة وأخبار غريبة لم يسبق لهم أن سمعوا بها. ومن فرط اهتمامهم بما كان يقول وجهوا إليه عدداً غير قليل من الأسئلة والملاحظات حول موضوع الحركة. وكانت تلك الندوة أول مناسبة طرحت فيها مسألة

(١٠٠) مجلة الشراع، السنة الثالثة، العدد ٥٦٠، الإثنين ١١١١ نيسان ١١٩٩٧٨٣، ص ٦٦٢ ـ ٦٦٧.
(١١١) مجلة الشراع، السنة الثالثة، العدد ٦٦٠، الاثنين ٩٩ أيلول سنة ١١٩٩٧٨٣، ص ٦٦٠ ـ ٦٧٣.

الحركة أمام جمهور من الناس المثقفين في احتفال أقيم على عجل. وزاد في أهمية الندوة حضور عدد من أعضاء الحركة السابقين من زملاء حمادة وأبو عز الدين، فكان لوجودهم في القاعة والكشف عن علاقتهم بالحركة وقع خاص مثير في نفوس الحاضرين وتأثير معنوي في نظرتهم إلى موضوع الحركة. وقد تبين بجلاء أن الذين حضروا تلك الندوة أو اطلعوا على مجرياتها بدأوا يأخذون موضوع الحركة بجدية واهتمام، وأن الشعور بضرورة تدوين تاريخ الحركة قد ولد في أجواء تلك الندوة.

٢٣ ـ فشل أول محاولة لتدوين تاريخ الحركة

جرت أول محاولة لتدوين تاريخ الحركة العربية السرية في أواخر سنة ١٩٧٨. في ذلك الحين كان بعض أصدقاء الدكتور قسطنطين زريق يفكرون في إعداد كتاب خاص على شرفه، ونشره تكريماً له. ورغب الدكتور سمير صيقلي، أحد أساتذة التاريخ بالجامعة الأميركية في بيروت، في أن يساهم بهذا المشروع بتدبيج أحد فصول الكتاب وفاء لأستاذه الدكتور زريق، وأخذ يبحث عن موضوع دراسة تكون له علاقة بالمناسبة المذكورة.

وتنبه الدكتور صيقلي لما كان محمد علي حمادة قد ذكره عن الحركة العربية السرية في مجلة الشراع وفي ندوة «النادي الثقافي العربي» قبل بعض الوقت. ولما كان اسم قسطنطين زريق قد ورد على لسان محمد علي حمادة كواحد من أبرز مؤسسي الحركة العربية السرية وقادتها، فقد رأى الدكتور صيقلي أن يساهم في تأليف الكتاب المنوي نشره تكريماً للدكتور زريق بتحرير فصل فيه يتضمن دراسة عن الحركة تجلو سرها وتسجل تاريخها وتكون أول بحث مفصل خاص ينشر عنها منذ تأسيسها قبل ذلك بحوالي نصف قرن.

طلب الدكتور صيقلي من الدكتور زريق أن يزوده بما عنده من معلومات وأن يجمعه ببعض الأشخاص المنتمين إلى الرعيل الأول من أعضاء الحركة العربية السرية ليستمع إليهم ويطلع منهم على ما كان لايزال عالقاً في أذهانهم من ذكريات ومعلومات عن الحركة. فدعا الدكتور زريق كلاً من تقي الدين الصلح ومحمد شقير وشفيق جحا للمشاركة في اللقاء مع الدكتور صيقلي. عقد

الاجتماع بعد ظهر نهار الأربعاء في ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٨٤ بمنزل الدكتور زريق بملك الدكتور ينيكومشيان بشارع أرتوا مقابل وزارة الاقتصاد الوطني في رأس بيروت.. دام الاجتماع أكثر من ساعتين استعرضنا فيه ذكرياتنا عن مختلف جوانب الحركة، ووضعنا الدكتور صيقلي في الصورة العامة للحركة من حيث الظروف التي نشأت فيها، والأهداف التي سعت إليها، والمبادىء والسبل التي اعتمدتها، والنشاطات التي قامت بها، والأشخاص الذين انتسبوا إليها، وغير ذلك من الأمور. ولم يكن لدينا شيء من الوثائق المدونة لنزوده بها سوى نسخة من «كتاب القومية العربية» الذي هو دستور الحركة وميثاقها المعروف أيضاً باسم «الكتاب الأحمر». واتفقنا على أن نعود إلى الاجتماع ثانية إذا ما شعر الدكتور صيقلي بالحاجة إلى ذلك. وقد وعد محمد شقير بوضع جدول يتضمن أسماء أعضاء الحركة الذين لاتزال تعيهم ذاكرته، فبرَّ بوعده ووضع الجدول المذكور خلال بضعة أشهر وسلمه إلى الدكتور زريق، الذي سلمه بدوره إلى الدكتور صيقلي. وقد علمت بذلك من كل من الدكتورين زريق وصيقلي.

وما لبثت الحالة الأمنية في لبنان أن ساءت بدرجة كبيرة خلال تلك الفترة العصيبة من «الحرب اللبنانية». فغادر الدكتور زريق لبنان وأمضى فترة طويلة في الخارج، واغتيل محمد شقير في بيروت في ٣ آب سنة ١٩٨٧، وتوفي تقي الدين الصلح في باريس في ١٣ تشرين الأول سنة ١٩٨٨. ولما اتصلت بالدكتور صيقلي بأوائل التسعينات وجدته لم يعد مهتماً بموضوع الحركة ولا راغباً في متابعة بحثها وإعداد دراسة تاريخية عنها. وقد عزا عزوفه هذا إلى الأسباب الثلاثة التالية:

أولاً ــ إن كتاب التكريم للدكتور زريق الذي كان الدكتور صيقلي ينوي نشر دراسته عن الحركة فيه قد صدر، وزال بصدوره الحافز الأساسي لتحضير تلك الدراسة.

ثانياً ــ إن الشروط العلمية الضرورية لإجراء البحث التاريخي الموثوق لم تكن متوفرة لموضوع الحركة، وخصوصاً بعد أن قيل وشاع أن أوراق الحركة ووثائقها الرسمية قد «تلفت»، وبعد أن «ضاع» الجدول الذي كان محمد شقير

قد أعده وضمنه الأسماء التي استذكرها من أعضاء الحركة[١٢]. ولم يبق متوفراً للدكتور صيقلي من وثائق الحركة المكتوبة سوى ميثاقها، أي «الكتاب الأحمر»، وهو بالطبع غير كاف ولا يفي بالغرض المطلوب من إعداد الدراسة.

ثالثاً ـــ إن الحركة، برأي الدكتور صيقلي، لم تقم بأي عمل بارز ملفت، ولم تترك أثراً مهماً ملموساً في الحياة اللبنانية والعربية يستحق الذكر والتسجيل. وهو معذور في ذلك بسبب سرية الحركة. وبتراجع الدكتور صيقلي عن الاهتمام بتتبع قصة الحركة العربية السرية وتسجيلها تكون أول محاولة لتدوين تاريخ هذه الحركة قد باءَت بالفشل.

٤ ـ مبادرة جديدة

إن عزوف الدكتور صيقلي عن متابعة درس مسألة «الحركة العربية السرية» جعل هذه المسألة أمام احتمالين هما: إما التسليم بصحة موقف الدكتور صيقلي وتسكير ملفها كلياً ونهائياً، وإما القيام بمبادرة جديدة بشأنها. وكان أني بناءً على تمني بعض الرفاق، كما ذكرت في «المقدمة»، آليت على نفسي القيام بهذه المبادرة الجديدة، يدفعني إلى ذلك بضعة اعتبارات أهمها ما يلي:

أولاً ـــ يقيني بأن «الحركة العربية السرية» ظاهرة جديرة بالدرس. فليس صحيحاً أنها لم تفعل شيئاً يستحق الذكر والتسجيل. لقد كانت حركة سرية لا تعلن عن نشاطاتها وإنجازاتها كما سنبين لاحقاً. وإنما يكفي أن نشير هنا إلى دورها في مجال الدعوة العربية. فميثاقها المنشور في «الكتاب الأحمر» هو أوفى وأدق تعبير عن فلسفة «القومية العربية» وأهدافها ومبادئها ووسائلها وكل ما يتصل بها من شؤون نظرية وعملية كان قد ظهر حتى ذلك التاريخ، وإنه لايزال كذلك حتى الوقت الراهن. وقد تأثر بمضمون هذا الميثاق، وتبنى ما جاء فيه كلياً أو جزئياً، أكثر من حاكم ونظام ومناضل عربي. وقد وسعت «الحركة» الدعوة العربية في بضعة أقطار عربية، ونشرتها في أوساط الشباب المثقف وطلاب

---

(١٢) يعلل الدكتور صيقلي «ضياع» هذا الجدول الوثيقة بأنه تلف أو فقد مع الأوراق الأخرى التي كان يحتفظ بها في مكتبه في بناية كوليج هول بالجامعة الاميركية عندما فجرها مجهولون في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٩١.

الجامعات بصورة خالصة، وأرستها على أسس علمية عقلانية بعيدة عن الغوغائية والطائفية والانفعالات العاطفية، وأعطتها زخماً قوياً وحيوية نالشطة. وتجدر الإشارة إلى أن عدداً ليس بقليل من قادة النضال القومي في بضعة أقطار عربية منذ أن توقفت الحركة ذاتها في أواسط الأربعينات هم من أعضائها أو ممن تأثروا بها بطريقة أو بأخرى. كما إن إنجازات تحققت بفضل الحركة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من دون أن تعلن الحركة عن دورها في ذلك. وإن كانت سريتها قد حالت دون اطلاع الآخرين على إنجازاتها، فإن جهلهم بحقيقتها لا ينتقص من قدرها ويقلل من شأنها ويسقطها من مطارح البحث والاهتمام. وإن من أهداف هذه الدراسة إظهار بعض هذه الحقائق المجهولة، والإشارة إلى بعض الإنجازات التي وإن بدت عادية بسيطة، فإنها في الواقع تشكل جانباً أساسياً في صميم العمل الوطني القومي الرشيد.

ثانياً ـــ قناعتي بأن بحث هذه المسألة قد تأخر أكثر مما يجب، وبأن هذا التأخير قد أضاع علينا فرصاً ثمينة للحصول على المعلومات من مصادرها البشرية الأولية بسبب العاملين الطبيعيين اللذين لا يقاومان، الموت والنسيان. لقد مضى على تأسيس «الحركة العربية السرية» أكثر من ستين سنة طوى الموت خلالها حياة عدد من أبرز مؤسسيها وقيادييها مثل فؤاد خليل مفرج وكاظم وتقي الدين الصلح ومحمد شقير ورامز شوقي وفريد زين الدين ومحمد علي حماده وسواهم. وإنه لمن المؤسف حقاً أن أحداً من هؤلاء لم يترك لنا، على ما أعلم، أثراً مكتوباً مفصلاً عن تطور الحركة أو عن دوره وذكرياته فيها. لذلك أصبح الاتصال السريع بمن هو باق من جماعة «الحركة» على قيد الحياة أمراً ضرورياً وملحاً للحصول منهم على ما يملكون من وثائق، وللاستفادة مما قد لا يزال عالقاً في أذهانهم من معلومات وذكريات قبل فوات الأوان[١٣٦]..

ثالثاً ـــ إجماع أعضاء «الحركة» الذين تمكنت من الاتصال بهم، على الترحيب بهذه المبادرة الحالية، والشعور بضرورة القيام بها بسرعة، والإلحاح

---

(١٣٦) إن قسطنطين زريق ووالصف كمال توفيا في أثناء المرحلة الأخيرة من إعداد هذا الكتاب.

علي بالمضي بها قُدماً معربين لي عن تعاونهم الكامل معي ومساعدتهم لي بتقديم كل ما يملكون من مصادر ومعلومات عن «الحركة». وقد وفى بعضهم مشكورين بما وعدوا به.

هـ ـ عن وثائق الحركة

تلف وثائق الحركة:

كانت خطوتي الأولى في السعي لإعداد هذه الدراسة عن الحركة العربية السرية التفتيش عن الوثائق والأوراق الرسمية وشبه الرسمية المدونة العائدة للحركة وجمعها. وفي تساؤلي عن مكان وجودها حصلت على الأجوبة التالية:

أولاً ـــ رواية محمد علي حماده: إن رواية محمد علي حماده وردت في حديثه المنشور بمجلة الشراع. وهو لم يذكر فيها من وثائق الحركة سوى ميثاقها المعروف باسم «الكتاب الأحمر» فيقول:

«ولم يبق من هذا الكتاب إلا نسخة واحدة. ذلك ان النسخ الأخرى أتلفت في غضون الحرب العالمية الثانية للحؤول دون اكتشاف وملاحقة واضعيها. والنسخة التي بقيت كنا قد «طمرناها» تحت شجرة ليمون في رأس النبع[14]».

وتضيف مجلة الشراع القول:

«وقد حصلت «الشراع» على هذه النسخة وتقوم بنشرها للمرة الأولى بنصها الكامل حتى لا يضيع التاريخ[15]».

يتبين من السؤال الذي وجهته مندوبة مجلة «الشراع» إلى محمد علي حمادة أنه ذكر لها ان نسخ «الكتاب الأحمر» كلها قد «أحرقت»[16] إلا النسخة الوحيدة الباقية في حوزته والتي أعارها إلى «الشراع» لنشرها فيها. وهنا أحب أن أبدي الملاحظتين التاليتين:

---

(١٤) مجلة الشراع، السنة ٢، العدد ٥٦، الاثنين ١١ نيسان ١٩٨٣، ص ٦٥.
(١٥) مجلة الشراع، السنة ٢، العدد ٦٠، الاثنين ٩ أيار ١٩٨٣، ص ٦١ ـ ٧٣.
(١٦) مجلة الشراع، السنة ٢، العدد ٥٦، الاثنين ١١ نيسان ١٩٨٣، ص ٦٥.

١ ـ إن رواية محمد علي حمادة عن حرق نسخ «الكتاب الأحمر» مخالفة لروايات أخرى، كما سيجيء.

٢ ــ إن قول حمادة بأنه «لم يبق من هذا الكتاب، «الكتاب الأحمر»، إلا نسخة واحدة» قول غير دقيق ومخالف للواقع الثابت. فهناك عدد غير قليل من نسخ الكتاب المذكور بين الأيدي. فقد أفادني كل من قسطنطين زريق وحليم ابو عز الدين ومنح الصلح انهم يحتفظون بنسخهم الخاصة من هذا الكتاب. وقد احتفظت أنا كذلك بنسختي خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها وهي الآن بين يدي أقلب صفحاتها وأعتمدها مرجعاً في إعداد هذه الدراسة. وخلال اجتماعين في ١٩ و٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٩٣ في بيروت أخبرني جبران شامية، عامل الحركة السابق في سوريا، أن الحركة لم تجمع نسخ «الكتاب الأحمر» من الأعضاء في سوريا خلال الحرب العالمية الثانية وأن نسخاً كثيرة منه لاتزال موجودة هناك. وكذلك كان الحال في فلسطين حسبما أفادني واصف كمال في سنة ١٩٩٤. ومن خارج أعضاء الحركة توجد حالياً نسخة من «الكتاب الأحمر» مع الدكتور سمير صيقلي أعطاه إياها محمد شقير عندما كان صيقلي مهتماً بإعداد دراسة عن الحركة في أواسط الثمانينات. وعلمت من الصديق المهندس سمير طرابلسي أن لديه نسخة من «الكتاب الأحمر» كان أهداه إياها رامز شوقي، قبل وفاته، منذ عدة سنوات من دون أن يخبره أي شيء عن الحركة أو عن هذا الكتاب. وبقي سمير طرابلسي على جهل تام بهذه الأمور حتى جلوتها له في حديث دار بيننا عندما كان يزورني بمنزلي بشارع الحمراء في بيروت في أواخر العام ١٩٩٤. وفي العام ١٩٩٧ حصلت من السيد رفعت النمر على نسخة إضافية من «الكتاب الأحمر» فقدمتها إلى دائرة المحفوظات ــ الأرشيف ــ بمكتبة الجامعة الأميركية في بيروت نهار الأربعاء في ٣ أيلول سنة ١٩٩٧. وتسلمتها مديرة هذه الدائرة السيدة أسما فتح الله. ولم يكن بمكتبة الجامعة الأميركية نسخة من هذا الكتاب قبل ذلك.

وخلاصة هذه الملاحظة الثانية أن عدداً غير قليل من نسخ «الكتاب الأحمر» لاتزال موجودة لدى بعض أعضاء الحركة وسواهم.

ثانياً ــ رواية محمد شقير عن أوراق الحركة: إنها رواية محمد شقير عن أوراق الحركة كما رواها لي هو بنفسه، وكما سمعتها تكراراً فيما بعد من تقي الدين الصلح نقلاً عن محمد شقير أيضاً. وفيما يلي خلاصة هذه الرواية.

قال محمد شقير إنه لما نشبت الحرب العالمية الثانية وأصبح الحكم عسكرياً عرفياً تخلص بعض أعضاء الحركة العربية السرية في لبنان من نسخ «الكتاب الأحمر» التي كانت لديهم بإتلافها حرقاً أو تمزيقاً أو بطرق أخرى تفادياً لما قد يسببه لهم وجودها في حوزتهم من اتهامات ومتاعب وأخطار. وجازف آخرون بالاحتفاظ بها. وعندما داهمت سلطات الأمن بيوت بعض العاملين في الحقل السياسي الوطني عثرت عند أفراد من أعضاء «الحركة» مثل زهير عسيران على «الكتاب الأحمر» وصادرته، ولكنها لم تتوصل إلى أبعد من ذلك بفضل تكتم الأعضاء[١٧]. وكانت هذه المداهمات نذيراً للمحامي رامز شوقي، أحد مؤسسي الحركة وكبار المسؤولين فيها، فقام بتدبير احترازي للحؤول دون وقوع أوراق الحركة ووثائقها بأيدي السلطات وتعريض الأعضاء للاعتقال والأذى مثلما حصل للشهداء الوطنيين الذين أعدموا أو نفوا خلال الحرب العالمية الأولى بسبب بعض الأوراق والوثائق التي ضبطتها في حوزتهم السلطات العسكرية التركية. لقد جمع رامز شوقي وثائق الحركة ونسخ «الكتاب الأحمر» الموجودة لدى قيادة الحركة في بيروت ووضعها في صفائح من التنك «تنكات كاز» وطمرها سراً بمعاونة محمد شقير في صيف ١٩٤٠ في حفرة حفراها معاً في حديقة منزل رامز شوقي بمحلة رأس النبع وغرسا فوق المكان غرسة ليمون للتمويه. ولم يدر أحد سواهما بذلك في حينه. وبقيت الوثائق والكتب مدفونة في تلك الحفرة طوال سنوات الحرب. ولما حاولوا استخراجها في أواخر الأربعينات وجدوا أن صفائح التنك والكتب والأوراق قد اهترت من الرطوبة وتفتتت وبليت وتحولت تراباً، ولم يمكنهم استخراج أي

(١٧) زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب، (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٨) ص ٤٠، يشار إليه بعد الآن هكذا: زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر.

كتاب أو وثيقة بحالة سليمة. وهكذا تكون وثائق الحركة قد فقدت.

هذه خلاصة ما سمعته من الصديقين المرحومين تقي الدين الصلح ومحمد شقير أكثر من مرة وهي تخالف رواية محمد علي حمادة في أن الوثائق لم تتلف حرقاً وإنما طمرت في التراب وتلفت.

ثالثاً ـــ رواية قسطنطين زريق: لقد أكد لي أنه علم بإتلاف أوراق الحركة في أوائل الحرب العالمية الثانية، ولكنه لا يتذكر الآن التفاصيل تماماً، مثل، ما هي الوثائق والأوراق التي أتلفت، وهل أحرقت أو طمرت في الأرض، وأين جرى ذلك، ومن قام به: إنه لا يتذكر الآن شيئاً من هذه التفاصيل.

رابعاً ـــ رواية والمصنف كمال: كان قد ترجح عندي بعد الإستقصاءات التي قمت بها أن وثائق الحركة جميعها قد تلفت بقطع النظر عن الكيفية التي أتلفت بها. ولكن هذا التصور لم يلبث أن أخذ يتبدل. ففي أول مقابلة أجريتها مع والمصنف كمال بمنزله في بيروت وبحضور السيد رفعت النمر في ١١ أيلول سنة ١٩٩٤، أطلعني والمصنف كمال، وكان من أركان الحركة العربية السرية وقادتها الكبار في فلسطين على رسالة موجهة إليه من فؤاد خليل مفرج وبخطه تتعلق بموضوع تأسيس الحركة في فلسطين. وقد زودني بصورة فوتوغرافية من هذه الرسالة[١٨]. فكانت ثاني وثيقة مدونة، بعد الكتاب الأحمر، أحصل عليها. وبالإضافة إلى ما تقدم أفادني والمصنف كمال أنه متأكد من أن «أوراق كاظم الصلح الخاصة» لم تتلف، وأنها على الأغلب موجودة في الوقت الحاضر بحوزة نجله الدكتور رغيد الصلح المقيم في أوكسفورد ببريطانيا منذ عدة سنوات.

أوراق كاظم الصلح الخاصة:

إن من عادة الصديق رغيد الصلح أن يتصل بي وأن نلتقي في كل مرة يقوم بها بزيارة عمل، وإن قصيرة، إلى بيروت. وفي مقابلتين بيننا في بيروت نهار الخميس في ١١ نيسان ١٩٩٦ ونهار السبت ٩ أيار ١٩٩٧ فاتحته بموضوع أوراق والده وعلمت منه أنها سليمة وفي حوزته ببريطانيا. ولما عرضت

---

(١٨) الملحق رقم ٢، ص ٤٣٢.

عليه حاجتي للاطلاع عليها وخصوصاً على ما يتعلق منها بموضوع الحركة العربية السرية، وعدني بأن يرسل لي صوراً فوتوغرافية عما يظنه يلبي حاجتي منها بعد عودته. وقد وفى بوعده مشكوراً، واستلمت منه بأواسط ١٩٩٩/٨ طرداً بريدياً مضموناً بداخله عدد كبير من صور الوثائق والأوراق. وبعد تفحصها ودرسها توصلت إلى الاستنتاجات والملاحظات التالية:

١ ـ إن هذه الأوراق ليست «الأوراق الرسمية للحركة العربية السرية»، وإنما هي، كما أطلق عليها أصحابها بحق «أوراق كاظم الصلح الخاصة». وتتألف من مجموعة من الصور لعدد من الوثائق الأصلية العائدة للحركة، وعن وثائق خاصة أخرى لها بعض العلاقة بالحركة.

٢ ـ إن الأوراق المرسلة إلى بيروت هي صور لجزء من «أوراق كاظم الصلح الخاصة» وليست «الأوراق» كلها. وقد يكون في القسم الآخر الباقي منها في بريطانيا أوراق ذات فائدة لإكمال وتوضيح أمور لم يكتمل عرضها وشرحها في ما أرسل إلي حتى الآن من أوراق.

٣ ـ إن هذه الأوراق التي بين يدي الآن عن الحركة يختص معظمها بالحركة العربية السرية في العراق خلال الفترة الممتدة من تاريخ انتقال قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد في أواخر ١٩٣٩ وحتى نهاية ثورة أيار ١٩٤١ في العراق ضد الإنكليز. وتتضمن الأوراق الأخرى بعض المعلومات العامة المختلفة عن الحركة، كما إنها تشتمل على جداول منظمة ولكنها غير مكتملة بأسماء الأعضاء.

٤ ـ إن في الأوراق التي بين يدي أوراقاً تتضمن تلخيصات موجزة ـــ وموجزة جداً في كثير من الأحيان، بحيث لا يذكر عن الموضوع سوى عنوانه المجرد ـ عن مقررات مجلس قيادة الحركة وعن التقارير الرسمية المفصلة المقدمة من «الوكلاء» و«العاملين» وأمين سر الحركة في المجالات المختلفة. فأين هي هذه المقررات والتقارير المفصلة الأصلية التي هي بالفعل «الأوراق الرسمية للحركة العربية السرية؟».

٥ ـ يرد في الملخصات المذكورة أعلاه ذكر وإشارات إلى مسائل وقضايا وأحداث على جانب كبير من الأهمية في حياة الحركة كما يستدل من

العناوين التي تشير إليها. ولكن لا شيء عنها في تلك الملخصات سوى العناوين المجردة التي لا توضح شيئاً ولا يفهم منها شيء عن طبيعة تلك المسائل والأحداث وخطورتها. إن تلك الأحاجي والألغاز الواردة في عناوين تلك الملخصات تزيد مهمة الباحث صعوبة وتعقيداً. وإن حلها كما أراه، محصور بمصدرين، أولهما الأشخاص الذين عاشوها، وقد طواهم الدهر ودفنت أسرارها في صدورهم. وثانيهما مقررات مجلس القيادة والتقارير المفصلة والأوراق الأخرى التي تشكل «الأوراق الرسمية للحركة العربية السري». أما الأوراق الرسمية المشتملة على المقررات والتقارير الرسمية المفصلة فقد اتلفت في أثر فشل ثورة أيار ١٩٤١[١٩] لذات الأسباب السياسية والأمنية التي أتلفت أوراق الحركة من أجلها في لبنان في أثر نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، خصوصاً وإن الحركة تورطت في ثورة ١٩٤١ تورطاً كبيراً أودى ببعض المتورطين الكبار إلى حبل المشنقة والسجن.

٦ ـ بين التأجيل والتعجيل

في ضوء هذه المعطيات كان لا بد من الاختيار بين تأجيل القيام بدراسة الحركة على أمل الحصول على مزيد من الوثائق والمعلومات، وبين التعجيل في إعدادها بالاستناد إلى ما هو متوفر حالياً من مصادر ومراجع. وقد رجحت عندي كفة التعجيل على التأجيل، لأن مضار التأجيل بنظري تفوق فوائده، في حين أن فوائد التعجيل تفوق مضاره. فمن حسنات التعجيل أنه يسجل لأول مرة قصة «الحركة العربية السرية» كاملة ويصونها من النسيان والضياع ويضعها إرثاً بين أيدي المؤرخين والباحثين. أما ما قد يشوب هذه الدراسة الحالية من أخطاء ويعيبها من نقص وثغرات فهذا أمر قد يمكن إصلاحه وتلافيه كلياً أو جزئياً في ضوء ما قد يكتشف في المستقبل من وثائق أو يستجد من معلومات. لهذه الأسباب، وبناء على رغبة الرفاق في الحركة وإلحاحهم قررت أن أسير قدماً في إعداد هذه الدراسة التي هي الأولى عن الحركة العربية السرية، وذلك ضمن الأطر والحدود والإمكانات المتوفرة لها في الوقت الحاضر.

---

(١٩) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٤.

الفصل الثاني

التعريف بالحركة العربية السرية

١ ـ تأسيس الحركة

الحافز:

تأسست الحركة العربية السرية، حسبما يذكر مؤسسوها، كردة فعل على ما كانت قد آلت إليه الأحوال السياسية في العالم العربي من تفكك وانقسام في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي[١]، وكحركة مقاومة لبعض العوامل الخارجية والداخلية التي شكلت خطراً حقيقياً على مآل الحركة القومية العربية وهددتها بالتلاشي والانحلال. وكان من أهم تلك الأخطار العوامل الخمسة التالية:

أولاً ــ الهجمة الإستعمارية الغربية الجديدة على العالم العربي، والتي كانت اتفاقية سايكس ــ بيكو ١٩١٦، ووعد بلفور ٩١٧، وإنهاء الحكم العربي الفيصلي في دمشق ١٩٢٠، وفرض الانتدابين الفرنسي والبريطاني على بلدان «الهلال الخصيب» في مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠، وإحكام سيطرة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على مقدرات الأقطار العربية في شمال القارة الأفريقية بُعيد الحرب العالمية الأولى، محطات بارزة في مسيرة هذه الهجمة.

ثانياً ــ تقسيم العالم العربي الآسيوي إلى عدة كيانات سياسية

(١) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٧٤ ـ ٧٩. مخطوطة لم تنشر. يشار إليها بعد الآن هكذا: قسطنطين زريق، سيرة ذاتية.

خاضعة للنفوذ الأجنبي الغربي، وإن بدرجات متفاوتة، وإقامة الحدود بينها، بعد أن كان معظم هذا العالم المذكور موحداً تحت السيادة العثمانية حتى أواخر الحرب العالمية الأولى، وبعد أن كان الوطنيون العرب قد حصلوا على وعد بريطاني في مراسلات الحسين ـ مكماهون خلال سنوات تلك الحرب بجعل هذه البلاد دولة عربية موحدة مستقلة.

ثالثاً ـ مصالح الأسر العربية الحاكمة، والزعماء السياسيين القطريين، التي أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوجود هذه الكيانات العربية المستقلة، ومرهونة ببقائها وديمومتها. وسواء أحصل ذلك عن قصد أم عن غير قصد، فقد صار هؤلاء الحكام والزعماء يشكلون، بالفعل وخلافاً لما كانوا يدعون، ولما كانوا يطلقون من تصاريح وشعارات عروبية وحدوية طنانة، الجبهة الرئيسية المناهضة لأهداف القومية العربية العليا الحقة. وليس أدل على ذلك من شهادة رئيس وزراء مصر الأسبق مصطفى النحاس باشا الذي قال، إنه أثناء المشاورات التي أجراها في سنة ١٩٤٤ بخصوص الوحدة لم يجد حكومة عربية واحدة مستعدة للتنازل عن ذرة من سيادتها واستقلالها لجامعة الدول العربية التي يراد إنشاؤها، أو لأية هيئة عربية سواها[٢].

رابعاً ـ ظهور تيارات عنصرية قوية بُعيد الحرب العالمية الأولى مخالفة لمبدأ القومية العربية، والفكر القومي العربي، مثل «الفرعونية» في مصر، و«الفينيقية» في لبنان، و«الأمة السورية والقومية السورية» في سوريا ولبنان، و«الصهيونية» في فلسطين، و«الشيوعية الأممية» في معظم الأقطار العربية، وغير ذلك من التيارات والعقائد السياسية، والبدع التي تتناقض في مبادئها وأهدافها «التقسيمية» مع مبادىء القومية العربية وأهدافها «التوحيدية».

خامساً ـ الاختلاف على الصيغة: أجمعت سائر الأحزاب والهيئات

---

(٢) علي محافظة، النشأة التاريخية للجامعة العربية، في كتاب «الجامعة العربية في الواقع والطموح». ص ٤٨ ـ ٤٩، و٥١ ـ ٥٢. (بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣). يشار إليه بعد الآن هكذا: علي محافظة، الجامعة العربية.

والشخصيات القيادية القومية العربية على أن الهدف الأول والأساسي الأسمى لحركة القومية العربية هو وحدة الأمة العربية الشاملة من الخليج إلى المحيط، ولكنهم اختلفوا في كل ما عدا ذلك على طبيعة الصيغة وآلية التنفيذ: هل تكون الدولة العربية المبتغاة موحدة، أم فيدرالية، أم كونفيدرالية، ملكية أم جمهورية، علمانية أم دينية، رأسمالية أم اشتراكية، يمينية أم يسارية، وهل تتكل في تحقيق وحدتها واستقلالها على إمكاناتها الذاتية، أم تنشد الدعم والمساعدة من الخارج؟ ومع أي خارج تتحالف؟ مع الدولة الشيوعية في الشرق، أم مع الدول الديمقراطية في الغرب، ومع أي من هذه الدول بالتحديد؟ إلى غير ذلك من المسائل الحساسة الشائكة. وبسبب هذه الخلافات بقي هدف حركة القومية العربية شعاراً فارغاً بدون مضمون، وأصبح الأمل بالوحدة حلماً متعذر التحقيق.

«عصبة العمل القومي»:

إن هذا الوضع المؤسف لواقع العالم العربي في أوائل الثلاثينات أثار الشعور بالواجب القومي والمسؤولية الوطنية في نفوس نفر من الشباب العربي المثقف، وحفزه على التفكير في القيام بعمل إيجابي في الحقل القومي، يستطيع به أن يساهم في تصحيح مسار الحركة القومية العربية، ومدّها بالحيوية والنشاط، والعمل على تنظيمها والتبشير بها، ونشرها على أوسع نطاق بين الجماهير العربية، وجعلها قوة قادرة على التصدي للتحديات الكثيرة التي تواجهها. وبدافع من هذا الشعور، وبعد اجراء اتصالات ومشاورات واسعة، اتفقت نخبة من الشباب القومي العربي من لبنان وسوريا وفلسطين والعراق على عقد مؤتمر لبحث القضية العربية وتقرير الخطوات التنظيمية والعملية الواجب اتخاذها بشأنها. انعقد المؤتمر سراً في بلدة قرنايل بقضاء المتن الأعلى في لبنان، في شهر آب سنة ١٩٣٣، وحضره خمسون شخصية تقريباً كان حوالي ربعهم من اللبنانيين، ودام ستة أيام، من ٢٤ ــ ٢٩ آب، وأسفر عن الانجازين التاليين؛ وضع «بيان المؤتمر التأسيسي» وتأسيس الحزب السياسي المعروف باسم «عصبة

العمل القومي». كرر «بيان» المؤتمر الأهداف الأساسية المعروفة للقومية العربية، وتعهد حزب «العصبة» بالسعي لتحقيقها. اختيرت دمشق المقر الرئيسي للعصبة، وعين علي ناصر الدين مسؤولاً عن فرعها في لبنان[٣].

لم تلبث قيادة «العصبة» في دمشق أن دخلت بقوة حلبة التنافس الحزبي مع حزب «الكتلة الوطنية»، أقوى الأحزاب السياسية وأكثرها شعبية ونفوذاً في سوريا، وكان يقود حركة النضال الوطني ضد الانتداب الفرنسي بسوريا في حينه. وما عتّم هذا التنافس بين حزبي «الكتلة الوطنية» و«عصبة العمل القومي» أن تطور بسرعة وتحول إلى نزاع علني مكشوف، واتخذ طابعاً شديد الحدة والعنف ألهب الساحة السياسية السورية بالخلافات حول بعض المشاكل والقضايا المحلية الثانوية، وصرف قيادة «العصبة» عن الاهتمام اللازم بجوهر القضية القومية التي أنشئت «العصبة» أساساً من أجل معالجتها على مستوى العالم العربي كله[٤].

ويُروى عن لسان «عصبوي» بارز يومئذ هو تقي الدين الصلح قوله بهذا الخصوص إن تصرف قيادة العصبة في دمشق لم يرق لمعظم «العصبويين» اللبنانيين، لأنهم رأوا أن السياسة الحزبية التصادمية الضيقة التي تنتهجها هذه القيادة ستؤول بالنتيجة إلى تدمير الكتلة والعصبة معاً، وإضعاف جبهة النضال الوطني ضد الانتداب الفرنسي في سوريا، وإلحاق الضرر الفادح بالقضية العربية الكبرى ككل. لذلك قرر هؤلاء، بكل هدوء وصمت، وقف التعامل الحزبي مع قيادة العصبة في دمشق، وأصبحوا عملياً بحكم المستقيلين، وإن لم يعلنوا ذلك رسمياً، تحاشياً لإحداث أزمة لا مصلحة

---

(٣) خطار أسعد بو سعيد، عصبة العمل القومي ودورها في لبنان ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩. بحث أعد لنيل شهادة في علم الاجتماع السياسي، بإشراف الدكتور فارس محمود إشتي (بيروت، معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية، الفرع الأول، ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣). مخطوط.

(٤) محمد حرب فرزان، الحياة الحزبية في سوريا ١٩٠٨ ـ ١٩٥٥، (دار الرواد، ١٩٥٥) ص ١٤٠ و١٨٨ ـ ١٩٠. يشار إليه بعد الآن هكذا: محمد فرزان، الحياة الحزبية في سوريا.

فيها لأحد. وراح فريق من هؤلاء يسعى في بيروت لتشكيل تنظيم سياسي سري مستقل، يستوحي أهدافه من الأهداف القومية الأساسية لعصبة العمل القومي، ولكنه ينبذ سياستها الحزبية المدمرة(٥).

بين قسطنطين زريق وكاظم وتقي الدين الصلح:

وفي الوقت ذاته كان الدكتور قسطنطين زريق، أستاذ التاريخ العربي بالجامعة الأميركية في بيروت، يعمل على إحياء التراث العربي، ونشر الفكر القومي، ويشرح الأسس الفلسفية والتاريخية التي ترتكز عليها القومية العربية، ويحث طلابه ويوجههم إلى اعتناق هذه القومية، والعمل على نشرها، والسعي بموضوعية وعقلانية وإخلاص لتحقيق أهدافها. وعلم كل من قسطنطين زريق والأخوين كاظم وتقي الدين الصلح بما كان يفكر فيه الآخر ويعمل من أجله في محيطه بصدد القومية العربية. ويروي قسطنطين زريق ما جرى بينه وبين الأخوين الصلح بخصوص هذا الموضوع، فيقول مايلي:

«ووجدت بين العاملين في الحقل القومي في لبنان من كانوا يحاولون هذه المحاولة بالذات، وفي مقدمتهم كاظم الصلح وتقي الدين الصلح، وبعد لقاءات عديدة معهما ومع غيرهما من العاملين في هذا الحقل استقر رأينا على تأسيس حركة قومية تضم نفراً مختاراً من المفكرين والعاملين، لا يكون همهم الأول الانخراط في الركاب السياسية الراهنة، بل وضع الأسس لتنظيم قومي شامل على مفهوم صحيح للأهداف القومية... وكانت اللقاءات الأولى تجري في بيت السيد محمد علي حمادة، فوق صيدلية حمادة في أول شارع البسطة. وكانت تضم الأخوين كاظم وتقي الدين الصلح، ومحمد علي حمادة وأنيس الصغير وعادل عسيران وفؤاد مفرج(٦) وجبران شامية ورامز شوقي. وكانت المهمة الأولى لهذا الفريق وضع «دستور» للقومية العربية يبين أغراضها ويوضح مفهومها. وخلص الأمر

---

(٥) مقابلة مع الدكتور رغيد الصلح في دار الندوة ببيروت جرت نهار الثلاثاء ٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٩، أخبر الدكتور رغيد المؤلف بأن عمه تقي الدين الصلح أدلى إليه بهذه المعلومات عن موقف العصبويين في لبنان من قيادة العصبة في دمشق.

(٦) إنه فؤاد خليل مفرج من برمانا وهو غير فؤاد يعقوب مفرج من بشمزين - الكورة.

إلى الاتفاق على هذا «الدستور» وطبعه في كتيب عنوانه «القومية العربية: حقائق وإيضاحات ومناهج»[7].

ولا تختلف رواية محمد علي حمادة في جوهرها عن رواية قسطنطين زريق حول كيفية تأسيس الحركة العربية السرية. فهو يقول إنه قامت:

«مجموعة من الشباب لا يتجاوز عددها العشرة، وأخذت تعقد اللقاءات إلى أن اتفقت على تأسيس «الحركة العربية السرية» في العام ١٩٣٥. وأقرت هذه المجموعة بعد مناقشات مطولة على وضع مسودة مشروع لدستور العرب القومي، وكلفت كاظم الصلح... صياغة محصلة المناقشات وتنسيقها مادة بعد مادة. وقد عاونه في ذلك الجهد كل من قسطنطين زريق وفؤاد مفرج»[8].

وفي أواسط العام ١٩٣٥، وبعد أن كانت جميع الأعمال التحضيرية والتنظيمية قد استكملت، وميثاق الحركة قد نشر في ما عرف باسم «الكتاب الأحمر»، باشرت الحركة العربية السرية نشاطها في جو من السرية المطلقة والتكتم الشديد.

٢ ـ حول اسم الحركة

إنه لمن البديهي في عرض تاريخ حركة سياسية سرية أن يبدأ العرض بالتعريف بالحركة، وبتحديد هويتها واسمها. وإني أبادر إلى القول إني لا أملك حتى الآن أي دليل قاطع على أنه كان لهذه الحركة التي نتحدث عنها اسم معتمد خاص، أو أن تكون قد اتخذت لنفسها اسماً رسمياً محدداً إسوة بغيرها من الحركات والأحزاب والتنظيمات السياسية المماثلة التي عاصرتها. فميثاق الحركة خال من مثل هذا الاسم، وقد اقتصر عنوانه على العبارة التالية: «كتاب القومية العربية».

---

(٧) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية ص ٧٩ .

(٨) محمد علي حمادة، في «حديث ذكريات»، أجرته معه الصحافية منى سكرية، ونشر في مجلة «الشراع» اللبنانية، السنة الثانية، العدد ٥٦، الاثنين ١١ نيسان ١٩٨٣، ص ٦٢ ـ ٦٧ وفي العدد ٦٠ الاثنين ٩ أيار ٩٨٣ ص ٦٠ ـ ٦١.

ولم أجد أحداً بين من قابلتهم من أركان الحركة وأعضائها يستطيع بثقة واطمئنان أن يؤكد وجود اسم خاص للحركة، وأن يتذكر هذا الاسم بالتحديد.

ويظهر أن عدم إطلاق اسم معين على الحركة لم يكن ناشئاً عن إهمال أو تقصير، بل كان أحد الاجراءات التي اتخذتها قيادتها من أجل المحافظة على سريتها الكاملة. هذا ما سمعته أكثر من مرة من بعض مؤسسي الحركة وأركانها مثل قسطنطين زريق وواصف كمال وجبران شامية. وهذا أيضاً ما صرح لي به رغيد الصلح نقلاً عن لسان عمه المرحوم تقي الدين الصلح(٩).

ونتج عن عدم وجود اسم رسمي للحركة أن انفتح أمام الأعضاء وسواهم باب الاجتهاد في إطلاق الأسماء المختلفة عليها. وقد ترددت مؤخراً على مسمعي بضعة أسماء مثل «حركة القومية العربية» و«الحركة العربية» و«حركة القوميين العرب». أما منير الريس فيشير في مذكراته إلى مسألة اسم الحركة ويقول: «**وأسمينا المنظمة الحزب القومي العربي**»(١٠). ولا يوجد دليل ثابت على أن قيادة الحركة اعتمدت هذا الاسم بالفعل. ولكن أشهر الأسماء غير الرسمية التي أطلقت عليها مؤخراً كانت الأسماء الثلاثة التالية، «الحركة العربية السرية» و«حركة الكتاب الأحمر» و«جماعة الكتاب الأحمر».

إن السبب في استعمالنا الاسم «الحركة العربية السرية» هو أن الحركة كانت سرية ومتشبثة بسريتها إلى درجة كبيرة جداً بحيث أن أمرها بقي مكتوماً طوال أكثر من أربعين سنة، ولم يسبق أن تردد ذكرها أمام الرأي العام أو تحدثت عنها الصحف والاندية بشيء من التفصيل قبل

---

(٩) في مقابلة تمت بمكتب السيد رفعت النمر في رأس بيروت وحضوره، نهار الخميس ١١ نيسان سنة ١٩٩٦.

(١٠) منير الريس، الكتاب الذهبي. جـ ٢، ص ١٠٥.

العام ١٩٨٣ عندما أثار محمد علي حمادة موضوعها في المناسبتين اللّتين سبقت الاشارة إليهما في الفصل الأول، وقد ذكرها باسم «الحركة العربية السرية»[١١].

أما تسمية الحركة باسم «حركة الكتاب الأحمر» أو «جماعة الكتاب الأحمر» فعائدة إلى قصة هذا الكتاب الأحمر كما رواها لي تقي الدين الصلح قبل عدة سنوات. لقد قال إن ميثاق الحركة طبع على ورق أزرق فاتح من الداخل، وطبع غلافه على ورق بلون أحمر، فأطلق عليه بسبب منظره الخارجي اسم «الكتاب الأحمر» بصورة عفوية. وأكد لي تقي الدين الصلح أنه ليس لاختيار هذين اللّونين، الأزرق للورق والأحمر للغلاف، أي خلفية سياسية معينة. وكل ما في الأمر هو أن هذا الورق كان «فضلة» مهملة باقيةً من طبع كتب سابقة بمطبعة ألبير الريحاني في بيروت حيث طبع «الكتاب الأحمر». وقد اشترت الحركة ذاك الورق «الفضلة» بثمن بخس توفيراً للتكاليف.

بقي أن نذكر أنه نظراً لعدم وجود اسم رسمي معروف للحركة، فإننا سنذكر الحركة في هذا البحث بهذين الاسمين «الحركة العربية السرية» أو «جماعة الكتاب الأحمر». لأنهما الأكثر دلالة عليها وتمييزاً لها عن التنظيمات العربية الأخرى، وللاختصار ندعوها «الحركة» فحسب.

٣ ـ أهداف الحركة

الهدف الأسمى

إن البحث لاستجلاء أهداف الحركة العربية السرية يقتضي الرجوع إلى دستور الحركة وميثاقها في «الكتاب الأحمر» حيث تتحدد الأهداف بنص واضح دقيق، وإلى نشاطات الحركة وممارساتها الفعلية حيث تتجلى تلك الأهداف بصورة واقعية عملية، وإلى أقوال مؤسسي الحركة وآرائهم

---

(١١) محمد علي حمادة، بمجلة «الشراع» السنة ٢ العدد ٦٠ الاثنين ٩أيار ١٩٨٣، ص ٦١.

المدونة بهذا الخصوص. وبالرجوع إلى هذه المصادر الثلاثة نجد أنه كان للحركة العربية السرية هدف أول رئيسي أسمى، وبضعة أهداف إضافية رديفة، الغرض منها المساعدة على تذليل الصعاب وتمهيد الطريق و توفير الأجواء الملائمة لتحقيق الهدف الأول الذي هو بيت القصيد وغاية الغايات. وغاية هذا الهدف الأسمى هي توحيد جميع الأقطار العربية المنتشرة من الخليج إلى المحيط في دولة حرة، مستقلة، ديمقراطية، علمانية، عادلة، متقدمة وقادرة على أن تعيد للعرب كرامتهم القومية، وتحي مجدهم الحضاري الغابر، وتنهض بهم إلى مستوى الشعوب القوية المتقدمة ذات الأدوار الإيجابية المؤثرة الفعالة في المجالات السياسية والحضارية على المستوى العالمي.

وبالعودة إلى ميثاق الحركة في «الكتاب الأحمر» نجده ينصّ على أن هدف الحركة القومي الأساسي هو:

«في أصله وطبعه ومنتهاه واحد لا يتجزأ ولو تنوعت أساليب الوصول إليه». وهو **«التحرر والتوحّد الشاملان»**[١٢]... **في دولة قومية عربية قومية متحضرة»** قادرة على صون كيان العرب المادي والمعنوي ورفع شأنهم **«والاستمرار في تأدية رسالتهم إلى الانسانية والحضارة العالمية»**[١٣].

ويرتكز قيام هذه الدولة العربية الموحدة المنشودة على عدد من المبادىء الأساسية المحددة في ميثاق الحركة وأهمها المبادىء الخمسة التالية:

١ ــ العرب أمة واحدة «هم من كانت لغتهم العربية، أو من يقطنون البلاد العربية وليست لهم في الحالتين أية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية العربية»[١٤].

٢ ــ «بلاد العرب للعرب وحدهم»[١٥]... والبلاد العربية هي جميع

---

(١٢) الكتاب الأحمر، المادة ٦، ص ٦.
(١٣) المصدر ذاته، المادة ١، ص ٣.
(١٤) المصدر ذاته، المادة ٣، ص ٤
(١٥) المصدر ذاته، المادة ١٩، ص ١٣

الأراضي التي تتكلم أو يتكلم سكانها اللغة العربية في آسيا وأفريقيا؛ أي هذه الأراضي الواقعة في الحدود التالية:

ـ من الشمال جبال طوروس والبحر المتوسط.

ـ من الغرب المحيط الأطلسي والبحر المتوسط.

ـ من الجنوب بحر العرب وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى.

ـ من الشرق جبال بشتكوه والبختيارية وخليج البصرة. أما الجزر القريبة من الشواطىء العربية والتي يسكنها عرب فهي عربية»[16].

٣ ـ يرضى العرب **«مختارين بأن تكون أقطارهم مؤلفة الشمل في الدولة العربية على أساس نظام الاتحاد (فيداراسيون). والضرورة في قيام هذا النظام تبطل إذا ما زالت تلك البواعث»**[17].

٤ ـ «الدولة العربية [المنشودة] دولة قومية لا دولة دينية. والأديان عندها هي سبل المرء إلى خالقه في العبادات. فهي مصونة ومحترمة ومقدسة وفاق ما يرد عنها في القوانين. أما في الشؤون الدنيوية الخالصة كالإدارة والأحكام المدنية والعقوبات والتجارة والمعارف فلا دخل للدين أصلاً، إذ الوازع فيها عرف مدني يجري عليه الناس أو قانون تسنه الدولة ويخضع له جميع العرب»[18].

٥ ـ «الحريات العامة كحرية التفكير والقول والكتابة والاجتماع» والتملك وغيرها مصونة وفي حمى القانون الذي ينظمها لما فيه مصلحة الفرد والجماعة[19].

هذه باختصار المواصفات الأساسية للدولة العربية الشاملة التي كانت الحركة تطمح إلى تحقيقها.

---

(١٦) الكتاب الأحمر، المادة ٤، ص ٤.

(١٧) المصدر ذاته، المادة ١٨، ص ١٣.

(١٨) المصدر ذاته، المادة ٤٤، ص ٤١

(١٩) المصدر ذاته، المادة ٤٥ و٤٦، ص ٤٢.

الأهداف المساعدة:

لم يفت مؤسسي الحركة العربية السرية أن هدفها الأسمى هو حلم مرغوب وأمل مطلوب، ولكن دونه عقبات صعبة وعوامل مانعة داخلية وخارجية كثيرة، وأن بقاء هذه العوامل المعوقة على حالها يجعل الوحدة العربية الشاملة المنشودة حلماً سرابياً، وأملاً متعذر التحقيق. ورأى المؤسسون أنه لا بد من الاستعانة بأهداف إضافية ذات طبيعة عملية للمساعدة على تذليل هذه المصاعب والعقبات، ولتمهيد السبيل، وخلق الأجواء الملائمة، لتحقيق الهدف الأول والأسمى.

وكانت أهم الأهداف الإضافية العملية التي استعانت بها الحركة ثلاثة تحمل العناوين التالية: التحرير، والنهضة، ونشر الدعوة العربية.

تحرير البلدان العربية من السيطرة الأجنبية[٢٠]:

كان في مقدمة العوامل المانعة التي ركزت الحركة عليها الاهتمام، تسلط الدول الغربية المستعمرة على معظم الأقطار العربية؛ هذا التسلط القائم بشكل استعمار سافر، أو انتداب، أو وصاية، أو حماية، أو تحالف غير متكافىء، أو غير ذلك من أنواع الهيمنة والنفوذ. فالحركة تعتبر أن العمل من أجل الوحدة العربية يجب أن ينصب على إنهاء هذا التسلط، وانتزاع البلدان العربية حريتها واستقلالها من مغتصبيها، إذ لا وحدة عربية ممكنة، ما دام التسلط الأجنبي سائداً. والعرب، بنظر الحركة، كما هو وارد في ميثاقها:

«يعتبرون هذا التسلط اعتداءً على كيانهم فيأخذون بشرعية القوة ويعمدون إلى مقابلة الاعتداء بمثله حيثما استطاعوا، ويبررون عملهم بأنه دفاع مشروع عن الحياة[٢١]... وإذا عجز العرب عن رد الاعتداء بالقوة فعليهم أن يقاوموه مقاومة سلبية تؤدي حتماً إلى تعطيل فعله في المستقبل قريباً كان أم بعيداً[٢٢]... ولا يملك الفرد العربي أن يتنازل لأجنبي ما ـ سواء بالرضى أو بالإرغام ـ عن كرامته أو عن

---

(٢٠) الكتاب الأحمر، المادة ١، ص ٣.

(٢١) المصدر ذاته، المادة ١١، ص ٩.

(٢٢) المصدر ذاته، المادة ١٢، ص ٩ ـ ١٠.

حريته أو عن أرضٍ من وطنه أو عن جزءٍ من هذه الثروات جميعاً. ومثله العرب كجماعات، فكل تنازل أو عقد من هذا القبيل فاسد باطل، ولا سيما إن كان قهرياً استلزمته الضرورة الآنية الموقوتة»[٢٣].

ولكن تحرير الأقطار العربية من السيطرة الأجنبية، على أهميته الكبيرة، لن يكون كافياً وحده لتحقيق الوحدة العربية إن لم يصاحبه ويتبعه تحرير المجتمع العربي من الآفات والعلل الكثيرة التي تنهك قواه وتفكك أوصاله.

تحرير المجتمع العربي:

إن المجتمع العربي، كما رأته الحركة العربية السرية حين تأسيسها في أواسط الثلاثينات من القرن العشرين، كان مجتمعاً مريضاً متخلفاً غير قادر على تحقيق الوحدة العربية وغير مؤهل لها. وقد اقتنعت الحركة بأن تحرير المجتمع العربي الراهن من العلل والآفات المستحوذة عليه لا يقل أهمية وضرورة وإلحاحاً عن تحرره السياسي من السيطرة الأجنبية. لذلك جعلت أحد أهدافها الإضافية المساعدة، القيام بمجهود فعلي لمكافحة هذه العلل، وإصلاح حال المجتمع، بإجراءات معينة حددتها في ميثاقها، ونذكر بعضاً منها فيما يلي على سبيل المثال:

١ ــ تحرير المجتمع العربي من الجهل والفقر والمرض وسائر ضروب الوهن والتخلف[٢٤].

٢ ــ مكافحة الأمية[٢٥]، وتعميم التعليم في جميع مراحله وتحديث المناهج[٢٦]، ونشر الثقافة[٢٧]، وتشجيع البحث العلمي[٢٨]، واحترام الحرية

---

(٢٣) الكتاب الأحمر، المادة ١٤، ص ١١.

(٢٤) المصدر ذاته، المادة ١، ص ٣.

(٢٥) المصدر ذاته، المادة ٣٢، ص ٢٧.

(٢٦) المصدر ذاته، المادة ٣٠، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢٧) المصدر ذاته، المادة ٣٤، ص ٢٩.

(٢٨) المصدر ذاته، المادة ٢٥، ص ٢٢.

الأكاديمية[29]، وكفالة الرزق للعلماء والموهوبين[30].

٣ ـ احترام الحريات والحقوق وتأمين العدالة والمساواة لجميع الأفراد والجماعات[31].

٤ ـ جعل البلاد العربية سوقاً اقتصاديةً واحدة متكاملة واعتماد الأساليب الحديثة في تنمية الاقتصاد وتطويره[32].

٥ ـ تأمين الاستقلال الكامل للسلطة القضائية قولاً وفعلاً[33].

٦ ـ إزالة كل العوامل المانعة والمعوقات التي تمنع العرب من أن تتألف من مجموعتهم هيئة إجتماعية واحدة لا سبيل معها إلى بلواهم بما يعرف بالصراع الطائفي والنضال الطائفي[34].

٧ ـ تولي الحركة اهتماماً خاصاً بتطوير الإنسان العربي وتقدمه، لأنها تؤمن بأن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد، فإن صلح الأفراد، صلح المجتمع بكامله تلقائياً. وقد جاء في ميثاق الحركة بهذا الخصوص ما يلي:

«تفرض الثقافة القومية على العربي:

أولاً ـ أن يعرف حقيقة نفسه كفرد، فيعتد ـ من ناحية ـ بما عنده من خصال وفضائل، ويجاهد ـ من ناحية أخرى ـ لإصلاح ما فيه من عيوب يلاحظ شيوعها بين أفراد العرب: كطبائع الفردية المانعة للتعاون، والاتكالية، وضعف الثقة بالنفس، والإحجام عن تحمل التبعات، والإفراط في الاشتغال بالمسائل الروحية.

ثانياً ـ أن يعرف حقيقة قومه كمجموع، فيعتز بتاريخهم، وأمجادهم وسجاياهم، ويثبت في نفسه روح الاستقواء بهم، ويُنمي في خياله أنهم أمة

---

(٢٩) الكتاب الأحمر، المادة ٢٥، ص ٢٢.

(٣٠) المصدر ذاته، المادة ٣٨، ص ٣٣.

(٣١) المصدر ذاته، المادة ٤٣ و٤٥، ص ٤٠ ـ ٤٢.

(٣٢) المصدر ذاته، المادة، ٥٦، ص ٤٨.

(٣٣) المصدر ذاته، المادة ٤٨، ص ٤٤.

(٣٤) المصدر ذاته، المادة ٤٣، ص ٤٠.

المستقبل كما كانوا أمة الماضي»[٣٥].

٨ ــ الاهتمام بالخدمات الأساسية، والأمور الحياتية الأخرى، التي تهم المواطنين وتوفر لهم الرفاه والاستقرار في المجتمع العربي، مثل التعليم، والأمن، والصحة، والماء، والكهرباء، والعمل، والرياضة، والإسعاف العام، ومكافحة الفساد والإجرام[٣٦].

كان هذا بعض ما جاء تفصيله في ميثاق الحركة من أفكار وخواطر تهدف إلى تطوير المجتمع العربي والنهوض به من كبوته، وجعله مهيأً لقبول فكرة الوحدة العربية الشاملة وراغباً في تحقيقها عن قناعة ورضى. فكيف السبيل إلى توفير هذين الشرطين المهمين اللذين بدونهما لن تقوم الوحدة على أسس سليمة ثابتة؟ لقد جعلت الحركة هدفها المساعد الثالث التالي يجيب عن هذا السؤال.

نشر الفكرة القومية العربية:

كان من أهداف الحركة العربية السرية أيضاً توضيح الفكرة القومية العربية وشرحها بأسلوب منطقي عقلاني، وإبراز فوائدها وحسناتها، والعمل المنظم الدؤوب على نشرها وتعميمها في جميع الأوساط وبمختلف الوسائل، وحث الناس على اعتناقها والايمان بها واتخاذها نبراساً لحياتهم وسلوكهم، ودستوراً لعملهم السياسي في أي موقع كانوا. وقد أدرجت الحركة هذا الهدف في أولويات العمل القومي، لإدراكها الموضوعي العميق، أن اقتناع الشعب وإيمانه الراسخ بالفكرة العربية، هما من أهم العوامل والشروط، التي تضمن النجاح لقيام الوحدة القومية العربية الراسخة النابعة من الاقتناع الصادق، والارتياح النفسي، والمستندة إلى الاختيار الحرّ والإرادة الحقيقية للشعوب العربية في سائر الأقطار، وكذلك لاقتناع الحركة على حد قول كاظم الصلح، بأن الوحدة العربية الناجمة عن الاستعجال

(٣٥) الكتاب الأحمر، المادة ٢٣، ص ٢٠.
(٣٦) المصدر ذاته، المادة ٤٩ ـ ٥٥، ص ٤٥ ـ ٤٨.

وعدم التمهيد الكافي لتأمين الشروط الضرورية لقيامها **لن تكون وحدة صحيحة**، وإن وحدة تبنى على هذا الأساس الواهي من الخفة والاستعجال وعدم اقتناع أصحاب الشأن بها هي وحدة مصطنعة مفروضة لن تثبت ولن تدوم[٣٧].

وبالاختصار، لقد آمنت الحركة بأن هذه الأهداف المساعدة الثلاثة يجب أن تُوجِّه العمل القومي الجاد الهادف إلى تحقيق الوحدة العربية الشاملة الصحيحة، وبأنّ هذا العمل يجب أن ينطلق في آن واحد في جميع الميادين والمجالات السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية وغيرها وفق خطط علمية وعملية تؤول بالنتيجة، على المديين القريب والبعيد، إلى إصلاح المجتمع العربي وأنظمة الحكم وإزالة جميع الشوائب والعوائق التي تعرقل المسيرة في طريق الوحدة العربية المنشودة.

٤ ـ تنظيم الحركة

من المرجح أن القانون الداخلي للحركة العربية السرية الذي يحوي كافة التفاصيل عن تكوينها التنظيمي قد فقد مع ما قد فقد من أوراقها المهمة الأخرى[٣٨]، وأن ما يجري عرضه بهذا الصدد الآن يستند، بالدرجة الأولى، إلى أوراق كاظم الصلح الخاصة عن الحركة، وإلى ما عرفته وما سمعته من أعضاء الحركة الأحياء الذين كانوا بحكم مواقعهم القيادية في الحركة مطلعين على هذا التنظيم مثل قسطنطين زريق، وواصف كمال، وجبران شامية وسواهم، وإلى بعض ما ورد عرضاً عن الحركة في مذكرات حركيين قدامى مثل واصف كمال، ومنير الريس، وزهير عسيران. ويظهر من

---

(٣٧) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٣٦، ص ٨٤ ـ ٨٥، (بيروت، دار الجامعة، ١٩٨٢). يشار إليه بعد الآن هكذا: حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة.

(٣٨) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة والوكلاء، وقد ورد فيها عبارة «نظام الأوامر والتقارير» ص ٣، وعبارة «النظام المالي»، ص ٤. أيضاً: منير الريس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٥ ورد فيها عبارة «النظام الداخلي» للحركة. وهذا يثبت وجود نظام داخلي للحركة

المعلومات المستقاة من هذه المصادر أنه كان للحركة قيادة عليا مركزية مقرها الدائم في بيروت، وقيادات قطرية تابعة لها.

مجلس القيادة العام:

تألفت الادارة المركزية للحركة العربية السرية من مجلسين: مجلس القيادة العام، ومجلس الأركان. كان مجلس القيادة العام يتألف من عدد غير محدد من الاعضاء الدائمين «الأركان» من مختلف الأقطار التي كانت الحركة موجودة فيها. فعندما تأسست الحركة سنة ١٩٣٥ تشكل هذا المجلس من الأعضاء المؤسسين مثل قسطنطين زريق، وكاظم وتقي الدين الصلح، وفؤاد مفرج، ورامز شوقي، وعادل عسيران، وأنيس الصغير، ومحمد علي حمادة. ولما تأسس فرع الحركة في فلسطين سنة ١٩٣٧ انضم إلى هذا المجلس واصف كمال، وفريد السعد، وخلوصي الخيري، والأخوان عز الدين ورشاد الشوا[٣٩]. والتحق به من العراق سنة ١٩٤٠ يونس السبعاوي وصديق شنشل وفائق السامرائي. ومثل سوريا فيه جبران شامية. وكان هذا المجلس يعقد اجتماعات دورية[٤٠]، سنوية، وكلما دعت الحاجة إلى ذلك، ليستمع إلى تقرير رئيس مجلس الأركان رئيس الحركة عن حال الحركة وسير العمل فيها خلال ذلك العام، وليبدي ما عنده من ملاحظات واقتراحات ويجدد الثقة بمجلس الاركان، والولاء المطلق لرئيسه رئيس الحركة، شأنه في ذلك شأن الهيئات العامة لمجالس القيادة العليا بالانظمة الكلية في كل مكان.

مجلس القيادة الأعلى:

لما كان مجلس القيادة العام يلتئم مرة واحدة في السنة فقد شكل من أعضائه مجلس قيادة مصغر ليقود الحركة فعلاً، ويتابع شؤونها ويعالج قضاياها يوماً بيوم، وكان يعرف باسم «مجلس الأركان»، وأيضاً باسم

---

(٣٩) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٧٩.
(٤٠) المصدر ذاته، ص ٨٠.

مجلس القيادة الأعلى، ويتألف من رئيسه، وأمين الحركة العام، وعدد من الأعضاء ممن هم برتبة «ركن».

الرئيس: إنه رئيس «مجلس الأركان»، ورئيس الحركة العربية السرية وزعيمها ومرجعها وممثلها. يملك جميع الصلاحيات التشريعية والتنفيذية والقضائية المتعلقة بالحركة، يقرر سياسة الحركة ويوجهها، يتخذ القرارات الهامة ويشرف على تنفيذها، يدعو مجلس الأركان إلى الانعقاد ويرأس جلساته، يجري التعيينات والاعفاءات والإقالات حيث يجب في كادرات الحركة، يشرف على أعمال أعوانه «الأركان» ويحاسبهم، يصدر الأوامر والتوجيهات والتعليمات الحزبية إلى رؤساء الأقسام والفروع ويراقب نشاطاتها، ويسهر على حسن سير التعاون والتنسيق فيما بين الإدارة المركزية في بيروت والإدارات القطرية، ويحافظ على سرية الحركة ويعاقب المتهاونين بشأنها.

لم تكن مدة الرئاسة محددة بفترة زمنية معينة. فكان الرئيس، يستمر في منصبه ما دام قادراً على ذلك، وراغباً فيه، وما دام بقاؤه يخدم مصلحة الحركة. لقد انتخب قسطنطين زريق رئيساً للحركة حين تأسست في سنة ١٩٣٥، واستمر يمارس صلاحياته الرئاسية الحزبية حتى آخر شهر آب ١٩٣٩، حين تقرر نقل مركز قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد[٤١]. وتولى تصريف أعمال الحركة بالوكالة بعده كاظم الصلح، من آب ١٩٣٩ حتى آذار ١٩٤٠، حين انتخب درويش المقدادي الفلسطيني رئيساً أصيلاً في بغداد[٤٢]. ولكنه تنحى عن الرئاسة بعد بضعة أشهر وخلفه فيها المحامي العراقي يونس السبعاوي في تشرين الثاني سنة ١٩٤٠[٤٣]، واستمر في الرئاسة حتى تفككت الحركة في العراق بعد ذلك بقليل، ونفذ فيه الحكم بالإعدام.

أمين الحركة العام: كان أمين الحركة العام يساعد الرئيس في إدارة

---

(٤١) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.

(٤٢) المصدر ذاته، ص ٢.

(٤٣) المصدر ذاته، ص ٦.

شؤون الحركة، فيدون محاضر الجلسات، ويحرر الرسائل المطلوبة، ويحافظ على سجلات الحركة ووثائقها وأوراقها، وينفذ الأعمال التي يكلف بتنفيذها، إلى غير ذلك من الأمور الروتينية الأخرى التي هي عادة من اختصاص الأمناء العامين في الأحزاب والمنظمات[٤٤]. وقد عين كاظم الصلح أميناً عاماً للحركة عند تأسيسها واحتفظ بهذا المنصب طوال مدة وجود الحركة.

مجلس الأركان:

أنشيء «مجلس الأركان»[٤٥] لمساعدة الرئيس أيضاً في إدارة شؤون الحركة العامة المختلفة. وهذا المجلس شبيه، إلى حد ما، بمجلس الوزراء في أنظمة الحكم الديمقراطي، حيث تقسم المهمات، وتحدد المسؤوليات، وتوزع الواجبات على الوزراء، تسهيلاً للعمل ورغبة في الدقة والإتقان. وأسند إلى كل عضو من أعضاء هذا المجلس الاهتمام بناحية معينة من النواحي التي كانت الحركة توليها اهتمامها. وتوزعت الأدوار وأصبح للحركة، مثلاً، «ركن للمالية» و«ركن للدعاية» و«ركن للفتوة»، و«ركن للخارجية» و«ركن للداخلية»[٤٦]. وقد تولي حقيبة الداخلية واصف كمال منذ التحاقه بالحركة في سنة ١٩٣٧[٤٧]. وكان على كل «ركن» أن يضع منهاج عمل يفصل فيه ما ينوي القيام به من نشاطات وأعمال خلال فترة محددة من الزمن. وكانت المناهج التي يعدها الأركان تعرض على مجلسهم مجتمعاً للنظر فيها ومناقشتها وإقرارها أو تعديلها إذا تمّ التوافق على ذلك[٤٨]. وكان هذا المجلس مسؤولاً أمام رئيس الحركة، ويعمل بإشرافه وتوجيهه، ويرفع إليه مناهج العمل التي يقرها لنيل موافقته عليها حتى تصبح

---

(٤٤) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ١ و٢.

(٤٥) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ٣.

(٤٦) المصدر ذاته، ص ٢.

(٤٧) المصدر ذاته، ص ٢.

(٤٨) المصدر ذاته، ص ٢ و٣.

قانونية وصالحة للتنفيذ. وفي مطلع الأربعينات في بغداد أطلق على هذا المجلس اسم جديد هو «مجلس الوكلاء»، كما استبدل اسم «الركن» باسم «الوكيل»[٤٩].

الإدارة القطرية: العمالات:

نظمت الحركة العربية السرية إدارتها القطرية على أساس الواقع الجيوبوليتيكي. فجعلت كل قطر أو منطقة كبيرة فيها للحركة وجود وحدة إدارية تتمتع باستقلال ذاتي نسبي، ويتولى الحركيون المحليون فيها إدارة شؤونهم الداخلية بأنفسهم. وكانت هذه الوحدة تدعى «عمالة»[٥٠]. وفي سنة ١٩٤٠ كان للحركة سبع عمالات، على ما تذكر وثائق الحركة التي بين يدينا، وهي التالية:

عمالة	لبنان	العامل	قسطنطين زريق
عمالة	سوريا	العامل	منير الريس وجبران شامية فيما بعد
عمالة	فلسطين	العامل	فريد السعد
عمالة	العراق	العامل	صديق شنشل
عمالة	الكويت[٥١]	العامل	عبدالله الصقر
عمالة	أميركا الشمالية[٥٢]	العامل	فؤاد شطارة
عمالة	ألمانيا[٥٣]	العامل	درويش المقدادي

وكان يقوم على رأس «العمالة» حركي برتبة عالية من أبنائها تعينه القيادة العليا ويعرف باسم «عامل». فكان هناك، مثلاً، «عامل للبنان» و«عامل لسوريا» و«عامل للعراق»[٥٤] وكان «العامل» يمثل قيادة الحركة في عمالته،

---

(٤٩) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ١ و٢.
(٥٠) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ٣.
(٥١) أوراق كاظم الصلح، في مجموعة بطاقات هوية شخصية حزبية لعدد من أعضاء الحركة.
(٥٢) المصدر ذاته.
(٥٣) المصدر ذاته.
(٥٤) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ٢.

ويشكل حلقة الوصل بينها وبين القيادة العليا فينقل إليها الأوامر والتوجيهات والتعليمات الصادرة عن القيادة العليا، ويشرف على جميع الأعمال المتعلقة بعمالته. وهو مسؤول عن أعماله وأعمال عمالته أمام «ركن الداخلية» بمجلس الأركان بالدرجة الأولى، وأمام الركن المختص بموضوع معين بالدرجة الثانية. مثال ذلك أن «عامل لبنان» كان مسؤولاً أمام «ركن الداخلية» من الناحية الإدارية، وأمام «ركن المالية» فيما يتعلق بالشؤون المالية الخاصة بعمالته. وكان يعاون «العامل» في إدارة العمالة مجلس يدعى «مجلس العمالة» ويتألف من رؤساء «المعتمديات» في العمالة وسواهم من الأعضاء، من ذوي الرتب العالية.

المعتمديات:

كانت كل «عمالة» تضم عدداً من «المعتمديات».وكان توزيعها يتطابق في معظم الأحيان مع التقسيم الإداري الرسمي في كل عمالة. فكانت العاصمة والمحافظة أو اللواء في كل قطر تشكل «معتمدية». ويتأكد ذلك من مراجعة سجل يحوي أسماء الأعضاء في أوراق كاظم الصلح كذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد في هذا السجل الوقائع التالية:

في العواصم ــ

أمام اسم رامز شوقي — في معتمدية بيروت
وأمام اسم رامز شماع — في معتمدية دمشق
وأمام اسم يونس السبعاوي — في معتمدية بغداد
وأمام اسم عبد اللطيف الثنيان الغانم — في معتمدية الكويت
وأمام اسم درويش المقدادي — في معتمدية برلين

وكذلك الأمر في المحافظات والألوية، فإننا نجد:

أمام اسم نور الدين الجوهري — في معتمدية لبنان الجنوبي
وأمام اسم عبد الهادي المعصراني — في معتمدية حمص
وأمام اسم أمين طليع — في معتمدية الموصل
وأمام اسم عبد العزيز المطير — في معتمدية البصرة

كانت المعتمدية تشكل وحدة حركية مستقلة ذاتياً، يديرها رئيس

يعرف باسم «المعتمد»، تعينه القيادة العليا، وتشبه مهماته وصلاحياته في المعتمدية أعمال العامل وصلاحياته في العمالة. وكان مرجعه وحلقة الوصل بينه وبين القيادة العليا «عامل» العمالة التي تقع معتمديته ضمنها.

المديريات:

كانت كل «معتمدية» تضم بضع «مديريات». فكل مدينة كبيرة وضواحيها وملحقاتها في «المعتمدية» كانت تشكل «مديرية». وبالعودة إلى سجل أسماء وأعضاء الحركة في أوراق كاظم الصلح نقع على عدة أمثلة على ذلك منها مثلاً:

أمام اسم شوقي الدندشي في مديرية طرابلس في معتمدية لبنان الشمالي
أمام اسم زهير دروزه في مديرية رأس بيروت بمعتمدية بيروت
وأمام اسم عيسى جعب في مديرية بعقوبة بمعتمدية بغداد
وأمام اسم خالد سليمان العدساني في مديرية الكويت بمعتمدية الكويت

وكان على رأس «المديرية» «مدير» تعينه القيادة العليا، وكانت أعماله وصلاحياته في مديريته شبيهة بأعمال وصلاحيات «المعتمد» في «المعتمدية». وكان مرجعه وصلة الوصل بينه وبين القيادة «المعتمد» في المعتمدية التي تقع فيها مديريته. وكانت المديرية الواحدة تضم بضع «خلايا» سرية.

الخلايا السرية:

الخلية أدنى حلقة في تنظيم الحركة الإداري. وهي قد توجد في المدينة، أو في القرية، أو المصنع، أو الثكنة، أو في أي مكان آخر. وكل مجموعة متقاربة منها تشكل «مديرية». وعدد أعضاء الخلية لا يتعدى العشرة عادة. رئيسها تعينه القيادة العليا بناءً على توصية «المدير» في المديرية التي تقع فيها الخلية. ويتمتع رئيس الخلية بصلاحيات واسعة ضمن خليته. مرجعه وواسطة اتصاله بتشكيلات الحركة الأعلى منه درجة تجري بواسطة رئيس المديرية الذي ينقل إليه أوامر القيادة وبياناتها وتعليماتها وتوجيهاتها لكي يطبقها في خليته. وبالرغم من أن الخلية أدنى المراتب في التنظيم الحركي فإنها من أكثرها أهمية. فهي النواة الصغرى التي تتألف من

مجموعها الحركة بأكملها. وهي المكان الذي يتلقى فيه الأعضاء مبادىء الحركة ويدرسونها ويناقشونها ويتعرفون إليها بعمق وشمول، ويتدربون على العمل الحركي الميداني، والانضباط، والمحافظة على السرية المطلقة. ويروي الحركي مالك المصري تجربته في الخلية التي انتسب إليها في الجامعة الأميركية في بيروت، فيقول:

«أخبرني صلاح الدين العنبتاوي أن طبيعة التنظيم تقتضي توزيع الأعضاء على خلايا تضم كل خلية حوالي خمسة أشخاص، وأن هذه الخلايا تتلقى تعليماتها من القيادة العامة بواسطة رؤساء الخلايا، وأن كل من يفشي سراً من أسرار الخلية يعرض نفسه لعقاب صارم قد يصل حد الموت...

«وأخيراً، وبعد الاجراءات التمهيدية التي أشرت إليها آنفاً، تمّ ضمي إلى إحدى الخلايا... وتوالت اجتماعاتي مع الإخوان في الخلايا، إذ أنني تنقلت بين أكثر من خلية بناءً على توجيهات صادرة من جهات عليا، وكان من أوائل من تعرفت عليهم في هذه الخلايا، بالإضافة إلى الأخ صلاح الدين العنبتاوي، كلاً من الإخوان أحمد السبع، ورستم ماضي، وكاظم السخن، وعبدالله صلاح، وعبد المجيد أبو حجلة. وكانوا جميعهم من خريجي مدرسة النجاح في نابلس، وكذلك الإخوان ناجي بشناق، بصري علاء الدين، وأمجد غنما، وزهير دروزة. ومع أنه كان من المفروض أن تبقى العضوية في أية خلية سراً مكتوماً عن أعضاء الخلايا الآخرين، إلا أنني نتيجة لتنقلي في أكثر من خلية وبإيحاء من المصادر العليا ذاتها لغايات تطلبتها مناسبات معينة، تعرفت على عدد من الأعضاء الآخرين بصفة رسمية، كما اكتشفت عن طريق الحدس والتخمين أسماء أشخاص آخرين كانوا أو أصبحوا أعضاء في الحركة، ومن هؤلاء الإخوان برهان الدجاني، نديم دمشقية، رامز شحادة، مروان (موريس) نصر، أكرم عبد الرحيم، عبد الكريم الدندشي، زهير عجلاني، كنعان أبو خضرا، خالد مطيع، حيدر عبد الشافي، حمد الفرحان، منيف الرزاز، نظام الشرابي، عبد الهادي حمودة، إميل سليم، يوسف أبو ضبه، حسن فرعون، سامي العلمي، عصام عاشور، شفيق قمبرجي...

والآن ماذا عن نشاطات الحركة التي كنا نمارسها في ذلك الحين؟ كنا نجتمع أحياناً في خلايانا لنتدارس الكتاب الأحمر بمواده الستين، فقد كان هو

الدستور المعتمد للحركة وقرآنها الذي يجب حفظه وتفسيره... كما كنا نتبادل المعلومات عن الحركات الأخرى القائمة في الجامعة سواء منها ما في الاتجاه القومي العربي، أو تيار القومية السورية، أو الشعوبية، أو الطائفية، ونتخذ لأنفسنا مواقف منها لا سيما في مجال التكتلات المحلية كالعروة الوثقى مثلاً، فنؤيد هذا المرشح ونحارب ذاك، ونشارك في هذه المظاهرة مؤيدين إن كانت تتفق مع أهدافنا، أو نعترض مظاهرة أخرى ونعارضها إن كانت مناوئة لغاياتنا. وفي بعض الأحيان كان يطلب من واحد منا أو أكثر أن يقدم في جلسة قادمة مقالة أو نبذة موثقة تشيد بأمجاد العرب في مختلف الميادين مما يعمق اعتزازنا بأمتنا العربية... وفي بعض الجلسات كنا نتابع ما يجري في عالمنا العربي من أحداث ودور القوميين فيها... ولقد كان من الطبيعي أن يطلب منا نشر مبادئنا القومية في الأوساط الطلابية، فكنا نتغلغل في تلك الأوساط، وربما ساعدنا ذلك على ترشيح بعض من نأنس إلى صلاحهم ليكونوا أعضاء في هذه الحركة»[٥٥]...

إن الخلية، باختصار، هي مدرسة الحركة التي يجري فيها توضيح مبادىء القومية العربية، وترسيخ الإيمان بها في ضمير الأعضاء ووجدانهم، ويحصل التعرف على آمالها وأهدافها، والتصميم على المساهمة في السعي لتحقيقها. وفي الخلية أيضاً يحصل اختبار مدى إخلاص الأعضاء ومقدرتهم على الصمود والاندفاع والإبداع في تأدية رسالة الحركة قولاً وعملاً.

هذه بإيجاز هي الخطوط العريضة لتنظيم الحركة العربية السرية كما استخلصته من أوراق كاظم الصلح ومن المصادر الأخرى التي أشرت إليها آنفاً.

٥ ـ العضوية والأعضاء في الحركة العربية السرية

العضوية:

كانت الحركة العربية السرية تتأنى كثيراً في اختيار عناصرها وفق

---

(٥٥) مالك المصري، نابلسي في الجامعة الأميركية وحكاية زواج ١٩٣٨ ـ ١٩٤٣، ص ٨٧ ـ ٩٠ (عمان، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٨). يشار إليه بعد الآن هكذا: مالك المصري، نابلسي في الجامعة الأميركية.

معايير علمية وأخلاقية وقومية ونضالية عالية. وكانت تقبل في عضويتها كل من تتوفر فيهم هذه الشروط. وكانت عملية إستقطاب الأعضاء الجدد تبدأ من داخل الحركة وبمبادرة منها. فإذا ما توسم أحد قيادييها أن هذه المواصفات المطلوبة متوفرة في أحد الأشخاص ورغب في ضمه إلى الحركة، كان عليه أن يتقدم مع رفيق حركي آخر باقتراح بهذا الخصوص إلى مجلس القيادة الأعلى. فيدرس المجلس الأمر بدقة، ويتحرى عن أحوال هذا الشخص، ويستشير بشأنه مجلس القيادة القطرية التي يقيم في منطقتها، سواء أكانت «عمالة» أم «معتمدية» أم «مديرية»، وإما أن يوافق على الاقتراح أو أن يرفضه. ففي حال الرفض لا يجوز إعادة الاقتراح مجدداً للشخص ذاته قبل انقضاء ستة أشهر على قرار الرفض[٥٦]. وإذا ما قبل الاقتراح يصدر المجلس الأعلى قراراً بذلك يعتبر فيه هذا الشخص «مرشحاً» لدخول الحركة، ويكلف مقدمي الاقتراح بمفاتحته بالموضوع وفق خطة متدرجة تتألف من بضع خطوات يجري اختباره جيداً فيها للتأكد من سلامة ميوله ومن إمكاناته واستعداده للعمل والخدمة في الحقل القومي العام. وكانت المفاتحة تبدأ عادة بالحديث في الشؤون العربية القومية وضرورة مساهمة الشباب في السعي لتقدم العالم العربي وتوحيده.فإن تجاوب بقناعة وحماسة تبدأ الخطوة التالية من استدراجه بإطلاعه على وجود حزب قومي عربي سري غايته تحقيق هذا الهدف، وأن هذا الحزب يضم نخبة من الشباب المثقف، وأن له دستوراً وميثاقاً يتضمن مبادئه وأهدافه ووسائله وكل ما يتعلق بعمله. فإن أبدى استعداداً لدخوله، يعطى نسخة من الكتاب الأحمر بعد أن يكون قد أقسم اليمين بأن لا يبوح بكل ما سمع وقرأ ورأى عن هذا الحزب لأي كان، سواء أدخل الحزب أم لم يدخله. وفي حال قبول طلبه الانتساب إلى الحزب يجرى تكريسه عضواً نظامياً في الحركة في حفل حزبي محدود يحضره ممثل عن القيادة والعضوان اللذان سعيا لإدخاله. ويصف زهير عسيران هذا الحفل كما جرى حين دخوله الحزب، فيقول في مذكراته ما يلي:

(٥٦) منير الريس. الكتاب الذهبي، جـ ٢، ص ١٦٧.

«بعد أيام دعاني تقي الدين الصلح إلى اجتماع لم يكن فيه إلا ثلاثة أشخاص هم صاحب الدعوة أي تقي الدين الصلح والمحامي رامز شوقي والمحامي جميل مكاوي الذي أصبح رئيساً للنجادة فيما بعد. ورأيت على الطاولة أمامهم «الكتاب الأحمر» وإلى جانبه مسدس وقرآن كريم وكذلك الانجيل، الكتاب المقدس للمسيحيين. سألني الأستاذ تقي الدين «هل قرأت الكتاب»؟، فأجبت «أجل وأنا أوافق على جميع ما جاء فيه». ثم طلبوا مني أن أقسم فأقسمت بأن أنفذ كل ما يطلب مني وأحفظ سرية ما يدور في الاجتماعات أو المهمات التي أكلف القيام بها»[٥٧].

وكان القسم الذي أداه عسيران بالنص التالي:

«أقسم بالله وبشرفي وبأمتي العربية، وأقسم برجولتي وبمصيري وبإنسانيتي، وأقسم بذكرى أمواتي وشهدائي وبحياتي وبحياة كل عزيز حبيب إلي، الآن وقد أصبحت ركناً في الحزب

أقسم:

على أن أستمر خادماً نشيطاً مخلصاً لحزبي هذا وحده، وأن أتقيد بقراراته وأنظمته وقوانينه، وأنفذ ما يأمر وأمتنع عما ينهي

وأن أذيب ميولي وشهواتي وجهودي في سبيله، فأقاتل ما يقاتل وأخالص ما يخالص

وأن أكون صديقاً نافعاً وعوناً صدوقاً لكل عضو يوآخيني في شرف الانتماء إلى الحزب

وأن أكتم كل ما أعرف أنه سر من أسرار الحزب، وما أتلقاه كسر من أسراره فلا أبوح بشيء منه، وأجهد كل الجهد كي أحول دون اطلاع أي من الناس عليه

أفعل ذلك»[٥٨].

---

(٥٧) زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر ص ٤٠.

(٥٨) أوراق كاظم الصلح، القَسَم.

وبذات الموضوع يروي مالك المصري مراسم ضمه إلى الخلية فيقول:

«واني لأذكر المراسم التي جرى فيها الضم. فعندما التأم جمع أفراد الخلية نهض رئيسها ونهض معه الإخوان، ورفع يده مفتتحاً الجلسة بتحية القومية وهي «تحيا العروبة». ثم ناولني ورقة فيها قسم الولاء للحركة حتى الموت، فأقسمت»[٥٩].

وبعد أداء القسم وإلحاق العضو الجديد بإحدى الخلايا أو سواها من أجهزة الحركة السرية كان عليه أن يدفع الرسم السنوي المفروض على الأعضاء وقدره ١٠٪ من دخله السنوي[٦٠]. وإذا تبين للقيادة في وقت لاحق أنها أخطأت في قبول أحد الأعضاء، أو أن أحد الأعضاء لم يبرهن على أنه يستحق أن يكون عضواً في الحركة فقد كانت القيادة تعيد النظر بأمره وتقرر فصله. وقد وقعت بضع حوادث من هذا القبيل[٦١].

وبالمقابل، إذا ما أبدى أحد الأعضاء إخلاصاً صادقاً لمبادىء الحركة، ونشاطاً كبيراً في نشرها، واندفاعاً مميزاً في المساهمة البناءة في أعمالها، ومقدرة على تحمل المسؤولية، فإنه يرفع من رتبته إلى رتبة أعلى منها. كأن يرفع أحدهم من رتبة «متدرج» إلى رتبة «عون»، أو من رتبة «عون» إلى رتبة «ركن»[٦٢].

وكان يجهز لكل عضو في الحركة بطاقة هوية شخصية تتضمن معلومات محددة عن أوضاعه المختلفة، وتحفظ في قسم المحفوظات لدى الأمين العام للحركة. وفيما يلي صورة للبطاقة الشخصية النموذجية المحتوية على عناوين المعلومات المطلوبة ومرقمة من ١ ــ ٢٠:

---

(٥٩) مالك المصري، نابلسي في الجامعة الأميركية، ص ٨٨.

(٦٠) أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلسي القيادة، ص ٤.

(٦١) منير الريس، الكتاب الذهبي، جـ ٢، ص ١٠٧.

(٦٢) في أوراق كاظم الصلح، وردت أسماء هذه الرتب في مجموعة بطاقات هوية شخصية حزبية لعدد من أعضاء الحركة.

١ ــ ما اسمه الأصلي؟
٢ ــ ما اسمه الرمزي الكامل؟
٣ ــ ما رقمه؟
٤ ــ في أية حلقة بالحزب هو؟
٥ ــ ما رتبته في الحزب؟
٦ ــ في أي سنة ولد؟
٧ ــ أين ولد؟
٨ ــ متى انتمى إلى الحزب؟
٩ ــ في أي بلد يعمل ويرتزق؟
١٠ ــ ما ثروته؟
١١ ــ ما دخله السنوي؟
١٢ ــ متزوج أم عازب؟
١٣ ــ من يعول؟
١٤ ــ ما كفاءته الخلقية؟
١٥ ــ ما كفاءته البدنية؟
١٦ ــ ما كفاءته العلمية؟
١٧ ــ من يصاحب، يعاشر؟
١٨ ــ ما صلاته بهيئات منظمة؟
١٩ ــ ما إنتاجه الحزبي؟
٢٠ ــ ملاحظات عامة أو خاصة؟

وفيما يلي صورة بطاقة حقيقية لأحد الأعضاء تحوي المعلومات المطلوبة.

١ ــ رفيق حنينه
٢ ــ طارق المدني
٣ ــ

٤ ــ في مديرية صيدا في معتمدية لبنان الجنوبي في عمالة لبنان.
٥ ــ متدرج
٦ ــ في سنة ١٩١٤
٧ ــ في صيدا
٨ ــ في سنة ١٩٣٧
٩ ــ في صيدا
١٠ ــ لا يملك ثروة في الوقت الحاضر
١١ ــ ليس له دخل خاص
١٢ ــ عازب
١٣ ــ لا يعول أحداً
١٤ ــ متحمس، لين العريكة، حسن السمعة، رصين
١٥ ــ متوسط، ضعيف النظر
١٦ ــ حامل بكلوريا من الجامعة الأميركية في بيروت ومرشح للسنة الثالثة في الدائرة الطبية.
١٧ ــ زملاءه في الدراسة وبعض أقاربه وجيرانه
١٨ ــ عضو في جمعية العروة الوثقى بالجامعة سابقاً
١٩ ــ
٢٠ ــ (٦٣)

الأعضاء

يتعذر في الوقت الحاضر، وضمن المعطيات الحالية، تحديد عدد أعضاء الحركة العربية السرية، والتعرف على هوياتهم الحقيقية، ووضع جدول كامل صحيح بأسمائهم. ويرجع ذلك إلى بضعة أسباب منها:

أولاً ــ فقدان سجل الحركة الرسمي الحاوي كافة أسماء أعضائها.

(٦٣) في أوراق كاظم الصلح. في مجموعة بطاقات هوية شخصية حزبية لأعضاء الحركة.

فلربما يكون هذا السجل قد أتلف مثلما أتلفت معظم أوراق الحركة، أو ضاع كما ضاع جدول الأسماء الذي أعده محمد شقير في أواسط الثمانينات. والواقع هو أنه لا أثر لوجود مثل هذا السجل في أي مكان حتى الآن.

وثانياً ــ إن الحركة أحاطت جميع أعمالها وأخبارها وأسماء أعضائها بسياج كثيف من السرية والكتمان، بحيث أنه حتى الأعضاء أنفسهم كانوا يجهلون بعضهم بعضاً، باستثناء عدد قليل جداً من أعضاء مجلس القيادة الذين كانوا بحكم مسؤولياتهم الإدارية في قيادة الحركة يطلعون على جميع الأسماء، مثل واصف كمال ركن الداخلية في الحركة. ثم إن العضو المتدرج العادي، لم يكن متاحاً له أن يعرف من زملائه في الحركة سوى أفراد الخلية السرية التي ينتسب إليها، والتي كان عدد أفرادها لا يزيد عادة على عشرة أعضاء كحد أقصى.

وثالثاً ــ وتزداد المسألة صعوبة وتعقيداً فيما يتعلق بالتعرف إلى هويات المنتسبين إلى الحركة في الأقطار العربية النائية خارج منطقة الهلال الخصيب، وكذلك في المهاجر الأميركية والأوروبية. فالمعلومات بشأنها كانت ضئيلة جداً. ويبدو أنها لم تكن متوفرة بشكل كامل لدى قيادة الحركة كما سنشير إلى ذلك لاحقاً.

ورابعاً ــ البلبلة والتشويش وحتى التناقض أيضاً في المعلومات الناشيء عن العوامل الثلاثة السابقة بشأن مسألة التعرف إلى أسماء الأعضاء. فإن من الأعضاء من يذكر بعض الأسماء على أن أصحابها حركيون نظاميون، فيما ينفي ذلك أعضاء آخرون ويؤكدون أن أصحاب تلك الأسماء لم ينتسبوا إلى الحركة أبداً. مثال ذلك أن محمد علي حمادة ونديم دمشقية، وغيرهما يذكرون أن علال ومحمد الفاسي من المغرب، وأحمد بلفريج من الجزائر، ومحمد صلاح الدين من مصر، وأكرم زعيتر من فلسطين قد انتسبوا إلى الحركة، فيما ينفي هذه المعلومات نفياً قاطعاً حركيون قياديون مثل قسطنطين زريق رئيس الحركة، وواصف كمال ركن

الداخلية، وجبران شامية عامل الحركة في سوريا، وكثيرون آخرون. ولعل السبب في هذا التناقض والالتباس هو أن هؤلاء الذين زُعم أنهم حركيون، وهم لم يكونوا كذلك، كانوا من القوميين العرب الذين يدينون بذات المبادىء التي تدين بها الحركة، ويعملون بنشاط بالمجال القومي في أقطارهم، وكانوا على علاقة وثيقة وصداقة مع الكثيرين من قادة الحركة العربية السرية وأفرادها، فحملت هذه العلاقة بعضهم على الظن بأنهم كانوا منتسبين إلى الحركة، في حين أنهم لم يكونوا بالحركة ولا على علم بوجودها.

وقد أمكن تخطي هذه العقبات وتذليل هذه الصعوبات، وساعد على تحضير هذا البحث عن أعضاء الحركة العربية السرية بضعة عوامل كان من أهمها ما يلي:

أولاً ــ وجود ثلاثة جداول تحوي أسماء منتسبين إلى الحركة. والميزات المشتركة بين هذه الجداول هي أنها غير مكتملة، وخالية من أي إشارة إلى أسماء واضعيها وأسباب وضعها على هذه الصورة الناقصة، ولا تحمل أي تاريخ يدل على زمن وضعها. وهي موجودة في أوراق كاظم الصلح.

الجدول الأول: إنه مجموعة صور بطاقات هوية فردية حزبية، تحوي ١٠٦ بطاقات مدرجة في ثلاث وخمسين صفحة بحيث تحوي كل صفحة بطاقتين. بعض هذه البطاقات تتضمن المعلومات المطلوبة عن أوضاع أصحابها، والبعض الآخر خالٍ كلياً أو جزئياً من هذه المعلومات. ويتوزع الأعضاء أصحاب هذه البطاقات، حسبما ورد في بعضها، على الأقطار التالية: لبنان وسوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق والكويت والولايات المتحدة الأميركية والمكسيك وألمانيا وبريطانيا.

الجدول الثاني: يحوي ٩٥ إسماً مدرجة في صفحتين. وهذه الأسماء مكتوبة بخط اليد ومجردة، أي غير مرفقة بأي معلومات أو شروح، بعضها جديد يذكر لأول مرة، والبعض الأخر مكرر، وقد ورد في الجدول الأول.

الجدول الثالث: هذا الجدول مكتوب على ورقة من أوراق الدائرة المالية بالحركة، ويحوي ٦٥ إسماً مجرداً من المعلومات. بعض الأسماء الواردة فيه جديدة، والبعض الآخر مكرر ومنقول عن الجدولين الأولين أو عن أحدهما.

إن هذه الجداول الثلاثة تساعد كثيراً في عملية تحديد عدد أعضاء الحركة العربية السرية والتعرف إلى هوياتهم، ولكنها، بالتأكيد، لا تشتمل على كافة أسماء أفراد هذه الحركة.

ثانياً ــ واصف كمال: والمصدر الثاني للتعرف إلى أسماء أعضاء الحركة هو واصف كمال، الذي تحدثت إليه كثيراً ومراراً خلال السنوات الأخيرة في بيروت في هذا الموضوع. فواصف كمال كان أكثر الحركيين اطلاعاً على أسماء الأعضاء لكونه شغل منصب «ركن الداخلية» في الحركة في معظم فترة وجودها، ولأن ظروفه الخاصة اضطرته إلى مغادرة فلسطين واللجوء إلى سوريا والعراق ولبنان حيث التقى وتعامل مباشرة مع كثيرين من الحركيين في هذه الأقطار. فلهذا يُعتبر واصف كمال مصدراً أولياً مهماً من مصادر تأريخ الحرركة العربية السرية، ومرجعاً موثوقاً فيما يختص بأسماء أعضائها.

ثالثاً ــ مذكرات شخصية دونها حركيون قدامى ونشرت تباعاً خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وأهمها مذكرات كل من.

ــ منير الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، ثلاثة أجزاء ١٩٦٩ ــ ١٩٧٧.

ــ حليم أبو عز الدين، تلك الأيام، مذكرات وذكريات: سيرة إنسان ومسيرة دولة ومسار أمة، ١٩٨٢.

ــ نديم دمشقية، محطات في حياتي ــ ذكريات في السياسة والعلاقات الدولية، ١٩٩٥.

ــ زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب، ١٩٩٨.

ـ مالك المصري، نابلسي في الجامعة الأميركية، ١٩٩٨.
ـ يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية، ٢٠٠١.
ـ واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية ٢٠٠١.

وقد تضمنت هذه المذكرات عدداً لا بأس به من أسماء الحركيين الذين تعاملوا أو كانوا على علاقة مع الرفاق الحزبيين أصحاب هذه المذكرات.

رابعاً ـ أطروحة رغيد الصلح: إن رغيد الصلح، في أطروحته لنيل درجة الدكتورا في التاريخ، والمحررة باللغة الانكليزية بعنوان ترجمته العربية تقول «لبنان والقومية العربية» قد ذكر الحركة العربية السرية في عدة مواضع في الأطروحة، وشرح دورها في هذا المجال بالاستناد إلى أوراق والده كاظم الصلح ومصادر أخرى، وأورد أسماء بعض أعضاء الحركة الذين ساهموا في الحياة السياسية بمنطقة الشرق الأدنى في الفترة الممتدة ما بين ١٩٣٥ و١٩٤٥.

خامساً ـ مصادر أخرى: بالإضافة إلى المصادر المذكورة أعلاه اعتمدت في إعداد هذا البحث على معلوماتي الخاصة المستقاة من خبرتي الشخصية ومشاركتي الفعلية بالحركة، ومن معلومات كان قد سبق وأدلى بها في مناسبات مختلفة بعض من رحل من الرفاق مثل محمد علي حمادة، وتقي الدين الصلح، ومحمد شقير، ورفيق حنينه، وكذلك من معلومات وتذكارات أدلى لي بها حركيون قدامى أحياء مثل قسطنطين زريق وجبران شامية ويوسف شديد وسواهم.

إني بالاستعانة بهذه المصادر كافة توصلت إلى وضع أول وأوفى جدول مفصل بأسماء أعضاء الحركة العربية السرية المتوفرة حتى الآن، وهو يحوي حوالي ٣٥٠ اسماً[٦٤]. ومع اعتقادي بأن هذا الجدول هو الأقرب إلى الصواب، فإني لست أجزم بأنه الأكمل والأمثل على كل حال. فلربما هناك أسماء لا تزال مكتومة ومجهولة.ثم هناك أسماء الحركيين في المهاجر،

---

(٦٤) الملحق رقم ٣، ص ٤٣٣.

وخصوصاً في الولايات المتحدة الأميركية وكندا الذين كان موفد الحركة فؤاد خليل مفرج قد تعرف إليهم ونظم صفوفهم ورتب أمورهم أثناء زيارته لذينك البلدين في سنة ١٩٣٩، ووعد بأن ينقل أخبارهم ومعلوماته المفصلة عنهم إلى قيادة الحركة حين عودته القريبة إلى بيروت، ولكنه قتل بحادث سير هناك قبل عودته إلى لبنان بوقت قصير وضاع بموته ما كان يختزن في جعبته من المعلومات. وفي الوقت ذاته نشبت الحرب العالمية الثانية، وانتقلت قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد وانقطعت الاتصالات بينها وبين أميركا.

٦ ـ السرية في الحركة

كانت الحركة العربية السرية سرية بكل معنى الكلمة. فقد اعتمدت منذ تأسيسها مبدأ السرية المطلقة، والتزمت بها التزاماً كاملاً في جميع أعمالها وبسائر الظروف التي مرت بها، لأن الأوضاع السياسية في الأقطار العربية والسلطات الأجنبية المسيطرة في تلك البلدان، آنذاك، لم تكن لتأذن بقيام مثل الحركة العربية السرية، أو تقبل بما كانت تنشره من أفكار تحررية استقلالية، وتدعو إلى تحقيقه من أهداف قومية وحدوية تقدمية. لذلك لم يرَ مؤسسو الحركة بداً من اللجوء إلى الأسلوب السري، الذي يمكنهم من العمل بهدوء وراحة بال، ويقيهم من ملاحقة السلطات الأمنية لهم، وتعرضهم للعقوبات بحجة مخالفة الأنظمة والقوانين وتهديد الأمن والاستقرار في البلاد. واستدعى اعتماد السرية أن تتخذ الحركة بضعة إجراءات تنظيمية للمحافظة على سريتها بشكل كامل. وكان من أبرزها الإجراءات التالية:

أولاً ــ أكدت الحركة على أهمية السرية، بجعلها شرطاً من الشروط التي تضمنها القَسَم. فقد كان على المرشح لدخول الحركة أن يؤدي القسم الرسمي للحركة المتضمن فقرة تتعلق بموضوع السرية، وهي بالنص التالي:

«أقسم... وأن أكتم كل ما أعرف أنه سر من أسرار الحزب، وما أتلقاه كسر من أسراره، فلا أبوح بشيء منه، وأجهد كل الجهد

كي أحول دون اطلاع أي من الناس عليه»[٦٥].

ثانياً ــ كان يطلب من الحركي عند قبوله عضواً في الحزب أن يتخذ لنفسه اسماً رمزياً مستعاراً حركياً. فقد كان لكل فرد من عناصر الحركة اسم مستعار يخفي هويته الحقيقية ويستخدم في المخابرات والاتصالات والرسائل والسجلات الحركية الرسمية إمعاناً في التخفي والسرية والتمويه، حتى إذا ما وقعت بعض أوراق الحركة خطأً بأيدي الغير فإن هذا الغير، لن يتمكن من معرفة الأشخاص الحقيقيين المقصودين لأن الأسماء المذكورة في الوثيقة هي أسماء وهمية لا وجود فعلي لأشخاص حقيقيين يحملون تلك الأسماء. مثال ذلك هذه الأسماء المستعارة التي كانت تطلق على بعض أعضاء الحركة للتمويه:

ــ ممدوح السخن ــ وليد

ــ خلوصي الخيري ــ مسعود

ــ منير الريس ــ أسامة[٦٦]

ثالثاً ــ وزيادة في الاحتراس والتمويه كان قادة الحركة في الرسائل المتبادلة فيما بينهم يستعملون الرموز بشكل شبيه، إلى حد ما، بأسلوب «الشيفرة». فالأشياء المذكورة في رسالة ما لم تكن دائماً وبالضرورة تعني الأشياء الحقيقية المقصودة، والتي يراد قولها وفعلها، وإنما كانت رموزاً وإشارات إلى مضامين مختلفة متفق عليها مسبقاً، ولا يستطيع فهم المقصود منها على حقيقته غير الذين كانوا يتبادلون تلك الرسائل والمخابرات. مثال ذلك رسالة فؤاد مفرج من بيروت إلى واصف كمال في نابلس[٦٧]، ورسالة فؤاد مفرج من أميركا إلى كاظم الصلح في لبنان[٦٨].

---

(٦٥) أوراق كاظم الصلح، القسم

(٦٦) الملحق رقم ٤. ص ٤٤٨ : وفيه جدول بالاسماء الرمزية المستعارة التي عثرت عليها في أوراق كاظم الصلح والتي اطلعت عليها من أصحابها.

(٦٧) الملحق رقم ٢. ص ٤٣٢ .

(٦٨) الملحق رقم ٥. ص ٤٥٠ .

رابعاً ــ وكان من أشد الاجراءات التي فرضتها الحركة على أعضائها في مجال السرية أن لا يعرف بعضهم بعضاً، إلا بالحد الأدنى الضروري المسموح به. وشمل هذا الحد الادنى من الاستثناء المسموح به اعضاء الخلية السرية الواحدة وعددا قليلاً من قادة الحركة الكبار، الذين كانوا بحكم مناصبهم ومسؤولياتهم، يطلعون على أسماء كافة الأعضاء، مثل رئيس الحركة قسطنطين زريق، والأمين العام كاظم الصلح، وركن الداخلية واصف كمال، وركن المالية المسؤول عن الشؤون المالية والمكلف بجباية الرسوم السنوية من الأعضاء. كما أن رؤساء المجالس في العمالات والمعتمديات والمديريات والخلايا العاملين كحلقات اتصال بين بعضهم بعضا وبين القيادة العليا كانوا بحكم طبيعة عملهم يطلعون على العدد المحدود من اسماء الاعضاء الذين يتعاملون معهم.

أما الأكثرية الساحقة من أعضاء الحركة فقد التزموا بالمحافظة على سرية الحركة التزاماً كاملاً، ولم يبوحوا بأي شيء عنها حتى لإخوانهم وأصدقائهم وأقرب الناس إليهم. وكان من أطرف ما حصل في هذا المجال ما رواه نقيب الصحافة الأسبق وعضو الحركة العربية السرية زهير عسيران من أنه في أحد الأيام، بُعيد نشوب الحرب العالمية الثانية، دهمت منزلهم في صيدا قوة من الأمن العام الفرنسي لتفتيشه. وكان زهير قد احتاط للأمر مسبقاً وأفرغ غرفته من كل ما له علاقة بالحركة وبأي نشاط سياسي وطني آخر. فتشت القوة غرفته ولم تعثر فيها على أي شيء يلام عليه. وانتقلت القوة إلى تفتيش غرفة أخيه حسن المجاورة لغرفته، وكان زهير مطمئناً لأن أخاه كان قد غادر لبنان منذ حوالي ثلاث سنوات للدراسة في إسبانيا، ولأنه يعرف أن أخاه لم يكن يتعاطى السياسة أو منتمياً إلى أي حزب أو تنظيم. وقال زهير في نفسه، ليفتشوا ما شاؤوا، فإنهم لن يظفروا بأي غنيمة مما يريدون. ولما فتح رجال الأمن العام أحد الجوارير في غرفة حسن أطلّ عليهم الكتاب الأحمر من داخله. فذهل زهير لهذه المفاجأة المزدوجة غير المتوقعة: المفاجأة الأولى ظهور الكتاب الأحمر في الدرج، والمفاجأة الثانية والأشد وقعاً عليه، كانت اكتشافه أنه وأخاه كانا منتسبين إلى الحركة العربية السرية طوال هذا الوقت

من دون أن يبوح أي منهما لأخيه بذلك. وكان أن قبض على زهير واحتجز في معتقل المية ومية القريب من صيدا. ولكنه صمد ولم يفش سر الحركة[٦٩].

خامساً ــ وكان من أفعل تلك الإجراءات الاحترازية سياسة «نقط الاعتماد» التي اتخذتها الحركة وسيلة لتنفيذ مخططاتها ومشاريعها مع الاحتفاظ في الوقت ذاته بسريتها المطلقة.

٧ ـ نقط الاعتماد

«نقط الاعتماد» تعبير خاص، أطلقته الحركة العربية السرية على الجهات من الأعوان التي كانت الحركة تعمل بواسطتها وعبرها، مستخدمة إياها ستاراً مانعاً وواجهة علنية تحجبها عن عيون المراقبين وحشرية الفضوليين. فإن تشدد الحركة في المحافظة على سريتها المطلقة، جعلتها تقرر أن تبقى في الظل خارج دائرة الضوء، بعيدة عن ضجيج الإعلام والإعلان، وأن تمتنع عن العمل المباشر، والقيام بأي نشاط علني من شأنه أن يكشف أمرها، ويفضح سرها. لذلك لجأت الحركة إلى العمل بواسط «الجهات» والهيئات الأخرى مثل الأحزاب السياسية، والمحافل الأدبية، والنوادي الرياضية، والجمعيات والمؤسسات الاجتماعية، والحركات الطلابية، والفرق الكشفية، والتنظيمات شبه العسكرية، وغيرها[٧٠]. وقد اعتبرت الحركة هذه الهيئات التي اعتمدتها وتعاملت معها واستخدمتها «نقط اعتماد» لها فدعتها بهذا الاسم.

وكانت نقط الاعتماد هذه على نوعين: أولاً، نقط الاعتماد التي أقامتها الحركة ذاتها وجعلتها تعمل تحت أسماء خاصة كهيئات مستقلة لتغطية وجود الحركة الأم، وعلاقتها بها. فكان من هذا القبيل، مثلاً «حزب

(٦٩) زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر، ص ٤٠ . كان زهير عسيران قد روى هذه الحادثة بتفصيل للمؤلف في لقاء ضمهما بدار الندوة برأس بيروت في أحد الأيام بأواخر العام ١٩٩٧ ، قبل أن يسجلها في مذكراته.

(٧٠) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism p.131.

الشباب الوطني» الذي أسسه الثلاثي الحركي شوقي الدندشي، وقبولي الذوق وحسني عطية في طرابلس، و«حزب الاستقلال العراقي»، الذي أسسه الثنائي الحركي صديق شنشل وفائق السامرائي في بغداد. ثانياً، هيئات وتنظيمات تابعة لجماعات من الوطنيين غير الحركيين، كانت قائمة ومزدهرة في الساحة العربية في حينه، وكانت مبادئها وأهدافها القومية العربية، قريبة من مبادىء الحركة العربية السرية وميول أهلها كذلك. فرأت الحركة أنه من المفيد جداً أن تتبنى هذه الهيئات والتنظيمات، وتحتويها، وتتخذها «نقط اعتماد» لها، فتتعامل معها، وتوجه مساراتها، وتساهم بنشاطاتها، وتستغل أسماءها وأجهزتها لدعم الحركة، وخدمة مبادئها وأغراضها القومية، من دون أن يؤدي ذلك إلى الكشف عن هوية الحركة ووجودها إلى الأعضاء الأصليين في تلك الهيئات والتنظيمات المحتواة. وكان يتحقق ذلك عن طريق سياسة عامة اتبعتها الحركة، وكانت تقضي بأن ينضم عدد من عناصرها إلى العضوية في مجالس نقط الاعتماد الجديدة، للسعي إلى توجيه سياستها وتصويب مساراتها وتوجهاتها وفق أهداف الحركة وغاياتها[٧١]. ولم يكن الأعضاء غير الحركيين في نقط الاعتماد يعلمون بوجود الحركة، أو يدركون أن هيئتهم قد اخترقتها الحركة وأخذت توجهها وتستخدمها فيما يتلائم مع مبادئها وأهدافها. ولم يكن يهم الحركة أن تتبجح بأعمالها وتتفاخر بمنجزاتها كما تفعل الأحزاب الأخرى، بل كانت قانعة راضية بأن تُنسب إنجازاتها إلى الهيئات المختلفة في نقط الاعتماد، طالما أن ذلك كان يصب في المصلحة القومية ويهدف إلى تحقيق أهداف الحركة الكبرى. والأمثلة على عملية الاختراق كثيرة، ونورد فيما يلي نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر.

ـ خرقت الحركة جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأميركية في بيروت، وسيطرت عليها، وعلى هيئة تحرير مجلتها التي تحمل اسمها، بحيث أصبح سائر أعضاء هذه الهيئة، باستثناء عضو واحد فقط، من أعضاء الحركة العربية

(٧١) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٨١.

السرية[٧٢]. وكان الاستاذ قسطنطين زريق. رئيس الحركة مستشار العروة ومرشدها.

ـ خرق الحركيون هيئة النادي العربي في دمشق، وسيطروا عليها وانتخبوا أحدهم الدكتور سعيد فتاح الإمام رئيساً للنادي[٧٣].

ـ وخرق الحركيون العراقيون هيئة «نادي المثنى» في بغداد، وسيطروا عليه[٧٤]. وأصبحت هذه النوادي الأدبية الثلاثة، أو نقط الاعتماد الثلاث في بيروت ودمشق وبغداد من أنشط مراكز العمل القومي الذي تتعهده وتوجهه الحركة العربية السري من وراء الستار.

وبإيعاز من قيادة الحركة وتشجيعها خرق عدد من أعضاء الحركة بعض الأحزاب الأخرى بالدخول في عضويتها للأسباب ذاتها التي سبق ذكرها. مثال ذلك:

ـ إن فؤاد خليل مفرج انضم إلى الحزب السوري القومي وارتقى إلى رتبة عالية فيه[٧٥].

ـ التحق نديم دمشقية بعصبة العمل القومي وشغل منصب رئاسة لجنة الطلبة[٧٦].

---

(٧٢) يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية ـ ذكريات ومذكرات، ص ٣٦. (بيروت، دار النهار للنشر، ٢٠٠١) يشار إليه بعد الآن هكذا: يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية.

(٧٣) منير الريس، الكتاب الذهبي، جـ ٢، ص ٢٦٤ أيضاً. Raghid solh, Lebanon and Arab Nationalism, p132.

(٧٤) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ١ . أيضاً، منير الريس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
also, Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p132.

(٧٥) منير الريس، الكتاب الذهبي، جـ ٢، ص ١٧٨.

(٧٦) صرح لي أنه التحق بعصبة العمل القومي بناء على طلب من قيادة الحركة. صرح لي بذلك أمام بعض الرفاق في لقاء ضمنا بدار رفعت النمر ببيروت، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٤ .

ـ انخرط منير الريس بحزب «الشباب الوطني» في دمشق وشغل أمانة السر فيه[٧٧]

ـ انتسب عثمان الحوراني إلى حزب الشباب الوطني وتولى رئاسة فرعه في حماه[٧٨]

ـ ووجه واصف كمال وممدوح السخن «نادي الاتحاد الرياضي» في نابلس بفلسطين[٧٩].

وكذلك اهتمت الحركة بالسيطرة على الحركات الكشفية، وبأن يتولى رئاستها وتوجيهها وقيادتها واستخدامها لأغراض قومية حركيون مهتمون وخبيرون بهذه الناحية من العمل القومي. مثال ذلك:

ـ إن جميل مكاوي وحسين سجعان وعبدالله دبوس وأنيس الصغير كانوا على رأس منظمة الكشاف المسلم في لبنان[٨٠].

ـ وإن علي الدندشي تولى قيادة، الحركة الكشفية في سوريا[٨١]

وإن مَتّى عقراوي ودرويش المقدادي توليا رئاسة منظمة «الجوالة» في العراق[٨٢].

وإن ممدوح السخن قاد الحركة الكشفية بمنطقة نابلس بفلسطين[٨٣].

إن مبدأ اختراق الأحزاب الأخرى لم تبتدعه الحركة العربية السرية، ولم تكن الوحيدة أو الأولى التي اعتمدت هذا الأسلوب. ولكنها كانت أحد الأحزاب القليلة التي مارسته على هذا النطاق الكلي والواسع وبالشكل المنظم المدروس

---

(٧٧) منير الريس الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٦٤، أيضاً Raghid solh, Lebanon and Arab Nationalism, p. 132.

(٧٨) منير الريس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٤

(٧٩) واصف كمال مذكرات، الحديث الثاني، ص ٩ ـ ١٠ (مخطوط).

(٨٠) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p. 128.

(٨١) علي الدندشي، باعث النهضة الكشفية العربية، اعداد هالة سليمان الأسعد، ص ٣٧ بيروت، جمعية قدامى الكشاف المسلم في لبنان، ١٩٩٦).

(٨٢) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p132.

(٨٣) رفعت النمر، تذكارات، ص ١.

الذي ذكرنا، وجعلته سياسة شبه رسمية في عملها. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الحركة كانت حزباً سرياً لا يملك آلية للتنفيذ المباشر. ولا يتمتع بالوضع القانوني الذي يمكنه من المشاركة العلنية بالحياة السياسية العامة. من هنا نشأت حاجته إلى اختراق الأحزاب الأخرى، لكي يعوض بواسطتها، عما ينقصه من مقومات العمل السياسي العلني المكشوف، ولكي يشارك عبرها، ومن خلالها في مواجهة الأحداث واتخاذ المواقف القومية الصحيحة منها.

قد يعتبر بعضهم أن «الاختراق» عمل لا أخلاقي، ولكن الحركة لم تعتبره كذلك لأنها لم تقصد به الإساءة إلى الأحزاب الأخرى المخروقة أو إلحاق الضرر بها، بل إنها كانت تهدف من ورائه إلى ضم جهودها الوطنية إلى جهود تلك الأحزاب الوطنية ومساعدتها في السعي إلى تحقيق الأهداف القومية المبتغاة. فوجود ممثلي الحركة في الأحزاب كان يمكنها من الاطلاع على ما يجري في تلك الأحزاب من مناقشات، وما يتخذ فيها من مواقف ومقررات بشأن ما يجري في الساحة السياسية. فإن وجدت الحركة أن تلك المواقف والمقررات تتفق مع مبادئها وأهدافها، دعمتها بقوة وساعدتها على الوصول إلى غاياتها. وإذا وجدت أن موقفاً ما مغاير لمبادئها، وللمصلحة القومية العليا، كما تراها هي، عارضته بقوة أيضاً داخل الحزب المعني وسعت جهدها بصورة قانونية لتخفيف وطأته وخفض ضرره إلى أدنى حد ممكن. وهكذا كانت الحركة تتعامل مع هذه الأحزاب والتنظيمات على أساس أنها «نقط اعتماد» لها كغيرها التي سبقت الاشارة إليها.

٨ ـ خصائص الحركة

بالاضافة إلى ما سبق عرضه أعلاه من مختلف جوانب الحركة العربية السرية، كانت الحركة قد تفردت ببعض الخصائص التي تميزت بها عن سواها من الأحزاب. ونكتفي بذكر ثلاثة من أهمها فيما يلي:

أولاً ـ إنها حركة عربية جامعة: كانت الأحزاب والتنظيمات التي سبقتها، بالرغم من أهدافها وشعاراتها العروبية الوحدوية، إقليمية إلى حدٍ كبير، وتحصر نشاطاتها في أقطار معينة. فنشاط «حزب الاستقلال الجمهوري» كان

ميدان عمله لبنان فحسب. واقتصر نشاط «عصبة العمل القومي» عملياً على الساحة السورية. أما الحركة العربية السرية فكانت بأهدافها ومبادئها وأعمالها عربية جامعة. إنها لكل البلاد العربية، وفي كل البلاد العربية. وقد اعتبرت «الكتاب الأحمر» **«دستورها القومي لمختلف البلدان العربية، ويمكن تطبيقه في كل بلد عربي»**[٨٤]. فمع أنها تأسست في لبنان فإنها لم تحصر اهتمامها فيه وحده، بل انتشرت مباشرة أو بواسطة أحزاب وتنظيمات متفرعة منها وناشطة في بضعة أقطار أخرى. وكان التواصل والتعاون والتنسيق قائماً بين مركز الحركة في بيروت، وفروعها ونقط اعتمادها في الأقطار العربية الأخرى؛ وهو الأمر الذي لم يتوفر بهذا العدد لأي من الأحزاب والتنظيمات الأخرى المعاصرة.

ثانياً ــ إنها حركة صاحبة رسالة نهضوية شاملة: كان اهتمام الأحزاب والتنظيمات العربية الأخرى منصباً بالدرجة الأولى على العمل السياسي بمعناه الضيق؛ مقاومة الاستعمار، ومعارضة الحكومات الوطنية الموالية له والمتعاونة معه بالاحتجاج والتظاهر والإضراب وإطلاق الشعارات المنددة المعادية، ورفع المذكرات، وخوض المعارك الانتخابية مؤيدين ومعارضين، إلى غير ذلك من الوسائل. أما الحركة، فمع تقديرها أهمية العمل السياسي المشار إليه والمشاركة فيه، فإنها كانت تعتبر أن العمل السياسي ليس سوى جانب واحد من جوانب العمل القومي البناء المتكامل، وأن الاهتمام به لا يجوز أن يطغى على كل ما عداه، وأن يصرف الأنظار عن الجوانب الأخرى، ويعطل العناية بها. فهذه الجوانب لا تقل أهمية وضرورة عن الجانب السياسي. فالمجتمع العربي المتخلف بحاجة ماسة وملحة إلى إحداث نهضة ووعي شاملين يتناولان معالجة مختلف شؤونه الأخرى: الصحية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها. وكانت الحركة تدرك تماماً أن من أهم الشروط لتحقيق هذه النهضة العربية

(٨٤) محمد علي حمادة، «الكتاب الأحمر»: تنظيم قومي عربي من لبنان»، في مجلة الشراع، السنة ٢، العدد ٦٠، الاثنين ٩ أيار، ١٩٨٣، ص ٦١.

الضرورية المنشودة تحرير الإنسان العربي الفرد من الجهل والمرض، والفقر، والعبودية، والابتزاز، والتسليم بالأوهام، والاتكالية، والقدرية، والأنانية، والتعصب على أشكاله، وسواها، ومساعدته على التخلص من هذه الآفات المرضية، وتطويره وتحويله إلى كائن حي حرّ فعّال، يثق بنفسه، ويؤمن بقدراته وإمكاناته، ويعتمد العقل مرشداً ودليلاً له في حياته، ويطبق الأسلوب العقلاني في جميع تصرفاته وأعماله، ويؤدي بكل طيبة خاطر وقناعة وصدق كل ما يترتب عليه نحو الآخر، سواء أكان هذا الآخر فرداً أم مجتمعاً، أم دولة، ولا يطمع في أكثر مما له عنده من حقوق. وما كانت الحركة لتجهل أن عملية تطوير الإنسان العربي من حال التخلف إلى حال التقدم عملية شاقة ويحتاج تحقيقها إلى وقت طويل. ولكن الحركة كانت، في الوقت ذاته، تؤمن بأن لا خلاص ولا نهضة حقيقية للمجتمع العربي، إلا بتحقيق هذا التحول في حياة، الإنسان العربي، الذي هو حجر الأساس في بناء صرح هذا المجتمع، مهما تطلب ذلك من جهد ووقت. لذلك كانت الحركة تعتبر أن من أوجب واجبات القوميين العرب أن يتجندوا لخوض هذه المعركة، معركة تحرير الإنسان العربي من أغلاله، ويصمموا على الاستمرار فيها حتى النصر، فإن بهذا وحده يمكن انتشال المجتمع العربي الراهن من مهاوي التخلف والضعف، وفتح أبواب الأمل والتقدم أمامه. إن هذه الرسالة النهضوية الشاملة كانت في طليعة أهداف الحركة العربية السرية واهتماماتها، وكانت إحدى الخصائص التي ميزتها عن سواها من الأحزاب نظرياً وعملياً.

ثالثاً ــ إنها «حركة النخبة»: وتميزت الحركة العربية السرية بأنها كانت حركة «النخبة» من الشباب العربي القومي المثقف ومن خريجي الجامعات بشكل خاص. فقد كانت تتوجه في اختيار عناصرها من هذه النخبة، وتهتم بنوعيتهم أكثر من اهتمامها بعددهم. وكانت أهم المعايير التي تعتمدها في اختيارهم أن يكون المرشح للإنتساب إليها مثقفاً، صاحب أخلاق حميدة، وسيرة حسنة، مؤمناً بالوحدة العربية، وراغباً رغبة صادقة في العمل القومي والخدمة الوطنية العامة في إطار حزبي قومي عربي منظم. وبالرجوع إلى أسماء

المنتسبين إلى الحركة العربية السرية وأوصافها يتبيَّن بوضوح أية «نخبة» كانت الحركة تقوم بتجنيدها لتحقيق الأهداف والآمال القومية المنشودة.

٩ ـ ميثاق الحركة العربية السرية

إن التعريف بالحركة العربية السرية لا يكتمل إن أغفل الاشارة إلى ميثاقها أو دستورها المنشور في كتيب صغير، قياس ٨,٥ × ١١ سم من ٥٢ صفحة، تحت عنوان «كتاب في القومية العربية»، والمشهور باسم «الكتاب الأحمر» نسبة إلى لون غلافه الأحمر.

وهو يتألف من ستين مادة موزعة بالتساوي على ثلاثة أبواب تحمل العناوين التالية:

(١) في السياسة القومية، (٢) في الثقافة، (٣) في الاجتماع والاقتصاد. ويعتبر هذا الميثاق من أفضل ما صدر حتى الآن من بيانات عن مبادىء القومية العربية وأهدافها ووسائلها، ومن أكثرها شمولاً ودقة وعمقاً وتوازناً. وقد اقتبسنا بضع فقرات منه لدى عرض أهداف الحركة العربية السرية في صفحات سابقة في هذا الفصل.

ونظراً لأهمية هذا الميثاق في تاريخ الفكر السياسي العربي الحديث، واستكمالاً للتعريف بالحركة. رأينا أن ننشره بنصه الكامل في قسم الملاحق[٨٥] لكي يتيسر الرجوع إليه لمن يرغب في الاستزادة من القراء والباحثين، لا سيما وأن النسخ الأصلية المطبوعة منه قد أصبحت نادرة الوجود.

---

(٨٥) الملحق رقم ١، ص ٣٧٩.



الفصل الثالث

الحركة العربية السرية في لبنان

١ ـ تنظيم الحركة في لبنان

بعد أن فرغ مؤسسو الحركة العربية السرية من صياغة ميثاقها وطبعه، وأنهوا وضع قانونها الداخلي، وقرروا شكل تنظيمها الإداري العام، ورسموا خطة عملها المقبلة، انتقلوا من هذه المرحلة التحضيرية إلى المرحلة التالية، مرحلة التنفيذ وقيام الحركة الفعلي. فشكلوا مجلس القيادة الأعلى برئاسة قسطنطين زريق، واتخذوا بيروت مركزاً دائماً له.

اقتصر ميدان نشاط الحركة في سنتها الأولى على لبنان. فقرر مجلس القيادة الأعلى اعتبار لبنان «عمالة» مستقلة، وقسمه إلى خمس معتمديات، متخذاً من المحافظات اللبنانية الخمس أساساً لهذا التنظيم. فكانت معتمدية بيروت، ومعتمدية لبنان الشمالي، ومعتمدية جبل لبنان، ومعتمدية لبنان الجنوبي، ومعتمدية البقاع.

وأنشئت المديريات في المدن الكبرى ضمن نطاق المعتمديات. فكانت، مثلاً، مديرية بيروت في معتمدية بيروت، ومديرية طرابلس في معتمدية لبنان الشمالي، ومديرية صيدا في معتمدية لبنان الجنوبي. وجرى تشكيل الخلايا السرية في القرى، وفي الأحياء بالمدن، وفي المدارس، والجامعات، والمصانع، وفي كل مكان. وأصبح هذا التنظيم الذي اعتمد في لبنان، النموذج الذي اتبع واعتمد في سائر الأقطار التي انتشرت الحركة فيها.

٢ ـ الانتساب إلى الحركة

أدركت القيادة العليا أن الحركة تحتاج إلى زيادة عدد أعضائها لملء المراكز الشاغرة في هيكليتها، ولكي يساهموا بتنفيذ مشاريعها، ويشاركوا بتحقيق أهدافها. ولم تكن القيادة تتوقع أن تأتي طلبات الانتساب إلى الحركة ممن هم خارجها، ويجهلون وجودها بسبب سريتها. وترتب على ذلك، أن يقوم الأعضاء المؤسسون أنفسهم بهذه المهمة في أول الأمر، فيحاولون إقناع الأشخاص الذين تتوفر فيهم شروط الانتساب بتبني مبادئ الحركة واجتذابهم لدخولها، وكان من أنشط الذين قاموا بهذا العمل تقي الدين الصلح وفؤاد مفرج.

كان تقي الدين الصلح أستاذ اللغة العربية بمدرسة البعثة العلمانية الفرنسية ـ مدرسة اللاييك ـ في بيروت، وصحافياً يملك مع أخيه كاظم الصلح جريدة «النداء» البيروتية، وكانت له، بهاتين الصفتين، علاقات واسعة في الأوساط الثقافية والصحافية والسياسية. فاستغل هذه العلاقات لاجتذاب عدد من زملائه المدرسين والصحافيين لدخول الحركة، وخصوصاً في مدرسة اللاييك حيث يدرس، وبمحيطها، وبالمدارس التي تدور في فلكها. وقد روى نقيب الصحافة السابق زهير عسيران كيف أدخله تقي الدين الصلح إلى الحركة، وقد أتينا على ذكر هذه الحادثة آنفاً في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وكان ميدان نشاط فؤاد مفرج منطقة رأس بيروت بوجه عام، ومحيط وحرم الجامعة الأميركية، حيث كان يَدرس ويُدرس،بشكل خاص. وكانت الأجواء ملائمة، لأن التيار العربي هناك كان قد اكتسب قوة وديناميكية إضافيتين خلال الثلاثينات، بتأثير من فكر قسطنطين زريق العربي ونشاطه القومي، داخل الجامعة الأميركية وخارجها. يضاف إلى ذلك، أن قسماً كبيراً من طلاب الجامعة المذكورة كانوا من أبناء الأقطار العربية، مثل سوريا، وفلسطين، والأردن، والعراق، ومصر، والسودان، والسعودية، ودول الخليج. وكان هؤلاء الطلاب ينتمون إلى أسر عربية عريقة وغنية، تتعاطى

الشأن السياسي، ويتولى أفرادها مواقع الزعامة والقيادة، ويشغلون المناصب المسؤولة العليا في حكومات بلدانهم. وقد ورث عنهم أبناؤهم الاهتمام بالشؤون السياسية، ولا سيما ما يتعلق منها بقضايا الأمة العربية، والتحرر القومي، ومقاومة الهيمنة الأجنبية، وسيطرة الاستعمار. ووجد قسطنطين زريق وفؤاد مفرج، لدى تلاميذهما وأصدقائهما في الجامعة الأميركية وجوارها، آذاناً صاغية، وتجاوباً مرحباً سريعاً لدعوتهما القومية العربية. واختار فؤاد مفرج من هؤلاء، الأشخاصَ الذين توسم فيهم الجدية والإخلاص لإدخالهم الحركة، وتشكيل الخلايا والمجالس الحركية منهم. لسنا نملك كل الأدلة والتفاصيل عما قام به فؤاد مفرج في هذا المجال، بسبب سرية الحركة، وفقدان معظم أوراقها. ولعل قصة دخولي الحركة على يد فؤاد مفرج تلقي بعض الضوء على هذا الجانب من نشاطه في سبيل تغذية الحركة بالمنتمين الجدد.

ترجع معرفتي بفؤاد مفرج إلى العام ١٩٢٩، يوم دخلنا كلانا طالبين بالسنة الأولى في الجامعة الأميركية في بيروت. التحق هو بدائرة العلوم السياسية، ودخلت أنا دائرة التاريخ. وفي حزيران سنة ١٩٣٣ تخرج أبناء الصف المنتهي بهاتين الدائرتين بدرجة بكلوريوس علوم، وكنا خمسة، هم: فؤاد مفرج وشفيق جحا وفايز يارد من لبنان، وعوني الخالدي من العراق، وعبد الحفيظ كمال من فلسطين. فايز يارد هاجر إلى البرازيل، وعوني الخالدي عاد إلى العراق، وعبد الحفيظ كمال عاد إلى فلسطين، وبقينا، فؤاد مفرج وأنا، في الجامعة، وكنا صديقين حميمين.

وفي سنة ١٩٣٥ شارك فؤاد مفرج في تأسيس الحركة العربية السرية. وما لبث أن فاتحني بأمر الحركة، وحدثني عن مبادئها وأهدافها، ودعاني إلى الانتساب إليها، وأعطاني النسخة من الكتاب الأحمر، التي لا أزال أحتفظ بها حتى اليوم، لدرسها. وبعد انقضاء بضعة أيام، وكنت قد قرأت الكتاب الأحمر وأعجبني ما جاء فيه، اتفقت مع فؤاد على أن أنضم إلى الحركة. وفي الوقت ذاته كان تقي الدين الصلح قد فاتح زميليه في

مدرسة البعثة العلمانية الفرنسية - اللاييك - في بيروت، جبور عبد النور ويوسف نويهض بمثل ما كان قد فاتحني به فؤاد مفرج، وقررا مثلي الانتساب إلى الحركة.

وفي مساء أحد الأيام من ذلك العام، ١٩٣٥، دعينا نحن الثلاثة، عبد النور ونويهض وأنا، لتأدية قسم الانتساب إلى الحركة بحفلة حزبية أقيمت لهذا الغرض بمنزل أحد قياديي الحركة المحامي رامز شوقي بمحلة رأس النبع في بيروت. وهناك أقسمنا نحن الثلاثة اليمين بحضور شهود الحال قسطنطين زريق، وتقي الدين الصلح، وفؤاد مفرج، وصاحب المنزل رامز شوقي. وهكذا كُرسنا أعضاءً بالحركة، وأظن أننا كنا من أوائل المنتسبين إلى الحركة بعد الأعضاء المؤسسين.

وبذل الأعضاء القياديون الآخرون جهوداً مماثلة لجهود تقي الدين الصلح وفؤاد مفرج، ونجحوا في استقطاب عدد لا بأس به من الأعضاء الجدد في مختلف المناطق اللبنانية إلى الحركة، فوزعتهم القيادة العليا على أجهزة الحركة المختلفة في المركز وفي المناطق، التي كانت قيد التشكيل.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب في اختيار الأعضاء وإدخالهم الحركة ظل معمولاً به طوال الوقت حتى نهاية الحركة بأواسط الأربعينات.

٣ - تشكيلات الخلايا السرية

لما كانت الوثائق المتعلقة بالخلايا السرية قد فقدت، على ما يظهر، مع ما فقد من أوراق الحركة العربية السرية، فقد أصبحت متعذرة معرفة عدد الخلايا التي تشكلت في لبنان، وكيفية توزيعها وتشكيلها، والأعمال التي قامت بها، بدقة وتفصيل. وإن المعلومات القليلة بهذا الشأن الواردة في هذا البحث تستند إلى إشارات عابرة، ومعلومات متفرقة موجزة واردة في ما تبقى من أوراق الحركة في مجموعة أوراق كاظم الصلح، وإلى ما جاء في مذكرات بعض الحركيين، وإلى تصريحات أدلى لي بها بعض أعضاء الحركة عن الخلايا التي كانوا ينتسبون إليها، وعن رفاقهم فيها، وعن الأعمال التي قاموا بها مما لا يزالون يتذكرون.

ويستدل من هذه المصادر المتوفرة أن الحركة نشرت خلاياها السرية في معتمدية بيروت، وفي معتمدية لبنان الشمالي وخصوصاً في مدينة طرابلس، وفي معتمدية لبنان الجنوبي وخصوصاً في مدينة صيدا. كانت معتمدية بيروت الأغنى بعدد الخلايا السرية، والأوفر نشاطاً وحركة، ولا سيما ما كان قد تأسس منها داخل الجامعة الأميركية وفي جوارها. فقد قام داخل حرم الجامعة «**عدة خلايا طلابية**» حسبما يقول رئيس الحركة قسطنطين زريق[1]، وحسبما ذكر مالك المصري في مذكراته[2]. وبعد اتصالات أجريتها مع بعض الأشخاص المعنيين بهذا الموضوع من الحركيين القدامى تمكنت من تكوين فكرة عن عدد من الخلايا السرية التي تأسست داخل الجامعة. وهذه بعضها:

الخلية الأولى: أفادني الحركيان نديم دمشقية ويوسف شديد أن خليتهما تشكلت من كل من: نديم دمشقية، يوسف شديد، برهان الدين الدجاني، عوني الدجاني، سعدي الخليل، حيدر عبد الشافي، وعبد الأمير عطية.

الخلية الثانية: وأفادني الدكتور رفيق حنينة أن خليته ضمت كلاً من: زهير دروزة، رفيق حنينة، وديع عسيران، جورج طعمة، نسيب همام، عبدالله الصقر، حسن عبدالرحمن، وعبدالله النجار.

الخلية الثالثة: وأفادني حليم أبو عزالدين أن خليتهم ضمت كلاً من: حليم أبو عزالدين، فريد يعيش، فرحان شبيلات، وآخرين غابت أسماؤهم عن ذاكرته.

الخلية الرابعة: يذكر مالك المصري في مذكراته أن الخلية السرية التي ألحق بها عند دخوله الحركة ضمت كلاً من: صلاح العنبتاوي، مالك المصري، أحمد السبع، رستم ماضي، كاظم السخن، عبدالله صلاح، وعبدالمجيد أبو حجلة.

---

(١) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٨٢.

(٢) مالك المصري، نابلسي بالجامعة الأميركية، ص ٨٨.

الخلية الخامسة: وأفادني الدكتور أمجد غنما أن خليته ضمت كلاً من: أمجد غنما، ناجي بشناق، بصري علاء الدين، نيازي كنعان، خالد مطيع، مالك المصري، ونظام شرابي رئيساً للخلية.

وكان عضو مجلس القيادة الأعلى الركن فؤاد مفرج يشرف على الخلايا داخل الجامعة وينسق العمل بينها. وخلفه بعد وفاته زميله عضو القيادة العليا الركن جبران شامية(٣).

الخلية السادسة: تشكلت في مدرسة البعثة العلمانية الفرنسية في بيروت، وضمت: تقي الدين الصلح، جبور عبد النور، يوسف نويهض وآخرين.

وتجدر الإشارة إلى أن تشكيل الخلايا لم يكن دائماً ثابتاً، بل كان يطرأ عليه أحياناً بعض التعديل. فالأعضاء الطلاب الذين ينهون الدراسة ويتخرجون ويغادرون الجامعة الأميركية وبيروت، والذين يهاجرون، أو يتوفون، كانت مقاعدهم تشغر في الخلايا، فتملأ القيادة العليا تلك الشواغر بأعضاء آخرين من المنتسبين الجدد، أو من أعضاء خلايا أخرى عند الضرورة(٤).

هذا ما استطعت جمعه من معلومات عن تشكيل الخلايا السرية في معتمدية بيروت، وقد ساعدني على ذلك الحركيون القدامى من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، الذين يتذكرون إخوانهم في الخلايا السرية جيداً.

أما الخلايا السرية في باقي المعتمديات والمناطق فلم أتمكن من الحصول على معلومات محددة بشأنها.

٤ ـ مجلس عمالة لبنان

نص قانون الحركة الداخلي على أن يكون في كل عمالة مجلس

---

(٣) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٨٢.

(٤) مالك المصري، نابلسي بالجامعة الأميركية، ص ٨٨.

يدعى «مجلس العمالة»، وهو أعلى أجهزة الحركة، ومرجعها في العمالة، وحلقة الوصل بينها وبين مجلس القيادة الأعلى. وكان مجلس العمالة في لبنان أول مجلس من نوعه أنشأته الحركة. وقد تألف من رئيس الحركة ذاته قسطنطين زريق رئيساً، ومن كل من الأعضاء تقي الدين الصلح، وفؤاد مفرج، وشفيق جحا، وجبور عبد النور، وجبران شامية قبل انتقاله إلى دمشق. وكان يعقد اجتماعاته بمنزل رئيسه الدكتور قسطنطين زريق للتمويه بأنها اجتماعات أساتذة تتعلق بشؤون التربية والتعليم. وكان الدكتور زريق، يومئذٍ، يسكن بالطابق الأول (فوق الأرضي)بالبناية التي يملكها جرجي ربيز مختار المحلة برأس بيروت، والكائنة في الزاوية الشمالية لجهة اليد اليسرى للداخل من شارع جان دارك إلى شارع المكحول باتجاه الشرق. ولا تزال هذه البناية باقية لأصحابها وعلى حالها حتى الوقت الحاضر، وفيها مركز مختار المحلة الحالي كمال جرجي ربيز نجل المختار السابق وخليفته بالمخترة.

كنا نجتمع عادة في المساء مرة في الأسبوع. وكان جدول الأعمال يتضمن ثلاثة بنود رئيسية هي: علاقة مجلس العمالة بمجلس القيادة الأعلى، وعلاقته بالمعتمديات، وشؤونه واهتماماته الخاصة به. بالنسبة إلى علاقة مجلس العمالة بمجلس القيادة الأعلى فإنها كانت تتم حصراً بواسطة رئيس مجلس العمالة قسطنطين زريق، ولا يعرف أعضاء مجلس العمالة أعضاء مجلس القيادة، ولا تنشأ بين المجلسين أية علاقة مباشرة. وكنا بمجلس العمالة نستمع إلى ما يكون لدى الرئيس زريق من تعليمات، وتوجيهات، وتبليغات، وأخبار، وأوامر صادرة من مجلس القيادة الأعلى إلى مجلس العمالة. فكان منها ما هو خاص بمجلس العمالة، ومنها ما يطلب من رئيس هذا المجلس إبلاغه إلى رؤساء المعتمديات. وبعدها كنا نستعرض الأحداث العامة والمستجدات الهامة الحاصلة في لبنان وفي الأقطار العربية والعالم، ونتبلغ من الرئيس زريق موقف القيادة العليا من كل ذلك، لأخذ العلم بهذا الموقف والالتزام به.

وبالنسبة إلى علاقة مجلس العمالة بالمعتمديات، والمعتمديات

بالمديريات، والمديريات بالخلايا، فإنها كانت تتم عن طريق رؤساء هذه الهيئات بالتدرج مباشرة من دون حصول التعارف بين أعضائها. كان رئيس مجلس العمالة يعرض في الجلسة خلاصة التقارير التي يكون قد تسلمها من رؤساء المعتمديات في العمالة اللبنانية عن نشاطاتهم وإنجازاتهم، فتناقش وتقيم، وينقل هذا التقييم رئيس مجلس العمالة إلى رؤساء المعتمديات لإجراء ما يلزم بشأنه، كما أنه ينقل إليه أيضاً ما يكون قد كلف بنقله من مجلس القيادة الأعلى من أوامر وبيانات وتعليمات وغيرها.

وبالإضافة إلى ما ورد ذكره أعلاه عن علاقة مجلس العمالة بمجلس القيادة العليا من جهة، وبالمعتمديات والمديريات والخلايا من جهة أخرى، فإن مجلس العمالة ينظر في التقارير التي يقدمها إليه أعضاؤه عن الأعمال التي أنجزوها منذ الاجتماع السابق، فتدرس وتقيم وتوضع، في ضوء ذلك، خطط العمل في الفترة المقبلة. فينقل الرئيس هذه الخطط والاقتراحات التي يتقدم بها مجلس العمالة إلى مجلس القيادة الأعلى لدرسها وإصدار الأوامر لتنفيذها في حال الموافقة عليها. وكنا أحياناً، إذا توفر لنا الوقت في اجتماعات مجلس العمالة، نراجع ميثاق الحركة ونتناول مواده بالشرح والدرس، والتوسع في التفسير، والتعمق في فهم العقيدة القومية العربية. على هذا الشكل، بصورة عامة، كان يجري العمل في مجلس العمالة، وكانت تعرض فيه المشاريع وتدرس وترفع الاقتراحات بشأنها إلى مجلس القيادة الأعلى، لاتخاذ القرارات النهائية المناسبة بشأنها.

وباستكمال التنظيم، والتشكيل، والتأهيل لأجهزة الحركة المختلفة، من القيادة في القمة إلى الخلايا السرية في القاعدة، تكون الماكينة الحزبية للحركة العربية السرية قد أصبحت جاهزة للإقلاع، والبدء بالعمل الجدي. فما هي طبيعة هذا العمل؟

٥ ـ ما لم تفعله الحركة في لبنان

ماذا عملت الحركة العربية السرية في لبنان؟ سؤال مشروع ومطروح. فما إن تُذكر الحركة أمام أحدهم هذه الأيام، حتى يبادرك، مستوضحاً بكل

براءة ونية حسنة، بهذا السؤال: ماذا فعلت الحركة للبنان، وفي لبنان؟ وبالإجابة عن هذا السؤال قد يكون من الضروري البدء بالقول: إن من بين أفضل إنجازاتها في لبنان كان امتناعها عن القيام بمثل ما كانت تفعله معظم الفئات والأحزاب اللبنانية الأخرى في حينه؛ إنها لم تخض حرباً ولم تثر فتنة في لبنان.

كان لبنان خلال عقد الثلاثينات يغلي كالمرجل في حالة من الفوضى السياسية، والصراعات العقائدية، والنزاعات الحزبية، والخلافات الشخصية، والانقسامات الحادة بين مختلف فئاته من القاعدة الشعبية حتى ذروة الهرم في السلطة. فالقطبان الكبيران في البلاد، المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل والبطريرك الماروني انطون عريضة، كانا في خصام شديد جداً، ترجع أسبابه في الظاهر إلى اختلافهما حول مشروع احتكار التبغ (المونوبول) في لبنان وسوريا. وكان الزعيمان السياسيان الأبرزان بشارة الخوري رئيس الكتلة الدستورية، وإميل إده رئيس الكتلة الوطنية، يتطاحنان على الفوز بالأولوية في الزعامة والنفوذ، ويتنافسان على ارتقاء سدة رئاسة الجمهورية، بشكل عنيف لم تعرف الجمهورية اللبنانية الفتية مثيلاً له من قبل. فإن لبنان بأسره تأثر بهذا التطاحن، وانقسم اللبنانيون بسببه إلى معسكرين متخاصمين، المعسكر الدستوري والمعسكر الكتلوي، وانعكست سلبيات هذا الانقسام سوءاً على أعمال الإدارة، وعلى مصالح البلاد والعباد. ولما طرحت في سنة ١٩٣٦ مسألة عقد معاهدة مع فرنسا لتحل محل نظام الانتداب، اختلف اللبنانيون أيضاً بين مؤيد ومعارض لمشروع المعاهدة، وأثار حديث المعاهدة المخاوف التقليدية المعروفة، وحرك المواقف المتناقضة المتشنجة بين اللبنانيين الموصوفين بالكيانيين أو بالانعزاليين، وبين طلاب الوحدة السورية، أو الوحدة العربية. وفي أثناء ذلك كانت الأزمة الاقتصادية العالمية قد ناءت بثقلها على لبنان، وضاقت بوجه بنيه سبل العيش والارتزاق، مما ساعد على نشوب الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء، والعمال وأرباب العمل. وأفرزت هذه الصرعات التي عصفت بالساحة اللبنانية بضعة أحزاب عقائدية متشددة، مثل الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي وحزب عصبة العمل القومي

وحزب الكتائب اللبنانية وحزب النجادة. فكانت هذه الأحزاب تتصارع فيما بينها، ويحارب بعضها بعضاً، كما أنها كانت تتحدى سلطة الدولة في بعض الأحيان وتشتبك مع قواتها المسلحة. وأيقظت حال التشرذم والانقسام والصراع النعرات الطائفية من سباتها، واستغلها أصحاب المآرب والمصالح الخاصة، وأوقدوا نارها، فوقعت صدامات طائفية خطيرة بأواسط الثلاثينات كادت أن تزج البلاد بفتنة رهيبة، لولا أن تداركها بعض العقلاء من الجانبين وأنقذوا البلاد من شرها.

في خضم هذه الأحداث، تأسست الحركة العربية السرية سنة ١٩٣٥، فلم تشترك فيها، واعتبرت أن ما كان يجري يمثل حالة مرضية مسيئة إلى الوطن، وإلى القائمين بها جميعاً، وأدانتها لأنها مخالفة لمبادئها وأهدافها المدرجة في ميثاقها. ورأت أن الواجب الوطني والأخلاقي يفرضان عليها أن تسلك نهجاً مغايراً للنهج الذي كان سائداً يومئذٍ؛ نهجاً يجمع ولا يفرق، يبني ولا يهدم، يحاور ولا يتسلط، يضع مصالح الوطن العليا فوق وقبل كل الاعتبارات الشخصية والطائفية والعشائرية والمناطقية وغيرها. بهذه النوايا الطيبة والإرادة الثابتة نزلت الحركة العربية السرية إلى ميدان العمل الوطني في لبنان.

٦ ـ تنوع أعمال الحركة

صحيح أن الحركة العربية السرية لم تجترح العجائب، وتنجز المعجزات، وتغير صورة المجتمع العربي من الأسوء إلى الأفضل. ولكنها، على كل حال، لم تكن كسولة مهملة، أو مقصرة في القيام بواجبها القومي، وفي تأدية رسالتها الوطنية النهضوية. فقد نشطت وعملت في مختلف الميادين والحقول بمقدار ما سمحت لها إمكاناتها البشرية والمادية المحدودة، والظروف المحلية والإقليمية والدولية التي واجهتها، والفترة الزمنية القصيرة التي عاشتها بسلام، والتي كانت دون الخمس سنوات.

تنوعت أعمال الحركة العربية السرية في لبنان، وتوزعت على عدد من المجالات يمكن حصرها في الحقول الأربعة التالية:

- في حقل الفكر: شرح القومية العربية، ونشرها، ودعوة الناس إلى الإيمان بها.

- في حقل السياسة: اتخاذ مواقف قومية سياسية صريحة محددة من الأحداث الجارية في لبنان، وفي البلدان العربية والعالم.

- في الحقل العسكري: الاهتمام بالتنشئة العسكرية والتدريب على استعمال السلاح.

- في الحقل الاجتماعي: القيام بأعمال ومشاريع تهدف إلى إصلاح المجتمع العربي المتخلف، والنهوض به في مدارج التقدم والرقي.

قد يكون من المتعذر الإحاطة الكاملة بكل ما قامت به الحركة من أعمال في مختلف هذه المجالات، لأن وثائق الحركة ضاعت، ولأن الذين ساهموا في هذه الحقول لم يدونوا مذكرات مفصلة عن أعمالهم، وقد رحل الآن معظمهم. وأن الاعتماد في تتبع أعمال الحركة في المجالات المذكورة، وعرضها في هذا البحث يستند إلى معلوماتي الخاصة، عن بعض ما قام به مجلس عمالة لبنان، وشاركت أنا في صنعه، أو رأيته، وعرفته بنفسي في حينه، أو سمعت به من بعض الرفاق، أو قرأت عنه في القليل القليل الذي عثرت عليه منشوراً صدفة في سياق ما كتبه بعض الحركيين عن مواضيع غير ما نحن بصدده الآن. وعلى كل حال، فإن ما يرد في هذا البحث كافٍ ليعطي صورة حقيقية صحيحة، وإن تكن غير كاملة، عمّا فعلته الحركة في لبنان ومن أجله، خلال السنوات القليلة التي عاشتها في ربوعه.

٧ - شرح فكرة القومية العربية ونشرها

دور قسطنطين زريق الأستاذ:

كان من أهم أهداف الحركة العربية السرية شرح القومية العربية، وتوضيحها، ونشرها على أوسع نطاق ممكن. قام بالدور الأكبر والأبرز والأهم في تأدية هذه المهمة الدقيقة رئيس مجلس القيادة الأعلى للحركة

الدكتور قسطنطين زريق كأستاذ، ومستشار، وخطيب، ومؤلف. فهو متخصص بالتاريخ العربي، وأستاذ هذا الموضوع بالجامعة الأميركية في بيروت. فكان في صفوفه، وفي الندوات الثقافية الخاصة التي يعقدها مع نخب من تلاميذه، يشجعهم على دراسة التاريخ العربي، ويدربهم على بحثه والنظر فيه بموضوعية ومنهجية علمية عالية، ويحثهم على التعمق في أصوله وجذوره، واستجلاء ما يحويه من تراث حضاري ثمين وإحيائه والاعتزاز به، ويساعدهم على إدراك ما في هذا التراث الغني من قيم ومثل، ويرشدهم إلى كيفية استلهام هذين التاريخ والتراث لفهم قضايا العالم العربي المعاصر ومشاكله، والنهوض به، وإلحاقه بركب الحضارة الحديثة. وقد تأثر كثيرون من تلاميذه بفكره، وأصبح تيار القومية العربية أقوى التيارات العقائدية في الجامعة الأميركية، وتشكلت داخل حرمها خلايا الحركة السرية من طلاب من مختلف الأقطار العربية، الذين أصبحوا من أشد دعاة القومية العربية حماسة وإخلاصاً، وأكثرهم مساهمة في نشرها في أقطارهم، وحيثما وجدوا.

دور قسطنطين زريق مستشار جمعية العروة الوثقى:

كانت «جمعية العروة الوثقى» إحدى الجمعيات الطلابية بالجامعة الأميركية في بيروت. وكان أعضاؤها يأتون من مختلف الأقطار العربية، ويشكلون التيار العربي العام في الجمعية وفي الجامعة. وكان هدف الجمعية تدريب الطلاب على العمل الجماعي التعاوني، وتنمية مواهبهم الأدبية في النثر والشعر، وتشجيعهم على إبرازها عن طريق الخطابة، بإلقاء ما تجود به قرائحهم في الحفلات العامة المخصصة لهذا الغرض.

وفي سنة ١٩٣٥ عينت إدارة الجامعة الأميركية الأستاذ قسطنطين زريق مستشاراً ومرشداً لجمعية العروة الوثقى، فأحدث فيها تغييراً جوهرياً طال أهدافها وأساليب عملها على السواء. وقد برر المستشار زريق هذا التغيير في نهج العروة الوثقى بقوله:

«كان هدفي في عملي كمستشار أن أوجه العروة نحو الغايات التالية: أن تكون حقلاً يتدرب فيه أعضاؤها على النقاش المنتظم والحوار الحر

المسؤول، وأن تسود الروح الديمقراطية في انتخاب لجانها، وفي اجتماعاتها وتداولاتها... أما الغاية الثانية فهي أن تكون العروة مجالاً، لا للخطب الحماسية والآراء الارتجالية، بل لدراسة المشكلات الأساسية التي يجابهها المجتمع العربي، بروح علمية موضوعية»[٥].

وفي ذات الوقت كان قسطنطين زريق قد ساهم في تأسيس الحركة العربية السرية، وانتخب رئيساً لمجلس قيادتها الأعلى. وقد رأى، بصفته الحركية، أن يجعل منبر جمعية العروة الوثقى منبره ومنبر الحركة معاً، لشرح مفهومه الخاص للقومية العربية، وتوضيحه ونشره، ولتصير جمعية العروة «نقطة اعتماد» أساسية للحركة. وازداد الإقبال على دخول العروة في عهده، وأصبحت أكبر الجمعيات الطلابية بالجامعة بعدد أعضائها، وأعظمها بنشاطاتها المتنوعة الجدية ونفوذها المعنوي الواسع. وتسلل أعضاء الحركة العربية السرية، كعادتهم، إلى جسم جمعية العروة الوثقى، وسيطروا عليها تدريجاً، مستكملين هذه السيطرة في سنة ١٩٣٧، حين فازوا في انتخابات اللجنة الإدارية لجمعية العروة بجميع المقاعد ما عدا مقعد واحد. وكان الفائزون هم: نديم دمشقية، ويوسف شديد، وبرهان الدجاني، وعوني الدجاني، وفايز صايغ، وعبد الأمير عطية[٦]، أما المقعد الأخير فقد فاز به مرشح الحزب السوري القومي عاطف كرم[٧].

أراحت سيطرة الحركيين على جمعية العروة مستشارها زريق، وسهلت عليه عمله، كما أنها أفادت الحركة كذلك. فبرعاية زريق وتوجيهه، وبالتعاون الوثيق بين الحركيين في اللجنة الإدارية للجمعية وأعضاء الجمعية الآخرين، قامت جمعية العروة بشرح وتوضيح الفكر القومي العربي، ونشره بين الطلاب، وتسليط الأضواء على قضايا العالم العربي ومشاكله الأساسية وحثّ الأساتذة والطلاب المتخصصين والأصدقاء المثقفين داخل الجامعة

---

(٥) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٦٨.

(٦) مجلة العروة الوثقى سنة ١٩٣٧.

(٧) يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية، ص ٣٦.

وخارجها، على المشاركة في هذا المجهود القومي، إن كان بحضور حفلات العروة العامة وإلقاء الخطب فيها، أم بإعداد الدراسات الموضوعية والأبحاث العلمية حول القضايا العربية الراهنة، وسبل معالجتها، لنشرها في مجلة العروة. ويُذكر من الذين لبوا الدعوات، وألقوا الخطب في حفلات العروة، التي كانت تغصّ بالحضور من أبناء الجامعة والجوار، سياسيون وصحافيون وأدباء وشعراء وفنانون مرموقون، مثل جبران تويني، ومي زيادة، ومحمد جميل بيهم، وعمر أبو ريشة، وإلياس أبو شبكة، وأحمد صافي النجفي، وصلاح لبكي، وعمر فروخ.

وبتوجيه وتشجيع من المستشار زريق أصدرت جمعية العروة مجلة فصلية تحمل اسمها، «**ويخصص كل عدد من الأعداد لموضوع واحد، تخطط لجنة التحرير طريقة معالجته، وتوزيع موضوعاته على الأعضاء، أو سواهم من طلبة الجامعة القادرين على الكتابة فيها**»[٨]. وظهرت في مجلدات «مجلة العروة» للسنوات ١٩٣٧ و١٩٣٨ و١٩٣٩ عشرات الأبحاث والدراسات القيمة عن شؤون العالم العربي. كان بعضها بأقلام الأساتذة، ومعظمها بأقلام الطلبة المتخصصين. يذكر من المساهمين مثلاً، الطبيب سامي حداد، والطبيب زكن شخاشيري، والأساتذة منصور جرداق، وقسطنطين زريق، وشارل مالك، وألبرت حوراني، وجورج حكيم، وأنيس الخوري المقدسي، وحليم نجار، وجان مرهج، ومنير بعلبكي، وشفيق جحا. أما الطلاب الذين كتبوا الأبحاث فإن غايتهم، كما حدّدها قسطنطين زريق كانت:

«أن يتعرفوا إلى عالمهم عن كثب، وأن يتفهموا مشاكله وأدواءَه، وأن يعرضوا آراءَهم المستمدة من البحث والتنقيب في حل هذه المشاكل ومعالجة هذه الأدواء... وليس أحد بينهم يدّعي أنه وفّى موضوعه حق بحثه... وإنما هو الشعور بواجب الشباب المتعلم في مجابهة هذه المشاكل، والإيمان الوطيد بأن حل هذه المشاكل لا يكون على وجهه الأفضل إلا عن طريق البحث

(٨) قسطنطين زريق، سيرة ذاتية، ص ٦٩.

العلمي الصحيح والتفكير الرزين الناضج»[٩].

كان إقبال الطلاب والطالبات على إعداد الأبحاث كبيراً، حتى لنجد في مجلدات مجلة العروة عشرات الأسماء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، عبدالمنعم الرفاعي (رئيس وزراء الأردن سابقاً)، وعبدالله بلخير (وزير الإعلام السعودي السابق)، ونديم دمشقية (سفير لبناني سابق)، ويوسف شديد (سفير لبناني سابق)، وعوني الدجاني وبرهان الدجاني (الأمين العام لاتحاد غرف التجارة والصناعة العربية سابقاً)، وداود صايغ (مستشار رئيس وزراء لبنان سابق)، ومحمد شقير، وسواهم.

أما الأبحاث والدراسات المنشورة في مجلدات مجلة العروة، فتدور كلها حول قضايا العالم العربي، وتتناول مواضيع أساسية مثل أنظمة الحكم، والأنظمة النقدية، والصناعة، والزراعة، والتجارة، والمياه، والبترول، والمواصلات، والمجتمع، والتربية والتعليم، وتحضير البدو، والمرأة، واللغة، والأدب، والفن، والفلسفة القومية، وغيرها. وعولجت هذه المواضيع على مستوى العالم العربي كله، وكذلك بصورة مفصلة على مستوى كل قطر بمفرده. ولاقت هذه الدراسات الاستحسان والتقدير، وساعدت على انتشار مجلة العروة في معظم الأقطار العربية، وأصبحت شبه مرجع لطلاب المعرفة والدارسين.

وبالرجوع إلى العناوين التي تتوج معظم الدراسات التفصيلية لهذه المواضيع نجد أنها تكاد تكون هي ذاتها العناوين المدرجة في ميثاق الحركة العربية السرية المعروف بالكتاب الأحمر. وفي هذا ما يؤكد العلاقة السرية التي كانت قائمة بين الحركة العربية السرية وجمعية العروة الوثقى، ويشير بوضوح إلى دور مستشار الجمعية ومرشدها ومدير مجلتها قسطنطين زريق في هذا التنسيق المنظم المدروس، وهي العلاقة التي لم يطلع عليها، ولم يشعر بها أحد من القراء ولا من المحررين في المجلة، سوى من كان منهم من أعضاء الحركة.

---

(٩) قسطنطين زريق، مجلة العروة الوثقى، السنة ٢، العدد ٤، حزيران ١٩٣٧، ص ٤.

لقد كانت جمعية العروة الوثقى ومجلتها نقطة اعتماد أساسية، وواجهة علنية ممتازة للحركة العربية السرية، ومنبراً عالياً لنشر رسالة قسطنطين زريق القومية وترويجها، ومختبراً تدرب فيه عدد كبير جداً من الطلاب والطالبات، الذين انتشروا بعد تخرجهم من الجامعة الأميركية في بيروت، في كافة الأقطار العربية، حاملين معهم رسالة قسطنطين زريق والحركة العربية السرية ومبادئهما وأهدافهما القومية، فكان منهم، ولا يزال حتى الآن، الحكام، وقادة الفكر، وزعماء الأحزاب السياسية، ورواد الإصلاح، والكتاب، في سائر الأقطار العربية . وقد أخبرني، مؤخراً الرفيق الصديق الدكتور أمجد غنما أنه انتهى من وضع كتاب عن «جمعية العروة الوثقى» بالجامعة الأميركية في بيروت، يبين فيه دور الحركة العربية السرية فيها، وفي مجلتها التي تحمل اسمها. وهو يأمل في أن يطبع هذا الكتاب وينشر في وقت قريب.

دور قسطنطين زريق المحاضر والخطيب:

إن النجاح الملفت الذي حققه قسطنطين زريق كأستاذ للتاريخ العربي، وكمستشار لجمعية العروة الوثقى بالجامعة الأميركية، جعله بنظر طلابه وزملائه وأصدقائه أستاذاً مميزاً، وصاحب رسالة يحرص على توضيحها ونشرها، وخطيباً مفوهاً يأسرك بفصاحته وفكره وموضوعيته ووضوح رؤياه وشجاعته في تناول واقع المجتمع العربي بالدرس والتحليل والنقد والمعالجة. وراحت الهيئات الاجتماعية، والنوادي الأدبية والمؤسسات التعليمية وغيرها، تدعوه ليحاضر في نواديها في بعض المناسبات. وفتحت هذه الدعوات أمامه مجالاً أرحب من محيط الجامعة المحدود، وأتاحت له مخاطبة شرائح واسعة من المجتمع مباشرة. واغتنمها فرصة ذهبية لشرح مبادئ الحركة العربية السرية، ونشر الوعي القومي بين تلك الشرائح، وتنبيه سامعيه إلى واجباتهم الوطنية، ودعوتهم إلى القيام بما يترتب على كل فرد منهم من مسؤولية في تحقيق الأهداف القومية المنشودة.

ألقى الدكتور زريق خلال بضع سنوات في أواسط الثلاثينات عدة

محاضرات وخطب، بحث في كل منها جانباً من جوانب موضوعه المحوري، القومية العربية، وتوسع في شرح العناوين الرئيسية الواردة في ميثاق الحركة ـ الكتاب الأحمر ـ كما يستدل من عناوين تلك المحاضرات والخطب، مثل: **الوعي القومي، المرأة العربية في الحياة القومية، التربية والقومية، القومية والجنس [العنصر]، العمل القومي والمشاريع الاجتماعية، القومية العربية والدين، التراث الثقافي العربي**[١٠]، إلخ. بحث هذه المواضيع بعمق وتفصيل، وحدّد موقفه منها (وهو موقف الحركة العربية السرية في الوقت ذاته) بدقة ووضوح، كما في المواضيع التالية التي نورد باختصار كلي نماذج منها على سبيل المثال.

قال قسطنطين زريق عن الوعي القومي ما يلي: «**إن هذا التنبه العاقل يقوم على أركان ثلاثة: فهم صحيح لماضي الأمة الذي تحدرت منه شخصيتها، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وإيمان متين بهدف الغد ورسالة المستقبل**»[١١].

وقال بخصوص المرأة العربية: «**فواجب الفتاة العربية القومي يتبدئ إذن بالعلم الصحيح، وينتهي بالعمل المثمر**»[١٢].

وعن التربية القومية، قال: «**وأعني بالتربية القومية، ذلك التهذيب الذي يكسبه السواد الأعظم من أهل البلاد، وينتج عنه شعور الفرد منهم بأنه عضو حي في جسم الأمة، فيدفعه هذا الشعور إلى القيام بواجبه نحو أمته على الوجه الأكمل، ففي هذا التهذيب إذن عنصران لا يتم بدون أي منهما: الشعور القومي، ثم القيام بالواجب الذي يفرضه هذا الشعور.**

---

(١٠) إنها عناوين خطب ومحاضرات منشورة في كتاب «الوعي القومي»، راجع: قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، «الوعي القومي»، ص ١ ـ ١٤٠، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ومؤسسة عبدالحميد شومان، الطبعة الثانية ١٩٩٦)، يشار إليه بعد الآن هكذا: قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة.

(١١) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ص ٣٠ ـ ٣١ في كتاب الوعي القومي، ص ٨٠ في المجلد ١.

(١٢) المصدر ذاته، ص ٣٥ في كتاب الوعي القومي، وص ٨٥ في المجلد ١.

وأسارع إلى القول إني أعني بالقومية شيئاً أعظم من السياسة وأوسع. فما السياسة إلا ناحية ضيقة من نواحيها، ولون محدود من ألوانها، لأن القومية تشمل الحياة بأوسع معانيها، وتستهدف الأمة بجميع أحوالها، وترمي لا إلى اكتساب حرية الأمة وتوسيع نفوذها السياسي فحسب، بل إلى إنماء قواها الروحية، ورفع مستواها الاجتماعي والعقلي، والسير بها إلى أبعد ما يكون في طريق الحياة المثلى»[١٣].

وعن القومية والجنس قال زريق: «**أكثر ما نتجه عند تفكيرنا في المسائل القومية إلى الماضي، لا إلى المستقبل. نتجادل في أصلنا، وجنسنا، وما كان عليه أجدادنا، وما حدث بين أقطارنا من العلاقات التاريخية ـ إلى غير هذا مما نفكر ونقول ونحن ملتفتون إلى الوراء، وبدلاً من أن نكون متطلعين إلى الأمام... ولكني أخشى أن هذه العقلية التاريخية قد تغلبت علينا، واحتلت من تفكيرنا مكاناً أرفع مما تستحق، وأنه يجدر بنا أن نتوجه ـ أكثر مما فعلنا ونفعل ـ إلى المستقبل الآتي، لنستمد منه صورة الحياة التي نريد أن نحياها. عندها تصبح لهذه الصورة قوة تفرض نفسها علينا، وهيئة تكيِّف تفكيرنا»**[١٤].

وعن القومية والدين قال: «**كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح: لا تعارض ديناً من الأديان ولا تنافيه. بل تقبل على الأديان جميعاً لترشف من منابعها الفياضة كؤوس الشفاء والخلوص، والقوة والخلود. وإذا عارضت القومية شيئاً فليس هو الروحية الدينية، وإنما هو العصبية الهدامة التي تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية، وتأبى أن تذيب نفسها في بوتقة الوطن الجامعة، بل كثيراً ما تستغل الشعور الديني البريء في سبيل أهوائها الخاصة وأطماعها الحزبية. تلك هي علّة البلاد المستعصية، وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادمو وحدتها»**[١٥].

---

(١٣) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ص ٤٣ في كتاب الوعي القومي، وص ٩٣ في المجلد ١.

(١٤) المصدر ذاته، ص ٦٠ في كتاب الوعي القومي، وص ١١٠ في المجلد ١.

(١٥) المصدر ذاته، ص ٧٠ في كتاب الوعي القومي، وص ١٢٠ في المجلد ١.

لاقى الأسلوب العلمي العقلاني الرصين، الذي تميزت به محاضرات قسطنطين زريق وخطبه، تقديراً واحتراماً كبيرين من محبذي دعوته القومية، ومن معارضيها على السواء. وكان الإقبال على سماعها كبيراً، بحيث إن عدد الحضور كان دائماً يفوق طاقة القاعة التي يتكلم فيها على الاستيعاب. وكانت الصحف والمجلات تلخص محاضراته، وتعلق عليها بتقدير وإعجاب. وبتأثير هذه المحاضرات التي ألقي معظمها في بيروت امتدت شهرة قسطنطين زريق إلى خارج أسوار الجامعة الأميركية، وأصبح يذكر في عداد رجال الفكر المبدعين والخطباء المجيدين في المحافل السياسية والأدبية اللبنانية.

ساعد نجاح هذه الخطب والمحاضرات على تحقيق ثلاثة أهداف عزيزة على قلبه: التعبير عن فكره القومي العربي بحرية مطلقة، وتوضيح المبادئ الأساسية للحركة القومية العربية السرية التي كان هو رئيسها وملهمها، وتوسيع منبره الخاص لنشر الفكرة القومية العربية من محيط الجامعة الضيق المحدود، إلى الساحة اللبنانية العامة الرحبة كلها.

دور قسطنطين زريق المؤلف ـ الوعي القومي

كنا في مجلس عمالة لبنان نتابع مسيرة رئيسنا قسطنطين زريق الموفقة باهتمام كبير، ونفرح بها لأن حركتنا كانت تشاطره جني ثمارها اليانعة. فتمنينا عليه نشر تلك الخطب والمحاضرات، التي كان قد ألقاها في مناسبات مختلفة، في كتاب. واستجاب لطلبنا واختار منها للنشر العناوين الثلاثة عشر التالية: **معنى الوعي القومي، المرأة العربية في الحياة القومية، التربية القومية، القومية والجنس، على هامش الدعوة إلى الفينيقية في لبنان، العمل القومي في المشاريع الاجتماعية، مشروع إنعاش القرى، القومية العربية والدين، بمناسبة ذكرى مولد النبي العربي الكريم، التراث الثقافي العربي ـ حفظه ـ إحياؤه، ضآلة ثقافتنا العلمية، الأدب التوجيهي وحاجتنا إليه، الثقافة الصحيحة وعناصرها، كيف نحمي ثقافتنا، أزمة الروح، والجهاد الأكبر**. وقد صدرت في كتاب بعنوان «**الوعي القومي**» عن

دار المكشوف في بيروت في سنة ١٩٣٩[١٦].

وقد جاء في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب قول المؤلف مخاطباً العرب جميعاً: «**إذا أردنا لهذه النهضة القومية العربية أن تستكمل شروطها، وتؤتي ثمارها، لم يكن لنا غنى عن ثلاث خطى رئيسية يترتب علينا اتخاذها بحزم ونشاط**»[١٧]. ويحدد هذه الخطى (١) ببناءِ فلسفة قومية تشكل الأساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة، (٢) صياغة عقيدة تحدد معنى الأمة العربية وتثبت خصائصها ومميزاتها، (٣) وتنظيم دقيق لجميع أجهزتها ومصالحها وأعمالها، فإنه على أساس هذه الأركان الثلاثة تقوم كل نهضة قومية صحيحة[١٨].

يظهر أن كتاب «**الوعي القومي**» أدى رسالته بنجاح، وحرك الوعي القومي في أوساط عربية كثيرة، بدليل ما جاء في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب بقلم مؤلفه حيث يقول ما يلي:

«**فإنه لم يمض على الطبعة الأولى بضعة أشهر حتى نفدت نسخها كلها، وحتى دعت الحاجة إلى إصدار طبعة ثانية... وقد لقي هذا الكتاب فوق ما كنت أرجو له من التشجيع والرواج. وتناوله الأدباء بالمراجعة والدرس فخصوه بفصول ممتعة نشروها في مجلات العراق والشام ومصر**»[١٩].

ليس هذا فحسب، بل إن شهرة مؤلفه قسطنطين زريق انتشرت في سائر أنحاء العالم العربي، كعلم من أعلام الفكر العربي، وداعٍ عقلاني بصير لوحدة عربية حديثة تقدمية متطورة. ويذكر بهذا الصدد أن وزارة المعارف العراقية «**وضعت نسخة منه في كل مدرسة ومكتبة من مدارس العراق الرسمية ومكاتبه، كما قررت دار المعلمين العليا التابعة لها تدريسه في بعض صفوفها**»[٢٠].

---

(١٦) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ص ٧٠ في كتاب الوعي القومي، وص ١٢٠ بالمجلد ١.

(١٧) المصدر ذاته، ص ١٤ في كتاب الوعي القومي، وص ٦٤ بالمجلد ١.

(١٨) المصدر ذاته، ص ١٥ ـ ١٦ في كتاب الوعي القومي، وص ٦٤ ـ ٦٥ بالمجلد ١.

(١٩) المصدر ذاته، ص ٧ في كتاب الوعي القومي، وص ٥٧ بالمجلد ١.

(٢٠) المصدر ذاته، ص ٧ في كتاب الوعي القومي، وص ٥٧ بالمجلد ١.

إن ما قام به قسطنطين زريق من جهد فكري دؤوب، كأستاذ، ومستشار لجمعية العروة الوثقى، ومحاضر وخطيب، ومؤلف، لشرح القومية العربية ونشرها وإيقاظ الوعي القومي لدى العرب جميعاً، شكل أكبر مساهمة وأغناها قام بها أحد أركان الحركة العربية السرية لتحقيق أهداف الحركة في هذا الميدان الفكري من ميادين اهتماماتها ونشاطاتها المختلفة.

٨ ـ عمل الحركة في المجال السياسي في لبنان

حرمان الحركيين من المناصب السياسية الرسمية:

كان مجال الاشتراك في العمل السياسي الرسمي في عهد الانتداب الفرنسي في لبنان مشرعاً على مصراعيه بوجه خريجي معاهد التعليم الفرنسي، وللناطقين باللغة الفرنسية، وللموالين لفرنسا صدقاً أم تزلفاً، وللكيانيين اللبنانيين. وكان موصداً بوجه خريجي معاهد التعليم الأنكلوسكسوني، والناطقين باللغة الإنكليزية، والمجاهرين بنزعتهم التحررية وميولهم العربية الوحدوية. وطوال فترة الانتداب الفرنسي، كانت المناصب السياسية العليا، والوظائف الرفيعة كلها تقريباً من نصيب أبناء الفريق الأول دون سواهم. وهكذا كتب على معظم أعضاء الحركة العربية السرية أن يحرموا من المشاركة المباشرة العلنية في العمل السياسي الرسمي. ولكن هذا الحرمان المفروض لم يمنعهم من ممارسة نشاطهم السياسي عبر قنوات أخرى.

قنوات التعبير عن مواقف الحركة السياسية:

كانت وسائل الحركة للتعبير عن مواقفها السياسية متنوعة، مثل المشاركة في عقد المؤتمرات القومية الوحدوية، وتوقيع العرائض، وتقديم الشكاوى، ورفع المذكرات المطالبة بالحرية والاستقلال، وما شابه ذلك. وكثيراً ما كانت الحركة تلجأ إلى التظاهر والإضراب. وكانت الغاية من اللجوء إلى هذه الوسائل الاحتجاج والاستنكار في بعض الأحيان، والابتهاج والتأييد في أحيان أخرى، حسب طبيعة الحدث المقصود. وكان من

الأسباب الداعية للتظاهر، ما هو داخلي صرف عائد، مثلاً، إلى الخلاف مع السلطة على تحديد ساعات العمل، وأجور العمال، ومنها ما هو خارجي بدافع الانتصار لبلد عربي تعرض للظلم، أو حقق انتصاراً في معركة الحرية. وعندما كان مجلس قيادة الحركة الأعلى يقرر الدعوة إلى التظاهر، أو تلبية دعوة ما للمشاركة فيه، كان يوعز إلى أجهزة الحركة ونقط اعتمادها المختلفة لبذل أقصى الجهد للمشاركة في التظاهر والعمل على إنجاحه. وكانت المظاهرات في تلك الفترة تبتدئ غالباً في رأس بيروت بجوار الجامعة الأميركية حيث للحركة وجود كثيف، أو في محيط مدرسة المقاصد الخيرية الإسلامية في الجانب الآخر من بيروت، ثم لا تلبث أن تعم معظم الأحياء البيروتية والمدن اللبنانية الكبرى. وكانت الحركة، إن داعية أم ملبية ومشاركة في تلك التظاهرات، تعمل بسرية مطلقة، وتتستر وراء واجهات علنية وتنظيمات معروفة، دون أن تكشف هي عن ذاتها، وتفضح دورها في ما كان يجري من تظاهرات وإضرابات. مثال ذلك، ما رواه يوسف شديد في مذكراته بهذا الخصوص حيث يقول:

«ففي عام ١٩٣٥... منح المفوض السامي شركة فرنسية حق استثمار التبغ في لبنان الجنوبي. وكنت والصديقين في صفي، ميشال عيسى وعماد الصلح، من الذين استنكروا هذا التصرف من قبل سلطات الانتداب، فتلقينا إشارة من كاظم وتقي الدين الصلح، شقيقي عماد، للقيام بتظاهرة احتجاج تضم طلاباً من مدارس عدة، خاصة في بيروت. وهكذا كان. فقد تجمعنا في باحة ثانوية الجامعة الأميركية، ومنها سرنا مشياً على الأقدام إلى ساحة البرج (ساحة الشهداء) في وسط المدينة، حيث كان تقي الدين الصلح قد أعدّ، وغيره من الوطنيين، سيارات أقلتنا إلى بكركي حيث قابلنا البطريرك الماروني أنطون عريضة، طالبين إليه بإلحاح إبلاغ الفرنسيين احتجاجنا على تصرفهم وتفردهم باتخاذ قرار احتكار استثمار صناعة التبغ في لبنان»(٢١).

بهذه الوسائل وهذه الأساليب حاولت الحركة العربية السرية كسر

---

(٢١) يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية، ص ٣٣ ـ ٣٤.

الطوق الذي كان يمنعها من ممارسة نشاطها السياسي بحرية في لبنان.

أما أكثر القضايا السياسية اللبنانية حساسية وتعقيداً فكانت مسألة الكيان اللبناني المستقل؛ وكان للحركة العربية السرية موقف خاص مميز منها. ففي أوائل سنة ١٩٣٦ بدأت الاتصالات الرسمية لعقد معاهدة بين فرنسا وسوريا، ومعاهدة أخرى بين فرنسا ولبنان، تنهي فرنسا بموجبهما نظام الانتداب، وتعترف باستقلال وسيادة كل من البلدين، وفق شروط تعاقدية تنص عليها المعاهدتان، وتنظم العلاقات الجديدة بين فرنسا من جهة، وكل من سوريا ولبنان من جهة أخرى. أثارت هذه الاتصالات قلق طلاب الوحدة السورية من اللبنانيين، فدعا زعماؤهم المتشددون إلى عقد مؤتمر عام لدرس الوضع الناشئ، وإتخاذ الموقف المناسب منه. عقد المؤتمر، الذي عرف باسم «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة»، نهار الخميس في العاشر من آذار سنة ١٩٣٦ بدار سليم علي سلام في بيروت برئاسته، وبحضور مندوبين من مختلف المناطق اللبنانية.

يتلخص مضمون النقاش الذي دار في المؤتمر بثلاثة أمور:

أولاً، تخوَّف المؤتمرون من أن هاتين المعاهدتين المذكورتين، إذا ما أبرمتا، تكرسا الانفصال السياسي الكامل بين سوريا ولبنان، وتؤهلهما لدخول «عصبة الأمم» عضوين كاملي السيادة والاستقلال، فيكسبا بهذه الصفة، اعترافاً شرعياً بوضعهما الجديد، وضمانات دولية لصون هذا الاستقلال، وتذوي عندئذٍ كل الآمال في تحقيق الوحدة السورية الشاملة.

ثانياً، أعرب المؤتمرون عن رفضهم المطلق لمشروع المعاهدتين، ولأي مشروع آخر يرمي إلى استقلال لبنان الكامل الدائم، ويطالبون بإصرار بإلحاقه بسوريا ليصير البلدان بلداً واحداً موحداً. وانقسم المؤتمرون بهذا الخصوص إلى فريقين، فريق أول يطالب بتحقيق الوحدة السورية الشاملة فوراً، وفريق ثانٍ يرى أن يُمهل اللبنانيون بعض الوقت، لعلهم يعودون ويقبلون بالوحدة عن قناعة ورضا. وفي نهاية النقاش الذي دار حول هذه النقطة، انتصر الفريق الأول المطالب بالوحدة السورية الفورية.

ثالثاً، قرر المؤتمرون، بناءً على ما أسفرت عنه نتيجة النقاش، رفع مذكرة بمطالبهم، كما قررها المؤتمر، إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل المزمع على السفر قريباً إلى باريس، حيث ستبدأ المفاوضات بشأن المعاهدة الفرنسية السورية أولاً، لكي يرفعها إلى حكومته. وقد اختتمت المذكرة بالفقرة التالية:

«يقرر المؤتمر المنعقد في بيروت في ١٠ آذار سنة ١٩٣٦ تأييد مقررات المؤتمرات السابقة ومطالبها وفي رأسها السيادة والحرية التامتان، والوحدة الشاملة تأييداً مطلقاً، مؤكدين لفخامتكم أن كل حل لا تجاب به هذه المطالب المشروعة لا يكون نصيبه إلا الفشل»[٢٢].

وقع هذه المذكرة جميع الحاضرين، ما عدا ثلاثة كلهم من أعضاء الحركة العربية السرية، وهم كاظم الصلح، وعادل عسيران، وشفيق لطفي. وطلب كاظم الصلح الكلام لشرح وجهة نظره وزميليه ولكن رئيس المؤتمر لم يأذن له بالكلام بحجة أن المؤتمر قد قال كلمته، واتخذ قراره، وانتهى الأمر.

وبعد بضعة أيام أعد كاظم الصلح رداً مسهباً على ما قيل وما جرى في المؤتمر، ونشره في الصحف، وأصدره بكراس مطبوع مستقل بعنوان «مسألة الاتصال والانفصال في لبنان». وقد أعيد نشره مؤخراً في كتاب بعنوان «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة»، من إعداد الدكتور حسان حلاق[٢٣]. فماذا جاء في ردّ كاظم الصلح؟

إن البيان مسهب وطويل، ولا يتسع هنا المجال للدخول في تفاصيله كاملة، بل يكفي أن نستشهد بفقراته المهمة التي جاءت رداً على بعض ما عرض في المؤتمر من أفكار وآراء، رأى الصلح أنها لا تخدم القضية القومية العربية الأساسية في شيء، وأنه من واجبه القومي أن يرد عليها، ويحاول تصحيحها وتصويبها نحو السبيل السوي.

---

(٢٢) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، ص ٦٩.

(٢٣) المصدر ذاته، ص ٧٣ ـ ٨٩ وفيه النص الكامل لبيان كاظم الصلح.

استهل كاظم الصلح بيانه بقوله إنه اعتذر عن الموافقة على نص المذكرة التي أقرها المؤتمر لأسباب منها ما هو شكلي، ومنها ما هو أساسي. وذكر من الأسباب الشكلية المهمة رفضه الموافقة على:

«أن يخاطب فخامة المفوض ممثل فرنسا كصاحب صلاحية في عملية قومية صرفة كهذه العملية[٢٤]... هذا إلى أن طلب التوحيد يجب إن يجري فيه التخاطب والمفاوضة، بين طالبيه وبين الفريق الآخر من أصحاب البلد الحقيقيين، دون الأجنبي، أعني اللبنانيين. وهذا الاعتبار خلت منه العريضة مع الأسف»[٢٥].

وذكر كاظم الصلح من الأسباب الأساسية الأمور التالية:

أولاً، رداً على إصرار المؤتمر على طلب الوحدة السورية الشاملة، قال الصلح:

«إن الأمر ليهون عليّ كثيراً حينما أنظر إلى القضية نظرة قومية لا نظرة سياسية. فإنني إذ أقول إنني أحب الوحدة وأريدها لا أرمي بذلك إلى شكل من الأشكال الحكومية الإدارية. بل أرمي إلى وطن كبير يستطيع أن يحوي عناصر الحياة، سكانه يحبونه، وأعداؤه يرهبونه. وليس هذا ميسوراً في الكيان اللبناني ولا في الوحدة السورية، بل هو قائم في مجال آخر أكثر اتساعاً وشمولاً. وجوده لا يتعارض مع هذه الاستقلالات المحلية لضخامة شأنه وضآلة شأنها. ذلك هو قوميتي العربية»[٢٦].

ثانياً - ورداً على التشكيك في مشروعية «الاستقلال» في لبنان قال الصلح:

«إنني لم أعد أجد فائدة كبيرة في الجدل السياسي الذي يدور منذ عشرين سنة حول مشروعية «الاستقلال» في لبنان، وحول إلحاقه أراضي الولايتين به، أو وجوب فصلها وإلحاقها بسوريا الداخلية، لا سيما وأن الجدل

---

(٢٤) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، ص ٧٧.

(٢٥) المصدر ذاته، ص ٧٧.

(٢٦) المصدر ذاته، ص ٨٤.

في هذا كله ـ ولو كان بنية حسنة ـ يعود بنا إلى الخلاف، إلى... استفزاز الأعصاب وإثارة البغضاء، وبقاء الجدل حيث هو، وبقاء التهمة على الملكية والغصب حيث هي... ليس هذا ما نريده، ولا هذا ما يريده الوحدويون والانفصاليون في عهدهم الحاضر. ولكني على ثقة بأن هذا هو الذي سيحصل إذا عولجت القضية السياسية بين لبنان وأراضيه وبين سوريا على الشكل الذي عولجت به في مؤتمر الساحل أمس، وفي أمثاله من التجمعات»[٢٧].

ثالثاً، وحول المطالبة بفصل الأقضية الأربعة عن لبنان وإلحاقها بسوريا قال الصلح:

«وأقول وأؤكد أننا في سبيل بناء وطننا الكبير [الوحدة العربية الشاملة] يجب أن نقدم أعظم القرابين. فإذا كنا في بيروت، أو الساحل، أو الأقضية الأربعة أبناء منطقة نعتبرها مطلوبة، فإننا مستعدون لأن نقدم مصلحة الوطن على كل مصلحة للمنطقة... إن أبناء الساحل طلاب الوحدة سيرون أنفسهم آنئذٍ أمام وحدة أكبر وأعرق من التي طلبوها»[٢٨].

رابعاً ـ ولكي لا تكون الوحدة مصطنعة وغصباً، قال الصلح:

«ولكن يجب أن يدركوا [طلاب الوحدة] قبل كل شيء أن هذه الوحدة لا تقوم بقرار من المفوض السامي الفرنسي، ولا بالتظاهرات، ولو تمت بأحد هذه الأشكال فهي لن تكون وحدة صحيحة، بل تكون فتحاً أو «غصباً»، كذلك الغصب نفسه الذي يعترض عليه أبناء منطقة الساحل بالنسبة إلى لبنان. نحن لا نريد أن نبني وطناً نصف سكانه أعداء له. وبكلمة أخرى نحن لا نريد أن يرغم إرغاماً فريق كبير من سكان الساحل على الانضمام إلى سوريا وطن الوحدة. فمن الخرق أن تتجدد التجربة التي حصلت في لبنان الكبير فجعلت نصف سكانه أعداء له. بل نريد ـ إذا كان لا بد من انضمام لبنان وملحقاته إلى الوطن السوري ـ أن يتم ذلك بالاتفاق

---

(٢٧) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٢٨) المصدر ذاته، ص ٨٥.

والتراضي والإقناع والإيمان بأن هذا كان لخير الجميع، لا لخير فريق واحد»[٢٩].

خامساً ـ وعن التطورات الحاصلة في الجو اللبناني بشأن المسألة الطائفية، قال الصلح:

«إن كلمة «الوحدة» لم تعد تعني «الإسلامية» وسيطرتها «المتعصبة» كما كانت في مطلع عهد الاحتلال. ولكن الحق أنه بقي شيء من هذا المعنى في أذهان كثير من اللبنانيين المسيحيين. فلا بد لك من جهد حتى يتضح لمخاطبك من هؤلاء أنك لا تقصد «الإسلامية» المسيطرة، بل تقصد جسماً صحيحاً غير مقطع الأوصال. هنا يبدو النقص الذي سيطر على «مؤتمر الساحل» أمس. فإن غالبة المؤتمرين لم تنظر بعين الاعتبار إلى تلك التطورات الحاصلة في الجو اللبناني... فكان هذا سبباً من أسباب امتناعي عن التوقيع على قرار المؤتمر»[٣٠].

سادساً ـ ولما سأل عبد الحميد كرامي كاظم الصلح في المؤتمر، قائلاً:

«إلى متى تريد أن ننتظر تمام التطور [في لبنان] نحو الوحدة؟».

ردّ الصلح على هذا السؤال، وأمثاله من التساؤلات في بيانه بالقول:

«لست أرى من الكوارث الكبرى أن يظل لبنان على شكله الحالي إلى الأجل الذي يريد (على فرض أن يتحرر من السيطرة الأجنبية)، شريطة أن يعتنق منذ اليوم الفكرة والقومية العربيتين. فإن انفصاله عن سوريا الكبرى العربية، هو عندي كانفصال سوريا العربية عن العراق العربي. أي أنني لا أجد في هذا الانفصال بأساً ما دامت تلك القومية تترعرع وتصان في كل قطر إلى أن تثبت لهذه الأقطار أن مصلحتها في الاتحاد»[٣١].

سابعاً ـ وطرح كاظم الصلح في ختام بيانه الاقتراح التالي:

«فعلى ضوء هذه الحقائق... أتمنى أن يقوم فريق من كرام الناس

---

(٢٩) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، ص ٨٥.

(٣٠) المصدر ذاته، ص ٨٢.

(٣١) المصدر ذاته، ص ٨٦ ـ ٨٧.

المفكرين فيجتمعوا، أو يتباحثوا، أو يتناجوا، أو يتشاوروا، فيجدوا صيغة فكرية وبرنامجاً سياسياً قومياً يخرجون به الوطنية اللبنانية الانفصالية والوحدة الاتصالية من عالم الإبهام والتنافر، فيوفقون بينهما لخيرهما معاً»[٣٢].

هذا ما أرادت الحركة العربية السرية قوله بصدد مناقشات ومقررات مؤتمر الساحل، وقد قالته بقوة وصراحة بلسان كاظم الصلح ورفيقيه الحركيين عادل عسيران وشفيق لطفي عندما رفضوا توقيع مقررات ذلك المؤتمر.

قوبل بيان كاظم الصلح باهتمام كبير في سائر الأوساط السياسية اللبنانية، وغير اللبنانية نظراً للسياسة القومية العقلانية السمحة المنفتحة المتطورة التي تبنتها الحركة العربية السرية في تلك المناسبة والتي عبر عنها أمين الحركة كاظم الصلح في بيانه المشهور. ولا شك في أن هذا البيان كان أحد العوامل التي ساعدت على تخفيف مخاوف «الانفصاليين»، وتلطيف الأجواء، وتليين مواقف «الوحدويين» في المديين القريب والبعيد. ويذكر بهذا الصدد أنه عندما أقدمت السلطات الفرنسية في سنة ١٩٤٣ على اعتقال رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس الوزراء والوزراء، كان الحركيان تقي الدين الصلح وحسين سجعان أول من اتصل بالجانب الآخر، ببيار الجميل، واتفقا وإياه على توحيد إمكانات «النجادة» و«الكتائب اللبنانية» على مواجهة الإجراء التعسفي الغاشم الفرنسي. ويذكر أيضاً في هذا السياق، أنه بعد مضي أقل من عشر سنوات على «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة» كان أحد أركان الوحدويين المتشددين في ذلك المؤتمر، عبد الحميد كرامي، يتولى رئاسة الحكومة اللبنانية، ويدافع بقوة وإخلاص عن مصالح لبنان وسيادته واستقلاله، كما تشهد بذلك محاضر جلسات مجلس النواب اللبناني في حينه.

---

(٣٢) حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، ص ٨٩.

٩ ـ نشاط الحركة في المجال العسكري في لبنان

كان تدريب الشباب على استعمال السلاح، وتعويدهم على حياة الجندية، قد أصبح تقليداً رائجاً في لبنان خلال الثلاثينات، من القرن الماضي. فكان لكل حزب من الأحزاب الكبيرة، مثل حزب الكتائب اللبنانية، والحزب السوري القومي، وحزب النجادة، والحزب الشيوعي، جناح عسكري يتدرب أفراده على استعمال السلاح وأساليب القتال، ويشكلون «ميليشيا» خاصة لذلك الحزب. وكانت هذه الميليشيات تخرج عن سيطرة أصحابها أحياناً، وتتقاتل فيما بينها، ومع قوات السلطة أيضاً، وتخلق جواً من الفوضى والذعر، وعدم الاستقرار الأمني العام في البلاد، لأسباب سياسية وطائفية وحزبية، وغيرها من العوامل المثيرة للغرائز.

ولم تتخلف الحركة العربية السرية عن اتباع هذا التقليد، معتبرة أن الجهاد، بمختلف أنواعه وأشكاله، في سبيل العقيدة القومية، واجب مقدّس مطلوب من كل عربي قادر عليه[٣٣]. ولما كان من الجهاد ما يعتمد القوة فقد أقرت الحركة مبدأ تدريب أعضائها على استعمال السلاح، وكانت غايتها من ذلك تحقيق الهدفين التاليين: أولاً، إعداد الشباب ليكونوا قادرين للدفاع عن الوطن، ولئلا تفاجئهم الأحداث يوماً وهم على غير استعداد لمواجهتها. وثانياً، تنشئة الحركيين تنشئة عسكرية تكسبهم الفضائل الحميدة والمناقب الرفيعة التي تتحلى بها روح الجندية الحقة، من مثل الشجاعة، والتضحية، والانضباط، والشعور بالمسؤولية، والقيام بالواجب، وإطاعة الأوامر، وحب الوطن، والدفاع عنه، وغيرها.

واختلفت الحركة العربية السرية، في هذا المجال، عن غيرها من الأحزاب في لبنان، في أنه لم يكن لها جناح عسكري، ولا ميليشيا خاصة، ولم تشتبك بنزاع مسلح مع أحد. وكانت خطتها للتدريب في لبنان مرنة تأخذ بعين الاعتبار ظروف أعضائها الخاصة وقدرتهم على القيام بهذا الواجب الحزبي الوطني. مثال ذلك أن تدريب الحركين الطلاب في الخلايا

---

(٣٣) الكتاب الأحمر، المادة ٩، ص ٨.

السرية بالجامعة الأميركية كان يجري نهار الأحد ـ نهار العطلة ـ بمنطقة الرملة البيضاء ومنطقة الأوزاعي القريبتين في جنوب بيروت. وكانت هاتان المنطقتان في أواسط الثلاثينات مقفرتين خاليتين من العمران. ويذكر مالك المصري في مذكراته هذه الناحية من النشاطات المطلوبة من أعضاء الخلايا السرية من الطلاب، فيقول:

«في صبيحة يوم أحد، جاءني أحد زملائي في الخلية... وخاطبني مستنكراً... «أنسيت أن هذا اليوم هو موعدنا للتدرب على استعمال الأسلحة؟»... قلت مهلاً يا رفيقي، دقائق وأرتدي ثيابي وأرافقكم... وانطلقنا جميعنا في سيارة أجرة إلى منطقة الأوزاعي... وكانت الأرض عندئذٍ خلاءً، تنتشر فيها الكثبان الرملية وشجيرات الصبر... وكان في انتظارنا رجل كهل من أهالي بيروت... كان يحمل في يمناه بندقية، وأشار إلينا أن نتبعه، فسرنا خلفه في خطى غير ثابتة، فقد كانت أقدامنا تغوص في الرمال»[٣٤].

وقد أفادني الدكتور أمجد غنما والسفير السابق يوسف شديد أن كلاًّ منهما تدرب على استعمال السلاح مع أفراد خليته في منطقة الأوزاعي وفي الرملة البيضاء.

إن هذا يمثل مجمل النشاط العائد إلى التدريب العسكري الذي قامت به الحركة العربية السرية في لبنان.

١٠ ـ الحركة والعمل الاجتماعي

من القول إلى الفعل:

كانت الحركة العربية السرية، عند تأسيسها، قد أخذت على نفسها عهداً، بأن لا تكتفي بالتنظيم والتبشير بالقضية القومية، بل أن تقرن القول بالفعل، وتقوم بأعمال، وتتخذ مبادرات تخدم أهدافها، وتجسد مبادئها، وخصوصاً ما يتصل منها بتحرير الإنسان العربي من كوابيس الجهل، والفقر، والمرض، والعبودية، وانعدام الثقة بالنفس، وبإحداث نهضة شاملة في

---

(٣٤) مالك المصري، نابلسي بالجامعة الأميركية، ص ٩٠ ـ ٩١.

المجتمع العربي، تخرجه من مهاوي التخلف، والفرقة، والضعف، وتقوده في طريق التقدم، والقوة، والوحدة. ولم تكن الحركة تجهل ضخامة هذا المشروع، والإمكانات البشرية والمادية والتنظيمية الهائلة التي يتطلبها تحقيقه على وجه كامل صحيح.

ولما كانت ضخامة المشروع، وتكاليفه الباهظة، وظروف العالم العربي المتعثرة، تجعل تنفيذه أمراً بعيد الاحتمال في المستقبل القريب، فقد رأت الحركة أن ذلك لا يشكل عذراً مقبولاً للتخاذل، وسبباً مقنعاً للتنصل من المسؤولية القومية المترتبة على كل مواطن شريف. وأكدت الحركة كذلك، أن ما من شيء يجوز أن يمنع الهيئات القومية وعناصرها في كل قطر من القيام بما يستطيعون من الأعمال والمبادرات التي تساهم، ولو بمقدار متواضع، في رفع مستوى المجتمع العربي العام، وأن كل فائدة تنتج عن هذه الأعمال، مهما كبر شأنها أو صغر، هي كسب يجب الانتفاع به، وعدم تفويته. وقد تصبح هذه الأعمال والمبادرات، في حال نجاحها، مثالاً يحتذى، وحافزاً لأبناء الأقطار الأخرى على القيام بمثلها. وبقدر ما تزداد هذه الأعمال والمبادرات عدداً وانتشاراً، ويزداد عطاؤها فعالية وغنى، تخف عن كاهل المجتمع العربي وطأة العلل والأوصاب التي ينوء تحتها، ويكون قد تقدم خطوة جديدة باتجاه الهدف النهائي المنشود.

بهذا الإيمان وهذا الأمل نزلت الحركة العربية السرية إلى ساح العمل الميداني المباشر، وحققت خلال السنوات القليلة التي عاشتها بضع إنجازات مهمة بمعانيها ودلالاتها، وإن بدت متواضعة محدودة بأحجامها ونتائجها. وهنا لا بد من إعادة التذكير بأن الحركة، في سبيل المحافظة على سريتها المطلقة، لم تكن تتبنى علناً الأعمال التي تقوم بها، وبأن تلك الأعمال كانت تنسب إلى منفذيها الظاهرين فقط، فيهمل ذكر الحركة ويلف دورها النسيان. وبضياع وثائق الحركة، وصمت الحركيين في الماضي، ورحيل معظمهم في السنوات الأخيرة، أصبح التمييز بين ما قامت به الحركة ونسب إلى سواها، وبين ما لم تقم به من أعمال، أمراً متعذراً، إلا على الحركيين

الذين كانوا قد كلفوا القيام، أو المشاركة في القيام، بأعمال معينة حددت لهم أدوارهم فيها. فإن هؤلاء الحركيين مطلعون على الحقائق، وملمون بالتفاصيل الكاملة المتعلقة بتلك الأعمال المحددة التي ساهموا في إنجازها. لذلك، فإن الأمثلة عن أعمال الحركة في لبنان التي أعرضها فيما يلي هي أعمال قمت بها، أو شاركت فيها، أو اطلعت على حقائقها وتفاصيلها التي بقيت مكتومة في الصدور طوال ما يزيد على ستين سنة، والتي أذيعها وأكشف النقاب عن أسرارها لأول مرة خدمة للحقيقة والتاريخ، وقبل فوات الأوان، وضياع هذه المعلومات إلى الأبد.

١١ ـ الحركة ومشروع إنعاش القرى

تأسيس مشروع إنعاش القرى:

مثلما اتخذت الحركة العربية السرية جمعية العروة الوثقى ومجلتها بالجامعة الأميركية في بيروت منبراً لتوضيح مبادئها القومية ونشرها، فإنها، كذلك، اتخذت مشروع إنعاش القرى أداة عملية ونقطة اعتماد لتطبيق هذه المباديء في قرى الريف الزراعي اللبناني.

تأسس مشروع إنعاش القرى (The Village Welfare Service) في أواسط الثلاثينات بالجامعة الأميركية في بيروت، بمبادرة من رئيسها بيارد دودج (Bayard Dodge) وأساتذة بدائرة علم الاجتماع بالجامعة، وخصوصاً الأستاذ ستيورت دود (Stuart Dodd) الأميركي، والأستاذ اللبناني، عضو الحركة، عفيف طنوس، بالتعاون مع معهد الحياة الريفية، ممثلاً بمديره الأستاذ حليم نجار[٣٥]، وبتأييد ومشاركة من عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأصدقاء. وقد تم تأسيس مشروع إنعاش القرى، في نفس الوقت تقريباً الذي تأسست فيه الحركة العربية السرية، وإن بعض الأساتذة القياديين الشباب من مؤسسي الحركة، مثل قسطنطين زريق[٣٦] وعفيف طنوس وسواهما، ساهموا بتأسيس

(٣٥) حليم نجار، في مقابلة في بيروت نهار الخميس ١٥ آذار سنة ٢٠٠١.
(٣٦) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ج ١، ص ١١٤.

مشروع إنعاش القرى، وشاركوا في أعمال المشروعين وتطورهما.

أهداف المشروع:

كان لمشروع إنعاش القرى ثلاثة أهداف، هي، أولاً، تعريف المثقفين الجامعيين على مشاكل المجتمع الريفي اللبناني بصورة مباشرة، وحفزهم على الاهتمام بها، والمشاركة في درسها، وتدريبهم على بحثها، ومحاولة استنباط الحلول الناجعة لها. وثانياً، اعتبار المشروع الجانب العملي، والمجال التطبيقي المكمل للمنهاج الأكاديمي النظري الذي يتعلمه الطلاب في دائرة علم الاجتماع بالكتب، ويتلقنونه من أساتذتهم في غرف الدرس وقاعات المحاضرات. وثالثاً، المساهمة، بقدر ما تسمح به الإمكانات المتوفرة، في إصلاح المجتمع الريفي، وذلك بالذهاب إلى القرى، والاختلاط بالقرويين الفلاحين، وتقديم العون والإرشاد لهم، ومساعدتهم على التغلب على مشاكلهم في شتى المجالات والحقول.

علاقة المشروع بالحركة:

علق رئيس الحركة العربية السرية، قسطنطين زريق، على هذه الأهداف بقوله:

«ومن هذا يتبين أن مشروع إنعاش القرى الذي أخذ على عاتقه خدمة الفلاح العربي وإنهاضه إلى مستوى الحياة الغنية الكاملة، لا ينفصل في غايته عن الفكرة القومية، بل هو منها في الصميم»[٣٧].

وإنه ليس بمستغرب بصدد ذلك أن نسمع قسطنطين زريق يقول:

«وقد كان لي حظ العمل تحت لواء مشروع إنعاش القرى، الذي يسعى إلى إصلاح الحياة الريفية في البلاد العربية، فنظرت إلى هذا المشروع كمشروع قومي في جوهره وروحه، وأوضحت لنفسي العلاقة التي يجب أن تربطه بالفكرة القومية وسبل تحقيقها... وأشعر شعور اقتناع ويقين أن هذه الروح يجب أن تشيع فيه، بل في كل مشروع اجتماعي عربي، وأنها هي

(٣٧) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ج ١، ص ١١٤.

وحدها كفيلة بأن تبعث في هذه المشاريع قوة الحياة ونضرتها، وتؤمن لها النجاح الحق والنفع الجزيل»(٣٨).

ولما كانت مبادئ مشروع إنعاش القرى وأهدافه الإنسانية تتطابق كلياً مع جانب رئيسي من مبادئ الحركة العربية السرية وأهدافها القومية، فقد دعمت الحركة المشروع بقوة، وحثت أعضاءَها على الانخراط فيه والمساهمة الفاعلة بجميع أجهزته ونشاطاته. وكان من نتائج هذا الترابط والتلاحم بين المشروع والحركة أن اكتسبت رسالة المشروع الإنسانية بعداً قومياً، وسع آفاقها، وأغنى مضمونها، ونفحها بالروح التي «**تبعث في هذه المشاريع قوة الحياة ونضرتها**»، على حد قول قسطنطين زريق. وهكذا اخترقت الحركة مشروع إنعاش القرى، واحتوته، وجعلته نقطة اعتماد رئيسية لها؛ أو هكذا خيل إلينا نحن الحركيين. فقد كنا نعمل بالمشروع وله باندفاع، وإخلاص، وكأننا نعمل في الحركة ذاتها دون تمييز بين الاثنين. ولِم لا!، والمبادئ هي ذاتها، والأهداف واحدة مشتركة، تتركز على مساعدة أهل الريف ومساعدتهم على تحسين ما هم فيه من حال.

دورة الصيف ودورة الشتاء:

كانت اللّجنة العليا المسؤولة عن أعمال المشروع تتألف من أساتذة الجامعة وموظفيها وطلابها. وكان عملها ينقسم إلى شقين: شق إداري، وشق عملي تطبيقي، ويحصل في دورتين متواليتين، دورة أولى تحضيرية، تدوم طوال العام الدراسي في الجامعة، ودورة ثانية تطبيقية تمتد شهرين من أواخر حزيران إلى أواخر آب من كل عام. في الدورة الأولى كان عمل اللجنة يجري داخل حرم الجامعة، ويتركز، بالدرجة الأولى، على الدعاية للمشروع، وشرح أهدافه، والتعريف بأعماله ومنجزاته، والاجتهاد بجمع المال اللازم لتغطية نفقاته، والتحضير للدورة الثانية خلال شهري الصيف.

وفي الدورة الثانية، كان العمل والعاملون المتطوعون يغادرون حرم

---

(٣٨) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، ص ١١٤.

الجامعة خلال العطلة الصيفية[٣٩]، وينتقلون إلى ميدان العمل الفعلي في الريف، وهم يحملون معهم المعدات والتجهيزات الضرورية لعملهم وتشييد المخيمات.

اختيار البقاع وعكار ميداناً لعمل المشروع:

لما كانت منطقة البقاع ومنطقة عكار من أوسع المناطق الزراعية وأشهرها في لبنان، وكان القرويون الفلاحون من أهلهما يعيشون في حال يرثى لها من الجهل والبؤس، فقد اختارهما مشروع إنعاش القرى، والحركة العربية السرية ضمناً، ميدانين لنشاطهما، ونقطتي الانطلاق في تطبيق مبادئهما الإنسانية وأهدافهما القومية، آخذين بأيدي الفلاحين البقاعيين والعكاكرة، ومساعدتهم على تحسين أوضاعهم ورفع مستوى حياتهم من مختلف النواحي. فأقام المشروع مخيماً بخراج بلدة جبرايل بوسط عكار، ومخيماً ثانياً بمدخل بلدة جديتا من جهة شتورة في سهل البقاع. فكان المخيم مقر المشروع، ومركز عمله، ومحور نشاطه، ومكان إقامة المتطوعين للعمل الصيفي فيه. وكانت الحياة في المخيم تسير وفق نظام خاص شبيه، إلى حد ما، بالنظم المتبعة في المخيمات الكشفية والثكنات العسكرية. وكان يسهر على تنفيذ هذا النظام، ويتولى إدارة المخيم أحد أركان المشروع مثل عفيف طنوس، وحليم نجار، وزكن شخاشيري وسواهم.

أعمال المتطوعين بالمشروع:

كان عدد العاملين في المخيم الواحد يبلغ حوالى أربعين متطوعاً، مسيحيين ومسلمين، ذكوراً وإناثاً، لبنانيين وغير لبنانيين، من أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت وموظفيها، وطلابها، وخريجيها. وكان منهم الطبيب،

---

(٣٩) في تلك الأيام، لم تكن تقام في الجامعة الأميركية في بيروت، دورات دراسية صيفية، كما هي عليه الحال الآن، بل كانت الدروس تتوقف تماماً، وتقفل الجامعة أبوابها، ويغادرها جميع الطلاب والأساتذة ومعظم الموظفين، ولا يعودون إليها إلا في نهاية العطلة الصيفية التي تمتد حتى أواخر أيلول أو أوائل تشرين الأول.

والممرضة، والمهندس المدني، والمهندس الزراعي، والمعلم، والمدرب الرياضي، والمرشدات الاجتماعيات وسواهم. وقد شمل عملهم عدة حقول كان منها: معالجة المرضى، والوقاية الصحية، والإرشاد الزراعي، وتدبير المنزل، والعناية بالأطفال، والإسعافات الأولية، ومكافحة الأمية للكبار، وتعليم الصغار، والرياضة البدنية، ووسائل الترفيه والتسلية، والعناية بماء الشرب، وتحسين أحوال البيئة، وتشجيع الصناعات اليدوية المحلية وتطويرها. فكنت ترى المتطوعين في الصباح يهبون إلى العمل، فيذهب الطبيب إلى المستوصف لاستقبال المرضى، والمرشد الزراعي مع الفلاحين إلى الحقول والبساتين وزرائب الدواجن والطيور، والمدرس إلى مدرسة القرية لاستقبال التلاميذ، والمرشدات الاجتماعيات إلى منازل القرويين ليرشدن ربات البيوت ويدربنهن على أهم مبادئ الإسعافات الأولية، والعناية بالأطفال، وتدبير المنزل، وما إلى ذلك من مشاريع. وأذكر بشكل خاص، أن حاجة القرويين إلى العناية الطبية كانت كبيرة جداً، لأن معظم قراهم، إن لم نقل جميعها، كانت خالية من الأطباء. لذلك كان إقبال المرضى القادمين من مختلف القرى المحيطة بالمخيم، على مستوصف المشروع، شديداً. وقد انتفع من هذه الخدمات الطبية عشرات، بل مئات القرويين المرضى، من نساءٍ، ورجال، وأطفال. وكانت الأدوية المتوفرة لدى المشروع تعطى مجاناً إلى المحتاجين من المرضى. وقد ساهم عدد من أطباء الجامعة بهذا العمل الإنساني والقومي؛ ولا يزال عالقاً بذاكرتي منهم الأطباء خليل واكيم وزكن شخاشيري وهنري نخمان، وراسم الذوق.

إن قصة الإنجازات التي كان يحققها المتطوعون يومياً في مخيمات مشروع إنعاش القرى على مدى السنوات الأربع التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية قصة شيقة ومفيدة وطويلة. وللاختصار أكتفي بإيراد ثلاثة نماذج منها، مأخوذة من ثلاثة حقول عمل مختلفة، يتعلق أولها بمكافحة الأمية، وثانيها بما اصطلحنا على تسميته في حينه «قصة طريق العين»، وثالثها بقصة توفير مياه الشرب النظيفة في إحدى قرى عكار.

مكافحة الأمية في المشروع:

كان التعليم أحد المجالات التي انصب عليها اهتمام مشروع إنعاش القرى، وكنت مسؤولاً عن العمل في هذا الحقل. ففتحنا في القرى التي كنا نعمل فيها مدارس نهارية لتعليم التلاميذ الصغار، ومدارس مسائية لمكافحة الأمية للكبار، بعد عودتهم من العمل في الحقول. فشلنا في السنة الأولى في تعليم الكبار. وتبين لنا أن سبب الفشل يرجع إلى الأسلوب المتبع، والقاضي ببدء القراءة بالتعرف إلى حروف الأبجدية المفردة، وحفظها ولفظها وكتابتها. كان ذلك يستغرق وقتاً طويلاً نسبيّاً قبل أن يستطيع الأمي أن يقرأ. فيملّ ويشعر بالإحباط وينقطع عن المتابعة. وكان أن فشلنا في السنة الأولى في صيف سنة ١٩٣٥.

عرضت هذه المشكلة على صديقي الأستاذ جورج شهلا، الأستاذ بدائرة التربية بالجامعة، فأفادني بأن هناك أربع طرق للبدء بتعلم القراءة، هي: (١) البدء بتعلم الحروف المفردة. أ، ب، ج، د، إلخ، كما فعلنا وفشلنا. (٢) البدء بتعلم المقاطع، مثل با، بو، دا، دو، إلخ. (٣) البدء بتعلم الكلمات، مثل راس، روس، دار، دور. (٤) البدء بتعلم الجملة الكاملة، مثل أنا أقرأ، هو يأكل. واقترح الأستاذ جورج شهلا أن نعتمد الطريقة الثالثة، لأنها الأضمن للنجاح؛ وتبرع بوضع كتاب قراءة على هذه الطريقة، لاستعماله في مخيمات المشروع. وظهر الكتاب بعنوان «مكافحة الأمية»[٤٠] في سنة ١٩٣٧. وكانت حسنته أن الأمي يستطيع بهذه الطريقة أن يبدأ القراءة فعلاً منذ الدرس الأول. واستعملنا الكتاب وظهرت حسناته بسرعة، وتحول الفشل إلى نجاح، واشتهر كأفضل كتاب لتعليم القراءة العربية للكبار. وقد أعيد طبعه ثماني مرات، واستعمل خلال عقود الثلاثينات والأربعينات والخمسينات، في بضعة بلدان عربية مثل ليبيا، والمغرب، واليمن، وغيرها في مشاريع مكافحة الأمية التي كانت تقوم بها المؤسسة

---

(٤٠) جورج شهلا، مكافحة الأمية، الطبعة الأولى (بيروت، مطبعة الكشاف، سنة ١٩٣٧). الطبعة الثامنة (بيروت، مكتبة رأس بيروت، ١٩٦٣).

الأميركية المعروفة باسم «النقطة الرابعة (Point Four) بُعيد الحرب العالمية الثانية. ولتأمين مادة إضافية للقراءة تتبع كتاب «مكافحة الأمية» ترجمتُ بشيء من التصرف وبلغة مبسطة سهلة قصة Ivan the Fool لتولستوي، فنشرت بعنوان جديد هو «المجنون العاقل». يتحدث فيها الكتاب عن حياة الفلاح والعمل الزراعي والعمال ونشاطاتهم وقصصهم. وكذلك قام الأستاذ حليم نجار مدير المخيم بعمل مماثل. فقد زود بعض «الزجالين» اللبنانيين بمعلومات زراعية أساسية، وطلب إليهم «نظمها» بشكل زجلي لأن اللبنانيين يحبون الزجل، ففعلوا. وظهرت بضع كراسات من الزجل الزراعي، ووزعت هذه الكراسات وقصة «المجنون العاقل» على الفلاحين ففرحوا بها وأقبلوا على قراءتها واستفادوا منها من بضعة وجوه.

طريق العين في جبرايل:

كانت قرية «جبرايل»، حيث يقوم مخيم مشروع إنعاش القرى في عكار، تستقي الماء من نبع غزير بمرج في ضاحيتها، يبعد حوالى كيلومتر عن القرية، وكانت الطريق إلى النبع ضيقة، وعرة، وخطرة من أحد جانبيها المفتوح على منحدر، ولا تصلح لسير العربات والسيارات. وكان أهل «جبرايل» يعانون مشقة كبيرة في نقل حاجتهم اليومية من الماء من النبع إلى بيوتهم في القرية، على أكتافهم، أو على ظهور الحمير، أو بغير ذلك من الوسائل البدائية المرهقة. أراد القسم الأكبر من أهل القرية، تحسين حال الطريق، ولكنهم جوبهوا بمعارضة أصحاب العقارات المحاذية للطريق خوفاً من أن يخسروا، في حال توسيع الطريق، بضعة أمتار من عقاراتهم. وكذلك، ظهرت المعارضة ممن يعارضون حباً بالمعارضة فحسب؛ وهكذا مرت السنوات وحال طريق العين تزداد وعورة وسوءاً.

اتصل بنا بعض أهل القرية في السنة الأولى سنة ١٩٣٥، وطلبوا مساعدتنا بالموضوع. فقمنا باتصالات مكثفة مع المعارضين وبينا لهم الفوائد الجمّة التي تعود على قريتهم وعلى كل فرد منهم دون استثناء، وأكدنا لهم أن المتطوعين بالمخيم سيقومون بمعظم العمل ولن يتقاضوا أي أجر من

القرية عن عملهم، وحثثناهم على الاستفادة من خدمات مشروع إنعاش القرى قبل انتهاء المخيم ومغادرة المتطوعين في أواخر آب. وتكللت مساعينا بالنجاح، وقبل الجميع بتوسيع الطريق وتحسينها دون شروط. وما إن شمر المتطوعون عن سواعدهم وباشروا العمل بالطريق، حتى انضم إليهم معظم شباب القرية، وعملوا فريقاً منسجماً رائعاً بالتعاون وبالروح الرياضية الممتازة التي سادت الجو. وما هي سوى بضعة أسابيع حتى اكتمل العمل، وأصبحت طريق العين الجديدة نموذجاً لما يمكن أن يتحقق من تعاون ومن منجزات شبيهة، في جميع أرجاء العالم العربي، متى ساد الشعور بالمسؤولية الوطنية والإخلاص، وصفت النيات، وانتصرت المعاني الإنسانية والمبادئ القومية في نفوس المواطنين.

وأذكر أنني في حفل العشاء السنوي العام الكبير، الذي أقامه مشروع إنعاش القرى بالجامعة الأميركية في بيروت، في وسط العام الدراسي التالي (١٩٣٦)، دعماً للمشروع رويت قصة طريق العين في جبرايل، وأبرزت معانيها ومغازيها الاجتماعية والوطنية، فكان للقصة وقع طيب في النفوس، وذكرتها جريدة النهار بعددها الصادر في اليوم التالي[٤١].

تأمين مياه الشرب النظيفة لقرية في عكار:

وجدنا في إحدى القرى بعكار، وقد غاب اسمها عن بالي الآن، أن أهلها يستقون الماء من نبعة بوسط القرية، مكشوفة ومعرضة لكل أنواع التلوث البشري والحيواني. فهالنا الأمر، ونبهنا السكان إلى خطرها على صحتهم وحياتهم، وعرضنا عليهم ضرورة إصلاحها، بحيث تزول أسباب التلوث، ويصبح ماؤها نظيفاً نقياً، يستقونه من خزان ـ بئر ـ تحت سطح الأرض، بواسطة المضخة اليدوية (الطرنبة) المستعملة في معظم أنحاء لبنان. رحب معظم الأهالي بعرضنا، وخالفته زمرة محترفي المعارضة، كما في كل قرية في لبنان. وكانت حجة المعارضين، أن الماء حين يضخ ويجري في

---

(٤١) جريدة النهار.

قسطل من حديد، يفسد، ويصبح مضراً بصحة الإنسان. ولما كانت سياسة مشروع إنعاش القرى تقضي بأن لا نقدم على تنفيذ أي مشروع إصلاحي في أية قرية قبل الحصول على موافقة إجماعية من أهل القرية، فقد انصرفنا إلى محاورة المعارضين لإقناعهم بسلامة المشروع وفوائده. وكنا قد تعلمنا بالاختبار، أن معظم المعارضين في القرى، يعارضون، بالدرجة الأولى، لفتاً للأنظار، وإثباتاً للوجود، وحباً في أن يستشاروا، ورغبة في أن يثبتوا أن كل عمل مهم في القرية يجب أن يمر عليهم، ويحظى بموافقتهم، وأنه متى تم ذلك تهون الأمور. وعلى هذا الأساس حاورنا المعارضين في القرية، مظهرين لهم كل اهتمام بآرائهم، وتقدير لمواقفهم في الدفاع عن مصالح القرية وخير أهلها. وبعد محاورات طويلة وصعبة انحلت عقدة المعارضة، وفزنا أخيراً بموافقتها، وتحقق إجماع أهل القرية على تحقيق مشروع العين. فقام المهندسون بمشروع إنعاش القرى بما يلزم، وأنجزوا العمل خلال بضعة أسابيع، وركبت المضخة اليدوية على سطح البئر الجديدة. وعندما اكتمل العمل أقمنا حفلة لإفتتاح البئر، حضرها جميع أهل القرية والمتطوعون في المخيم. تكلم أحد أعضاء المخيم مهنئاً أهل القرية بالبئر الجديد وبالمياه النظيفة. وطلب من كبيرهم تشغيل المضخة، فاندفع منها الماء نقياً صافياً غزيراً، وعلا التصفيق ترحيباً بالماء، وابتهاجاً بنجاح المشروع. وتكلم بعض أهالي القرية شاكرين مشروع إنعاش القرى والمتطوعين وجميع الذين ساهموا بتحقيق هذا المشروع الذي وفر للقرية الماء العذب النقي بدل الماء السابق الملوث.

كانت هذه باختصار بضع نماذج من الدور الذي لعبته الحركة العربية السرية في الحقل الاجتماعي من خلال نقطة اعتمادها مشروع إنعاش القرى في العمل الميداني الهادف إلى مساعدة المجتمع العربي المدني المتخلف على النهوض والتقدم نحو حياة أفضل. ولكن المشروع لم يكن القناة الوحيدة التي قامت الحركة من خلالها بتحقيق بعض الأعمال الإصلاحية الأخرى؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر المشروعين التاليين.

١٢ ـ تأسيس نقابة المعلمين في المدارس الخاصة في لبنان

ليس من باب المبالغة القول بأن فكرة تأسيس نقابة المعلمين في لبنان ولدت في مجلس عمالة لبنان للحركة العربية السرية في راس بيروت. وهذا سر لم يذع في حينه، ويجهله الجميع، ما عدا أعضاء مجلس العمالة المذكور، وأعضاء مجلس قيادة الحركة الذي وافق على المشروع، وأعطى الضوء الأخضر للتنفيذ. وإني أذيعه الآن كاملاً لأول مرة.

لم يكن للمعلمين في لبنان، بأواسط الثلاثينات من القرن الماضي، رابطة مهنية وطنية عامة تلم شملهم، وتوحد صفوفهم، وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم، بل كانوا مشتتين ومنقسمين إلى مجموعات فئوية على أساس انتسابهم إلى المدارس التي يعملون فيها، أو الأحزاب أو الطوائف التي ينتمون إليها. وبدلاً من أن يُعرفوا أو يوصفوا بالمعلمين اللبنانيين، كانوا يوصفون بحسب انتماءاتهم، كأن يقال مثلاً، المعلمون اليساريون الشيوعيون، والمعلمون القوميون السوريون، والمعلمون الكتائبيون، والمعلمون العروبيون، والمعلمون المسيحيون، والمعلمون المسلمون، والمعلمون في المدارس الأميركية، والمعلمون في المدارس الفرنسية، والمعلمون بالمدارس الخاصة، والمعلمون بالمدارس الرسمية، إلى آخر ما هناك من مثل هذه التسميات التي تصور واقع الفرقة والانقسام. ولم يكن الاختلاف بالتسمية كل ما في الأمر، بل كانت هذه الفئات من المعلمين تتناحر وتتصارع فيما بينها، ويعارض بعضها بعضاً لأسباب عقائدية، أو سياسية، أو طائفية، أو لغيرها من العوامل. وكان ذلك غالباً يحصل بتحريض من أصحاب المدارس التي يعملون فيها، أو من أصحاب العقائد والمصالح الخاصة الذين يوجهونهم. مثال ذلك أنه كان إذا دعا المعلمون في المدارس الأميركية إلى التظاهر والإضراب لأمر ما، عارضهم، في أغلب الأحيان، المعلمون العاملون في المدارس الفرنسية. وإذا جاءت الدعوة إلى التظاهر من المعلمين اليساريين الشيوعيين عارضهم في الحال المعلمون القوميون السوريون والمعلمون الكتائبيون، أو العكس من ذلك.

لم يكن هذا الوضع التقسيمي الفئوي السائد في صفوف المعلمين اللبنانيين مضراً بمصالحهم هم فحسب، بل ومضراً أيضاً، وبدرجة كبيرة، برسالة التربية والتعليم في لبنان، وبالمصالح القومية العليا.

تنبه أعضاء مجلس عمالة لبنان بالحركة، وكلهم مدرسون، إلى هذا الخلل الحاصل في جسم أسرة المعلمين اللبنانيين، وبحثوه بعناية واهتمام في أكثر من اجتماع، واستقر رأيهم على ضرورة العمل بسرعة لإنهاء هذا الوضع الضار الشاذ، وذلك بإنشاء نقابة تجمع شمل المعلمين من سائر المدارس والمناطق والطوائف والانتماءات، وتشكل كياناً معنوياً موحداً قوياً محترماً، تكون أهدافه الأساسية الدفاع عن حقوق المعلمين ومصالحهم المشروعة، وتحريرهم من التبعيات الفئوية وضغوطاتها، وتعزيز مكانتهم الاجتماعية، ورفع مستواهم المادي والمعنوي، والنهوض برسالة التربية والتعليم على أحسن وجه في لبنان على أيديهم، بقطع النظر عن سائر الاعتبارات الفئوية من أي نوع كانت.

كلف مجلس عمالة لبنان اثنين من أعضائه، تقي الدين الصلح وشفيق جحا، للقيام بالخطوات التمهيدية، وإجراء الاتصالات الأولية مع المعلمين في مختلف المدارس الكبيرة الخاصة في بيروت وجوارها لاستطلاع آرائهم واكتشاف مدى استعدادهم لتحقيق مشروع تأسيس نقابة المعلمين في المدارس الخاصة. بدأنا نحن الاثنين عملية استطلاع آراء المعلمين في المدارس الخاصة المختلفة. فوجد تقي الدين الصلح تجاوباً إجماعياً حسناً لدى زملائه في مدرسة البعثة العلمانية الفرنسية ـ مدرسة اللاييك ـ بمحلة الناصرة، ولدى معلمي مدرسة الثلاثة الأقمار الأرثوذكسية بمحلة العكاوي، وفي مدارس أخرى غيرهما في تلك المنطقة. وقمت أنا بالاتصال بالمعلمين بعدد من المدارس برأس بيروت وجوارها مثل، المدرسة الابتدائية والمدرسة الاستعدادية بالجامعة الأميركية في بيروت، ومدرسة السيدة الأرثوذكسية، ومدرسة الست أمينة خوري، برأس بيروت، والمدرسة الأهلية للبنات بوادي أبو جميل، فكانت استجابة المعلمين والمعلمات بهذه المدارس إيجابية

وإجماعية أيضاً. وكلفنا صديقنا الأستاذ محمد طبارة مدير دار الأيتام الإسلامية، يومئذٍ، وهو شاب قومي مخلص نشيط، باستطلاع آراء المعلمين بمدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. فقام بالمهمة بسرعة، وأفادنا بأنهم جميعاً موافقون.

بقيت علينا المدارس التي تتبع مناهج فرنسية، وتدرس باللغة الفرنسية. فقصدنا صديقنا كلينا الأستاذ فؤاد إفرام البستاني، الذي كان نجمه قد بدأ يسطع كمدير للدروس العربية بجامعة القديس يوسف (اليسوعية) وفي المدارس الكاثوليكية الأخرى. عرضنا عليه مشروع النقابة فاستحسن الفكرة واستصوبها، ووعدنا باستطلاع آراء المعلمين في ذلك القطاع من المدارس، وإفادتنا عن النتائج، التي سيحصل عليها، في وقت قريب. وما هي سوى بضعة أيام حتى أبلغنا الأستاذ البستاني أن المعلمين بالمدارس الكاثوليكية وفي مدارس الفرير وبمدرسة الحكمة وغيرها من المدارس، يؤيدون بقوة فكرة تأسيس النقابة، ومستعدون للانتساب إليها فور تأسيسها.

شجعتنا النتائج الإيجابية لاستطلاع آراء المعلمين بشأن تأسيس النقابة وحفزتنا على المضي قدماً في الحال لاتخاذ الإجراءات التحضيرية اللازمة لقيام النقابة. عقدنا بضعة اجتماعات مع ممثلين عن المعلمين في مختلف المدارس، وتوصلنا بعد مداولات مستفيضة بناءة إلى الاتفاق على الأمرين التاليين: تأسيس نقابة لمعلمي المدارس الخاصة في لبنان، وتشكيل لجنة تأسيسية من خمسة عشر عضواً لإجراء ما يلزم لتحقيق قيام النقابة.

بعد أن انتهت اللجنة التأسيسية من وضع القانون الأساسي والنظام الداخلي للنقابة، تقدمت إلى الحكومة اللبنانية بطلب الترخيص القانوني، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصدر عن وزارة الداخلية اللبنانية قرار رسمي رقمه ٣٠٠٩، بتاريخ ٢١ آب سنة ١٩٣٨، يجيز قيام نقابة المعلمين في المدارس الخاصة في الجمهورية اللبنانية. وبموجب هذا القرار تحولت اللجنة التأسيسية إلى «هيئة العمدة الأولى» المسؤولة عن النقابة أمام الحكومة اللبنانية؛ وقد تألفت هذه الهيئة على الوجه التالي:

الرئيس: الأستاذ جورج كفوري	مدير الدروس العربية في البعثة العلمانية الفرنسية
نائب الرئيس: الأستاذ إميل كرم	أستاذ الرياضيات في مدرسة الحكمة
أمين السر: الأستاذ محمد عبدالقادر طبارة	مدير دار الأيتام الإسلامية
أمينة السر: الآنسة زاهية أيوب	في البعثة العلمانية الفرنسية
أمين الصندوق: الأستاذ حسن عسيران	مدير المدرسة العاملية

أعضاء:

الآنسة عفيفة شماس	مديرة مدرسة راس بيروت الأرثوذكسية
الأستاذ فؤاد افرام البستاني	أستاذ الأدب العربي بالجامعة اليسوعية
الأستاذ شفيق جحا	في الجامعة الأميركية
الأستاذ تقي الدين الصلح	في البعثة العلمانية الفرنسية
الأستاذ أمين خالد	مدير المدرسة الداودية في عبيه
الأستاذ جبور عبد النور	مدير مدرسة الثلاثة الأقمار الأرثوذكسية، وفي البعثة العلمانية
الأستاذ فريد الشرتوني	في الفرير واليسوعية
الأستاذ نجيب العقيقي	أستاذ الأدب العربي في المدرسة البطريركية
الأستاذ جبرائيل أبي جبرائيل	في المدرسة العلمية في الشويفات
الأستاذ الياس جرماني	في مدرسة الحكمة

بقي دور الحركة العربية السرية في تأسيس وإدارة نقابة معلمي المدارس الخاصة في لبنان مكتوماً في حينه، ومجهولاً من معظم الناس حتى السنوات الأخيرة حين ذكرتُ بعض هذه الحقائق في أحاديث خاصة ومناسبات مختلفة. وإن نظرة إلى أسماء أعضاء العمدة الأولى للنقابة تلقي بعض الضوء على هذا الدور. فإن أربعة منهم، على الأقل، كانوا حركيين، وهم: تقي الدين الصلح وشفيق جحا وجبور عبد النور وحسن عسيران. وقد خدم الثلاثة الأولون في هيئة العمدة الأولى بضع سنوات متوالية، ثم انضم

إليهم رفيقهم بالحركة الأستاذ يوسف نويهض في وقت لاحق. وكان من أعضاء العمدة الأولى ثلاثة آخرون ممن يتفقون مع مبادئ الحركة الأساسية، ويقبلون السياسية العامة التي تتبعها، وهم: الأساتذة جورج كفوري، ومحمد عبد القادر طبارة، وزاهية أيوب، وكان هؤلاء بمثابة قوة رديفة للحركيين الأصيلين في عمدة النقابة.

كانت غاية الحركة العربية السرية من إنشاء النقابة، كما أسلفنا، القضاء على حال الفرقة والتشرذم، وتنوع الانتماءات واختلاف الولاءات، وتضاربها وتنازعها في صفوف المعلمين في لبنان، وتوحيد الجسم التعليمي على أسس من التعاون والتضامن، صوناً لحقوقه، ودفاعاً عن مصالحه، وسعياً لما فيه خيره، وخير النشء اللبناني الذي يتربى على يديه، وتعزيزاً لشعور الولاء الواحد المطلق للوطن. وقد نجحت الحركة في تحقيق هذا الإنجاز المهم المفيد بكل هدوء وصمت. وها قد مضى الآن أكثر من ستين سنة، ونقابة المعلمين لا تزال ناشطة فاعلة تكافح بجد وثبات لتحقيق الأهداف التربوية الوطنية والمهنية، التي أنشئت من أجلها، وللدفاع عن حقوق المعلمين ومصالحهم.

وبمناسبة عيد المعلم في سنة ١٩٩٨، احتفلت نقابة المعلمين و«دار الندوة» برأس بيروت، بذكرى مرور ستين سنة على تأسيس النقابة في لبنان، وقدمتا تقديراً وتكريماً للعضوين الوحيدين الباقيين على قيد الحياة من أبناء الرعيل الأول وعمدة المؤسسين، شفيق جحا وأحمد عيتاني مدير معهد البكالوريا المسائي في بيروت سابقاً.

لقد أوردت هذه الأمثلة عن أعمال الحركة العربية السرية والحركيين، جماعة وأفراداً، في الحقل الاجتماعي، لأن الظروف أتاحت لي مجال الاشتراك فيها، أو الاطلاع عليها مباشرة. ولا شك عندي في أن أعمالاً جليلة مماثلة قد تحققت في أماكن أخرى بجهود حركيين آخرين غير من ذكرت. ولكن نسبتها إلى الحركة بقيت مجهولة، بسبب السرية المطلقة التي أحاطت الحركة نفسها وجميع نشاطاتها بها، ولأن الحركيين الذين

قاموا بهذه الأعمال، أو اطلعوا عليها عن كثب، لم يكتبوا عنها ويدونوا مذكراتهم وتذكاراتهم بشأنها.

١٣ ـ وقف الحركة في لبنان

كانت الحركة العربية السرية منطلقة بزخم ونجاح عندما بلغت الأزمة السياسية العالمية بين الدول الديمقراطية الغربية ودول المحور ذروتها في صيف ١٩٣٩، منذرة بنشوب الحرب العالمية الثانية في كل لحظة؛ وقد نشبت الحرب فعلاً في مطلع أيلول. فعطلت الأزمة والحرب التي أعقبتها مسيرة الحركة، وشلّت أعمالها ونشاطاتها. فالإجراءات الأمنية الصارمة، والقوانين الاستثنائية التي اتخذتها سلطات الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا لمواجهة ظروف الحرب واتقاء أخطارها قضت بحل الأحزاب والجمعيات، واعتقال الزعماء السياسيين الوطنيين النشيطين، وعرقلة المواصلات، وفرض الرقابة على الاتصالات والمراسلات، وتقييد الحريات، وغيرها. ووجدت الحركة نفسها عاجزة، في هذا الجو الضاغط المحموم، عن القيام بنشاطاتها، وتأدية رسالتها مثلما يجب وترغب. ورأى مجلس القيادة الأعلى أن لبنان وسوريا لم يعودا صالحين لوجودها في أراضيهما، وأن بيروت لم تعد المكان المناسب لمركز قيادة الحركة. فقرر المجلس بجلسة عقدها في آخر آب سنة ١٩٣٩، نقل مركز القيادة من بيروت إلى بغداد حيث يتوفر للحركة قدر أكبر من حرية العمل. فتنازل رئيس مجلس القيادة الأعلى رئيس الحركة قسطنطين زريق عن جميع صلاحياته الرئاسية، وعهد بها إلى أمين الحركة كاظم الصلح، ليقوم بتنفيذ قرار مجلس القيادة. وانتقل كاظم الصلح إلى بغداد، ونقل معه مركز القيادة. وتراجع نشاط الحركة تدريجاً في لبنان، واقتصر على اجتماعات ولقاءات توجيهية وتنظيرية في خلايا الحركة بالجامعة الأميركية في بيروت، حيث كان يديرها ويحرص على استمرارها قسطنطين زريق إلى أن أصبح دون هذا الاستمرار عوائق وموانع لا يمكن التغلب عليها. فمضت الحركة في طريقها المحتوم، وتوقفت، وانتهت كحركة عربية سرية في مطلع العام ١٩٤٥.

الفصل الرابع

«الحركة العربية السرية» في سوريا

١ ـ تأسيس «الحركة»

الأحزاب العربية في سوريا:

خلال السنوات العشر، الممتدة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٦، تأسست في سوريا بضعة أحزاب سياسية عربية، مثل حزب «الكتلة الوطنية» (١٩٢٧)، وعصبة العمل القومي (١٩٣٣)، والجبهة الوطنية المتحدة (١٩٣٥)، وحزب الشباب الوطني (١٩٣٦)، وغيرها. كانت أهدافها متطابقة، وتتلخص بثلاثة عناوين رئيسية هي، إنهاء الانتداب الفرنسي، وتحقيق استقلال سوريا الناجز ووحدتها الكاملة، واتخاذ مبادئ القومية العربية دستوراً لعملها السياسي.

بين وحدة الصف ووحدة الهدف:

ولكن وحدة الهدف وحدها لم تكن كافية لتحقيق وحدة الصف. فقد اختلفت هذه الأحزاب فيما بينها على أمور تفصيلية كثيرة، كان منها ما يتعلق مثلاً، بوسائل التنفيذ وطبيعتها، وبأسلوب التعامل مع الفرنسيين، وبالعلاقة بين سوريا ولبنان، وبالتلهي والانشغال بالشؤون القطرية والمحلية والانصراف عن هدف الوحدة العربية الأسمى، وبحصر الاهتمام بالجانب السياسي من المسألة العربية وإهمال العناية بالجانب المجتمعي الإنساني، وبالتنافس بين الأحزاب وقادتها على تولي المناصب الرفيعة والاستئثار بالسلطة، وغير ذلك.

الانقسام في الصف الوطني:

أحدثت هذه الخلافات بين الأحزاب انقساماً في الصف الوطني، أدى إلى إضعافه في مواجهة سلطة الانتداب الفرنسي، وزعزعت ثقة الشعب بصدقية قيادات هذه الأحزاب وجديتها. وأثار هذا الانقسام أسفاً شديداً في نفوس بعض الشباب المثقف من مختلف الأحزاب والهيئات، وحفزهم على السعي لإصلاح هذه الحال، والخروج بالعمل السياسي العام من نطاق الإقليمية الضيق، إلى الميدان القومي الشامل الجامع[1].

محاولة تأسيس حركة قومية في دمشق:

أخذ المبادرة في دمشق لتحقيق هذه الأمنية، وتلاقى «**على فكرة قيام حركة عربية سرية تعمل دون ضجة**»[2]، خمسة شبان هم عبد الرحمن الجوخدار وفهمي المحايري من أعضاء اللجنة العليا لعصبة العمل القومي، ومسلَّم الحافظ ومنير الريس من أعضاء مكتب «الشباب الوطني» ولجنته الإدارية، والدكتور سعيد فتاح الإمام من تجمع شباب مثقفين أطلقوا على أنفسهم اسم «خريجو الجامعات الألمانية»[3]. وكان ذلك في أوائل العام ١٩٣٥.

أمضى هؤلاء الشبان الخمسة بضعة أشهر في درس الموضوع بعمق من حيث مبادئ حركتهم، وأهدافها، وهيكليتها، وطرق عملها، وغير ذلك من الأمور التنظيمية الأولية، التي لا بد من إنجازها تمهيداً لانطلاق الحركة. وفيما هم منهمكون في كل ذلك، وإذ بهم يفاجؤون في أحد الأيام، بأواخر سنة ١٩٣٥، بأن حركة عربية سرية شبيهة بالحركة التي يمهدون السبيل لإنشائها، قد تأسست بالفعل في بيروت وبدأت نشاطها.

---

(١) منير الريّس، الكتاب الذهبي، الجزء ٢، ص ١٠٣.
(٢) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٤.
(٣) نزيه الحكيم، في مقدمة الكتاب، منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠.

الاتصال بين حركتي دمشق وبيروت:

لم يكن جماعة حركة دمشق يعلمون أي شيء عن جماعة حركة بيروت، كما أن هؤلاء لم يكونوا يعلمون أي شيء عن أولئك، بسبب السرية التامة التي اعتصم بها الفريقان. ولكن جماعة بيروت، في سعيهم لنشر حركتهم في سوريا، اتصلوا بمسلم الحافظ في دمشق لإدخاله بحركتهم. ونقل مسلم الحافظ الخبر إلى رفاقه الأربعة الآخرين في حركة دمشق. ويذكر أحد الخمسة، منير الريس، في مذكراته ما جرى بعد ذلك فيقول ما يلي:

«فقررنا الاتصال بهذه الجماعة [حركة بيروت]، وشجعنا على ذلك معرفتنا السابقة، وصلات الصداقة التي تربط بيننا وبين بعض أعضائها، ودعينا إلى مؤتمر سري عقد في منزل محمد علي حمادة في بيروت، أقر فيه منهاج المنظمة الذي وضعه الجماعة في لبنان بعد إدخال بعض التعديلات عليه»(٤).

تأسيس الحركة العربية السرية في سوريا:

كان ذلك إيذاناً بتوحيد الحركتين، بل لعله من الأصح أن يقال: وبهذا تأسست «الحركة العربية السرية» في سوريا في أوائل العام ١٩٣٦. ولما كانت مبادئ «الحركة العربية السرية» وأهدافها القومية الرئيسية مطابقة، بوجه عام، مع مبادئ وأهداف الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية الرئيسية المسيطرة على الجو السياسي في البلاد، فإن الحركة لم تجد نفسها غريبة عن هذا الجو، ولم تواجه أي صعوبة بالانتشار في سوريا، وبالتعايش بسلام مع تلك الأحزاب والهيئات، وبالعمل بتعاون وانسجام مع أجهزتها وكوادرها بشكل طبيعي مريح في مختلف المجالات الوطنية، وفق أسلوبها الخاص، من دون أن تتخلى عن سريتها المطلقة، أو أن تكشف عن هويتها الخاصة المميزة لأي كان. فكانت سوريا ثاني قطر عربي تأسست فيه الحركة العربية السرية، بعد لبنان.

---

(٤) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

٢ ـ تنظيم الحركة وانتشارها

منير الريس «عامل» الحركة في سوريا:

فور تأسيس «الحركة العربية السرية» في سوريا في سنة ١٩٣٦، عيّن مجلس قيادتها الأعلى منير الريّس «عاملاً»للحركة على رأس «عمالة» سوريا. و«العامل» الجديد صحافي من أبناء مدينة حماه، مقيم في دمشق، ومعروف في أوساط الشباب الوطني في سوريا بالإخلاص والشجاعة والاندفاع في خدمة القضايا الوطنية والقومية العربية. وقد انكب فور تسلمه مهام منصبه الرفيع المسؤول على العمل بنشاط وسرعة لتنظيم الحركة ونشرها في سائر أرجاء القطر السوري. وهو يورد في مذكراته بهذا الخصوص ما يلي:

إنشاء الفروع وانتشارها في المناطق السورية:

«لم تمض الأشهر حتى أخذت الخلايا والحلقات تتألف في دمشق وسائر المدن السورية. فانضم للحركة شخصيات بارزة من الشباب أذكر منهم من منطقة اللاذقية: أسعد هارون، وعدنان الأزهري، وجمال أديب [من أبناء بلدة جبلة]. وفي حمص: سليمان المعصراني، وعبد الهادي المعصراني، والدكتور فرحان الجندلي، وشاكر السباعي.. وفي حماه عثمان الحوراني، وسعيد الترمانيني، وجميل العلواني، وسعيد الخاني، وعلي عدي، وفي حلب: أسعد محفل، وأحمد طلس. وفي دمشق الدكتور عزة طرابلسي، وأنور القطب، وعبدالرحمن فارس عيد، وعلي عبد الكريم الدندشي، وفائز الدالاتي، وزهير الدالاتي، ونصوح الدقاق، وبشير تللو وغيرهم»(٥). وفي دير الزور جلال السيد، وسعيد السيد، وعبد الكريم الفرحان الفياض، وعبد القادر الفرحان الفياض، وغيرهم(٦). وفي القنيطرة جميل العلواني، وهو من أبناء مدينة حماه، ويشغل وظيفتي مساعد رئيس المحكمة، ورئيس دائرة الإجراء في محكمة صلح القنيطرة(٧).

---

(٥) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٥.
(٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٧.
(٧) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٠٣.

الانتساب إلى الحركة ـ شروطه وطرقه:

كان أعضاء «الحركة العربية السرية» في سوريا، مثلهم في كل قطر آخر، من خيرة الشباب الوطني ومن النخبة في محيطهم. فالحركة لم يكن يهمها عدد الأعضاء بقدر ما كانت تهمها نوعيتهم. ويؤكد التزام «عامل» «الحركة» في سوريا منير الريس بهذا المبدأ العام في اختيار الأعضاء ما أورده في مذكراته بهذا الشأن، حيث يقول:

«وكان النظام الداخلي لا يسمح بانتماء أي عنصر إلى المنظمة إلا بعد ترشيحه من بعض الأعضاء، ودراسة مستفيضة لماضيه ومبادئه وأعماله، فكنا نلقى المصاعب في توسيع حركتنا، ولكننا كنا نوفق في انتقاء الأشخاص المؤمنين بالقومية العربية»(٨).

وكان يحدث أحياناً خطأ في تقييم المرشحين، فيقبل في «الحركة» أعضاء لا تتفق أمزجتهم وأهدافهم وطموحاتهم مع مبادئ «الحركة» وأسلوب عملها. فكانت الحركة لا تتردد في إصلاح الخطأ بفصلهم. مثال ذلك الحادثة التالية كما رواها منير الريس في مذكراته:

«ظل فرع حلب ضعيفاً في نشاطه. فرشحت اللجنة العليا للحزب، بناء على اقتراح الدكتور فريد زين الدين أحد أعضائها، اثنين من الشباب الحلبيين خريجي معاهد الغرب، هما الدكتور ظافر الرفاعي ورمزي الألاجاتي. فجاء رد لجنة الفرع على الترشيح أن لا اعتراض على قوميتهما، ولكنهما من الشبان المعروفين في أوساط حلب بحبهما للظهور، لذلك تخشى لجنة الفرع أن لا يروق لهما العمل في حركة سرية، وأن لا يؤتمنا على سريتها. فأجل أمر البحث في ترشيحهما ستة أشهر حسب النظام الداخلي، على أن يظلا تحت الدراسة للتأكد من أهليتهما لدخول الحزب. وفي فترة تعرض فيها بعض أعضاء اللجنة العليا للحزب للاعتقال، أو النزوح عن سوريا ولبنان، أعاد الدكتور فريد زين الدين اقتراحه إلى اللجنة حول

(٨) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٥.

ترشيح الرفاعي والألاجاتي، وأرسل الترشيح ثانية إلى لجنة فرع حلب، مع ملاحظة استمرار ضعف النشاط الحزبي في الشمال، وفي مدينة حلب خاصة، وضرورة الخلاص منه، فوافقت لجنة حلب على انتمائهما للحزب، وتمت مراسم الانتماء، وأسندت رئاسة لجنة الفرع للدكتور ظافر الرفاعي تشجيعاً له على العمل. ولكن الرجل، بعد بضعة أشهر من انتمائه للحزب، واطلاعه على المنهاج، وجميع أعمال المنظمة في نطاق فرعه، دعا مرة اللجنة إلى الاجتماع، وعرض عليها تعديلاً لبعض مواد المنهاج من الناحية الاشتراكية، وطلب إقرارها وتنفيذها. ولكن لجنة الفرع عارضت بأن الإقرار ليس من سلطاتها، وأن كل ما تستطيع عمله، هو إرسال التعديل كاقتراح منها إلى اللجنة العليا لدراسته، فإما أن تقره أو تهمله. وعلى أثر هذا الاجتماع انقطع ظافر الرفاعي ورمزي الألاجاتي عن حضور الاجتماعات الدورية، ثم أعلنا عن تأليف حزب سياسي في حلب باسم «الحزب العربي القومي» بنفس المنهاج للحزب القومي العربي السري [الحركة العربية السرية]، مع تعديل طفيف في مواده الاقتصادية، ونكثا بالقسم الذي أقسماه... وكانت اللجنة العليا أبلغت جميع الفروع طردهما من الحزب»[٩].

وقد حصلت حوادث مشابهة في مناطق أخرى انتهت بغير الملتزمين بقوانين الحزب إلى الطرد.

٣ ـ «نقط اعتماد» الحركة في سوريا

«نقط الاعتماد» هي الواجهات العلنية للحركة:

إن من يقرأ تاريخ سوريا الحديث في الفترة الممتدة من مطلع الثلاثينات إلى أواسط الأربعينات من القرن العشرين، ويراجع الأحداث المهمة التي وقعت فيها، تتردد أمام عينيه في صفحات التاريخ، أسماء رافق أصحابها تلك الأحداث، وساهموا في صنعها. ولكن تلك الصفحات تخلو كلياً من اسم «الحركة العربية السرية»، فلا تأتي على ذكرها، ولا تشير إليها،

---

(٩) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

لا تصريحاً ولا تلميحاً، أو بأي شكل من الأشكال. فهل كانت «الحركة» غائبة عن تلك الأحداث، فلم تشهدها، ولم تشترك في صنعها؟ أم أن الذين دونوا أخبارها، نسوا «الحركة»..، وفاتهم ذكرها؟ والجواب هو: لا هذا ولا ذاك. فالواقع أن الحركة كانت حاضرة دائماً، وشاركت سلباً وإيجاباً، بشكل أو بآخر، وفق مبادئها وقناعاتها، في التعاطي مع جميع تلك الأحداث.

أما عدم ورود ذكر «الحركة» في صحائف التاريخ فمرده إلى الحركة ذاتها؛ إلى التزامها المطلق بالسرية الكاملة في أعمالها، وإلى لجوئها إلى ما اصطلحت على تسميته «نقط الاعتماد»، وتكليفها تنفيذ خطط «الحركة» ومشاريعها العامة العلنية تحت أسماء «نقط الاعتماد» المختلفة وشعاراتها التي كانت الحركة تتستر بها وتختبئ وراءها. ولهذا نُسبت جميع أعمال «الحركة» إلى سواها. وكانت أبرز «نقط الاعتماد» التي اتخذتها «الحركة» مرتكزات لها في سوريا خمساً هي: النادي العربي في دمشق، والمكتب العربي القومي للدعاية والنشر في دمشق والمعروف أيضاً باسم «مكتب فخري البارودي»، ومنظمة الكشاف العربي، ومشروع إنعاش القرى في سوريا، والأحزاب السياسية ولا سيما حزب الكتلة الوطنية، وعصبة العمل القومي، وحزب الشباب الوطني.

النادي العربي في دمشق:

كان «النادي العربي في دمشق» مؤسسة ثقافية وطنية، ومركزاً حضارياً عريقاً، نشأ بُعيد الحرب العالمية الأولى، وازدهر واشتهر خلال العشرينات. كان مقره، بوسط المدينة مقابل أوتيل فكتوريا، ملتقى النخبة من رجال ذلك العصر، ومن شبابه الوطني النشيط. فكانت تعقد في صالاته الندوات، وتلقى المحاضرات، وتُجرى الأبحاث والحوارات في مختلف الشؤون العربية، فيتولى عرضها ومناقشتها مسؤولون كبار، ومتخصصون مرموقون من مختلف الأقطار العربية، ومن الأجانب أحياناً[١٠]. وكان الإقبال على حضور

---

(١٠) عجاج نويهض، مذكرات عجاج نويهض، ستون عاماً مع القافلة العربية، ص ٢٠٨

اجتماعات النادي العربي وحفلاته كبيراً. وكان للنادي تأثير ملحوظ في مجرى الحياة الوطنية في تلك الفترة. فقد ناصر الحكم الفيصلي الوطني في دمشق سنة ١٩٢٠، ودعم الثورة السورية الكبرى في سنة ١٩٢٥، وساهم في التظاهر والإضراب في دمشق ضد الانتداب الفرنسي. وكانت له يد في تأييد النضال الوطني في فلسطين. ولعل هذه الأعمال، وسواها، هي التي جعلت المجاهد العربي، وأحد رواد النادي المذكور، عجاج نويهض، يصفه بأنه كان «**زنبرك الحياة السياسية**» يومئذٍ[١١].

ومنذ أوائل الثلاثينات بدأت الأحزاب السياسية تظهر في دمشق، وتؤسس النوادي الأدبية والمراكز الإعلامية الخاصة بكلٍ منها. فاجتذبت بمغرياتها الكثيرة الشباب إليها، ونافست «النادي العربي»، وأفقدته بعض الأهمية التي كانت له. ولما تأسست «الحركة العربية السرية» في دمشق في سنة ١٩٣٦ وأدركت أهمية الدور الذي يمكن أن يؤديه النادي العربي في خدمة القومية العربية فكراً وعملاً، قررت قيادتها العليا احتواءَه وإعادة تجهيزه وتأهيله وتطويره، وجعله «نقطة اعتماد» رئيسية، وواجهة علنية لها، ومنبراً للتبشير بمبادئها والدعوة إلى تحقيق أهدافها القومية. فأوعزت إلى أعضائها بالانضمام إلى هيئة النادي، ففعلوا، واستطاعوا أن يسيطروا عليه في وقت قصير. فشكلوا لجنة إدارية جديدة، وانتخبوا عضوي «الحركة» الدكتور سعيد فتاح الإمام رئيساً، ومنير الريّس أميناً للسر[١٢]. فقامت اللجنة الجديدة بتأهيل النادي وتجهيزه بشكل لائق حديث، بتمويل سري من «الحركة». وقد أحدث افتتاحه بحلته الجديدة في أوائل العام ١٩٣٧[١٣] صدى واسعاً

. اعداد بيان نويهض الحوت. (بيروت، دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩٣). يشار إليه بعد الآن هكذا: عجاج نويهض، مذكرات. أيضاً، محمد حرب فرزان، الحياة السياسية في سوريا، ص ٦٥.

(١١) عجاج نويهض، مذكرات، ج ٢، ص ٢٨ و١٣٢. يراجع هذا المصدر بشأن النادي العربي في دمشق في الفترة الأولى ما بين ١٩١٩ و١٩٣٠.

(١٢) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٦٤.

(١٣) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٦٤.

في الأوساط الأدبية والحزبية في دمشق(١٤).

عاد «النادي العربي في دمشق» كسابق عهده، مركزاً للعمل القومي العلني والسري، وملتقى رجال الأدب والفكر والسياسة والشباب القومي. وكسبت «الحركة العربية السرية» بعودته نقطة اعتماد مهمة تساعدها على متابعة الأحداث السياسية في البلاد، والمشاركة فيها بصورة أو بأخرى، تحت غطاء «النادي العربي». وكانت «الحركة» تراقب عن كثب الشبان الذين يؤمون النادي، ويشتركون في نشاطاته، حتى إذا ما وجدت أن أحدهم صادق العقيدة، وميّال إلى العمل السري، وصاحب أخلاق كريمة وخصال حميدة، سعت لكسبه في صفوفها وإدخاله في عضويتها(١٥). وبقدر ما ساعد «النادي العربي» الحركة العربية السرية وأرضاها، أزعج بعض الفرقاء، وخاصة المنافسين المحليين والفرنسيين المستعمرين. ويذكر «عامل» الحركة في سوريا منير الريّس في مذكراته شيئاً بهذا الخصوص حيث يقول:

«أحدث افتتاحه [النادي العربي] لغطاً في الأوساط السياسية، وخاصة لدى «عصبة العمل القومي».. التي رأت فيه مؤسسة قومية لم تستطع هي أن تحدث مثلها، فأخذت ألسنة السوء تنشر الإشاعات عن الجهة التي مولت النادي. واستغلت انتخاب الدكتور سعيد فتاح الإمام رئيساً للنادي لتقول إن وراء تأسيسه دولة أجنبية هي ألمانيا النازية، لأن الدكتور سعيد فتاح الإمام درس طب الأسنان في ألمانيا، وساهم بعد عودته إلى الوطن في نشاط خريجي الجامعات الألمانية في دمشق، وكان صديقاً للقنصل الألماني في دمشق... حتى بلغ بهم الحقد أن أطلقوا عليه [على النادي] فيما بينهم اسم «النازي العربي»... ومما لا شك فيه أن المخابرات الفرنسية راقبت نشاط النادي منذ افتتاحه، واعتبرته مؤسسة ضد استعمارها تضم العناصر المعادية لها، تُلقى فيه المحاضرات عن القومية العربية، ويزوره أحرار العرب ورجالاتها من شتى الأقطار، ويكرمون فيه كما يكرم شهداء العروبة في ثوراتها فوق

(١٤) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٦.
(١٥) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٦ و٢٦٤.

كل أرض... لذلك... ما كادت تعلن الحرب العالمية الثانية حتى قبض الفرنسيون على أكثر أعضاء النادي العربي، وأبعدوهم إلى تدمر، واعتقلوهم في الثكنات، وصادروا أوراق النادي ودفاتره، وأمعنوا فيها تدقيقاً لعلهم يجدون فيها ما يؤيد أوهامهم من أن ألمانيا النازية وراء النادي العربي في دمشق، ولكنهم فشلوا، وأخذوا يطلقون سراح المعتقلين الذين لا يرون فيهم خطراً على مصالحهم من أعضاء النادي، واكتفوا بإغلاقه»[١٦].

المكتب العربي القومي للدعاية والنشر في دمشق، أو مكتب فخري البارودي:

كان نائب دمشق في البرلمان السوري والعضو في حزب «الكتلة الوطنية» فخري البارودي، قد أنشأ في العاصمة السورية مركزاً إعلامياً، اشتهر باسم «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر». وكان الغرض من إنشائه خدمة القضية العربية، وتقديم الدعم الإعلامي لحزب «الكتلة الوطنية»، وتأييد سياستها والدفاع عن مصالحها، ومصالح منشئ المكتب وصاحبه. فكان المكتب يصدر الكتب والكراريس والنشرات، ويجري الدراسات، ويعد المذكرات، ويعنى بكل ما يتصل بشؤون الأقطار العربية والقومية العربية، وينشر ذلك، ويوجهه إلى المراجع المعنية به، وإلى الرأي العام السوري والعربي والعالمي[١٧]. وأصبح هذا المكتب مرجعاً من مراجع استقاء المعلومات، وأداة من أدوات التأثير في الفكر السياسي في البلاد. وهنا أيضاً، رأت «الحركة العربية السرية» أن لها فائدة كبيرة في احتواء هذا المكتب والسيطرة عليه والانتفاع بإمكاناته للترويج لمبادئها ونشرها، علماً بأن مبادئ «الكتلة الوطنية»، وفخري البارودي بالذات، لم تكن تختلف في جوهرها عن مبادئ الحركة. ولعل هذا التوافق في المبادئ كان من العوامل التي ساعدت

---

(١٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٦ . ١٠٧.

(١٧) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، سياسة القومية العربية ١٩٢٠ . ١٩٤٥، ص ٦٠١، ترجمة مؤسسة الأبحاث (بيروت، مؤسسة الأبحاث، ١٩٩٧)، يشار إليه بعد الآن هكذا: فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي.

الحركة على احتواء المكتب المذكور بسهولة، وجعله نقطة اعتماد أخرى للحركة في دمشق. ففيما كان فخري البارودي يبحث عن شاب قومي مثقف نشيط ليعهد إليه بإدارة المكتب، تطوع أحد أعضاء مجلس قيادة «الحركة» ومؤسسيها فؤاد خليل مفرج لهذه المهمة. فانتقل إلى دمشق، وتولى إدارة «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر»، وحقق نجاحاً باهراً في خدمة أهداف «المكتب» و«الحركة» معاً، وفي التوفيق والتنسيق الكاملين بين أهدافهما ومصالحهما القومية المتشابهة.

كان القسم الأكبر من اهتمام «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر» منذ أواسط الثلاثينات منصباً على الدفاع عن الحقوق العربية المهددة بالضياع في فلسطين ولواء الإسكندرونة. وكانت مواقف الدول الكبرى التي تتحكم بمصائر الشعوب الضعيفة، تميل في اتجاه معاكس للمصالح العربية في هذين القطرين العربيين. ورأى «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر»، ومن ورائه «الحركة العربية السرية»، بالطبع، أن يوفد مدير «المكتب» فؤاد مفرج إلى الولايات المتحدة الأميركية وكندا بمهمة مزدوجة: الأولى، القيام بالدعاية اللازمة للقضايا العربية وشرحها والدفاع عنها، ولا سيما الدفاع عن قضية فلسطين وعدالتها، في الأوساط الأميركية والكندية، وحثّ الجاليات العربية الكبيرة فيها، على المساهمة بهذا الواجب القومي، وبذل الجهود الضرورية لتنوير الرأي العام الأميركي والكندي بهذا الخصوص، وإطلاعه على حقيقة الأمور. وكانت المهمة الثانية والأهم التي كلف فؤاد مفرج القيام بها من قبل قيادة الحركة العربية السرية، تأسيس فروع للحركة في ذينك البلدين الأميركيين[١٨].

وقبل نهاية ذلك العام، ١٩٣٩، كان فؤاد مفرج قد قتل بحادث سير في أميركا، وكانت السلطات الفرنسية قد أقفلت «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر» في ضمن الإجراءات الأمنية التي اتخذتها بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية.

---

(١٨) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٤.

وكان من نقط الاعتماد التي احتوتها الحركة العربية السرية في سوريا، مؤسسة الكشاف العربي. فالحركة الكشفية تهدف إلى تنشئة الكشافين تنشئة وطنية إنسانية حقة. إنها تحاول، بمختلف الوسائل والأساليب النظرية والعملية، أن توجههم وتعدهم ليصيروا مواطنين صالحين، ذوي أجسام سليمة قوية، وعقول منفتحة نيرة، وأخلاق سامية قويمة، صادقين، وأمناء، مخلصين، محبين، يتعاملون ويتعاونون مع الآخرين بالمعروف، ويساعدون، دون منة أو أجر من هم بحاجة إلى المساعدة، ويقبلون على خدمة مجتمعاتهم وأوطانهم بتفان وإخلاص، ويضحون بكل ما يستطيعون في سبيل تقدمها ورقيها.

وكانت الحركة العربية السرية تؤمن بأن قيام الأمة العربية من عثرتها، ولحاقها بالأمم المتقدمة الراقية، يتطلب تنشئة أجيال عربية جديدة، يتحلى أفرادها بالفضائل والصفات الحميدة، مثل تلك التي تسعى الحركة الكشفية لغرسها في نفوس الكشافين. لذلك اهتمت الحركة العربية السرية بالحركة الكشفية، واعتبرتها أداة مساعدة لتحقيق التنشئة الصالحة للفتيان العرب، فشجعت الحركات الكشفية ودعمتها وتبنتها وجعلتها نقط اعتماد لها في أكثر من قطر عربي. من هذا القبيل كان اهتمام «الحركة» بحركة الكشاف العربي في دمشق. فقد رعتها وأوكلت أمر قيادتها وتوجيهها القومي المطلوب إلى أحد أعضائها الغيورين النشيطين علي عبد الكريم الدندشي، فقام بهذه المهمة خير قيام[١٩]. وقد نجحت هذه الحركة في تنشئة أفواج من الفتيان السوريين، تنشئة كشفية وطنية صحيحة، وفق مبادئ «الحركة العربية السرية» وأهدافها. وشاركت هذه الأفواج الكشفية بمختلف النشاطات الوطنية التي حفلت بها تلك الفترة من تاريخ سوريا الحديث، ولا سيما مشاركتها الفعالة بالمظاهرات والإضرابات والاعتصامات وغيرها من النشاطات العامة، ذات الطابع الوطني والتي كانت الحركة العربية السرية

(١٩) علي عبد الكريم الدندشي، علي الدندشي باعث النهضة الكشفية العربية.

تدعو إليها وتباركها[٢٠].

لجنة الدفاع عن فلسطين:

في أثر نشوب ثورة فلسطين الكبرى في سنة ١٩٣٦، تشكلت في دمشق لجنة لتقديم الدعم للثورة، اشتهرت باسم «لجنة الدفاع عن فلسطين»، مؤلفة من مجموعة من الأعيان والسياسيين والأشخاص المهتمين بالشؤون العربية القومية، هم «نبيه العظمة رئيساً،ولطفي الحفار نائب رئيس المجلس النيابي السوري، وفايز الخوري نائب دمشق، وفخري البارودي نائب دمشق، وعفيف الصلح نائب دمشق، ويوسف العيسى (صحافي)، وبشير السعداوي رئيس الجمعية الطرابلسية البرقاوية في سوريا، والحاج أديب خير من تجار دمشق، ومحمد السراج محام، والحاج أمين دياب أمين الصندوق، وفؤاد خليل مفرج أميناً للسر»[٢١].

كان هدف اللجنة، كما يدل عليه اسمها، «الدفاع بمختلف الوسائل عن فلسطين» ضد الخطرين الداهمين، الانتداب البريطاني والأطماع الصهيونية، ومساعدة الفلسطينيين في ثورتهم. وقد احتوت الحركة العربية السرية هذه اللجنة وجعلتها نقطة اعتماد لها، بفضل الدور البارز الذي لعبه عضو قيادة «الحركة» فؤاد خليل مفرج، في تأسيس اللجنة وتنظيمها وإدارتها وحمل العبء الأكبر من نشاطاتها. وكان من أبرز أعمالها انعقاد «المؤتمر العربي القومي في بلودان» من ٨ - ١٠ أيلول ١٩٣٧ لبحث القضية الفلسطينية[٢٢].

---

(٢٠) فؤاد خليل مفرج، المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧، ص ٦، يشار إليه بعد الآن هكذا: فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي؛ أيضاً، أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ - ١٩٣٦، يوميات أكرم زعيتر، الطبعة الثانية، ص ٣١٥.(بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٢). يشار إليه بعد الآن هكذا: أكرم زعيتر، يوميات.

(٢١) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي، ص ٧؛ أيضاً، فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦٠١.

(٢٢) يراجع بشأن مؤتمر بلودان، ص ١٥٥.

مشروع إنعاش القرى في سوريا:

اتخذت «الحركة العربية السرية» «مشروع إنعاش القرى» نقطة اعتماد لها في سوريا، مثلما كان قد سبق لها أن فعلت في لبنان. وكان نفر من الشباب الوطني المثقف، من مختلف الأحزاب والتيارات في دمشق، قد اطلعوا على ما كان المتطوعون في مخيمات المشروع الصيفية في لبنان يقدمون من خدمات قيّمة في مجالات الصحة والتعليم والزراعة والمياه وغيرها لأبناء القرى المتخلفة، لتحسين أوضاعهم العامة، ورفع مستوى معيشتهم، وتطوير المجتمع المدني العربي وتقدمه في تلك القرى.

ولم تغب الحركة العربية السرية عن المشاركة بالخطوة التحضيرية الأولى في هذا السبيل. فقد قام عضوا مجلس قيادة «الحركة» البارزان ابن دمشق قسطنطين زريق، وفؤاد خليل مفرج اللبناني ومدير «المكتب العربي القومي في دمشق» بحثّ تلك العناصر الوطنية وتشجيعها على الإقدام بثقة وتصميم على إقامة المخيم المطلوب. وقد وعداهم بتقديم كل مساعدة ممكنة لهم في هذا المجال من إخوانهم في «مشروع إنعاش القرى» الأم بالجامعة الأميركية في بيروت. وتشكلت لجنة من الشباب الوطني الدمشقي في أوائل سنة ١٩٣٧ لتتولى التحضير لتحقيق هذا المشروع وإجراء ما يلزم لإقامة المخيم وتنظيمه، ودعوة المتطوعين إلى الالتحاق به والعمل فيه وتحمل جميع مسؤولياته المادية والمعنوية.

وعلى الأثر طلب إليّ [إلى المؤلف] الرفيق الصديق فؤاد مفرج، بصفتي عضواً بالحركة في الجامعة الأميركية في بيروت الحضور إلى دمشق للاجتماع بأعضاء اللجنة، والبحث معهم بموضوع إقامة المخيم. فلبيت الدعوة، واجتمعت بهم بحضور فؤاد مفرج في مكتب أحدهم، المحامي عبدالقادر ميداني، الكائن بالجهة الجنوبية في «ساحة المرجة» بوسط دمشق. وتركز البحث في الاجتماع على الشروط التي يجب توفرها لضمان نجاح المشروع. وذلك في ضوء الاختبار في المخيمات التي كنا قد أقمناها في لبنان سابقاً. وبعد التداول ملياً بالموضوع توصلنا إلى الاتفاق على الأمور التالية:

١ ـ أن يقوم المخيم في منطقة لا تبعد كثيراً عن دمشق.

٢ ـ أن يدوم العمل في المخيم حوالى شهرين خلال العطلة المدرسية الصيفية من أواخر حزيران حتى أواخر آب.

٣ ـ أن يقوم المخيم في ضاحية قرية مركزية يحيط بها عدد من القرى الأخرى.

٤ ـ أن تكون تلك القرى بحاجة إلى المساعدة، وأن تكون لدى أهلها الرغبة في قبول المساعدة.

٥ ـ أن يكون الوصول بالسيارة إلى القرية المركزية وموقع المخيم سهلاً.

٦ ـ أن يتوفر الماء اللازم للمخيم من موارد قريبة.

٧ ـ أن يكون المتطوعون للعمل في المخيم شباناً مشهوداً لهم بحسن السلوك، وكرم الأخلاق، والعلم، والوطنية، والجدية، وحب العمل والخدمة العامة.

٨ ـ أن يقتصر التطوع للعمل في المخيم على الذكور فقط دون الإناث في السنة الأولى.

٩ ـ أن تحاط السلطات السورية علماً مفصلاً بكل ما يتعلق بالمشروع، وأن توافق عليه وترعاه، منعاً لحصول أي التباس أو إشكال.

١٠ ـ أن يفتح المخيم ويبدأ العمل فيه في مطلع الصيف القادم سنة ١٩٣٧.

المخيم في قرية «جديدة عرطوز»:

قامت اللجنة في دمشق بالاستعدادات اللازمة لإقامة المخيم وفق هذه الشروط، فقررت إقامة المخيم في ضاحية قرية «جديدة عرطوز»، على ضفاف «نهر الأعوج» على بعد بضعة عشر كيلومتراً جنوبي دمشق. وطلبت من إدارة «مشروع إنعاش القرى» في الجامعة الأميركية في بيروت، أن تمدها من عندها ببعض المتطوعين من أصحاب الخبرة، لمساعدة الرفاق السوريين في إدارة المخيم، وتنظيم عمله في السنة الأولى. فاستجابت لطلبها،

وانتدبت ثلاثة من عناصرها هم: حليم نجار مديراً للمخيم ومشرفاً على برنامج الإرشاد الزراعي، وشفيق جحا مساعداً لمدير المخيم ومشرفاً على برنامج التعليم، وعبدالوهاب الرفاعي مشرفاً على برنامج الرياضة والألعاب ووسائل التسلية والترفيه[٢٣]. والتحق بالمخيم أربعون متطوعاً تقريباً من الشباب السوري، وجرى افتتاح المخيم في مطلع شهر تموز سنة ١٩٣٧، واستمر حتى أواخر آب.

لست بصدد إعطاء تقرير مفصل عن أعمال المخيم، فهذا خارج عن نطاق هذا البحث، وإنما أريد أن أؤكد أن الحركة العربية السرية التي ساهمت في الاتصالات والاستعدادات التحضيرية لقيام المخيم بواسطة رئيسها قسطنطين زريق وعضويها فؤاد مفرج وشفيق جحا لم تتوقف بعد افتتاحه عن متابعة الاهتمام به والسعي لإنجاحه، والاستفادة من وجوده لخدمة أهدافها ونشر مبادئها القومية.

وأذكر مثلين على ذلك:

المثل الأول ـ كان المخيم أشبه ما يكون بحلقة دراسية (سمينار) عن العروبة والعالم العربي. ففي الأمسيات، وأثناء أوقات الراحة بعد الدوام، كانت إدارة المخيم تشجع عقد الحلقات، وإجراء الحوارات، حول ما كان يشاهده المتطوعون في القرى التي يعملون فيها، من تخلف ومرض وفقر وجهل، والانطلاق من ذلك إلى الحديث عن الأوضاع السيئة السائدة في العالم العربي بأسره، وأسبابها، والتفكير في طرق معالجتها والقضاء على آفاتها، وفي ما يترتب على المواطنين المستنيرين نحو أوطانهم من مسؤوليات وواجبات بهذا الخصوص. وإن إثارة الشباب المتطوعين مثل هذه المواضيع، والتفكير بها بجدية، وبشعور صادق بالمسؤولية، يُعتبر، بحد ذاته، إنجازاً وطنياً مهماً بنظر الحركة العربية السرية. أما بخصوص العمل الميداني، فكانت إدارة المخيم تجهد أن تُشعر المتطوعين بأن ما يقومون به من مساعدة لأبناء القرى المتخلفة لا يعتبر عملاً إنسانياً فحسب، بل إنه عمل

---

(٢٣) المتطوعون الثلاثة هم من المدرسين بالجامعة الأميركية في بيروت.

وطني مشكور، من شأنه أن يساهم في إصلاح المجتمع والوطن، ويرفع من شأن العروبة. فكان هذا التوجيه الوطني في تفسير وتقييم عمل المتطوعين يزيدهم حماسة واندفاعاً وإخلاصاً فيه.

المثل الثاني - لم يكن في «جديدة عرطوز» مدرسة نظامية. ولما بدأ العمل بالمخيم فتحنا مدرسة صيفية نهارية لتعليم أولاد القرية أثناء فترة العمل بالمخيم خلال شهري تموز وآب. وتولى مهمة التدريس فيها شابان متطوعان من معلمي المدارس الرسمية في سوريا، لا أزال أذكرهما جيداً وهما صبحي خنشت وكامل بنقسلي. فقاما بعملهما بكل إخلاص وكفاءة، وظهرت ثمار جهودهما الطيبة في وقت قصير، فأتى إلينا أولياء التلاميذ مقدرين شاكرين، وطالبين منا بإلحاح، أن تستمر المدرسة صيفاً وشتاءً في قريتهم، كي لا يُحرم أبناؤهم من العلم. فأخبرتهم أننا لسنا قادرين على ذلك، وأن مدرستنا ستقفل أبوابها عند نهاية المخيم في آخر شهر آب. وأشرت عليهم بأن يطلبوا من الحكومة السورية، تأسيس مدرسة ثابتة نظامية في قريتهم. فأجابوا أنهم طالبوا المسؤولين مراراً بالمدرسة والطريق والماء والكهرباء وغيرها من الحاجات، ولكنهم لم يحصلوا على أي نتيجة.

وبلَغَنا في أحد الأيام أن شكري القوتلي وزير المالية في الحكومة السورية، وقسطنطين زريق رئيس الحركة العربية السرية سيزوران المخيم بعد يومين. فسربت الخبر إلى أهل القرية، وأشرت عليهم بأن يشكلوا وفداً منهم ممن يحسنون الخطاب، لمقابلة الوزير القوتلي يوم يزور المخيم، ويتقدموا إليه بطلب واحد فقط هو المدرسة، ولا شيء غير ذلك. ووعدتهم بأن أسعى لترتيب اللقاء مع الوزير. ولما جاء الزائران الكبيران إلى المخيم، جالا في أرجائه، واطلعا على أعماله وأحواله، وقابلا المتطوعين وتحدثا إليهم. وفي جلسة خاصة ضمت الوزير القوتلي والدكتور زريق ومدير المخيم حليم نجار ومساعده شفيق جحا قدمنا، نحن الاثنين الأخيرين، تقريراً مفصلاً عن أعمال المخيم، وتقييماً موضوعياً لها. وفي سياق حديثي عن النشاط التعليمي الذي يقوم به المتطوعون في قرى المنطقة ذكرت حاجة «جديدة

عرطوز» إلى مدرسة نظامية ثابتة ورغبة الأهالي الشديدة في تعليم أولادهم. وتمنيت على الوزير القوتلي أن يستقبل وفداً يمثل أهل القرية جاء إلى المخيم ليرفع إلى معاليه التماساً بشأن المدرسة. رحب شكري القوتلي بالوفد، وأحسن الوفد عرض قضيته. فوعدهم القوتلي خيراً، وانصرفوا شاكرين. وأثنى الدكتور زريق على ما أبداه أهل القرية من اهتمام بتعليم أبنائهم، وتمنى أن تنتشر المدارس في سائر القرى السورية المحرومة منها، نظراً لما للعلم من دور أساسي في ترقية الفرد، ونهضة المجتمع، ونشر الوعي القومي الصحيح، والتخلص من رواسب الجهل والتخلف.

لم أعد إلى «جديدة عرطوز» بعد انتهاء المخيم في سنة ١٩٣٧، ولكنني علمت من بعض الأصدقاء أن شكري القوتلي برَّ بوعده، وأن المدرسة التي وعد بها أهل القرية قد شيدت فعلاً في ذات المكان الذي كان فيه المخيم على ضفاف «نهر الأعوج»، وأنها فتحت أبوابها واستقبلت التلاميذ، أبناء «جديدة عرطوز»، في مطلع العام الدراسي التالي بمطلع خريف سنة ١٩٣٨.

المخيم في قرية النيرب: إن النجاح الذي حققه المخيم في «جديدة عرطوز» حفز بعض الإخوان والرفاق في حلب على إقامة مخيم في منطقتهم في الصيف التالي سنة ١٩٣٨. وطلبوا مساعدة «مشروع إنعاش القرى» بالجامعة الأميركية في بيروت. ولم تغب «الحركة العربية السرية» عن هذا المخيم كذلك. فقد انتُدبت أنا والدكتور زكن شخاشيري لإدارته، وأقيم في ضاحية قرية «النيرب» على بعد بضعة عشر كيلومتراً إلى الشرق من حلب. وتطوع للعمل فيه ما بين ثلاثين وأربعين شاباً من خيرة الشباب المثقف في حلب. وكان الجو فيه رائعاً، والتعاون كاملاً، والعمل مفيداً مجدياً. ولا أدخل في التفاصيل لأن ما قمنا به في حقول الزراعة والصحة والتعليم والرياضة والوطنية وغيرها كان شبيهاً بما جرى في المخيمات الأخرى في عكار والبقاع وجديدة عرطوز، والتي تحدثنا عنها في ما سبق. وجل ما أريد تأكيده هنا، هو أن الحركة العربية السرية اشتركت بفعالية بالمخيم، وقامت

بمثل ما كانت تقوم به في المخيمات الأخرى.

وكانت فكرة المخيمات قد لاقت استحساناً ورواجاً. فزارنا في مخيم النيرب وفد من الشباب القومي في حماه، واطلعوا على عمل المخيم، وطلبوا مني أن أشترك معهم في إقامة مخيم مماثل في منطقة حماة في الصيف التالي، فوعدتهم بذلك. ولكن تفاقم الأزمة السياسية الأوروبية في أثر العدوان الألماني النازي على تشيكوسلوفاكيا في آذار سنة ١٩٣٩ والظروف القلقة المضطربة التي سادت العالم في الأشهر القليلة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية في مطلع أيلول سنة ١٩٣٩ حالت دون تحقيق هذا المشروع.

اختراق الأحزاب الأخرى:

درجت «الحركة العربية السرية» منذ تأسيسها على اختراق الأحزاب الأخرى بالإيعاز إلى بعض أعضائها بالانضمام إلى تلك الأحزاب. ويصف منير الريّس هذه الناحية من عمل «الحركة» في سوريا في تلك الفترة، فيقول:

«كانت خطة عملنا في الأحزاب والهيئات الوطنية العلنية التي كنّا ننتمي إليها أن يكون ولاؤنا الأول للحزب القومي العربي [الحركة العربية السرية] وأن نوجهها ما استطعنا لتحقيق أهداف الحزب ومبادئه. وكنا ذا تأثير بالغ في لجنة الشباب الوطني الإدارية، وفي اللجنة العليا لعصبة العمل القومي. أما الكتلة الوطنية فقد كان أكثر أعضائها من الرعيل الأول الذي انهمك في السياسة المحلية، وأصبحت غايته من عمله السياسي بلوغ الحكم والفوز بالنيابة، طريقة للوصول إلى الحكم. إلا أن منظمتنا كانت لا تنكر وجود عناصر مخلصة بين رجال هذا الرعيل، فكانت... تتعاون في تحقيق أهدافها مع من تجده أهلاً من رجال هذا الرعيل، دون التفكير بانتماء أحدهم إلى عضويتها، لأنهم يعدون أنفسهم زعماء في الشعب، من غير المعقول أن يرتبطوا بتنظيم سري، ويتلقوا الأوامر من لجنة عليا يجهلون أعضاءها، وإذا عرفوهم، قد يجدونهم شباناً دون سويتهم في الشهرة

السياسية بين سواد الشعب»[٢٤].

دوائر رسمية في عهدة حركيين:

وكانت من نقط الاعتماد التي استعانت بها «الحركة» أيضاً، المناصب والوظائف الرسمية التي تولاها «حركيون» في أجهزة الدولة؛ مثال ذلك أن عزالدين الشوا، القائم مقام بمنطقة جنين دعم الثورة وساعد الثوار في فلسطين[٢٥]. وكذلك، استغلّ منير الريّس منصبه في رئاسة الشعبة السياسية بدائرة الشرطة المركزية في دمشق لتخليص بعض المناضلين الوطنيين المطلوبين وحمايتهم من ملاحقة أجهزة الأمن العام في الانتدابين البريطاني في فلسطين والفرنسي في سوريا[٢٦].

كانت «نقط الاعتماد» هذه: النادي العربي في دمشق، والمكتب العربي القومي في دمشق، والكشاف العربي في دمشق، ولجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا، ومشروع إنعاش القرى في سوريا، والأحزاب السياسية، والدوائر الرسمية التي تولاها «حركيون»، أهم «نقط الاعتماد» التي استخدمتها «الحركة العربية السرية» في سوريا، والتي سعت بواسطتها أن تدعم العمل الحركي وتشارك في مواجهة الأحداث وصنعها، كما سيجيء في العرض التالي لأهم الأحداث السياسية التي جرت في سوريا أثناء وجود الحركة فيها.

٤ ـ المعاهدة الفرنسية ـ السورية وموقف الحركة منها

إضراب ١٩٣٦:

لما تأسست الحركة العربية السرية في سنة ١٩٣٦، كانت العلاقة بين سلطة الانتداب الفرنسي والوطنيين السوريين قد بلغت درجة عالية من

---

(٢٤) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ١٠٩.

(٢٥) يراجع، الفصل الخامس التالي.

(٢٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٧٧ . ٢٩٤.

التوتر والخلاف. فالسوريون يطالبون بالتحرر والوحدة لبلدهم، والفرنسيون يراوغون ويناورون ويماطلون. وفي العاشر من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ انفجر الوضع بشكل خطير، في أعقاب إجراءات قمعية تعسفية اتخذها الفرنسيون ضد بعض الزعماء والهيئات الوطنية، بسبب الاحتفالات الحاشدة التي أقيمت في المدن السورية بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الزعيم الوطني إبراهيم هنانو، والتي اعتبرها الفرنسيون استفزازية ومخلّة بالأمن والنظام العام. فردّ السوريون بإعلان الإضراب المفتوح الذي شمل المدن السورية جميعها، وبعض المدن اللبنانية أيضاً، واستمر حوالى ستين يوماً، انشلت خلالها الحياة الاقتصادية تماماً، وحصلت مصادمات عنيفة دامية بين قوات الأمن والمتظاهرين، سقط فيها عدد من القتلى والجرحى. وقد ساهمت الحركة العربية السرية، كسواها من المنظمات القومية، في جميع مراحل الأزمة ووقائعها ومواقعها، متلبسة بنقط اعتمادها المختلفة التي سبقت الإشارة إليها.

تهديد المصالح الفرنسية والبريطانية في الشرق الأدنى:

وفي أثناء ذلك حدثت تطورات شديدة الخطورة على النطاقين الإقليمي والعالمي. فقد أخذ النظام النازي الجديد في ألمانيا، والنظام الفاشستي في إيطاليا يتحديان الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا، ويهددان مصالحهما في العالم، ولا سيما بمنطقة الشرق الأدنى. ومن أجل مقاومة هذين الخطرين، رأت فرنسا وبريطانيا أن تفتحا صفحة جديدة في علاقاتهما مع دول المنطقة، وأن تصالحا شعوبها الساخطة على الاستعمار، وأن تُغدقا عليهم الوعود بالحرية والاستقلال.

مفاوضات تمهيدية فرنسية ـ سورية:

من هذا المنطلق، ورغبة منها في إنهاء الوضع المتأزم الشاذ السائد في سوريا ولبنان في أوائل العام ١٩٣٦، اتصل المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مارتيل في أواخر شباط من ذلك العام بأركان «الكتلة الوطنية» بدمشق ونقل إليهم رغبة الحكومة الفرنسية في إيجاد تسوية للمسألة

السورية، تنطوي خطوطها العريضة على إنهاء الانتداب الفرنسي، وعقد معاهدة صداقة بين البلدين، تعترف باستقلال الجمهورية السورية الموحدة، وتصون بعض الحقوق والمصالح لفرنسا في سوريا، وتحوي اعترافاً ضمنياً باستقلال لبنان وسيادته ووحدة أراضيه. تمَّ الاتفاق المبدئي على ذلك بين الجانبين، وأصدر المفوض السامي دي مارتيل في ١ آذار ١٩٣٦ بياناً بهذا الخصوص[٢٧]، أعلن فيه أن وفداً سورياً سيتوجه إلى باريس قريباً لاستكمال المفاوضات الرسمية مع الحكومة الفرنسية، والاتفاق معها على التفاصيل، وتوقيع المعاهدة بين الجانبين. ولكن هذه المبادرة الفرنسية لم تمر بسلام، فقد أوقعت الخلاف بين الحزبين السوريين الكبيرين، «الكتلة الوطنية» و«عصبة العمل القومي»: «الكتلة» تستجيب للمبادرة الفرنسية، و«العصبة» ترفضها وتقاومها.

موقف «الكتلة الوطنية» من المبادرة الفرنسية:

كانت «الكتلة الوطنية» قد اقتنعت،بعد الاختبار الطويل، أن الأهداف الوطنية لا يمكن تحقيقها كلها دفعة واحدة، وبالقوة غصباً عن الفرنسيين. فلجأت إلى التفاوض معهم للحصول على أكثر ما يمكن الحصول عليه منهم، في مرحلة أولى تتبعها مراحل أخرى لاحقة، على أن لا يقلَّ ما تعطيه المعاهدة المقترحة إلى سوريا، عما أعطته معاهدة ١٩٣٠ البريطانية ـ العراقية إلى العراق[٢٨].

وكانت «الكتلة الوطنية» بعيد تأسيسها في أواخر العشرينات قد أنشأت تنظيماً من طلاب المدارس والجامعات تابعاً لها، أطلقت عليه اسم «الشباب الوطني»[٢٩]. وكانت «الكتلة» تعنى بتوجيه عناصره توجيهاً قومياً عربياً،

---

(٢٧) شفيق جحا، معركة مصير لبنان في عهد الانتداب الفرنسي، جزآن (بيروت، مكتبة راس بيروت، ١٩٩٥)، ج ١، ص ٤٦٦، يشار إليه بعد الآن هكذا: شفيق جحا، معركة مصير لبنان.

(٢٨) شفيق جحا، معركة مصير لبنان، ج ١، ص ٤٦٧.

(٢٩) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٣٦٣.

وتلقينهم الولاء المطلق للكتلة، وتدريبهم على الطاعة والانضباط في فرق كشفية ورياضية، كما أنها كانت تستنفرهم للمشاركة في بعض المناسبات الوطنية، والمظاهرات والإضرابات والحملات الانتخابية التي كانت تهم الكتلة الوطنية[٣٠]. وفي أواسط الثلاثينات أوقفت الكتلة الوطنية تنظيم «الشباب الوطني» بصيغته الطلابية، وحولته إلى تنظيم سياسي رديف لها، وانتسبت إليه نخبة من أرقى الشباب الوطني السوري وخريجي الجامعات الغربية في الطب والمحاماة والهندسة والزراعة والتجارة والعلوم السياسية وإدارة الأعمال والصحافة، مثل، منير العجلاني، وصبري العسلي، وأدمون رباط، وسيف الدين المأمون، ونجيب الريس، ومنير الريس، ونعيم الأنطاكي، وناظم القدسي. وقد تبنى تنظيم «الشباب الوطني» أهداف الكتلة الوطنية، وأيد مواقفها السياسية دون تحفظ، ودافع عن مصالحها، وقاوم خصومها ومنافسيها السياسيين مثل عصبة العمل القومي والحزب السوري القومي[٣١]. وانتشرت فروع الشباب الوطني في سائر المناطق السورية. وأقام «الشباب الوطني» أول مهرجان له في ٢١ أيار ١٩٣٦ بالملعب البلدي بدمشق، واشترك فيه حوالى ألف شاب، وحضرته جماهير غفيرة، وألقى أمين سره الدكتور منير العجلاني خطاباً دعا فيه «الشعب إلى طاعة الكتلة الوطنية طاعة لا مواربة فيها، وإخلاص لا حدّ له»[٣٢]. ولم يلبث «الشباب الوطني» أن أنشأ له جناحاً عسكرياً، ترتدي عناصره زياً موحد الشكل، حديدي اللون، فاشتهر باسم فرق «القمصان الحديدية». وأعطى تنظيم «الشباب الوطني» وجناحه العسكري، القمصان الحديدية، دعماً قوياً للكتلة الوطنية، وأيدا موقفها الإيجابي من المبادرة الفرنسية، وساعداها على فرض سيطرتها شبه الكاملة على الحياة السياسية في سوريا بأوائل النصف الثاني من الثلاثينات. وقد بقي هذا التنظيم تابعاً للكتلة الوطنية وملتزماً بولائه لها حتى أواخر الثلاثينات.

(٣٠) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٤١٢ و٥٢٧.
(٣١) المصدر ذاته، ص ٤٨٧ و٥٢٧.
(٣٢) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية في سوريا، ص ١٣٤.

موقف عصبة العمل القومي من المبادرة الفرنسية:

كان موقف «عصبة العمل القومي» من المبادرة الفرنسية، بعكس موقفي «الكتلة الوطنية» و«الشباب الوطني»، يتصف بالسلبية. ويتلخص هذا الموقف في أن «العصبة» تقول إنه لا تعاون مع الانتداب الفرنسي، ومع الحكومات الوطنية التي يقيمها، ولا اعتراف بشرعيته، ولا بشرعية ما يصدر عنهم من مقررات مصيرية تتعارض مع هدفي العصبة الرئيسيين: سيادة العرب واستقلالهم والوحدة العربية الشاملة. وعارضت «العصبة» مبدأ التفاوض والتعاقد مع فرنسا؛ أولاً، لأنه يشكل اعترافاً من سوريا بالانتداب الفرنسي وبما اتخذه وصدر عنه من إجراءات مخالفة لأهداف الأمة العربية ومصالحها. وثانياً، لأن العصبة تريد الوحدة الفورية بين سوريا ولبنان، فيما المعاهدة تُكرِّس استقلال كلٍ من هذين البلدين، وانفصالهما التام، وتجعل مطلب الوحدة صعب المنال، بل مستحيلاً، في المستقبل. وثالثاً، لأن «العصبة» كانت تشك بحسن نوايا الفرنسيين، ولا تركن إلى وعودهم، ولا تطمئن إلى سياسة المراحل، وتتمسك بمطلب الوحدة الفورية الشاملة بما في ذلك لبنان(٣٣).

أدت هذه السلبية في مواقف «العصبة» من قضية المعاهدة مع فرنسا، إلى تصدعها تدريجاً. فإن عدداً من أعضائها البارزين انتقدوا مغالاتها في السلبية والمثالية، وأخذوا عليها عدم النظر بموضوعية وواقعية إلى أحوال العالم العربي، وظروفه الخاصة، وإمكاناته الذاتية، فابتعدوا عنها، والتحقوا بأحزاب ومنظمات أخرى، اعتبروها أكثر واقعية وأوفر حظاً في النجاح بتحقيق الأهداف الوطنية المنشودة(٣٤).

موقف الحركة العربية السرية من المبادرة الفرنسية:

تطابقت مواقف الحركة العربية السرية مع مواقف «الكتلة الوطنية»

(٣٣) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية في سوريا، ص ١٣٩ ـ ١٤١.
(٣٤) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٤٩١.

بموضوعي المعاهدة ولبنان. فأيدت «الحركة» إجراء المفاوضات مع فرنسا، لاقتناعها بأنه لا يجوز تفويت أي فرصة قد يكون فيها خير لسوريا، ويمكن أن تقربها نحو الاستقلال الكامل المنشود. ولكن قبول «الكتلة الوطنية» التفاوض مع الجانب الفرنسي أقلق خواطر الوحدويين المتشددين من «عصبويين» وسواهم، وأثار مخاوفهم من أن تكون «الكتلة الوطنية» قد عدلت عن طلب الوحدة الشاملة التي ينص عليها ميثاقها، أو أنها تخلت عنهم، وتنازلت عن المطالبة بالأقضية الأربعة من لبنان إرضاءً للبنانيين والفرنسيين[٣٥]. فما إن صدر بيان المفوض السامي في ١ آذار ١٩٣٦، معلنا الاتفاق على بدء المفاوضات الرسمية في باريس، حتى دعا الوحدويون المتشددون، القيادات الوطنية إلى عقد مؤتمر عاجل لبحث هذه المسألة. انعقد المؤتمر المعروف باسم«مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة» برئاسة سليم علي سلام وبداره في بيروت في العاشر من آذار ١٩٣٦. وأبرزت المناقشات التي دارت، الاختلافات في الرأي، ليس بين الوحدويين المتشددين والحركة العربية السرية، فحسب، بل وبين الزعماء الوحدويين أنفسهم، ولا سيما أعضاء «عصبة العمل القومي». وقد شرحنا بتفصيل ما جرى في ذلك المؤتمر في فصل سابق[٣٦].

الخلاف حول إبرام المعاهدة:

بالرغم من اعتراض المعترضين، غادر الوفد المفاوض السوري دمشق قاصداً باريس في ٢٢ آذار ١٩٣٦، وقد ضم أربعة من أقطاب «الكتلة الوطنية» هم رئيسها هاشم الأتاسي رئيساً للوفد، وجميل مردم بك، وفارس الخوري، وسعد الله الجابري، وآخرين[٣٧]. وصدف أن جرت في أثناء ذلك الانتخابات العامة في فرنسا، وفازت فيها أحزاب الجبهة الشعبية اليسارية، وشكل زعيمها ليون بلوم وزارته الاشتراكية في ٢٦ نيسان. وكان

---

(٣٥) شفيق جحا، معركة مصير لبنان، ج ١، ص ٤٧٩ ـ ٤٨١ وج ٢، ص ٥٦٠.
(٣٦) يراجع الفصل الثالث، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٣٧) شفيق جحا، معركة مصير لبنان، ج ١، ص ٤٦٦.

الاشتراكيون أكثر تفهماً لمطالب الوطنيين السوريين في الحرية والاستقلال، وأوفر استعداداً لتحقيقها من الحكومات السابقة. استغرقت المفاوضات بضعة أشهر، ووقّع ممثلو الطرفين المعاهدة الفرنسية ـ السورية التي تم الاتفاق عليها في ٩ أيلول ١٩٣٦. وقد نصت على إنهاء الانتداب، وتحقيق الاستقلال، وفق بعض الشروط، خلال فترة انتقالية تدوم بضع سنوات[٣٨].

عمت الفرحة القطر السوري لتوقيع المعاهدة، وأقيمت الاحتفالات والمهرجانات ابتهاجاً بالحدث العظيم، واستقبل الشعب السوري المفاوضين العائدين من باريس استقبال الأبطال المنتصرين الفاتحين. وشاع في هذا الجو الحماسي العاطفي شعور خاطئ يتصور المعاهدة وكأنها هي بذاتها الهدف المنشود، وكأن آمال الأمة وأحلامها قد تحققت كاملة بها. وكان أركان «الكتلة الوطنية» بالذات مسؤولين، إلى حد كبير، عن انتشار هذا الشعور المضلل بين الجماهير. ففارس الخوري وصف المعاهدة في الخطاب الذي ألقاه في جماهير المستقبلين في حلب بأنها **«معجزة القرن العشرين»**[٣٩]. وفي البيان الذي أذاعه هاشم الأتاسي رئيس الوفد على الأمة بعد عودة الوفد إلى دمشق، وصف المعاهدة بأنها **«صك الحرية والسيادة والاستقلال»**[٤٠]. ويعلق يوسف الحكيم على ذلك فيقول:

«أما الطبقة المثقفة من الأهلين... فلم تحفل بالمعاهدة لارتباطها بملاحق لا تتفق والاستقلال المنشود، ولفقدان ثقتهم بتنفيذها، كما سبق لاتفاقيتي ١٩٢٦ و١٩٣٣»[٤١].

موقف الحركة العربية السرية من المعاهدة:

كانت الحركة العربية السرية من هذه الفئة المثقفة التي أشار إليها

---

(٣٨) شفيق جحا، معركة مصير لبنان، المصدر ذاته، ص ٤٦٨.

(٣٩) يوسف الحكيم، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٢٦٣ (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٣). يشار إليه بعد الآن هكذا، يوسف الحكيم، سوريا والانتداب الفرنسي.

(٤٠) المصدر ذاته، ص ٢٦٥.

(٤١) المصدر ذاته، ص ٢٦٤.

يوسف الحكيم، والتي لم تنخدع بتصاريح الكتلويين، ورأت أن الحقيقة تكمن في التنفيذ، لا بالأقوال. وعندما أحالت الحكومة المعاهدة على المجلس النيابي السوري لإبرامها، رأت «الحركة» أنه من حسن السياسة أن لا يصوت نواب «الكتلة الوطنية» جميعهم لصالح الإبرام، واقترحت أن ينضم بعضهم إلى المعارضة، ويشاركوها في انتقاد البنود والملاحق التي تنتقص من السيادة والاستقلال، فيسجلوا بذلك موقفاً وطنياً رافضاً معارضاً من شأنه أن يساعد الحكومة السورية في المستقبل على مطالبة الفرنسيين بإعادة النظر في المعاهدة وتعديلها لصالح سوريا، وذلك على نحو ما كان يجري في العراق، حيث كان الملك فيصل الأول يعقد المعاهدة مع بريطانيا، ثم يشجع المعارضة على انتقادها، ليتخذ من ذلك ذريعة لمطالبة البريطانيين بإعادة النظر فيها بعد حين، ليحقق بالتعديل مكاسب وطنية جديدة. وقد نجح هذا الأسلوب الذي اعتمده الملك فيصل في التعامل مع البريطانيين. ولكن «الكتلة الوطنية» لم تعمل بهذا الرأي، ولم تعتمد هذا الأسلوب، وأبرم المجلس النيابي المعاهدة بسرعة، وبأكثرية كبيرة، خلافاً لرأي الحركة: وقد روى «عامل الحركة» منير الريس في مذكراته هذا الحادث بشيء من التفصيل، وشرح موقف «الحركة» المخالف لرأي «الكتلة الوطنية» حيث قال ما يلي:

«وكنا في الحزب القومي العربي [أي الحركة العربية السرية] قررنا اعتبار المعاهدة السورية خطوة في سبيل الاستقلال لقطر عربي، يجب أن تعارض منذ بدايتها للوصول إلى أفضل منها، على عكس «الكتلة الوطنية» التي دللت في وفدها المفاوض، وطريقة الحكم، والإسراع بتصديق المعاهدة، كأنها الغاية النهائية»(٤٢).

كان من نتائج إبرام المعاهدة على هذه الصورة من الجانب السوري، أولاً، بدء الفتور في العلاقات، والتباعد في المواقف، بين «الحركة» و«الكتلة الوطنية». وثانياً، تحسن العلاقات بدرجة كبيرة بين «الكتلة الوطنية» وسلطة

---

(٤٢) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٥٢ . ٢٥٣.

الانتداب الفرنسي، ممثلة بالمفوض السامي دي مارتيل، وتمتع «الكتلة الوطنية» بنفوذ واسع طاغ في الأوساط الشعبية، مكنتها من السيطرة سيطرة كاملة على الحكم. ولكن هذا الواقع لم يدم طويلاً، لأن ظروفاً محلية وإقليمية ودولية طرأت وقلبت الأوضاع والمعادلات الراهنة رأساً على عقب، وأحدثت التغييرات التي لعبت «الحركة العربية السرية» فيها دوراً مهماً، كما سيتبين من الأحداث التالية.

٥ ـ الحركة العربية السرية ومسألة لواء الإسكندرونة

في أعقاب توقيع المعاهدة مع فرنسا، برزت في الساحة السورية أحداث غير متوقعة، كان من أهمها وأكثرها إثارة، مسألة لواء الإسكندرونة، والثورة الكبرى في فلسطين ضد الانتداب البريطاني والصهيونية.

عرض مسألة لواء الإسكندرونة:

كان لواء الإسكندرونة يقع في أقصى الشمال الغربي من سوريا، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ويضم مدينتي أنطاكية والإسكندرونة، وسهل العمق الخصيب، ويجري نهر العاصي بوسطه ويصب في ساحله. وهو إقليم ذو أهمية كبيرة من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية. كان عدد سكانه يبلغ حوالى مئة وخمسين ألفاً، وهم خليط، ٦٠٪ منهم عرب وأرمن ويونان، و٤٠ بالمئة من أصل تركي. وكان منذ سنة ١٩١٨ يتمتع بنظام خاص وإدارة ذاتية ضمن إطار الدولة السورية.

ولما عقدت المعاهدة الفرنسية ـ السورية في ٩ أيلول سنة ١٩٣٦، التي نصت على استقلال سوريا التام وانسحاب الفرنسيين منها بعد فترة انتقالية محددة، اعترضت تركيا على إبقاء لواء الإسكندرونة تابعاً لسوريا، بحجة أن قسماً كبيراً من سكانه من العنصر التركي. وقد عرفت تركيا كيف تقتنص الفرصة المناسبة للمطالبة باللواء. ففي سنة ١٩٣٧ كانت فرنسا، ومعها بريطانيا، تحاولان اجتذاب تركيا إلى التحالف معهما، أو إقناعها بالبقاء على الحياد في حال اندلاع الحرب بين ألمانيا النازية والديمقراطيات الغربية. فموقع تركيا يشكل حاجزاً استراتيجياً منيعاً في وجه

هجوم محتمل تقوم به ألمانيا النازية أو الاتحاد السوفياتي الشيوعي عبر شبه جزيرة البلقان على بلاد الهلال الخصيب الخاضعة للنفوذين الفرنسي والبريطاني. فطلبت تركيا الحصول على لواء الإسكندرونة ثمناً لذلك.

وافقت فرنسا على الصفقة، بمباركة بريطانية، وبدأت المفاوضات السرية بشأنها بين المسؤولين الفرنسيين والأتراك. وللتنصل من مسؤولية هذا العمل تجاه سوريا والعرب، اتفقت فرنسا وتركيا في ١٢ أيار ١٩٣٧ على عرض مسألة لواء الإسكندرونة في مجلس عصبة الأمم في جنيف. وكان نفوذ فرنسا وبريطانيا طاغياً في عصبة الأمم. فقررت العصبة في ١٢ تشرين الأول ١٩٣٧ أن يتمتع اللواء بنظام جمهوري خاص[٤٣]. واستناداً إلى هذا القرار، عقدت تركيا وفرنسا في ٤ تموز سنة ١٩٣٨، اتفاقاً سرياً تضمن الاعتراف باستقلال اللواء، وبأن من هم من أصل تركي فيه يشكلون أكبر وحدة عنصرية بين سكانه. وأطلق الأتراك على اللواء اسم «هاتاي»[٤٤].

وفي أثناء ذلك شكلت عصبة الأمم لجنة دولية لإجراء استفتاء عام لمعرفة الرغبات الحقيقية للسكان، وهل هم يفضلون البقاء في الدولة السورية، أم أنهم يريدون الانفصال عنها والالتحاق بتركيا. ويقول السوريون[٤٥] إنه بالرغم من انحياز فرنسا إلى تركيا، ومن تدخلهما السافر في عملية الاستفتاء، وممارستهما مختلف أنواع الضغط ووسائل الإغراء على السكان، فإن نتيجة الاستفتاء لم تكن في صالح تركيا. ورغم ذلك، وبتأثير من النفوذين الفرنسي والبريطاني، قبلت عصبة الأمم نتيجة الاستفتاء «المزورة»، وأقرت في ٢٠ أيلول ١٩٣٨ اتفاقية ٤ تموز، بين فرنسا وتركيا، القاضية بفصل اللواء عن سوريا، ومنحه استقلالاً ذاتياً ونظاماً خاصاً، ضمن إطار الانتداب الفرنسي. وحققت تركيا بذلك خطوة عملية متقدمة في

(٤٣) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٨١.
(٤٤) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٨٤.
(٤٥) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٨٤.

«السيناريو» المرسوم بالتواطؤ مع فرنسا وبموافقة ضمنية من بريطانيا للاستيلاء الكامل على اللواء تدريجاً.

الحركة العربية السرية تدافع عن عروبة اللواء:

هذه باختصار قصة لواء الإسكندرونة حتى مطلع سنة ١٩٣٩. وقد بذلت الحركة العربية السرية نشاطاً كبيراً وجهداً مخلصاً، في مقاومة التواطؤ التركي الفرنسي، وفي محاولة للإبقاء على عروبة اللواء. وفيما يلي وصف للدور الذي قامت به الحركة العربية السرية في معركة مصير لواء الإسكندرونة، كما عرضه أحد كبار مسؤولي «الحركة» منير الريّس في مذكراته حيث قال الآتي:

«كانت تركيا أثارت مشكلة لواء الإسكندرونة رسمياً في عصبة الأمم... فتقرر إيفاد لجنة تحقيق دولية تدرس رغبات السكان. ولما لم يأتِ تقرير اللجنة في صالح تركيا سحبت اللجنة، وتقرر استفتاء السكان في مصيرهم، تحت إشراف لجنة دولية توفدها عصبة الأمم، وانتقل الكولونيل «كوله» من دمشق ليكون قائد القوات الفرنسية في لواء الإسكندرونة خلال الاستفتاء، ونثرت تركيا ملايين الليرات للدعاية وشراء الضمائر. وأوفدت الحكومة السورية نبيه العظمة ممثلاً لها في اللواء، فأرفقناه [الحركة العربية السرية] بفؤاد مفرج وجمال الديب [جمال علي أديب] من أقطاب الحزب القومي العربي السري [الحركة العربية السرية] ليعملا مع إخوانهما من أجل عروبة اللواء. ولما انسحب نبيه العظمة احتجاجاً على تحيز السلطات الفرنسية للأتراك، تولى فؤاد مفرّج وجمال علي أديب العمل مباشرة. وجاء فؤاد مفرج إلى دمشق يطلب من الحكومة السورية أن تهيئ الأرمن الذين يحملون هويات لواء الإسكندرونة والموزعين في دمشق ولبنان للاستفادة من أصواتهم في الاستفتاء لصالح دمشق، وأن تحملهم السيارات يوم الإستفتاء إلى اللواء ليدلوا بأصواتهم... ورغم كل هذه العقبات والملايين التي أنفقتها تركية لشراء الضمائر، وللدعاية لدعواها الباطلة، وإهمال الحكومة السورية، وضغط الفرنسيين، فقد صوتت الأكثرية، أي ٦٤٪ في جميع المناطق عدا ناحية

القصير التي حال دخول الجيش التركي إليها دون تصويت أبنائها، صوتت لعروبة الإسكندرونة. وأدركت الحكومة التركية أن الاستفتاء جاء لغير صالحها، فطلبت سحب اللجنة الدولية واتهمتها بالتواطؤ مع العرب، واتفقت علناً مع فرنسا على احتلال اللواء بالقوة، فكان لها ذلك، وأنزل العلم السوري عن المباني الرسمية في اللواء، ودخل الجيش التركي بالتواطؤ مع فرنسا غاصباً، وطرد فؤاد مفرج وجمال علي أديب والقوميين العرب الذين كانوا يعملون معهما في أنطاكية «بملابس النوم» ليلة دخول الجيش التركي اللواء»[٤٦].

وفي ٢٣ حزيران ١٩٣٩ وقع المسيو ماسيغلي ممثل فرنسا في أنقرة صك تنازل بلاده عن لواء الإسكندرونة إلى تركيا، وطوي ملف هذه المسألة بالرغم من احتجاج دمشق والعرب واستنكارهم لما جرى.

٦ ـ ثورة فلسطين والحركة العربية السرية في سوريا

التأييد العربي العام للثورة في فلسطين:

ما إن بدأت المفاوضات حول موضوع المعاهدة الفرنسية ـ السورية، وانتهى الإضراب، وتوقفت المظاهرات، وعادت الحياة إلى طبيعتها في سوريا بمطلع آذار سنة ١٩٣٦، حتى نشبت في أواسط شهر نيسان التالي ثورة فلسطين الكبرى ضد الانتداب البريطاني والصهيونية، واستمرت إلى سنة ١٩٣٩. لقيت هذه الثورة منذ اندلاعها تأييداً ودعماً كبيرين من الشعوب العربية في سائر أقطارها، ولا سيما في سوريا ولبنان والعراق. فقائد الثورة العام فوزي القاوقجي لبناني من طرابلس، ومساعده المعتمد منير الريّس سوري من حماة، وقد انطلق القاوقجي من العراق إلى فلسطين بدعم مادي ومعنوي قوي من لجنة الدفاع عن فلسطين في العراق ومن المسؤولين العراقيين[٤٧]. وتطوع للقتال وانضم إلى الثوار في فلسطين عشرات من

---

(٤٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

(٤٧) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦٥.

الشبان السوريين واللبنانيين والعراقيين. وقد استشهد عدد منهم في أرض المعركة.

وتأثرت «الحركة العربية السرية» بثورة فلسطين كسائر الأحزاب والهيئات الوطنية في دمشق. ولما كانت المسألة الفلسطينية، بنظر الحركة، مسألة قومية تهم العرب جميعاً، وليست مسألة فلسطينية قطرية، فحسب، فقد أولتها الحركة اهتمامها، وساهمت بقدر غير يسير، مع الفاعليات الوطنية الأخرى، في بذل أقصى الجهود، وتقديم المساعدات القيمة المتنوعة، لدعم الثورة انطلاقاً من الأراضي السورية.

الحركة العربية السرية في سوريا تمد الثورة في فلسطين بالمتطوعين والسلاح:

كانت العواصم الثلاث، بغداد ودمشق وعمان المراكز الرئيسية التي جرت فيها الاستعدادات وتمت التحضيرات الضرورية بسرعة لنجدة الثورة في فلسطين، وتصعيد أوارها. قادت هذه الحركة لجان الدفاع عن فلسطين في العواصم العربية المختلفة. شارك فيها بشكل خاص في بغداد وعمان فوزي القاوقجي وأخوه ظافر، بمباركة بعض المسؤولين. وفي دمشق ساهمت عناصر الحركة العربية السرية بقسط مهم من الجهود التي بذلت لتجنيد المتطوعين وتأمين المال والسلاح والذخائر والأعتدة، ونقلها سراً عبر الحدود السورية والأردنية وتسليمها إلى الثوار داخل فلسطين. ولم يكن فوزي القاوقجي على علم بوجود «الحركة»، أو بأن الذين ساهموا في حشد الطاقات في سوريا كانوا عناصر «حركية». فقد كان لفوزي القاوقجي في سوريا رفاق سلاح قدامى من زمن الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧، وأصدقاء مخلصون يثق بهم، ويتكل عليهم، في تنفيذ المهمات الثورية الخطرة، مثل منير الريّس، وسعيد الترمانيني، وعثمان الحوراني[٤٨]، وكلهم

---

(٤٨) كان فوزي القاوقجي قد أسس قبيل نشوب الثورة السوريةالكبرى سنة ١٩٢٥ حزباً سياسياً أطلق عليه اسم «حزب الله»، وكان سعيد الترمانيني وعثمان الحوراني من أعضائه. (مذكرات فوزي القاوقجي، الجزء الأول، ص ٨٢ و٨٤).

منتسبون إلى الحركة العربية السرية منذ تأسيسها في سوريا سنة ١٩٣٦. فعلى أساس زمالة السلاح والتماثل في التوجه القومي، اتصل فوزي القاوقجي من بغداد بصديقه المناضل منير الريّس في دمشق، وطلب إليه أن يقوم بالاستعدادات والتحضيرات الممكنة في سوريا للمشاركة بثورة فلسطين. فقام منير الريس بهذه المهمة، مستعيناً بأجهزة الحركة العربية السرية وعناصرها، بصفته «عامل الحركة» والمرجع الأول في سوريا. وقد روى منير الريّس في مذكراته هذا الجانب من مساهمة «الحركة» في ثورة فلسطين، فكتب عن رسالة فوزي القاوقجي إلى منير الريّس ما يلي:

«تلقيت رسالة من فوزي القاوقجي في بغداد يخبرني فيها أنه كُلف بتجهيز قوة من شباب العرب لنجدة فلسطين، وأنه ارتأى أن تكون مزيجاً من عدة أقطار ومدن عربية... وأنه أوكل إليّ اختيار خمسة وسبعين شاباً من سوريا ولبنان للالتحاق به، والاشتراك معه في ثورة فلسطين، وان السلاح سيجهز لهم، وستدفع نفقات نقلهم إلى فلسطين، ويعلمني أن الحاج أديب خير صاحب المكتبة العمومية في دمشق... سيكون واسطة للمكاتبة والاتصال بيني وبينه. فانصرفت تواً إلى الاتصال بإخواني وأصدقائي في دمشق والمدن الأخرى، واستعنت بفروع الحزب القومي العربي [الحركة العربية السرية] لإعداد هؤلاء الشباب. فكلفت عثمان الحوراني [حركي] من القوميين العرب ومنظمي ثورة حماة ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥، بإعداد بضعة عشر شاباً من حماه، وكلفت الصيدلي سليمان المعصراني وأخاه عبد الهادي المعصراني [حركيان] في حمص بإعداد بضعة عشر شاباً من حمص، واتصلت بمحمد صعب في لبنان، وهو رفيق لي بالسلاح، فجهز بضعة عشر شاباً من دروز لبنان، واتفقت مع المجاهد محمود أبي يحيى من جبل الدروز على أن ينضم إلى شباب الدروز اللبنانيين. وجاءني يوماً الشيخ محمدالأشمر من رفاق السلاح في الثورة السورية... فعهدت إليه أن ينتقي بضعة وعشرين شاباً من دمشق مدربين على حمل السلاح وقادرين على استخدامه. ورحنا ننتظر الإشارة من فوزي القاوقجي بالتوجه إلى فلسطين... ولما تمَّ ذلك [أي جمع المتطوعين في دمشق] رتبت سفر الدروز والحمويين

والحمصيين بطريق القنيطرة، ولكي لا أنبه الفرنسيين، وأشعرهم بتجمع الشباب، أوعزت لكل أربعة منهم السفر على انفراد بإحدى سيارات الركاب الكبيرة إلى القنيطرة مع غيرهم من الركاب، وأن يرجعوا عند وصولهم إلى جميل العلواني مساعد رئيس المحكمة ورئيس الإجراء في محكمة صلح القنيطرة، وهو... من المنتسبين إلى الحزب القومي العربي [وهو حركي]»(٤٩).

ويمضي منير الريّس في مذكراته بوصف المصاعب التي تكبدها هؤلاء المتطوعون، والأخطار الجسيمة التي تعرضوا لها، والمفاجآت المزعجة التي واجهتهم، وهم يتسللون خفية في الأراضي السورية والأردنية، وعبر الحدود الدولية، حتى وصلوا إلى فلسطين في مطلع الأسبوع الرابع من شهر آب ١٩٣٦، وانضموا إلى فوزي القاوقجي والمتطوعين العراقيين، الذين كانوا قد سبقوهم إلى هناك. وكان على رأس المتطوعين السوريين «عامل الحركة العربية السرية في سوريا» منير الريّس. وفي الفصل التالي عن الحركة العربية السرية في فلسطين عرض وافٍ للدور الذي لعبه فوزي القاوقجي و«الحركة العربية السرية» والمناضلون الوطنيون في المرحلة الثانية من الثورة حتى إعلان وقف إطلاق النار في ١١ تشرين الأول ١٩٣٦(٥٠).

وهكذا تكون «الحركة العربية السرية» من أوائل الذين لبوا نداء الواجب القومي لنصرة الثورة في فلسطين، وقدموا لها، في هاتين المرحلتين، الأولى والثانية، مساعدات ذات شأن في الإعداد والتحضير والتنظيم، كما في ساحات القتال أيضاً.

سنة من الهدوء النسبي:

عرفت المرحلة الثالثة من الثورة الفلسطينية الممتدة من أيلول ١٩٣٦، حتى ٧ تموز سنة ١٩٣٧، حين نشرت الحكومة البريطانية في لندن تقرير لجنة بيل (Peel) المكلفة بدرس المسألة الفلسطينية، واقتراح حل لها. فقد

---

(٤٩) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٠٠ . ٢٠٣.
(٥٠) يراجع الفصل الخامس.

خيب الحل التقسيمي الذي أوصت به اللجنة آمال العرب وأثار استنكارهم في مختلف أقطارهم. وفي سوريا دعت «لجنة الدفاع عن فلسطين» لعقد مؤتمر قومي يخصص لبحث المسألة الفلسطينية. وقد قامت «الحركة العربية السرية» بدور رئيسي في موضوع المؤتمر.

المؤتمر العربي القومي في بلودان:

انعقد «المؤتمر العربي القومي» في بلودان من ٨ ـ ١٠ أيلول بدعوة وجهتها «لجنة الدفاع عن فلسطين» في سوريا إلى:

«جميع الأفراد المشتغلين بالقضية القومية... فكان مؤتمراً قومياً شاملاً تلاقت فيه كافة الهيئات والأحزاب والطبقات على صعيد القومية العربية الجامعة»[٥١].

لم يكن للمؤتمر صفة حكومية رسمية[٥٢]، ولكنه ضم عدداً كبيراً من الأقطاب ومشاهير السياسيين والصحافيين والمهتمين بالشؤون العربية القومية، مثل، ناجي باشا السويدي رئيس الوزارة العراقية سابقاً، وحمدي الباجه جي وزير عراقي سابق، ومحمد علي علوية باشا وزير المعارف والأوقاف في مصر سابقاً، ولطفي الحفار نائب رئيس المجلس النيابي السوري سابقاً، والأمير شكيب أرسلان، والأمير أمين أرسلان، وأحمد قدري، ورياض الصلح، وإحسان الجابري، وعبد الحميد كرامي، وجمال الحسيني وغيرهم. وقد أتوا من سوريا ولبنان وفلسطين، وشرق الأردن، والعراق ومصر وطرابلس الغرب ووردت على المؤتمر عشرات برقيات ورسائل التأييد من حكام وأحزاب، وزعماء، ورجال دين وأفراد من سائر الأقطار العربية[٥٣].

---

(٥١) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي في بلودان، ص ٥.

(٥٢) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦١٤. ضغطت الحكومة البريطانية على حكومات الدول العربية كي لا يكون لهذا المؤتمر صفة حكومية رسمية، وكي لا تشترك تلك الحكومات أو من يمثلها فيه.

(٥٣) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧، ص ٩٣ ـ ١٣٨.

كانت غاية المؤتمر، كما حددها رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين المضيفة نبيه العظمة في كلمة الافتتاح «**البحث في القضية العربية في سوريا الجنوبية [فلسطين] ودرس الوسائل التي من شأنها أن تؤدي إلى إنقاذ ذلك القطر من الاكتساح والاستعمار الصهيوني المؤيد من الإنكليز وحرابهم**»(٥٤).

دام المؤتمر ثلاثة أيام، ألقيت فيه خلالها عدة خطب ومداخلات، وانتهى باتخاذ عدد من القرارات الداعمة للقضية الفلسطينية من النواحي السياسية والمالية والإعلامية، وقد نص أهمها على ما يلي:

- أن فلسطين جزء لا ينفصل من أجزاء الوطن العربي.
- رفض ومقاومة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها.
- الإصرار على طلب إلغاء الانتداب ووعد بلفور، وعقد معاهدة مع بريطانيا.
- وقف الهجرة ومنع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود.
- إرسال هذه المقررات إلى عصبة الأمم وغيرها من المراكز ذات الشأن(٥٥).

وقرر المؤتمر أخيراً، تأليف لجنة تنفيذية دائمة للمؤتمر، تتولى تنفيذ مقرراته، ويكون قوامها «اللجنة العربية العليا» في فلسطين، ومندوب عن كل قطر من الأقطار العربية، على أن تنتخب «لجنة الدفاع عن فلسطين» في كل قطر مندوبها(٥٦).

دور الحركة العربية السرية في مؤتمر بلودان:

كان «للحركة العربية السرية» دور أساسي في مؤتمر بلودان، قام به عدد من قيادييها وأعضائها من بضعة أقطار. كان في طليعة هؤلاء أحد

(٥٤) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي، ص ١.
(٥٥) المصدر ذاته، ص ١٩.
(٥٦) المصدر ذاته، ص ٢٠.

مؤسسي «الحركة» والعضو بمجلس قيادتها الأعلى فؤاد خليل مفرج. كان فؤاد مقيماً في دمشق يومئذٍ، ومشرفاً على أعمال «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر». ولما تأزمت الحالة في فلسطين، بعد صدور تقرير لجنة بيل الموصي بالتقسيم، كان فؤاد مفرج أحد الذين دعوا إلى تأسيس «لجنة الدفاع عن فلسطين» في سوريا، ولما تأسست، شغل منصب أمينها العام، وكان محور نشاطها وتحركها. وكان، بحكم المناصب التي يشغلها، على اتصال دائم وعلاقات طيبة مع سائر المشتغلين بالحقل العربي القومي في سوريا وخارجها. وأهلته علاقاته الواسعة هذه، واندفاعه الشخصي المخلص في خدمة القضايا القومية، ليلعب دوراً بارزاً في مؤتمر بلودان في مراحله الثلاث، مرحلة التحضير للمؤتمر، ومرحلة المؤتمر ذاته، ومرحلة ما بعد المؤتمر. لقد تقرر عقد المؤتمر في «لجنة الدفاع عن فلسطين، وتولى أمين سرها فؤاد مفرج القيام بمعظم الاستعدادات اللازمة لانعقاد المؤتمر من إجراء الاتصالات، وتوجيه الدعوات، ووضع منهاج عمل المؤتمر، وتعيين زمانه ومكانه، والإشراف على أعمال اللجان الفرعية المساعدة والتنسيق بينها، وغير ذلك من الأمور. وقد أنجزت جميع هذه التحضيرات بدقة ونجاح»[٥٧].

وعندما انعقد المؤتمر ألقى فؤاد مفرج كلمة الافتتاح بالنيابة عن رئيس «لجنة الدفاع عن فلسطين» الداعية، وانتخبه المؤتمر أميناً للسر مع كل ما يعنيه ذلك من مسؤوليات تنظيمية وإدارية، فكان لولب الحركة بالمؤتمر، والمرجع لكل شاردة وواردة فيه. وبعد انتهاء المؤتمر قام فؤاد مفرج بوضع كتاب عنه، اشتمل على أسماء المشاركين، وحوى كل الكلمات والمداخلات التي ألقيت، ورسائل وبرقيات التأييد الواردة، وما ذكرته الصحف عن المؤتمر في حينه، وكل ما له علاقة بالمؤتمر. ويعتبر هذا الكتاب أشمل وأصدق مرجع عن مؤتمر بلودان. وقد نشره «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر» الذي يديره فؤاد مفرج، وهو بعنوان «المؤتمر العربي

---

(٥٧) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي، ص ٦ - ٩ و٣٦ - ٤١.

القومي في بلودان ١٩٣٧».

ومثلما كانت الحركة العربية السرية ممثلة بقوة في «لجنة الدفاع عن فلسطين» المضيفة، وفي المؤتمر بالذات بشخص فؤاد مفرج، فإنها كانت ممثلة بقوة أيضاً في هيئة المؤتمر العامة ببضعة عشر عنصراً من أبرز قادتها وأعضائها الذين اشتركوا في أبحاث المؤتمر ومناقشاته وصياغة مقرراته مثل، كاظم الصلح، وتقي الدين الصلح، وعلي بزي، وفريد زين الدين، ونصري معلوف، وسعيد فتاح الإمام، ويونس السبعاوي، وواصف كمال، وفرحان شبيلات(٥٨).

وكان من مآثر الحركة العربية السرية بمناسبة مؤتمر بلودان أيضاً، أن فؤاد مفرج فتح في «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر» فرعاً خاصاً لفلسطين، وأوكل أمر الإشراف عليه إلى المناضل الفلسطيني أكرم زعيتر. فعمل هذا المكتب لمصلحة المسألة الفلسطينية بعض الوقت(٥٩).

«مؤتمر الشباب القوميين» في بلودان:

كان «المؤتمر العربي القومي» في بلودان مخصصاً للمسألة الفلسطينية. فركزت جميع الخطب والمداخلات التي ألقيت فيه حول هذه المسألة المحورية، وانحصرت المقررات التي صدرت عنه، بهذا الموضوع دون سواه. وقد شاء أعضاء «الحركة العربية السرية» المشتركون بالمؤتمر، أن يستغلوا هذه المناسبة، لعقد اجتماع خاص، يحضره الشباب القوميون المشتركون بالمؤتمر، لبحث القضية العربية الشاملة، وتحديد الدور الذي يجب على الشباب العربي أن يقوم به في خدمتها، والسعي لتحقيق أهدافها، وفقاً للأسس والمبادئ التي رسمتها «الحركة» في ميثاقها المدرج في «الكتاب الأحمر». وتألف هؤلاء الحركيون الداعون من يونس السبعاوي، وكاظم وتقي الدين الصلح، وفريد زين الدين، وواصف كمال، ومنير الريّس،

---

(٥٨) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي، ص ٢١ ـ ٣٥.
(٥٩) أكرم زعيتر، يوميات، ص ٣٤٥.

وعثمان حوراني، ورامز شوقي، وقبولي الذوق، ونصري المعلوف، ونجيب الصايغ، وحسني عطية، وشوقي الدندشي، وجميل مكاوي، ومحمد علي دروزه، وسعيد فتاح الإمام، ومنير الريّس، فاتصلوا، من دون أن يفصحوا عن هويتهم «الحركية»، ببعض الشبان من عصبة العمل القومي وسواها مثل، أكرم زعيتر، وصبري العسلي، وسيف الدين المأمون، وعبد القادر ميداني، وشاكر العاص، وأحمد الشراباتي، وعبد الكريم العائدي، وسواهم، واتفقوا على عقد مؤتمر جانبي خاص بهم في موازاة مؤتمر بلودان وفي الوقت الذي تكون فيه جلسات هذا المؤتمر معلقة.

عقد الشباب القوميون المذكورون مؤتمرهم الخاص في المساء في قاعة كبرى بأحد مقاهي الزبداني، واختير يونس السبعاوي لإدارة الجلسة، وكاظم الصلح وأحمد الشقيري لأمانة السر. وقد دوّن أكرم زعيتر في مذكراته أهم ما جرى في ذلك الاجتماع، فقال إن المتكلمين تحدثوا عن ضرورة جمع كلمة الشباب العربي القومي كله من المحيط إلى الخليج، ووضع منهاج قومي مشترك لعملهم. وانتهت المداولات إلى اتخاذ القرارين التاليين، حسب أكرم زعيتر:

أولاً، تقرر «**عقد مؤتمر عربي يمثل شباب العرب القوميين في كافة الأقطار العربية، للقيام بواجبهم متعاونين، نحو القضية العربية وتحقيق أهدافها، وأن يعقد هذا المؤتمر، بعد استكمال أسباب نجاحه، في إحدى العواصم الغربية، حيث يتوفر الجو الحر ويخلو من المؤثرات المحلية والقطرية في البلاد العربية**».

وثانياً، تقرر تشكيل «**لجنة تحضيرية [للإعداد لانعقاد هذا المؤتمر] يكون معظم أعضائها من المقيمين في دمشق. وقد أضيف إليهم أكرم زعيتر وفريد زين الدين وكاظم الصلح وواصف كمال**»[٦٠]. ويلاحظ أنهم جميعاً من أعضاء «الحركة العربية السرية» باستثناء أكرم زعيتر.

---

(٦٠) أكرم زعيتر، مذكرات ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

٧ ـ الفرنسيون واللاجئون الفلسطينيون في سوريا ولبنان

قادة النضال الوطني يفرون من فلسطين:

بعد فشل مشروع التقسيم، وسقوط الهدنة، وانعقاد مؤتمر بلودان الذي رفع معنويات الثوار الفلسطينيين بعض الوقت، ازدادت أعمال العنف شدة وانتشاراً. وظفرت إحدى فصائل الثوار من «القسّامين»، باغتيال المستر أندروز، حاكم منطقة الجليل الشمالية ومرافقه، البريطانيين، بمدينة الناصرة، مساء الأحد في ٢٦ أيلول سنة ١٩٣٧. فحمل هذا الحادث الخطير سلطة الانتداب، على اتخاذ إجراءات انتقامية صارمة، ضد الزعماء الوطنيين الفلسطينيين[٦١]، فاضطروا إلى الهرب والنزوح عن بلدهم.

نشاط اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان لدعم الثورة:

إن معظم الزعماء السياسيين، وقادة النضال الوطني الفلسطيني، الذين أكرهوا على الفرار من وطنهم خلال سنوات الثورة ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩، لجأوا إلى منطقة الانتداب الفرنسي، فأجارهم الفرنسيون، ومنحوهم الحماية وحق اللجوء السياسي، فأقام بعضهم في لبنان، والبعض الآخر في سوريا. وقد انتقل معهم مركز قيادة الثورة والحركة الوطنية من فلسطين إلى مكاني إقامتهم في هذين البلدين. وكان على رأس الذين أقاموا في لبنان، مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا والزعيم الفلسطيني الأول. فكان الزعماء الفلسطينيون الآخرون، وسواهم من المشتغلين بالقضية الفلسطينية، يأتون إلى حيث يقيم المفتي في بلدة الذوق القريبة من بيروت للتشاور وتبادل الأفكار معه، واتخاذ القرارات السياسية المهمة المتعلقة بالثورة وبالقضية الفلسطينية ككل[٦٢].

وفي دمشق شكل اللاجئون الفلسطينيون هيئة وطنية أطلقوا عليها اسم «اللجنة المركزية للجهاد» بإدارة عزت دروزة ويعاونه لاجئون آخرون مثل،

---

(٦١) يراجع بشأن هذه الإجراءات الانتقامية الفصل الخامس.

(٦٢) زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٩٩.

أكرم زعيتر، وعبد الرحيم الحاج محمد، وواصف كمال. كان هدف هذه اللجنة الرئيسي تنظيم الثورة وإدارتها ودعمها بمختلف الوسائل المتاحة، بالتنسيق والتعاون مع الحاج أمين الحسيني المقيم في لبنان. فكانت هذه اللجنة تقوم بتجنيد المتطوعين، وجمع المال، وشراء السلاح، والذخائر وتجميعها في مخابئ سرية في دمشق، إلى أن تسنح الفرص المناسبة لتهريبها عبر الحدود الدولية إلى الثوار في داخل فلسطين[٦٣]. وأنشأ القائد عبد الرحيم الحاج محمد بالاتفاق مع المفتي الحاج أمين الحسيني في بلدة قرنايل بقضاء المتن بجبل لبنان مركزاً لشراء السلاح وجمعه وتخزينه ليصير إرساله إلى اللجنة المركزية في دمشق أو لتهريبه مباشرة إلى الثوار في فلسطين. وكان يساعده شاب من شباب قرنايل اسمه نايف هلال[٦٤].

كانت «الحركة العربية السرية» من التنظيمات القومية التي مدت يد المساعدة إلى «اللجنة المركزية للجهاد»، وسهلت لها عملها، وشاركتها في تحقيق أهدافها. فقد وضعت «الحركة» أجهزتها ونقط اعتمادها في سوريا، في خدمة اللجنة، بحيث أصبح التنسيق والتعاون كاملاً بين «اللجنة المركزية للجهاد» وبين نقط اعتماد الحركة الممثلة «بلجنة الدفاع عن فلسطين»، و«المكتب العربي القومي للدعاية والنشر»، و«النادي العربي» في دمشق. وقد لعب دوراً بارزاً في هذا المجال، بعض أعضاء «الحركة» مثل، فؤاد مفرج، وفريد زين الدين، ومنير الريّس، وعز الدين الشوا، وواصف كمال، وذلك بالتعاون مع مناضلين قوميين من غير أعضاء «الحركة» مثل، نبيه العظمة، وعادل العظمة، وعزة دروزة، وأكرم زعيتر. وبنتيجة هذه الأعمال أصبحت دمشق مركز الدعم اللوجستي الرئيسي للثورة في فلسطين. وللتدليل على ذلك نورد القصتين التاليتين كنموذج لبعض ما كان يجري في سوريا من أنواع الدعم والمساندة للثورة الفلسطينية.

---

(٦٣) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦١٤.
(٦٤) زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٦٧.

قصة فوزي رشيد:

فوزي رشيد ثائر فلسطيني لجأ إلى دمشق، ومنها كان يتسلل إلى فلسطين، فيقوم بعمليات عسكرية، ثم يعود. حكم عليه غياباً بالإعدام، وطلبت السلطات البريطانية في فلسطين من السلطات الفرنسية في سوريا، إلقاء القبض عليه وتسليمه إليها. قبضت الحكومة السورية عليه، ولكن العناصر الوطنية، وخصوصاً جماعة «الحركة العربية السرية» تدخلت بالموضوع، وحالت دون تسليمه إلى البريطانيين، والاكتفاء بجعله يكتب ويوقع تعهداً بأن لا يعود إلى العمل الفدائي من الأراضي السورية، وإلا فإنها ستسلمه إلى البريطانيين، إن أعادها. ولكن فوزي رشيد أعادها، وألقي القبض عليه. وكان لا بد من تسليمه إلى الأمن العام الفرنسي، ليسلمه إلى البريطانيين. وكان منير الريّس، عامل الحركة العربية السرية في سوريا، يشغل، يومئذٍ، وظيفة رئيس الشعبة السياسية في مديرية الشرطة العامة السورية بدمشق. فرتب «سيناريو» تسليمه إلى أفراد الأمن العام الفرنسي، وطريقة فراره من بين أيديهم. ونجحت الخطة، ونجا فوزي رشيد، وسكت الفرنسيون أخيراً عن قضيته. ولكن منير الريّس دفع ثمن العملية باضطراره إلى تقديم استقالته من وظيفته[٦٥].

قصة مخبأ السلاح:

إن قصة مخبأ السلاح، مرتبطة بقصة فوزي رشيد، وبنشاط «الحركة العربية السرية» في سوريا، لتأييد الثورة في فلسطين. فقد روى منير الريّس أيضاً، الرواية التالية، قال:

«جاءني يوماً إلى مكتبي في مديرية الشرطة واصف كمال من الأحرار الفلسطينيين وأحد أعضاء القيادة العليا للحزب القومي العربي [الحركة العربية السرية]، وأبلغني أن هناك إخواناً من المجاهدين الفلسطينيين يعملون في دمشق بتهيئة المواد المتفجرة في دار استأجروها لهذا الغرض في

---

(٦٥) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٨٧.

حي المهاجرين، اتخذت أيضاً مستودعاً للسلاح الذي يشرى لتزويد ثوار فلسطين. وكانت الثورة قد استأنفها العرب في فلسطين بعد أن رفضت الدول العربية توصيات لجنة التحقيق والكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا كحل لقضية فلسطين... وكان هناك فلسطينيون يطوفون أرجاء سوريا ولبنان لشراء السلاح والعتاد سراً من التجار ويحملون كمياته على مرات، ويحفظونه سراً في مستودعات سرية في دمشق، ريثما يتسنى لهم نقله إلى فلسطين، مستغلين الحكم الوطني وارتخاء قبضة الفرنسيين عن ملاحقة مهربي السلاح»[٦٦].

ولما اكتشف صاحب الدار المستأجرة أمر المتفجرات والسلاح، طلب إخلاء المأجور واستعادته من الفلسطينيين. فنقل السلاح إلى مخبأ بمنزل منير الريّس، ريثما يتم استئجار مستودع جديد. وكان منير الريّس يومها، رئيساً للشعبة السياسية في مديرية الشرطة العامة المركزية. ويتابع الريس الرواية، فيقول:

«ولكني فكرت ليلة استقالتي [من مديرية الشرطة بسبب قصة فوزي رشيد] بأن الحصانة التي كانت لي في الشرطة زالت الليلة، وأصبح خطراً عليّ بقاء السلاح في بيتي، خصوصاً وقد بلغ العداء بيني وبين الفرنسيين [بسبب تدبيره عملية تهريب فوزي رشيد من بين أيدي رجال الأمن الفرنسيين] حداً لا يصح معه أن أهمل معه أمر بقاء السلاح في بيتي»[٦٧].

وقد نقل السلاح بالفعل في تلك الليلة إلى مخبأ مستأجر جديد.

تساهل الفرنسيين مع اللاجئين الفلسطينيين:

كان البَلَدان، سوريا ولبنان، تحت الانتداب الفرنسي، حين لجأ إليهما الفلسطينيون الهاربون من جحيم الطغيان البريطاني ـ الصهيوني في بلدهم. وتساهل الفرنسيون في معاملة اللاجئين الفلسطينيين، فيما يختص بالتزامهم

---

(٦٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٩.
(٦٧) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٩.

بقواعد اللجوء السياسي وشروطه العامة المعروفة. فكانوا، على الأكثر، يتغاضون عن نشاطهم السياسي لدعم قضيتهم الوطنية، ويغضون النظر عن جهودهم الحثيثة الواسعة، لجمع المساعدات المالية وشراء السلاح والأعتدة العسكرية، وتهريبها عبر حدود البلدين، لتغذية الثورة ودعم الثوار، داخل فلسطين، على ما ذكر أعلاه. وقد احتج البريطانيون لدى الفرنسيين على هذا الوضع المعادي لهم، وطالبوا بإجبار اللاجئين الفلسطينيين في مناطق الانتداب الفرنسي، على احترام شروط اللجوء السياسي، ومنعهم من القيام بأي نشاط سياسي وعسكري، من شأنه أن يزيد الثورة اشتعالاً، والقضية الفلسطينية صعوبة وتعقيداً. فقد أجرى قنصل بريطانية في دمشق، غيلبرت ماكيريث عدة اتصالات مع المسؤولين في المندوبية الفرنسية، ومع وزارة الخارجية السورية بهذا الخصوص[٦٨]. ولكن الفرنسيين لم يستجيبوا لمطالب البريطانيين. وقد ذكر القنصل ماكيريث في تقرير دبلوماسي مرسل إلى وزير الخارجية البريطاني انطوني إيدن، بتاريخ ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٧، أنه عندما قابل مندوب المفوض السامي في دمشق الكونت أوستروروغ، وطلب إليه إبعاد بعض اللاجئين الخطرين عن سوريا، وإعادتهم إلى فلسطين أجابه أوستروروغ ببرود قائلاً:

«إن هناك على ما يبدو صعوبات عملية لا تذلل في تنفيذ طرد غير المرغوب فيهم»[٦٩].

وهكذا بقيت دمشق، وبيروت، ومنزل الحاج أمين الحسيني في بلدة الذوق، مراكز نشاط واسع للعمل الوطني الفلسطيني، من دون أن يلقوا ممانعة «جدية» من قبل الفرنسيين.

لماذا تساهل الفرنسيون مع اللاجئين الفلسطينيين؟:

ترجع معاملة الفرنسيين الحسنة للاجئين الفلسطينيين إلى بضعة أسباب، كان من أهمها الأسباب الأربعة التالية:

---

(٦٨) فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٦١١ ـ ٦١٨.
(٦٩) فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٦١٥.

أولاً ـ كانت العلاقات الفرنسية ـ السورية قد شهدت تحسناً كبيراً بعد توقيع معاهدة الصداقة الفرنسية ـ السورية في باريس في ٩ أيلول سنة ١٩٣٦. وكانت الحكومة الفرنسية الاشتراكية حريصة على المحافظة على تلك العلاقات الحسنة وتنميتها. ولم تشأ أن تتعرض لتحرك الفلسطينيين والتضييق عليهم، لئلا يغضب ذلك السوريين ويؤثر سلباً على العلاقات الطيبة بين فرنسا وسوريا.

ثانياً ـ تعمدت فرنسا استقبال اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان، ومعاملتهم معاملة حسنة، وإظهار عطفها عليهم، وتأييدها لقضيتهم، في الوقت الذي كانت بريطانيا تضطهدهم وتنكل بهم، وتكرههم على مغادرة وطنهم. وكانت فرنسا تأمل في أن يساعدها حسن معاملتها للفلسطينيين، على كسب ثقة الشعب العربي، والتخفيف من حدة المعارضة التي تلقاها، والمشاكل التي تواجهها، في الأقطار العربية الخاضعة لحكمها في شمالي أفريقيا.

ثالثاً ـ لم تستجب فرنسا لطلب سلطات الانتداب البريطاني منع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان من العمل السياسي المعادي لها، وذلك من باب «المعاملة بالمثل» و«ردة الرجل». فالفرنسيون لم ينسوا أبداً، أنه خلال الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ضد فرنسا، كانت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين والأردن تعطف على الثوار السوريين، وتمدهم، مباشرة أم بالواسطة، بالدعم والمساعدة، وتمنح زعماءَهم الفارين حق اللجوء السياسي في فلسطين وشرق الأردن، وتحميهم من ملاحقة القوات الفرنسية[٧٠]. وقد وجد الفرنسيون أن ثورة فلسطين فرصة مناسبة لتصفية ذلك «الحساب»، وتسديد ذلك «الدين» القديم لغريمتهم بريطانيا.

رابعاً ـ كان الفرنسيون يعتقدون، بأن البريطانيين لا يرتاحون لوجودهم في المشرق، ويكرهون أن يروا نفوذهم ينمو وينتشر في بلدانه وبين شعوبه.

---

(٧٠) فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٦١٦.

وكانوا يتهمون البريطانيين بأنهم كانوا يختلقون لهم المتاعب، ويثيرون في وجههم المشاكل في المنطقة المشرقية ومع أهلها، لكي يضعفوا النفوذ الفرنسي فيها؛ بل، وأكثر من ذلك، لكي يخرجوهم من المنطقة كلياً، وتحل بريطانيا محل فرنسا فيها. لذلك كان الفرنسيون يقاومون هذا التوجه البريطاني المزعوم، حماية لنفوذهم ومصالحهم، ودفاعاً عن وجودهم في الشرق.

الحركة العربية السرية تهادن الفرنسيين بتحفظ:

استفاد اللاجئون الفلسطينيون، والشباب القوميون العرب في سوريا ولبنان، من هذا التنافس بين دولتي فرنسا وبريطانيا، وتمتعوا بقسط لا بأس به من حرية الحركة والنشاط السياسي والعسكري المؤيد للثورة في فلسطين، بتساهل ظاهر من سلطات الانتداب الفرنسي، بالرغم من احتجاجات البريطانيين المتكررة. وكان لهذا التساهل وقعه الطيب لدى «الحركة العربية السرية» التي شاءت أن تقابل التساهل الفرنسي بمثله، لعل ذلك يشجع الفرنسيين على تقديم المزيد من التساهل والاستجابة لمطالب السوريين الوطنية الأخرى. ويندرج في هذا السياق قرار مجلس قيادة «الحركة» الأعلى الصادر في ١ كانون الثاني سنة ١٩٣٩، بشكل تعميم داخلي رسمي، جرى إبلاغه إلى سائر مراكز الحركة وفروعها وخلاياها السرية، لإحاطة الأعضاء علماً بالسياسة الجديدة التي رسمتها القيادة لاعتمادها في لبنان[٧١]. وتتلخص هذه السياسة في بندين رئيسيين يوصي، أولهما، الأعضاء بالامتناع عن الخوض في موضوع الوحدة العربية، وضرورة إدخال لبنان فيها، لأنه موضوع حساس، ومثير للجدل والخلاف ويعارضه الفرنسيون بشدة مثلما يعارضه الكيانيون اللبنانيون. ويوصي القرار، عوضاً عن ذلك بالتركيز على المطالبة بتحسين نظام الحكم، وتعزيز الشعور الوطني الاستقلالي عند المواطنين، وفتح قنوات اتصال للحوار المباشر مع الكيانيين

---

(٧١) Kazim Solh Private Papers. Internal ANP Circular no.1w1, 1 Jan. 1939. See: Raghid Solh. Lebanon and Arab Nationalism (Thesis), p.132-147.

اللبنانيين، سعياً لهدم الحواجز النفسية، وإزالة المخاوف السياسية، وبناء ثقة متبادلة معهم. وقد لبّى الحركيون دعوة قيادتهم في أكثر من مجال، نذكر منها على سبيل المثال، مسألة انتساب عدد من قيادي «الحركة» مثل كاظم الصلح، وتقي الدين الصلح وسليم إدريس ونصري المعلوف[٧٢] إلى «حزب الميثاق الوطني» برئاسة مؤسسه المحامي يوسف السودا، بالرغم من أن ميثاق هذا الحزب قد نص في مادته الأولى على:

«استقلال لبنان، في حدوده الراهنة، وكيانه الجمهوري، وحكومته الوطنية»[٧٣].

وفي مادته الثانية على:

«تعزيز علاقات لبنان بالدول العربية المجاورة، تمهيداً لعقد تحالف يضمن للبنان ولهذه البلاد الاستقلال التام، والإنماء الاقتصادي، والكرامة الوطنية، على أن يبقى كل في إطار كيانه الخاص»[٧٤].

وأوصى قرار مجلس قيادة الحركة الأعلى، ثانياً، بأن على «الحركة» أن:

«تخفف نشاطاتها المعادية للفرنسيين على قدر الإمكان، في هذا الوقت الذي تعقد فيه فرنسا معاهدات مع سوريا وتونس، إلى أن يتم إبرام المعاهدات»[٧٥].

يظهر من مضمون هذا القرار، ومن التحفظات الواردة فيه، أن «الحركة العربية السرية» لم تذهب بعيداً في مهادنة الفرنسيين. فقرارها لم يطلب وقف النشاط المعادي لهم، بل أوصى فقط **«بتخفيفه»**، و**«على قدر**

---

(٧٢) باسم الجسر، ميثاق ١٩٤٣، ص ٨٤. (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٨)، يشار إليه بعد الآن، هكذا: باسم الجسر، ميثاق ١٩٤٣. أيضاً: Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.132.

(٧٣) باسم الجسر، ميثاق ١٩٤٣، ص ٨٥.

(٧٤) المصدر ذاته، ص ٨٥.

(٧٥) Kazim Solh, Private Papers, Internal ANP Circular, no.1w1, 1 Jan. 1939. See: Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.132.

الإمكان»، و«**في هذا الوقت**» و«**إلى أن يتم إبرام المعاهدات**». ويرجع هذا التحفظ المتمادي إلى وجود عدد من القضايا الوطنية الأساسية المتعلقة باستقلال سوريا ووحدتها وسلامة أراضيها ومصيرها وعلاقتها بفرنسا. وكانت الحكومة السورية تستعجل الاتصال بالفرنسيين للعمل على حل هذه القضايا وفق رغباتها، وطبق المصالح السورية، من دون أن تلقى التجاوب المطلوب من الجانب الآخر. وقد أثار الموقف الفرنسي المتصف بالتردد والتقلب والغموض شكوك السوريين ومخاوفهم. ثم إن التفاقم السريع الذي طرأ على الأزمة السياسية العالمية في أواخر سنة ١٩٣٨، غذى تلك المخاوف والشكوك، وضاعف العوامل التي كان السوريون يخشون من انعكاساتها السلبية على قضيتهم. ويمكن القول، إنه في مطلع العام ١٩٣٩ كانت المسائل التي تستأثر باهتمام المسؤولين السوريين، والقوميين العرب، و«الحركة العربية السرية»، خصوصاً، وتحدوهم إلى السعي لمعرفة حقيقة الموقف الفرنسي منها للعمل بمقتضاه، تختصر بالأمور الخمسة التالية:

١ ـ مصير لواء الإسكندرونة.

٢ ـ مصير معاهدة ١٩٣٦.

٣ ـ تأثير الوفاق الفرنسي ـ البريطاني الجديد على المسألتين السورية والفلسطينية.

٤ ـ وصول اليمين الفرنسي إلى الحكم، وتأثيره على العلاقات الفرنسية ـ السورية.

٥ ـ مغزى إنهاء خدمة المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل واستبداله بغبريال بيو.

فهل كان تحفظ «الحركة العربية السرية» في مكانه؟ وهل صدقت شكوك السوريين ومخاوفهم؟ وهل جاءت نتائج هذه العوامل الخمسة في غير صالح سوريا والموقف العربي العام؟

٨ ـ التحول بالموقف الفرنسي وأسبابه

مسألة لواء الإسكندرونة:

إن الإجراءات السياسية والقانونية التي كانت تقوم بها فرنسا وتركيا وعصبة الأمم، والهادفة إلى فصل لواء الإسكندرونة عن سوريا وضمه نهائياً إلى تركيا، كانت قد أصبحت بحكم المنتهية في مطلع العام ١٩٣٩، كما أوضحنا ذلك في مكان سابق من هذا الفصل، وكانت نهاية مسألة لواء الإسكندرونة على هذه الصورة المجحفة بحق سوريا، أحد العوامل الرئيسية التي أدّت إلى تردي العلاقة بين فرنسا وسوريا بعد تحسنها.

المماطلة الفرنسية في إبرام المعاهدة الفرنسية ـ السورية:

إن الاشاعات التي أخذت تتردد منذ سنة ١٩٣٧ في دمشق عن تواطؤ فرنسي ـ تركي بشأن لواء الإسكندرونة، رافقها ظهور مشكلة جديدة زادت مشاعر الريبة وهواجس الشك بصدق الفرنسيين وحسن نواياهم تجاه سوريا. فقد وقع وفد الكتلة الوطنية المفاوض، المعاهدة الفرنسية ـ السورية في التاسع من أيلول ١٩٣٦، وأقرتها الحكومة السورية بسرعة وأحالتها على المجلس النيابي السوري الجديد، فأبرمها في ٢٢ كانون الأول من العام ذاته. وكانت الحكومة السورية تأمل في أن يبرمها البرلمان الفرنسي في وقت قريب، لكي تصبح نافذة المفعول. ولكن معارضة أحزاب اليمين والقواد العسكريين الكبار، جعلت البرلمان يتحاشى النظر فيها. فزار رئيس الوزراء السوري جميل مردم بك باريس بضع مرات ما بين ١٩٣٧ و١٩٣٩ مطالباً الفرنسيين بإبرامها، وقدم لهم تنازلات جديدة، لحثهم على الإسراع في ذلك. ولكن حتى مطلع العام ١٩٣٩ لم يكن قد نال منهم بالمقابل سوى الوعود، ثم الوعود، التي بقيت حبراً على ورق. ونتيجة لذلك تحولت الريب والشكوك عند السوريين إلى قناعات، وضعف موقف حكومة الكتلة الوطنية شعبياً، واتسعت المعارضة واشتد ساعدها، واهتز حبل الأمن، واتهم السوريون الإدارة الفرنسية وعملاءَها بإثارة القلاقل العنصرية، والفتن الطائفية، واختلاق المشاكل في مناطق اللاذقية والجزيرة وجبل الدروز، وتشجيع

النزعات الانفصالية[٧٦]. فنزلت الجماهير إلى الشوارع متظاهرة، مندّدة بفرنسا، ومستنكرة نكوصها بالوعود.

عودة اليمين الفرنسي إلى الحكم:

وزاد العلاقات الفرنسية ـ السورية تردياً عودة اليمين الفرنسي، ذي الميول الاستعمارية المتطرفة إلى الحكم. ففي ٨ نيسان سنة ١٩٣٨، سقطت حكومة ليون بلوم الاشتراكية، التي كانت قد أقامت علاقات فرنسية ـ سورية حسنة على أساس معاهدة ١٩٣٦، وخلفتها حكومة يمينية برئاسة أدوار دالادييه (Edward Daladier). وكان دالادييه، بخلاف سلفه بلوم، يعترض على معاهدة ١٩٣٦، ويعتبرها مضرة بالمصالح الفرنسية الحيوية، لأنها تنص على استقلال سوريا التام، وانسحاب فرنسا منها بعد حين، ولأنها تفرض على القوات العسكرية الفرنسية التي سترابط في سوريا بموجب المعاهدة قيوداً شديدة من حيث عددها، ومواقع قواعدها، وحريتها في التحرك، ومدة بقائها في الأراضي السورية. وأن من شأن هذه القيود، بنظر اليمين الفرنسي، أن تفقد هذه القوات الشيء الكثير من قدرتها وفاعليتها[٧٧].

وكان دالادييه، من جهة ثانية، قلقاً من تنامي الشعور الوطني المتطرف في سوريا، ولا سيما من انتشار تيار القومية العربية ونشاط القوميين العرب، الداعين إلى توحيد الأقطار العربية وتحريرها من السيطرة الأجنبية[٧٨]، مع ما يعني ذلك من نشوب مشاكل خطيرة قد تهدد مصالح فرنسا، ليس في سوريا ولبنان فحسب، بل وفي الأقطار العربية بشمال أفريقيا أيضاً. وعلى أساس هذه القناعات رسم دالادييه سياسة فرنسية يمينية جديدة للتطبيق في بلدان المشرق العربي.

---

(٧٦) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٧٦.

(٧٧) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, pp.109-110.

(٧٨) Ibid,. p.110.

الأزمة السياسية العالمية وتأثيرها في المسألة السورية:

يضاف إلى ما تقدم، أنه كان للأزمة السياسية المتفجرة في أوروبا، منذ وصول هتلر إلى الحكم في ألمانيا في ربيع ١٩٣٣، دور مؤثر في توسيع شقة الخلاف بين فرنسا وسوريا. فبعد أن تحدى هتلر عصبة الأمم، ونقض معاهدة فرساي، واتبع سياسة تحدٍ واستفزاز تجاه الدول الأخرى، أقدم على ضم النمسا إلى ألمانيا في ١٣ آذار ١٩٣٨، فقوبل عمله بردة فعل قوية، هي مزيج من الغضب والخوف، في الدول الأخرى، ولا سيما في فرنسا حيث تحول الرأي العام بسرعة من تأييد الحكومات اليسارية المصالحة المترددة، ومال إلى قيام حكومة يمينية قوية قادرة على مواجهة القوة الألمانية المتنامية، وتأمين الحماية والسلام لفرنسا. فسقطت حكومة ليون بلوم الاشتراكية بعد أقل من شهر من ضم النمسا إلى ألمانيا، وخلفتها حكومة أدوار دالادييه اليمينية لمواجهة الموقف الخطر الناشئ، بشجاعة وعزم.

ثم إن هتلر ما لبث أن عاد في أيلول من العام ذاته، وأجبر تشيكوسلوفاكيا ومعها بريطانيا وفرنسا على التنازل عن منطقة السوديت إلى ألمانيا. فاكفهر الجو السياسي العالمي بشكل خطير. وإن كان مؤتمر ميونيخ، الذي انعقد في ٢٩ - ٣٠ أيلول، بحضور رؤساء حكومات الدول الأوروبية الأربع: هتلر (ألمانيا)، وموسوليني (إيطاليا)، وتشمبرلن (بريطانيا)، ودالادييه (فرنسا)، قد نجح في حل مسألة تشيكوسلوفاكيا جزئياً، ونزع فتيل الحرب مؤقتاً، فإنه جعل المسؤولين في بريطانيا وفرنسا يقتنعون بأن مطامع هتلر لن تقف عند حد، وأن حرباً عالمية ثانية واقعة حتماً، وفي وقت ليس ببعيد. فراحت هاتان الدولتان تستعدان للحرب، بتعزيز قواتهما، وبإعادة النظر في سياساتهما الداخلية والإقليمية والدولية، وفي توثيق العلاقات فيما بينهما، وفق ما تقتضيه مصالحهما الوطنية العليا. وقد طال هذا التطور المتشدد في السياسة الفرنسية العامة، العلاقات الفرنسية - السورية من بضع نواح، ودفعها إلى مزيد من التوتر والسوء، كما يتبين من الأمثلة التالية:

التشدد في معاملة اللاجئين الفلسطينيين: تضمنت سياسة التفاهم والتنسيق بين فرنسا وبريطانيا، فيما تضمنت من أمور، نبذ التنافس والتناحر بينهما في الشرق، والاتفاق على التشدد في معاملة الثوار واللاجئين الفلسطينيين إلى سوريا ولبنان، ومنعهم من القيام بالأعمال التي تدعم الثورة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين[٧٩].

سياسة فرنسية متشددة تجاه سوريا: كانت الحكومة والبرلمان الفرنسيان، قبل قيام حكومة دالادييه، يعدان السوريين بإبراهم معاهدة ١٩٣٦، ثم يؤجلان ذلك، ويماطلان فيه، على أنهما لم يقطعا الأمل كلياً للسوريين، بل أبقيا الباب مفتوحاً، والأمل حياً عندهم في إبرامها، في وقت قريب. ولكن الأمر اختلف بعد قيام حكومة دالادييه.

رسمت حكومة دالادييه اليمينية سياسة جديدة فعالة في التشدد مع دولتي المشرق. فبموجب هذه السياسة، رفضت الحكومة والبرلمان الفرنسيان، إبرام المعاهدة[٨٠]، وحدد دالادييه الخطوط العريضة لهذه السياسة، في مذكرة ترشيدية وجهها إلى وزير الخارجية بونه (Bonnet)، وضمنها تعليمات تصف القوميين العرب في الشرق بأنهم معادون لفرنسا، وتوصي بوجوب مقاومتهم، وإضعافهم، وعزلهم عن العمل السياسي. وتضمنت تلك التعليمات، أيضاً، أن القوات العسكرية الفرنسية في سوريا ولبنان، تشكل احتياطياً استراتيجياً لتدخل محتمل في أوروبا، وأنه من أجل ذلك، يجب أن تكون لها قواعد ثابتة ودائمة في هذين البلدين[٨١].

تلك كانت سياسة دالادييه المشرقية منذ أواخر ١٩٣٨؛ وبالطبع لم يكن فيها ما يؤمل بقيام علاقات حسنة بين فرنسا وسوريا.

إعفاء المفوض السامي دي مارتيل من منصبه:

لما كان المفوض السامي الكونت دي مارتيل، هو الذي واكب

---

(٧٩) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, pp.120-121.

(٨٠) Ibid., pp.109-110.

(٨١) Ibid., p.110.

المفاوضات الفرنسية ـ السورية، التي أدت إلى معاهدة ١٩٣٦، ورعى سياسة التفاهم والتقارب مع السوريين في عهد حكومة بلوم الاشتراكية، فقد رأت حكومة دالادييه اليمينية أن بقاءَه في منصبه في العهد المختلف الجديد غير مناسب. فأحالته على التقاعد بعد وقت قصير من استلامها الحكم، وعينت مكانه في تشرين الأول ١٩٣٨، الدبلوماسي المحترف غبريال بيو، ليتولى تطبيق السياسة الدالادياتية اليمينية بشدة وحزم في سوريا ولبنان.

خلاصة:

شكلت هذه المواضيع الخمسة نقطة الانطلاق في تنفيذ السياسة الفرنسية اليمينية المتشددة الجديدة. وقد أثارت طلائعها ودلالاتها قلق السوريين ومخاوفهم. ولكنهم، حتى مطلع العام ١٩٣٩، لم يكونوا قد استجلوا حقيقتها، وأدركوا مدى جديتها وخطورتها على قضاياهم الوطنية؛ بل كان لا يزال لديهم بعض الأمل في أن تحترم فرنسا العهود والمواثيق، فيبرم برلمانها معاهدة ١٩٣٦، وتصون حكومتها حقوق سوريا ومصالحها، وترفع عنها كل افتئات أو ظلم، إن كان فيما يختص بمسألة لواء الإسكندرونة، أو غيرها من المسائل. وراح السوريون ينتظرون قدوم المفوض السامي الجديد ليروا ما يحمل لهم في جعبته من أمل ورجاء.

٩ ـ العلاقات الفرنسية ـ السورية تدخل في مأزق

قدوم غبريال بيو إلى الشرق:

غادر المفوض السامي السابق الكونت دي مارتيل بيروت نهائياً، في ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٨، ووصل إليها خلفه المفوض السامي الجديد غبريال بيو، قادماً من باريس، في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٩. فجرى له، لدى وصوله إلى بيروت، استقبال فخم حاشد، اشترك فيه المسؤولون الكبار، والزعماء السياسيون، والأعيان، وجماهير غفيرة من سوريا ولبنان. واستبشر السوريون واللبنانيون خيراً بقدومه، وأمّلوا في أن يستجيب لمطالبهم الوطنية، ويعمل على حل المشاكل السياسية، التي هي موضع خلاف مع فرنسا،

بروح العدل والإنصاف، مثل مسألة الإسكندرونة، وإبرام معاهدة ١٩٣٦، وتوحيد المناطق السورية، وغيرها من المشاكل. وزادهم استبشاراً الخطاب الأول الذي بثه بيو من الإذاعة في بيروت، في ١١ كانون الثاني، وتمنى فيه الخير للسوريين واللبنانيين، ودعاهم فيه إلى المحبة والتضامن والتعاون الذي فيه خيرهم وفلاحهم، وحضهم على إطاعة القوانين لأنها السبيل السوي للأمن وللاستقرار والازدهار، وختم خطابه بتطمين الشعبين بقوله:

«إنني بصفتي ممثل فرنسا الحرة، لسعيد بأن أراقب عن كثب، وبكل اهتمام، سير الأمور في سوريا ولبنان على ما يرام تبعاً لقاعدة التطور بما يضمن حرية هذين البلدين العزيزين، وتحقيق أماني الأهلين الأصدقاء. والمولى، سبحانه وتعالى، يأخذ بيد كل منا لما فيه الخير والسلام»(٨٢).

بين بيو والكتلة الوطنية:

بعد بضعة أيام من وصوله إلى بيروت، توجه المفوض السامي الجديد بيو إلى دمشق. وكان يعول كثيراً على تعاون «الكتلة الوطنية» وحكومة جميل مردم التي تمثلها في الحكم. فالكتلة الوطنية كانت قد أظهرت استعداداً طيباً للتفاهم مع فرنسا، واعتمدت السير معها في «سياسة التعاون المشرف»، كما كان يحلو لأنصار المعاهدة أن يدعوا هذه السياسة الجديدة. وتحسنت العلاقات بدرجة كبيرة بين البلدين، بعد أن كانت قد مرت بأزمات حادة، وظروف متوترة دامية. و«الكتلة الوطنية» كانت تتمتع بنفوذ شعبي قوي واسع، وتلعب دوراً حاسماً في توجيه الرأي العام السوري، وفي التحكم بحال الأمن والاستقرار في البلاد. لذلك رأى بيو أن تعاونه معها مفيد لكليهما؛ فهو قادر، بما يملك من سلطة وصلاحيات، أن يدعمها سياسياً، ويؤمن لها الاستمرار في الحكم، وهي تستطيع، بما تتمتع به من نفوذ وتأييد شعبيين كبيرين، أن تسهل له عمله السياسي، وتخفف من حدة المعارضة، التي يمكن أن تنشأ ضد المقررات المهمة التي قد يحتاج إلى

---

(٨٢) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٨٥.

اتخاذها. بهذه الرغبة المتبادلة، وبهذا التفاهم الضمني على «التعاون المشرف» بين «الكتلة الوطنية» وفرنسا، بدأ عهد المفوض السامي بيو في مطلع العام ١٩٣٩.

تبدل جوهري في موقفي الطرفين الفرنسي والسوري:

لم ينطبق حساب الحقل على حساب البيدر، لا مع المفوض السامي بيو، ولا مع «الكتلة الوطنية»؛ فكلاهما أخطأ في التقدير. فلا بيو استطاع أن يضمن للكتلة الوطنية استمرارها في الحكم، وتمتعها بالسلطة والنفوذ، ولا «الكتلة الوطنية» استطاعت أن تنفع بيو بشعبيتها، بعد أن فشلت في إقناع الشعب السوري بفائدة سياسة «التعاون المشرف» مع فرنسا و بعد أن فقدت ثقة هذا الشعب، الذي اتهمها بالانحراف عن الخط الوطني الصحيح.

كان السوريون قد استقبلوا بيو بالترحاب والإكرام يوم وصوله إلى الشرق في مطلع العام ١٩٣٩، لأنهم كانوا يتوقعون منه أن يكمل مسيرة التفاهم والتعاون والصداقة مع فرنسا، التي بدأها معهم سلفه دي مارتيل.

ولكن سرعان ما تبين للمعارضين وللموالين على السواء، من تصريحات بيو وتصرفاته خلال الأشهر الأولى من العام ١٩٣٩، أن ما يسعى هو إلى تحقيقه مغاير تماماً لرغبات السوريين وأهدافهم الوطنية. وقد أصبح واضحاً لديهم أن السياسة الفرنسية الجديدة، التي أوكلت حكومة دالادييه اليمينية إلى المفوض السامي بيو أمر تطبيقها في سوريا ولبنان، تهدف إلى تحقيق أغراض استعمارية صريحة، كان من أخطر عناوينها الأمور التالية: (١) النكوص عن معاهدة ١٩٣٦، (٢) استكمال عملية إلحاق لواء الإسكندرونة بتركيا. (٣) استمرار الوجود الفرنسي الفعلي في سوريا ولبنان بصيغة الانتداب، أو بأي صيغة أخرى من شأنها تأمين بقاء هذا الوجود إلى أجل غير محدد. (٤) تأمين قواعد عسكرية ثابتة دائمة في سوريا ولبنان، ووجود جيش فرنسي فيها يتمتع بحرية التحرك والعمل دون عوائق في أراضي هذين البلدين. (٥) السعي لكسب رضا السوريين واللبنانيين عن هذه

السياسة والحصول على تأييدها واقتناعهم بفوائدها المشتركة لهم ولفرنسا على السواء. (٦) فرض هذه السياسة فرضاً وبالقوة، أيضاً، إذا تعذر تطبيقها بالوسائل السلمية.

إن هذا التحول الخطير في السياسة الفرنسية، دفع إلى تحول مماثل، بذات الدرجة من القوة والتصميم، في موقف الوطنيين السوريين المتشددين، تجاه بيو وفرنسا والجناح القائل بـ «سياسة التعاون المشرف» من الكتلة الوطنية.

الحركة العربية السرية تبتعد عن الكتلة الوطنية:

لقد راهن بيو على شعبية «الكتلة الوطنية» ونفوذها القوي، وراهنت «الكتلة الوطنية» على المفوض السامي بيو وصلاحياته الواسعة. فخسر كلاهما الرهان. فسياسة «التعاون المشرف» مع فرنسا التي اتبعتها «الكتلة الوطنية» من دون أن تجني منها لسوريا أية فائدة وطنية حقيقية، أوقعت الشقاق في ساحتها، والانقسام في صفوفها، بين فريق يؤيد الاستمرار بهذه السياسة حتى النهاية، وعلى رأسه جميل مردم رئيس الوزراء، وفريق آخر يعارض هذه السياسة لاقتناعه بعدم جدواها. وأفقدت هذه الحال «الكتلة الوطنية» قوتها، وخسّرتها التأييد الشعبي العارم الذي كان لها، وجعلت بقاءَها في الحكم متعذراً. وكذلك فقدَ بيو، بانهيار نفوذ «الكتلة الوطنية»، تلك الهيئة السياسية المعتدلة التي كان يعلق الآمال على التعاون المثمر معها، ووجد نفسه فجأة في مواجهة معارضة وطنية شاملة متشددة، قاطعته وامتنعت عن التعامل معه، لدرجة أن أحداً من الزعماء الوطنيين والأعيان في مدينتي حلب وحماه، لم يشترك في استقباله عندما زار هاتين المدينتين، وذلك تعبيراً عن استيائهم من نهجه واحتجاجاً على السياسة الفرنسية الجديدة المغايرة لرغباتهم ومطالبهم الوطنية[٨٣]. وقد اتسعت هذه المعارضة ضد الانتداب الفرنسي و«الكتلة الوطنية» معاً، وضمت معظم الأحزاب

---

(٨٣) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٤.

والهيئات والشخصيات السياسية على اختلاف أهدافها ومبادئها ومصالحها العامة والخاصة. وأعادت «الحركة العربية السرية» النظر في موقفها من «الكتلة الوطنية» وفرنسا بعد ما تبين لها أن هذه الأخيرة مصممة على التراجع عن التزاماتها، والنكوص بالعهود والمواثيق التي كانت قد قطعتها للسوريين في معاهدة ١٩٣٦ وملاحقها. ونتيجة لذلك أخذت «الحركة» بالابتعاد عن «الكتلة الوطنية»، وأصبحت بنقط اعتمادها، تشكل عنصراً فاعلاً في حركة المعارضة، إلى جانب العناصر الوطنية المعارضة الأخرى.

التفكير بالثورة ضد الفرنسيين:

وبعد أن كان اهتمام القوميين العرب، في سوريا وغيرها من الأقطار العربية، منصباً على دعم الثورة في فلسطين، أصبحت المسألة السورية، بنظر معظمهم، بعد التحول المسيء الذي طرأ على السياسة الفرنسية في الشرق منذ مطلع العام ١٩٣٩، هي المسألة الأكثر إلحاحاً، والأولى من سواها بالاهتمام والدعم. وأخذت فكرة الثورة في سوريا تراود خواطر بعض القيادات القومية المتشددة، بعد أن فقدت الأمل في إمكانية التوصل إلى الحلول الوطنية المطلوبة، عن طريق الحوار والتفاهم مع الفرنسيين. مثال ذلك، أن نبيه العظمة دعا في أواخر كانون الثاني ١٩٣٩ قادة الحركات القومية إلى القيام بثورة تشمل سوريا ولبنان[٨٤]. وكذلك دعا إلى قيام الثورة في سوريا كل من الأمير شكيب أرسلان وسلطان باشا الأطرش[٨٥]. واستمدت فكرة الثورة زخماً قوياً، وتحولت من مجرد حلم وأمل إلى مشروع سياسي جدي، عندما عرض العراق فجأة استعداده لدعم الثورة السورية مادياً ومعنوياً وسياسياً في حال اندلاعها.

رسالة فوزي القاوقجي إلى منير الريّس:

---

(٨٤) See Kazim Solh, Private Papers, Mukararat Majlis el-Wukala, Jan, 26, 1939, Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.133.

(٨٥) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalisme, p.133.

بدأ اتصال العراقيين بالسوريين بواسطة فوزي القاوقجي المقيم في العراق. فقد روى منير الريّس في مذكراته بهذا الخصوص، أنه في أوائل شباط سنة ١٩٣٩ وصلته رسالة من فوزي القاوقجي في بغداد، يخبره فيها أن طه الهاشمي وزير الدفاع في العراق أراد أن يرد الجميل لسورية، التي ساهمت عام ١٩٢٠ بثورة العراق على الإنكليز، والتي عطفت على أخيه ياسين الهاشمي، واحتفلت بجنازته احتفالاً منقطع النظير، يوم قضى مشرداً عن وطنه بسبب انقلاب بكر صدقي على حكومته في بغداد سنة ١٩٣٦. فقد استدعى طه الهاشمي القاوقجي وأبلغه أن مجلس الوزراء في بغداد، قرر سراً رصد مبلغ من المال، لتسليح ألف رجل من السوريين بقيادته، للقيام بثورة مسلحة ضد فرنسا التي نبذت المعاهدة، ونكثت باعترافها باستقلال سوريا، فوافق فوزي القاوقجي على القيام بهذه المهمة الثورية الوطنية، وكتب إلى صديقه منير الريّس في دمشق يطلب إليه أن يزور مناطق الشمال، وجبال الزاوية، وجبل المثلث والوسطاني، ويرسل إليه تقريراً مفصلاً عن صلاحها للثورة[٨٦].

رحلة الشمال:

لبى منير الريّس دعوة القاوقجي إلى المشاركة في التحضير لقيام الثورة، وقام برحلة إلى شمال سوريا لاستكشاف طبيعتها، والتعرف على أحوال أهلها، والحكم على مدى صلاحها لتكون منطلق الثورة المنشودة ومهدها. وتحدث الريّس عن الأماكن التي زارها في هذه الرحلة الاستطلاعية. فقال:

«فسافرت فوراً إلى حلب، ثم إدلب، ومعر تمصرين، ومعرة الأخوان، وكفربني، وكفركنه، وكفر تخاريم... ولما عدت إلى دمشق أرسلت تقريري إلى القاوقجي»[٨٧].

---

(٨٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٣.
(٨٧) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٤.

فكانت هذه الرحلة بداية العمل التحضيري لقيام الثورة.

علاقة الحركة العربية السرية بمشروع الثورة:

هل كانت استجابة منير الريّس لطلب القاوقجي، وقيامه بالرحلة إلى شمال سوريا عملاً فردياً، ونشاطاً مستقلاً خاصاً، أم أنها كانت عملاً حزبياً ونشاطاً «حركياً» قام به بمعرفة «الحركة العربية السرية» وموافقتها؟ ليس في ما هو متوفر من وثائق «الحركة»، حتى الآن، ما يشير إلى وجود قرار رسمي صادر عن مجلس قيادة الحركة بهذا الخصوص. ولكن في مذكرات منير الريّس ما يدل بوضوح، على أن «الحركة» تبنت مشروع الثورة وكانت ضالعة في مختلف النشاطات التحضيرية لقيامها، وإن دور منير الريّس فيها، كان بصفته «**عامل سورية وعضو القيادة العليا للحزب**». وفي الوقائع التالية، كما رواها الريّس، ما يؤكد ذلك.

استنفار أجهزة الحركة:

بعد أن أرسل منير الريّس تقريره عن رحلة الشمال إلى فوزي القاوقجي في بغداد، انصرف إلى تنظيم أجهزة «الحركة» المنتشرة في معظم الأنحاء السورية، واستنفارها لتكون جاهزة للعمل عند اندلاع الثورة، فلا تفاجئها الأحداث. وقد أشار إلى ذلك في مذكراته حيث قال:

«وكنا نشعر بضرورة تنظيم صفوفنا كقوميين عرب، وكشباب وطني، فلا تفاجئنا الأحداث. لذلك قمت بأكثر من جولة إلى حمص وحماه وحلب واللاذقية، باعتباري عامل سورية، وعضو القيادة العليا في الحزب القومي العربي [الحركة العربية السرية]، والمراقب العام في الشباب الوطني، حيث نظمت الاتصال بين الفروع والمركز، بطرق سرية تخفى على الفرنسيين»(٨٨).

سعي الحركة للحصول على السلاح:

لما كان السلاح يشكل عصب الثورة، خشيت «الحركة العربية

---

(٨٨) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٤.

السرية» من أن السلاح العراقي قد لا يفي بالحاجة كلها، لذلك رأت أن تسعى لتأمين السلاح اللازم من مصادر أخرى. وكانت ألمانيا النازية في حينه هي المصدر الممكن الوحيد القادر على تقديم السلاح المطلوب للثورة المنشودة. وهنا أيضاً يروي منير الريّس قصة «الحركة» في سعيها للحصول على السلاح فيقول في مذكراته ما يلي:

«وكنا في الحزب القومي العربي [الحركة العربية السرية] نشعر بحاجتنا إلى السلاح في سوريا لتنظيم المقاومة السرية عند الضرورة، فقررنا أن نجسّ نبض ألمانيا النازية واستعدادها لتزويد الشعب السوري والشعب الفلسطيني بالسلاح، في كفاحهما ضد الاستعمار، فتلقينا من مصادر هذه الدولة الاستعداد لبيع ثورة فلسطين السلاح ضد غريمتها بريطانيا، فيما إذا تقدم إليها أناس يمثلون حقاً شعب فلسطين، كالحاج أمين الحسيني... وقررنا انتداب الدكتور سعيد فتاح الإمام، من أقطاب القوميين العرب، [الحركة العربية السرية] لمفاوضة أمين الحسيني، وإقناعه بأن يكون الدكتور الإمام موفده إلى ألمانيا النازية لمفاوضة حكومتها على تزويد ثورة فلسطين بالسلاح. وكنا نرمي إلى مساعدة فلسطين، واجتزاء كمية من السلاح لثورة نشعلها في الوقت المناسب في سوريا. ورفض أمين الحسيني أن يعطي موفدنا تفويضاً خطياً، ولكنه رضي أن يبلغ قنصل ألمانيا في بيروت شفوياً أن الدكتور سعيد الإمام معتمده في مفاوضة الحكومة الألمانية على مساعدة ثورة فلسطين ببيعها السلاح. وكان لقاء سري هيأه الدكتور الإمام بين أمين الحسيني والقنصل في المستشفى الألماني في بيروت، سافر على أثره الدكتور الإمام إلى برلين مزوداً بهذا التفويض الشفوي، إلى جانب تفويض خطي من النادي العربي في دمشق، وتفويض خطي آخر من مكتب فخري البارودي الذي كان يشرف عليه في دمشق فؤاد مفرج، أحد أعضاء القيادة العليا لحركة القوميين العرب [الحركة العربية السرية]. وسار الدكتور الإمام في مفاوضاته مع المسؤولين الألمان... وكان عليّ [منير الريّس] أن أرتب أمر إنزال السلاح سراً من البحر إلى الساحل السوري، ونقله وإخفائه في مستودعات بعيدة عن أنظار السلطة الفرنسية، ثم تسليمه إلى الفلسطينيين يوصلونه إلى

أراضيهم، والاحتفاظ بجزء منه للثورة في سوريا. لذلك قمت برحلة إلى الساحل السوري، واستعنت بجمال علي أديب من القوميين العرب [الحركة العربية السرية] في جبلة، وسافرنا معاً إلى طرطوس، وجزيرة أرواد، واتفقنا مع أحد أصحاب المراكب الوطنيين على تسلم كمية السلاح في عرض البحر من الباخرة التي ستنقلها من ألمانيا، وحددنا المكان الذي سيرسو المركب السوري فيه، لينقل السلاح إلى سيارات في الليل، تحمله إلى المستودع الذي أعددناه في قرية من قضاء الحفة»[٨٩].

ولكن هذه الصفقة لم تتم. فالحاج أمين الحسيني كان يريد أن يذهب السلاح كله إلى فلسطين، ولم يكن مطمئناً إلى أن الدكتور سعيد الإمام وصحبه سيفعلون ذلك. فما إن بدأ الدكتور الإمام المفاوضات مع الألمان، حتى أرسل الحاج أمين الحسيني إلى برلين موفداً خاصاً، يحمل تفويضاً خطياً رسمياً منه، ليفاوض الألمان على شراء السلاح. فظهر للألمان اختلاف العرب حول موضوع الحصول على السلاح، وأوقفوا المفاوضات. «**وهكذا ضاعت الصفقة على سوريا وفلسطين**»[٩٠]، كما يقول منير الريّس. فكانت هذه إحدى النكسات التي ساهمت في إجهاض مشروع الثورة في سوريا، وعاد التحضير لتفجير ثورة في الأردن أو فلسطين. ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية عطل هذه الخطة أيضاً.

فصل حزب «الشباب الوطني» عن «الكتلة الوطنية»:

وفي حلقة أخرى من مسلسل الأعمال الهادفة إلى تهيئة الأجواء الملائمة، وخلق الظروف المساعدة على الثورة ضد الانتداب الفرنسي، والتي كانت «الحركة العربية السرية» تشجعها وتشترك فيها من وراء الستار، جاء فصل تنظيم «الشباب الوطني» عن «الكتلة الوطنية». وقام «عامل الحركة» في سوريا، منير الريّس، بتنفيذ هذه الخطة بنجاح تام. فقد رأى

(٨٩) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٥ . ٣٠٨.
(٩٠) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٣٠٨.

الريّس أن يوجه ضربة قاسمة إلى نفوذ «الكتلة الوطنية» المنهار، فعمد إلى قطع علاقة تنظيم «الشباب الوطني» بها، وإعلان معارضة هذا التنظيم لسياسة «التعاون المشرف» مع فرنسا، التي أدانتها بشدة جميع الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية المعارضة. وكان «الشباب الوطني» قد نشأ في الأصل، لدعم «الكتلة الوطنية»، عندما كانت رائدة الكفاح الوطني، والمناضلة العنيدة ضد الانتداب الفرنسي وأطماعه الاستعمارية. وكانت فروع «الشباب الوطني» منتشرة في مختلف المناطق السورية، وتمارس دوراً مؤثراً في توجيه الرأي العام، وتلقى تأييداً شعبياً واسعاً. وكانت «الحركة العربية السرية» قد خرقت هذا «التنظيم» وسيطرت عليه، ووجهت سياسته وجعلته إحدى نقط اعتمادها. ولما تعاونت «الكتلة الوطنية» مع الفرنسيين وانحرفت، برأي المعارضة، عن الخط الوطني السليم، أدان «الشباب الوطني» مواقفها المستجدة، وانفصل عنها، وأنشأ لنفسه كياناً سياسياً مستقلاً. وكانت «الحركة العربية السرية» وراء هذا التحول في موقف «الشباب الوطني» وانفصاله عن «الكتلة الوطنية» كما يفيد أحد أركان هذا التنظيم ومهندس هذا الانفصال منير الريّس. إنه يقول في مذكراته بهذا الخصوص ما يلي:

«وكنا أقوياء في مدينة حماه [مدينة منير الريّس]، فقد تولى رئاسة «الشباب الوطني» فيها عثمان الحوراني من القوميين العرب [عضو بالحركة العربية السرية»] وكذلك كنا أقوياء في حمص واللاذقية ودير الزور. فإخواننا القوميون العرب [المقصود أعضاء الحركة العربية السرية] في هذه المدن كانوا ذوي مكانة شعبية، يتولون وظائف حساسة في تنظيمات «الشباب الوطني»... الذي ازداد قوة بضعف «الكتلة الوطنية» من جراء سياسة التفاهم والضعف التي سلكتها، والأخطاء التي ارتكبتها في الحكم. فقررنا في اجتماع فصل «الشباب الوطني» عن «الكتلة الوطنية» والاستقلال في سياسته عنها»[٩١].

وبهذا الانفصال خسرت «الكتلة الوطنية إحدى الركائز الأساسية التي

---

(٩١) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

كانت تمدها بالقوة وبالتأييد الشعبي الواسع.

١٠ ـ نهاية الحكم الوطني

استقالة حكومة جميل مردم:

في أواسط شباط سنة ١٩٣٩ كانت «الكتلة الوطنية» وحكومة جميل مردم تعانيان انحساراً كبيراً في ثقة الشعب السوري بهما وتأييده لهما. وفي الوقت ذاته، كانت المعارضة تتسع وتشتد، وراحت تترقب الفرصة المناسبة للإطاحة بالكتلة الوطنية وبحكومة جميل مردم التي تمثلها في الحكم. وسنحت الفرصة حينما شاع في دمشق أن حكومة جميل مردم استجابت لطلب المفوض السامي بيو، ووعدته بتطبيق نظام الأحوال الشخصية العلماني. وكان هذا النظام قد أقر في عهد المفوض السامي دي مارتيل سنة ١٩٣٦، ولكنه لم يطبق. فهب المسلمون في سوريا ولبنان لمعارضته، وأصدرت هيئة العلماء في كل من البلدين بيانات تشجبان فيها النظام المذكور لمخالفته الدين الحنيف. واستغلت المعارضة هذا الحادث، وشنت حملة دعائية شعواء ضد الكتلة الوطنية، والحكومة، وجميل مردم بالذات، متهمة إياهم بالخنوع والاستسلام لمشيئة الفرنسيين، وبالتفريط بالمصلحة الوطنية، والتقصير في معالجة القضايا الوطنية الأساسية.

وحاول جميل مردم احتواء الأزمة، وتفادي الحرج الذي سببه له نظام الأحوال الشخصية، عن طريق إرضاء الفرنسيين والمعارضين في آن. فأحال النظام المذكور إلى لجنة، تشكلت من كبار العلماء والقضاة، لدرسه وإبداء رأيها بشأنه[٩٢]، وأوعز، في الوقت ذاته، إلى الدوائر المختصة، بعدم تنفيذ بنوده حتى إشعار آخر. ولكن المعارضة لم تنخدع بهذه المناورة، وأصرت على متابعة التظاهر والاحتجاج حتى تحقيق أهدافها.

---

(٩٢) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠، وكان المؤلف يوسف الحكيم أحد أعضاء اللجنة المكلفة بدرس نظام الأحوال الشخصية وإبداء رأيها بشأنه.

وفي إزاء هذا الإصرار، اضطر جميل مردم إلى تقديم استقالة حكومته إلى رئيس الجمهورية في ١٨ شباط ١٩٣٩.

الحركة العربية السرية تشارك في تحرك المعارضة:

إن استقالة حكومة جميل مردم لم تنهِ الأزمة القائمة، بل زادتها حدة وتشعباً، وأكسبت المعارضة قوة وتأييداً شعبياً واسعاً، فتابعت المعارضة هجومها على الكتلة الوطنية، والتشهير بها أمام الرأي العام[٩٣]، وعارضت حكومة لطفي الحفار الخماسية، التي خلفت حكومة جميل مردم، لأنها ضمت وزيرين كتلويين بارزين، هما لطفي الحفار ومظهر رسلان.

ثم إن المعارضة ازدادت إلحاحاً وتشدداً في مواقفها ومطالبها من الفرنسيين. وحركت الشارع ضدهم. وشاركت الحركة العربية السرية في حركة المعارضة، بواسطة إحدى نقط اعتمادها. فإنها بعد أن فصلت تنظيم الشباب الوطني عن الكتلة الوطنية، واستأجرت مكتباً خاصاً به بوسط دمشق، للتأكيد على انفصاله واستقلاله، أقامت في أوائل آذار ١٩٣٩ حفلة كبرى بمناسبة افتتاح ذلك المكتب، اشتركت فيها مختلف فصائل المعارضة، وألقيت الخطب الوطنية المنددة بالوضع الراهن. ويذكر، «عامل» الحركة في سوريا منير الريّس، هذه الحفلة في مذكراته، فيقول:

«وأقمنا [الشباب الوطني] في دمشق قبل الثامن من آذار ١٩٣٩ حفلة بمناسبة افتتاح مكتبها الجديد... وقد كان لهذه الحفلة أثر على الوضع السياسي. فقد عرف الفرنسيون العناصر الخطرة على استعمارهم، ونظموا قوائم بأسمائهم لاعتقالهم، فيما إذا ازداد التوتر الداخلي والتوتر الدولي حدة»[٩٤].

التشدد بالمواقف والمطالب سيد الموقف:

---

(٩٣) فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦٣٨. كان من أطرف ما قيل في الكتلة الوطنية يومئذٍ، ما جاء في يافطة شعبية علقت في أحد شوارع دمشق تقول: «ومع أننا اعتدنا أن نجل الكتلة، بعد الله، فإننا ننشد الآن التحرر منها».

(٩٤) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

وفي أثناء ذلك، كانت الأزمة السياسية العالمية قد أخذت منحى خطيراً جداً. ففي ١٦ آذار ١٩٣٩ استولت ألمانيا النازية على مناطق أخرى من أراضي تشيكوسلوفاكيا. وبعد بضعة أيام بسط النازيون هيمنتهم الكاملة على كل ما بقي من تشيكوسلوفاكيا، خلافاً لما كان قد تعهد به هتلر، قبل ذلك ببضعة أشهر في مؤتمر ميونيخ، لرئيسي حكومتي بريطانيا وفرنسا. وفي الخامس من نيسان ١٩٣٩، غزا الجيش الإيطالي ألبانيا واحتلها. فزاد هذا التصعيد المفاجئ، الدول الديمقراطية الغربية اقتناعاً بأن الحرب ضد النازيين الألمان والفاشيين الطليان أصبحت بحكم المحتمة والوشيكة، وجعل فرنسا، بشكل خاص، تزداد تصلباً بموقفها من سوريا ولبنان، وترفض تقديم أية تنازلات لحكومتيهما، من شأنها إضعاف وضعها الاستراتيجي في المنطقة. وهكذا أصبح التصلب في المواقف، والتشدد بالمطالب لدى الجانبين سيد الموقف.

إدارة فرنسية موقتة في دمشق:

إن الوضع المتشنج بين خصوم الكتلة الوطنية وأنصارها، وكذلك، بين الوطنيين السوريين والسلطات الفرنسية، أدّى إلى حصول صدامات عنيفة، وانتشار الفوضى، وزرع الرعب في نفوس الأهلين في دمشق. فاستقالت حكومة لطفي الحفار، وكلف المفوض السامي بيو مندوبه في دمشق، المسيو هوتكلوك (Hautecloque) تولي زمام الإدارة موقتاً، إلى أن تتشكل الحكومة الجديدة، وعهد إلى الجيش الفرنسي في ٢٠ آذار القيام بما يلزم لوقف الفوضى، وإعادة الهدوء والطمأنينة إلى المدينة. ونشر هوتكلوك بياناً جاء فيه ما يلي:

«... فلا يسمح من الآن فصاعداً بأي تجمع أو أية تظاهرة، بل يجري تفريقها بالقوة. وإذا وقع تعرض لقوى الجيش التي تساعد على إقرار السلام، يعاقب مرتكبوه فوراً بأشد العقوبة»[٩٥].

---

(٩٥) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٣.

اعتقالات في صفوف القادة الوطنيين:

كان أول تدبير اتخذته الإدارة الفرنسية الموقتة، اعتقال مجموعة من العناصر القيادية في صفوف الناشطين من مختلف الأحزاب والهيئات، على اعتبار أنهم كانوا المحرضين على الإضراب والتظاهر، والمسؤولين، بالدرجة الأولى، عن انتشار الفوضى، والتسبب في سقوط الحكومات، وتعقيد الأزمة السياسية في البلاد. ويروي منير الريّس، وهو أحد القياديين الذين طالهم الاعتقال ما جرى له في ذلك اليوم، فقال ما يلي:

«واشتدت في الرابع عشر من آذار عام ١٩٣٩ المظاهرات، وأضربت دمشق أثر استقالة وزارة لطفي الحفار، فأعلنت فرنسا حال الطوارئ، وتسلم جيشها الأمن... ومع إشراقة نهار الواحد والعشرين من آذار قرع جرس الباب، ولما فتحت الخادم امتلأت الدار بالدرك الفرنسي وجنود السنغال، وطلب مني الضابط الذي يقودهم أن أرافقه، فنهضت على الرغم مني أرتدي ملابسي... وأنا مريض تؤذيني كل حركة أو سكنة [كان يعاني من تشنج العضلة ـ روماتيزم ـ في كتفه]. وقد حملتني سيارة عسكرية صغيرة إلى ثكنة الحميدية التي أصبحت اليوم تضم كليات الجامعة السورية، حيث وجدت سيارات نقل عسكرية مليئة بالمعتقلين أمثالي، وبعضهم اقتيد من فراشه بملابس النوم. فزججت في إحدى السيارات، وكان فيها نبيه العظمة، والدكتور سيف الدين المأمون من أقطاب الشباب الوطني، ومنيب دياب، ومحمود البيروتي، وفؤاد الشلق، وياسين الصفدي، ونوري الرز من الشباب الوطني، وتوفيق الكركوتلي، ومهدي مرتضى مدير مكتب الكتلة الوطنية، وتوفيق القباني ومحمود الخضري، وحسن الخياط، وحسن بكداش من التجار الوطنيين. وكان عدد المعتقلين في ذلك اليوم ثمانية عشر... تابعت السيارات طريقها إلى تدمر فبلغناها بعد العصر، وأنزلنا منها في ثكنة الفرقة الأجنبية»[٩٦].

احتجز الجميع في سجن تدمر عشرة أيام، ثم نقلوا في ٢ نيسان إلى

---

(٩٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

«سجن المنارة العسكري» برأس بيروت، حيث أضيف إليهم عدد جديد من المعتقلين من أعضاء «الحزب السوري القومي» وسواهم بعد نشوب الحرب في أيلول، ولم يفرج عنهم حتى ٣١ تشرين الأول سنة ١٩٤٠، أي بعد سقوط فرنسا، وانتقال السلطة في سوريا ولبنان إلى ممثلي حكومة فيشي، الخاضعة للمحتلين الألمان.

استقالة وزارة نصوحي البخاري الحيادية:

في هذا الوقت الذي تولى فيه الجيش الفرنسي إعادة الهدوء إلى دمشق، كان رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي يتابع استشاراته لتأليف حكومة تخلف حكومة لطفي الحفار المستقيلة، ويكون لها بعض الأمل في النجاح. ورأى أن يستبعد الحزبيين كلياً عن السلطة، ويوكل الحكم إلى شخصيات وطنية حيادية معتدلة، لعلها توفق إلى إيجاد حل للأزمة، يكون مقبولاً من السوريين والفرنسيين على السواء. وفي ٥ نيسان ١٩٣٩، تشكلت حكومة خماسية برئاسة نصوحي البخاري، كان جميع أعضائها من المستقلين غير المرتبطين بأي حزب أو تنظيم سياسي[٩٧]. وانتهت بذلك إدارة هوتكلوك الموقتة التي دامت أسبوعين، وعاد الجيش الفرنسي إلى ثكناته.

ولكن الهدوء النسبي، الذي تحقق بمدينة دمشق، خلال فترة الإدارة الفرنسية الموقتة، بين استقالة حكومة لطفي الحفار وتشكيل حكومة نصوحي البخاري، كان هدوءاً هشّاً، ولم يلبث أن اهتز وسقط. فحكومة نصوحي البخاري لم تستطع أن تسيطر على الوضع تماماً، وعجزت عن تثبيت الأمن والهدوء، لا في العاصمة ولا في الملحقات[٩٨] فتذرع المفوض السامي بحال عدم الاستقرار ولجأ إلى الجيش من جديد. فكلفه، في هذه المرة، بإدارة شؤون الأمن في سوريا كلها، وفوضه باتخاذ الإجراءات والتدابير التي يراها ضرورية لذلك[٩٩].

---

(٩٧) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٦.
(٩٨) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٨.
(٩٩) المصدر ذاته، ص ٢٩٨.

أثار تكليف الجيش الفرنسي المحافظة على الأمن في البلاد الشعور الوطني، واستغلته المعارضة. فاحتج عدد من النواب في البرلمان السوري على هذا التدبير، واعتبره تدخلاً فرنسياً غير مقبول في شأن داخلي هو من صلاحيات الحكم الوطني وحده. وانتقد أولئك النواب الحكومة بقسوة ونعتوها بالضعف والخنوع، فما كان من المفوض إلا أن أصدر قراراً في ٢٠ نيسان ١٩٣٩ بتأجيل اجتماع المجلس النيابي شهراً؛ ثم تكرر هذا التأجيل مرة بعد أخرى[١٠٠]. فكان لهذا الإجراء وقع سيئ في الأوساط الوطنية السورية.

وقام المفوض السامي بزيارة قصيرة إلى باريس في أيار ١٩٣٩، للتشاور مع رؤسائه بخصوص المسألة السورية، وعقد الوطنيون السوريون بعض الآمال على هذه الزيارة، ولكن آمالهم خابت حين عاد المفوض السامي من باريس وأطلق التصاريح التي تفيد أن فرنسا لن تبرم معاهدة ١٩٣٦، إلا إذا أدخلت عليها تعديلات جوهرية وضرورية لصون مصالح فرنسا الحيوية في سوريا[١٠١]. ورفض السوريون القبول بإجراء التعديلات والتنازلات المطلوبة، لأنها تنتقص من سيادة سوريا واستقلالها، وتبقي الهيمنة الفرنسية على حالها.

ورأى نصوحي البخاري أن المواقف الفرنسية المتشددة في جميع النواحي قطعت عليه الطريق، ولم تترك له ما يستطيع عمله. فقدم استقالة حكومته إلى رئيس الجمهورية في أيار ١٩٣٩، فطلب إليه الرئيس أن تستمر الحكومة في تصريف الأعمال لبينما تتشكل الحكومة الجديدة[١٠٢].

استقالة رئيس الجمهورية:

في هذه الأثناء، فشلت جهود رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي للتوفيق بين مطالب الفرنسيين ومطالب الوطنيين المتضاربة. وتعذر عليه،

(١٠٠) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٨.

(١٠١) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.116.

(١٠٢) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٨.

بالتالي، تكليف حكومة وطنية جديدة لتخلف حكومة نصوحي البخاري المستقيلة، وتحظى بتأييد سائر الأفرقاء. وانعكس التصعيد المتنامي في الأزمة العالمية سلباً على الوضع الداخلي. وبدأ خطر الحرب العامة يتعاظم، ويقترب بخطى متسارعة، مما أدى إلى زيادة التصلب بالمطالب والمواقف من الجانبين. وتعقدت المسألة السورية، أكثر من أي وقت مضى، ودخلت، فعلاً، في نفق مسدود. ويئس رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي أخيراً من إمكان التوصل إلى حل يخدم القضية الوطنية، فصمم على التنحي عن السلطة. فقبِل في ٤ تموز ١٩٣٩ استقالة حكومة نصوحي البخاري، المعلقة منذ أيار السابق، ثم استقال هو من منصب رئاسة الجمهورية في السابع من تموز، وغادر دمشق، واعتكف بمنزله في حمص[١٠٣]. وبهاتين الاستقالتين، استقالة البخاري واستقالة الأتاسي، انتهى عهد الحكم الوطني، الذي كان قد بدأ غب توقيع معاهدة ١٩٣٦، واستمر حوالى ثلاث سنوات. ودخلت سوريا في أزمة حكم وفراغ دستوري.

تعليق الدستور السوري:

استغل المفوض السامي بيو هذا الوضع الناشئ، لبسط السيطرة الفرنسية الكاملة على سوريا. فبالاستناد إلى استقالتي الحكومة ورئيس الجمهورية، أصدر في اليوم التالي، الثامن من تموز ١٩٣٩، قراراً بتعطيل الدستور تضمن البنود التالية:

أولاً - يوقف موقتاً تطبيق دستور الدولة السورية فيما يتعلق بتنظيم السلطتين التنفيذية والتشريعية.

ثانياً - يحل مجلس النواب، ويعين فيما بعد تاريخ الانتخابات الجديدة.

ثالثاً - يعهد بتأمين السلطة التنفيذية، تحت مراقبة المفوض السامي، إلى مجلس يؤلف من مديري المصالح العامة برئاسة أحدهم[١٠٤].

---

(١٠٣) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٢٩٨.
(١٠٤) المصدر ذاته، ص ٢٩٩.

تألف مجلس المديرين هذا من بهجت الخطيب الموالي للفرنسيين، للرئاسة والداخلية، وخليل رفعت للعدلية، وحسني البيطار للمالية، وعبداللطيف الشطي للتعليم، ويوسف عطاالله للزراعة(١٠٥). وكان هذا المجلس يقوم مقام مجلس الوزراء، ويخضع مباشرة لإشراف المفوض السامي بيو ونائبه في دمشق. وكان المفوض السامي، قبل ذلك بقليل، قد منح منطقة «الجزيرة» نظاماً خاصاً، ووسع صلاحيات الحكم الذاتي في منطقتي اللاذقية (العلويين) وجبل الدروز. وبهذه الإجراءات يكون بيو قد قضى على وحدة سوريا، كما نصت عليها معاهدة ١٩٣٦، وأخضعها كلها للحكم الفرنسي المباشر من جديد.

بيو يزور باريس مجدداً:

بعد أن أتم المفوض السامي بيو هذه الترتيبات «الموقتة» في دمشق، قام بزيارة جديدة لباريس في أواسط شهر آب ١٩٣٩، للتشاور مع وزارة الخارجية الفرنسية بشأن الحلول المقترحة لمستقبل النظام السياسي في كلٍ من سوريا ولبنان. وفيما هو يقوم بهذه المهمة، انفجرت الأزمة السياسية في أوروبا بشكل خطير جداً، يوم ٢٣ آب ١٩٣٩، حين أُعلن، في وقت واحد في برلين وموسكو، عن عقد معاهدة صداقة بين ألمانيا النازية (الرايخ الثالث) والاتحاد السوفياتي. فانقطعت المباحثات التي كان يجريها بيو في باريس، وعاد على وجه السرعة إلى بيروت، لمواجهة الموقف الجديد، ويتخذ، عند الاقتضاء، التدابير التي يقتضيها قيام حالة الحرب في سوريا ولبنان.

وقف عمل مجلس قيادة الحركة في بيروت:

فوجئت «الحركة العربية السرية»، مثلما فوجئ العالم بأسره، في ٢٣ آب سنة ١٩٣٩، بالإعلان عن توقيع معاهدة عدم اعتداء بين حكومة الرايخ الثالث الألماني وحكومة الاتحاد السوفياتي، بعد أن كان البلدان خصمين

---

(١٠٥) يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي، ص ٣٠٣.

لدودين. وقدّرت قيادة «الحركة العربية السرية» أن هذا الاتفاق مؤشر قوي إلى أن حرباً شاملة بين ألمانيا النازية من جهة، وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى، أصبحت متوقعة الحدوث في وقت قريب جداً.

ولما عقد مجلس قيادة «الحركة» اجتماعه السنوي الدوري في آخر آب، استعرض التطورات السياسية الخطيرة التي طرأت على الوضع العالمي خلال الأشهر المنصرمة من العام ١٩٣٩، وقيّم مدى تأثيرها على «الحركة» حاضراً ومستقبلاً. فوجد أن نشاط «الحركة» تضاءل بدرجة كبيرة، بسبب الإجراءات القمعية الصارمة التي اتخذتها السلطات الفرنسية منذ مطلع ١٩٣٩، والاعتقالات التي أجرتها في صفوف قادة الحركة الوطنية وطالت «عامل» الحركة في سوريا منير الريّس وآخرين من رفاقه، وسقوط الحكم الوطني في دمشق، وقيام الحكم الفرنسي المباشر في مكانه، وتسلم الجيش الفرنسي مهمة المحافظة على الأمن في البلاد[١٠٦]. وتوقع مجلس قيادة الحركة أن يزداد الوضع تردياً وسوءاً فيما لو نشبت الحرب في المستقبل القريب. وبعد التداول والدرس، وفي ضوء هذه المعطيات والتوقعات اتخذ مجلس قيادة الحركة عدداً من المقررات والإجراءات كان أهمها الأمور التالية:

أولاً ـ **«وقف عمل القيادة في بيروت»** لأن بيروت لم تعد بسبب الظروف الراهنة المكان الصالح الأمين مقراً لمجلس قيادة الحركة.

ثانياً ـ أن بغداد قد تكون المكان الأنسب المفضل بديلاً من بيروت مقراً لقيادة الحركة.

ثالثاً ـ الطلب إلى أعضاء «الحركة» في سوريا ولبنان وفلسطين تخفيف نشاطهم الحركي إلى الحد الأدنى، كي لا يعرضوا أنفسهم للاعتقال والسجن، أو يتسببوا في الكشف عن وجود «الحركة».

(١٠٦) Raghid Solh: Lebanon and Arab Nationalism, p.119.

رابعاً ـ تنازل رئيس مجلس القيادة رئيس «الحركة» قسطنطين زريق عن جميع صلاحياته، وعهد بها «**عهدة كاملة**» إلى أمين سر القيادة والحركة كاظم الصلح الذي «**جُعلت السلطات كلها في يديه، من يوم وقف عمل القيادة في بيروت الذي حصل في آخر آب ١٩٣٩**»[١٠٧].

١١ ـ سوريا والحركة العربية السرية في السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية

سوريا ولبنان تحت الحكم العرفي الفرنسي:

لما وصل المفوض السامي بيو إلى بيروت عائداً من باريس، كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت في اليوم الأول من أيلول سنة ١٩٣٩، وباشرت فرنسا باتخاذ التدابير الضرورية لمواجهة حالة الحرب. فأعلن المفوض السامي في التاسع من أيلول الأحكام العرفية في جميع الأراضي السورية واللبنانية. وفي ٢١ أيلول أوقف العمل بالدستور في لبنان، فحل المجلس النيابي، وصرف الحكومة، وعين عبدالله بيهم أمين سر الدولة، ليحكم البلاد بمساعدة مجلس استشاري مؤلف من مديري الدوائر العامة، تحت إشراف المفوض السامي. وكان بيو، كما رأينا، قد اتخذ إجراءً مماثلاً في سوريا، قبل ذلك بحوالى شهرين، في أثر استقالة هاشم الأتاسي من منصب رئيس الجمهورية في ٧ تموز ١٩٣٩. وبهذين الإجراءين أخضع بيو البلدين، سوريا ولبنان، من جديد، لحكم عسكري فرنسي مباشر بحجة الضرورات التي فرضتها ظروف الحرب. فزادت بذلك نقمة المعارضة الوطنية ورفضها.

ولما كانت فرنسا تخشى هجوماً من دول المحور على سوريا، عبر شبه جزيرة البلقان وتركيا، فقد قررت تقوية الجبهة المشرقية، لتتمكن من

---

(١٠٧) كاظم الصلح، أوراق كاظم الصلح، من مقررات مجلس القيادة رقم II B، ص ١، أيضاً:

Kazim Solh, Privat Papers, dabt Jalasat Majlis al Qiyada, August 1939, also: Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, pp.120 -121.

صد الهجوم المحتمل عليها بنجاح. فعينت أحد أبطال الحرب العالمية الأولى، الجنرال مكسيم ويغان، قائداً عاماً للقوات الفرنسية بمنطقة الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ووضعت تحت إمرته جيشاً قوامه حوالى مئة ألف جندي. فاحتلت عناصر هذا الجيش المواقع الاستراتيجية الهامة في سوريا ولبنان. وأصبح الحكم فيهما عسكرياً، بالفعل، وتضاءل دور السلطات المدنية، وصار القواد العسكريون حكام البلاد الفعليين.

الاهتمام بضبط الجبهة الداخلية:

انصب اهتمام السلطات العسكرية والمدنية، من فرنسية ووطنية، في سوريا ولبنان، على ثلاثة أمور رئيسية هي، تأمين الحاجات المعيشية الضرورية للمواطنين، وتنظيم وسائل الدفاع عن البلاد لمواجهة أي عدوان خارجي قد تتعرض له، وضبط الجبهة الداخلية وحمايتها ممن قد تسول له نفسه العبث بأمنها واستقرارها لأي سبب كان.

بالنسبة إلى الجبهة الداخلية، كان بيو يعلم أن في الساحتين السورية واللبنانية فئات ناقمة على فرنسا، ولا تدين بالولاء والإخلاص لنظام الانتداب، وأن لهذه الفئات أهدافاً سياسية وقومية وعقائدية، وطموحات شخصية، تتعارض مع طبيعة نظام الانتداب، ومع المصالح القومية الفرنسية في البلدين، وأنها تشكل خطراً دائماً على أمن الجبهة الداخلية واستقرارها. ولم تكن تلك الفئات لتخفى على المفوض السامي بيو. فهي لم تكن جديدة طارئة. وكان لبعضها خلافات وصدامات سابقة مع السلطات الشرعية. وكان من أنشط تلك الفئات وأبرزها، أولاً، المعارضة الوطنية السورية على اختلاف أحزابها وفصائلها وشخصياتها، بعد أن رفض الفرنسيون الاستجابة لمطالبها الوطنية.

وثانياً، الشيوعيون الذين كانوا يمحضون ولاءهم المطلق إلى الأممية الدولية، أو الكومنتيرن (Comintern)، في موسكو، ويتصرفون وفق توجيهاتها وتعليماتها. وقد نما الحزب الشيوعي واتسع انتشاره في سوريا ولبنان. وتحدى الشيوعيون السلطات الشرعية في البلدين بأكثر من مناسبة

ومكان، وحصلت بينهم وبين قوات الأمن صدامات خطيرة. وأصبح الشيوعيون موضع شبهة قوية بعد ارتباط الاتحاد السوفياتي بمعاهدة ٢٣ آب ١٩٣٩ مع ألمانيا النازية عدوة فرنسا في الحرب.

وثالثاً، الحزب السوري القومي الذي كانت مبادئه تتعارض مع النظام السياسي الشرعي القائم في لبنان وسوريا، كما كانت رموزه وشعاراته وممارساته، مثل شكل العلم، والتحية الحزبية، واللباس الموحد، ومنصب الزعامة، والمليشيا المسلحة وسواها، شبيهة بمثيلاتها في الحزب النازي الألماني، ومثيرة للريب والشكوك لدى السلطات الفرنسية والوطنية على السواء. وقد حصلت بضع مواجهات بين هذا الحزب والسلطات في أواخر الثلاثينات.

ورابعاً، مريدو الألمان والإيطاليين. إن فئات وشخصيات سورية ولبنانية وعربية ومشرقية، أجرت اتصالات، وأقامت علاقات، منها العلني ومنها السري، مع كلٍ من حكومتي ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية، توخياً للمنفعة المتبادلة. الجانب العربي كان يطمع في أن يساعده الألمان والإيطاليون على التحرر والاستقلال والانعتاق من الهيمنة الفرنسية والبريطانية في المشرق العربي. وهذا بالضبط ما كان يتمناه ويسعى إليه الألمان والإيطاليون لأسباب سياسية واستراتيجية بعيدة المدى. وكثّف مسؤولون ألمان وإيطاليون زياراتهم لسوريا ولبنان خلال السنتين ١٩٣٨ - ١٩٣٩ متخذين من موضوع التعاون في مجالات التعليم والثقافة والرياضة والتواصل الحضاري واجهة علنية وغطاءً إعلامياً لأهدافهم السياسية المبيتة(١٠٨). وقلق الفرنسيون من انتشار النفوذين الألماني والإيطالي في شرائح واسعة من الشعبين السوري واللبناني، ومن الإعجاب والانبهار اللذين يلاقيهما النظامان النازي والفاشستي، ليس بين النخبة العربية فحسب، بل وبين جماهير

---

(١٠٨) كان من أبرز الزوار الألمان قائد شبيبة هتلر فون شيراخ. وقد زار النادي العربي بدمشق يرافقه وفد من ١٥ شخصاً. فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، ص ٦٢٦.

الشعب، بدليل أن عدداً من الأطفال الذين ولدوا في تلك الحقبة، أطلق عليهم ذووهم اسم «هتلر» أو اسم «موسوليني». ولا يزال حتى اليوم يوجد أكثر من «هتلر» و«موسوليني» واحد في سوريا ولبنان.

خامساً، القوميون العرب والحركة العربية السرية. كان القوميون العرب من أكثر الفئات نشاطاً وفاعلية في سوريا ولبنان في السنوات الأخيرة من الثلاثينات. لم يكونوا موحدين في حزب أو تنظيم معين، وإنما كانوا موزعين في بضعة أحزاب وتنظيمات وكتل ومؤسسات تؤمن كلها بالمبادئ الأساسية للحركة العربية، ولكنها تختلف فيما بينها على بعض التفاصيل الثانوية. وكان من أبرز تكتلاتهم حينذاك في سوريا «النادي العربي» في دمشق، وحزب الشعب، وحزب الاستقلال، وعصبة العمل القومي، وتنظيم «الشباب الوطني»، والجناح المعارض من الكتلة الوطنية، والمكتب العربي القومي للدعاية والنشر، ولجنة الدفاع عن فلسطين، ومنظمة الكشاف السوري. وقد اعتبر رئيس الحكومة الفرنسية في حينه، أدوار دالادييه، القوميين العرب، قوة عدوة لفرنسا في الشرق، وأوصى وزير خارجيته بونه، بوجوب إضعافهم ومحاصرتهم وإبعادهم عن الانخراط في الميدان السياسي. وتنوعت ردود فعل القوميين العرب على هذه السياسة الفرنسية؛ فمنهم من اختار المواجهة المباشرة مع فرنسا والمعارضة السياسية المكشوفة لإفشال مشاريعها الاستعمارية، مثل عصبة العمل القومي. ومنهم من اتخذ الثقافة والرياضة والعمل الاجتماعي غطاءً لنشاطهم القومي، مثل جمعية العروة الوثقى في الجامعة الأميركية في بيروت، والنادي العربي في دمشق، والتنظيمات الكشفية في البلدين. ومنهم من فضل العمل السري مثل الحركة العربية السرية.

إن اسم الحركة العربية السرية لا يظهر بين أسماء الأحزاب والتنظيمات، التي كانت ناشطة في مجال العمل القومي، في تلك الحقبة، بسبب التزامها بالسرية المطلقة بعملها وبكل ما يتصل بها. والواقع أن ما قامت به معظم التشكيلات القومية المذكورة آنفاً، وما اتخذته من مواقف،

كان «للحركة العربية السرية» دور فيه. فرؤساء معظم تلك التشكيلات العربية، والقادة الذين أداروا شؤونها ووجهوا سياستها وأشرفوا على أعمالها، كانوا عناصر من أقطاب «الحركة العربية السرية». مثال ذلك، أن رئيس الحركة قسطنطين زريق كان مستشار جمعية العروة الوثقى، وجميل مكاوي وسليم إدريس قادة بمنظمة الجوالة والكشاف المسلم في لبنان. وكان سعيد فتاح الإمام رئيساً للنادي العربي في دمشق، ومنير الريّس أمين سر «الشباب الوطني» في سوريا، وفؤاد مفرج مدير المكتب العربي القومي للدعاية والنشر في دمشق وفي الوقت ذاته أمين سر لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا، وعلي عبدالكريم الدندشي قائد الكشاف السوري ومرشده. وكان للحركة وجود محدود كذلك في بعض التشكيلات الأخرى مثل عصبة العمل القومي، وجماعة «الميثاق الوطني اللبناني» في بيروت سنة ١٩٣٧[١٠٩].

لقد كان لهذه الأحزاب والتشكيلات القومية العربية، التي كانت «الحركة» تتخذها واجهة علنية لها، دور أساسي في تحريك الأحداث وصنعها في السنوات القليلة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية. وإن كانت سلطات الانتداب الفرنسي قد تغاضت عن الكثير من ممارسات هذه الأحزاب والهيئات والشخصيات في زمن السلم، لاعتبارات سياسية محلية وإقليمية ودولية شتى، فإنه لم يعد مسموحاً على الإطلاق، أن يتساهل المفوض السامي بيو، بمثل هذه الأمور الحساسة في زمن الحرب، وفي ظل الحكم العرفي. لقد فرض هذا الواقع الراهن على المفوض السامي بيو، أن يتصرف بسرعة ويتخذ الإجراءات والتدابير الضرورية لتلافي شر هذه المخاطر.

حل الأحزاب والتنظيمات:

منذ قيام حالة الحرب في مطلع أيلول ١٩٣٩، وبالاستناد إلى قانون الحكم العرفي، بدأت السلطات العسكرية الفرنسية باتخاذ التدابير الصارمة

(١٠٩) باسم الجسر، ميثاق ١٩٤٣، ص ٨٤.

ضد تنظيمات الحركة الوطنية المعارضة ومؤسساتها وقياداتها وكوادرها، وضد اللاجئين الفلسطينيين وسواهم من المقيمين في سوريا ولبنان، ممن كانت تلك السلطات تشك بإخلاصهم لفرنسا، وترتاب بصدق ولائهم لجبهة الدول الديمقراطية المحاربة، وتتهمهم بالتعاطف والميل مع جبهة دول المحور المعادية، وتعتبرهم خصوماً سياسيين وخطراً كامناً يهدد الأمن الداخلي، ويعرقل المجهود الحربي إذا ما تركت لهم حرية الحركة كاملة على مداها. لذلك قامت تلك السلطات بحل الأحزاب والمنظمات والجمعيات والنوادي المشبوهة، مثل الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي وعصبة العمل القومي، والشباب الوطني والكتلة الوطنية ولجنة الدفاع عن فلسطين والنادي العربي في دمشق وأغلقت مكاتبها وصادرت أوراقها، وأقفلت الجرائد الناطقة باسمها مثل جريدة صوت الشعب للحزب الشيوعي، وجريدة العمل الوطني لعصبة العمل القومي. وفرضت الرقابة على المطبوعات والصحف والرسائل والإذاعات[١١٠].

اعتقالات في صفوف الوطنيين:

ورافقت عملية حل الأحزاب وإغلاق النوادي والجمعيات الوطنية، ملاحقة قيادييها وبعض الناشطين البارزين في الحقل الوطني. وكانت هذه الملاحقة قد بدأت فعلاً في دمشق منذ آذار ١٩٣٩، في أثر سقوط حكومة لطفي الحفار، ومحاولة اغتيال بهيج الخطيب الموالي للانتداب، ثم ما لبثت أن اتسعت واشتدت بعد نشوب الحرب العالمية الثانية في أيلول. وطالت الإجراءات الأمنية التي اتخذت لمواجهة الأحداث، مئات الأشخاص من سوريين ولبنانيين. فزج في السجون أو احتجز في المعتقلات، من وقع من المطلوبين في قبضة السلطة، مثل منير الريّس عامل «الحركة العربية السرية» في سوريا، ونبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين، وسيف الدين المأمون أمين سر «الشباب الوطني»، وعلي ناصر الدين رئيس فرع عصبة

---

(١١٠) أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، العالم الحديث، ص ٥٤٤. أيضاً:
Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.119.

العمل القومي في لبنان، ومهدي مرتضى مدير مكتب الكتلة الوطنية، وتوفيق القباني ومحمود الخضري وحسن الخياط وحسن بكداش من التجار الوطنيين المرموقين بدمشق[١١١]. واستبق آخرون الإجراءات التي كان يمكن أن تتخذ بحقهم فتدبروا أمرهم بسرعة وغادروا سوريا ولبنان، خفية أو جهاراً، ولجأوا إلى العراق والسعودية مثل شكري القوتلي، وجميل مردم بك، ولطفي الحفار، وسعد الله الجابري، وفريد زين الدين. وكان زعيم الحزب السوري القومي أنطون سعادة قد غادر البلاد إلى بعض بلدان أميركا الجنوبية هرباً من ملاحقة السلطات له. أما مدير المكتب العربي القومي للدعاية والنشر في دمشق فؤاد خليل مفرج فكان قد سافر في مهمة حزبية، بتكليف من الحركة العربية السرية، إلى الولايات المتحدة الأميركية وكندا. واضطرت عناصر الحركة الوطنية الأخرى إلى التزام الهدوء ووقف كل نشاط مثير للشبهات، واتخذت جانب الحيطة والحذر، بعد أن حُلت تنظيماتها واعتقل قادتها. وبهذا تمكنت السلطة في خلال السنة الأولى من الحرب، من تفكيك أجهزة الحركة الوطنية وتنظيماتها، وتعطيل عملها المنظم العام، وتخلصت من أبرز قادتها وأكثرهم نشاطاً، إما بزجهم في السجون والمعتقلات، أو باضطرارهم إلى النزوح إلى خارج البلاد.

الفلسطينيون يضطرون إلى مغادرة سوريا ولبنان:

بعد أن عاملت سلطات الانتداب الفرنسي الثوار والزعماء الفلسطينيين اللاجئين إلى سوريا ولبنان بالتساهل واللين في السنوات الثلاث الأولى من ثورة ١٩٣٦، عادت وعدلت عن هذه السياسة في مطلع العام ١٩٣٩ استجابة لطلب حليفتها بريطانيا من جهة، وتأميناً لمصالحها الذاتية من جهة أخرى. فبعد التفاهم السياسي والتنسيق الاستراتيجي الذي أخذ يتكامل بين بريطانيا وفرنسا في أثر مؤتمر ميونيخ لمواجهة الخطر المحدق بمصالحهما الحيوية وبالسلام العالمي، استجابت فرنسا لطلبٍ تقدم به رئيس وزراء بريطانيا نيفل

---

(١١١) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣١٠ و٣٣٨.

تشمبرلن، أثناء زيارة قام بها مع وزير خارجيته اللورد هاليفكس إلى باريس في تشرين الثاني سنة ١٩٣٨، من أجل تقييد النشاط السياسي والعسكري الذي تقوم به جماعات اللاجئين الفلسطينيين دعماً للثورة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين(١١٢). وقد وعد المفوض السامي الفرنسي غبريال بيو المعين حديثاً خلفاً للمفوض السامي السابق دميان دي مارتيل بتطبيق هذه السياسة عندما يتسلم مهام منصبه في بيروت ودمشق في مطلع العام ١٩٣٩.

نفذ بيو في حينه بعض ما تعهد به لرئيس الوزراء البريطاني تشمبرلن، ولكن القيود والإجراءات التي فرضها على اللاجئين الفلسطينيين بعد نشوب الحرب وإعلان الحكم العرفي كانت أشمل وأشد، بحيث إنها قيدت تحركاتهم، ومنعتهم من القيام بأي نشاط سياسي لنصرة الثورة في فلسطين، ووضعتهم تحت رقابة شديدة دائمة، وأقامت العراقيل وفرضت الإجراءات العسيرة المعقدة بشأن السماح لهم بدخول منطقة الانتداب الفرنسي والخروج منها. وبسبب هذه الإجراءات والقيود المكثفة، أصبح الزعيم الفلسطيني المفتي الحاج أمين الحسيني شبه سجين بمقر إقامته في الذوق، الذي أحاطته السلطة بفوج من الحرس ورجال الأمن العام.

أقلقت هذه التدابير القاسية خواطر اللاجئين الفلسطينيين، وأقنعتهم بضرورة مغادرة سوريا ولبنان، لأن بقاءَهم حيث هم لا فائدة لهم منه، إذ لم يعد بإمكانهم دعم الثورة ومدها بالمال والسلاح والمتطوعين، مثلما كانوا يفعلون في السنوات السابقة. ولعله أهم من ذلك، أن اللاجئين الفلسطينيين كانوا يخشون من أن ينقلب عليهم الفرنسيون وينكلوا بهم، بناء على ما كان ينسب إليهم من تعاطف مع الألمان(١١٣)، ومن اتصالات سرية يجريها بعض زعمائهم مع كبار المسؤولين النازيين، بعد أن أصبحت ألمانيا الهتلرية، من الناحيتين القانونية والفعلية، عدوة فرنسا، وفي حالة حرب معها.

---

(١١٢) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.120-121.

(١١٣) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١١٩. وفيه وصف لكيفية اعتقال عزة دروزة وأخيه محمد علي وزجهما في السجن من قبل الدرك الفرنسي.

وكان قد بدأ نزوح اللاجئين السياسيين الفلسطينيين عن سوريا ولبنان على نطاق واسع إلى العراق منذ مطلع خريف ١٩٣٩. وكان من أبرز النازحين المفتي الحاج أمين الحسيني. وقد تطوع بوضع خطة محكمة لهربه أحد أقطاب «الحركة العربية السرية» ورجل المغامرات الجريء عز الدين الشوا. فقد تنكر هو والحاج أمين بزي البدو وتمكنا من مغافلة القائمين على حراسة منزله بالذوق، أو تدبرا أمرهما معهم، وغادرا المكان في صباح ١٣ تشرين الأول ١٩٣٩، واجتازا الأراضي اللبنانية وبادية الشام ووصلا بغداد في ١٦ منه، واستقبلا بحفاوة وإكرام من رئيس الديوان الملكي العراقي رشيد عالي الكيلاني في مكتبه، وذلك حسب رواية أكرم زعيتر الذي حضر ذلك الاستقبال. وقد جاء في روايته عن الحادث ما يلي:

«وفي الصباح [صباح اليوم التالي ١٧ تشرين الأول] جاءني الأخ عزالدين الشوا والابتسامة العريضة ترتسم على وجهه، قال بعد تردد؛ سأقول لك شيئاً على شرط الكتمان. ثم صمت، وعزالدين يحب الأدوار الغريبة ذات المفاجآت... ولحظت من لهجته أن دور عزالدين في تهريب المفتي من لبنان عبر الصحاري دور أساسي. ثم قال لي: «كيف أنت ورشيد عالي رئيس الديوان الملكي؟». قلت له: «عال العال...». وهنا نظر إلى ساعته وقال بعد ساعة أقترح عليك أن تكون في البلاط وفي غرفة رشيد عالي نفسه وسترى... وانصرف». وذهب زعيتر إلى البلاط وإذ به يرى المفتي الحاج أمين هناك. ويختم زعيتر روايته بالقول: **«ومن أغرب الصدف أن المفتي غادر بيروت صباح ١٣ تشرين الأول وهو هو تاريخاً وساعةً لمغادرته القدس قبل سنتين هارباً إلى لبنان»**[١١٤].

وقد تباينت الأساليب واختلفت الطرق التي سلكها الفلسطينيون الفارون إلى العراق بحسب الظروف التي أحاطت بوضع وهرب كل منهم. مثال ذلك ما ذكره واصف كمال في مذكراته وفي حديثه مع المؤلف بهذا الخصوص حيث قال:

---

(١١٤) أكرم زعيتر، يوميات، ص ٦٠٧ - ٦٠٩.

«غادرت سراً دمشق في اتجاه العراق، والفضل لله في اجتياز الحدود، والشرطة الفرنسية لم تنتبه إلى وضعي، فغادرت مقر ما يسمى أبو الشامات حيث السلطات الفرنسية على الحدود باتجاه بغداد»[١١٥].

وحذا حذو المفتي الحسيني وعزالدين الشوا، وواصف كمال في الفرار من سوريا ولبنان إلى العراق، معظم الزعماء السياسيين والمناضلين الوطنيين، مثل جمال الحسيني، والدكتور داود الحسيني، وعبدالقادر الحسيني، وراسم الخالدي، وموسى العلمي، والشيخ حسن سلامة قائد المنطقة الجنوبية في ثورة فلسطين، وأكرم زعيتر، وإسحق درويش وسواهم. ويمكن القول إنه خلال بضعة أشهر، من أواخر ١٩٣٩ إلى أوائل ١٩٤٠ كان معظم الزعماء والمناضلين الوطنيين الفلسطينيين البارزين قد غادروا لبنان وسوريا واستقروا في العراق.

١٢ ـ نقل مركز قيادة الحركة إلى بغداد

مسألة اتهام سعيد الإمام:

إن «الحركة العربية السرية» بالذات لم تتأثر بصورة مباشرة بتلك الإجراءات، لأنها كانت مكتومة مجهولة، لا ذكر لها في لوائح السلطة المحتوية على أسماء الأحزاب والأشخاص الوطنيين المشتبه بهم والمطلوبين. لذلك لم يصدر بحقها، أو بحق أحدٍ من عناصرها، أي قرار بالحل، أو الاعتقال، أو غير ذلك من التدابير. ولكن ذلك لا يعني أنها نجت من تلك المحن. وقد أصابها من الضرر الناجم عن تلك الإجراءات، بقدر ما أصاب الجهات المعروفة الأخرى في مختلف المجالات. فعندما اعتقلت تلك السلطات العشرات، بل المئات، من المناضلين السياسيين، كان بينهم عدد من أعضاء «الحركة». ولكن هؤلاء لم يعتقلوا أو يلاحقوا لصفتهم الحزبية «الحركية»، بل لأنهم كانوا منتمين ظاهراً إلى أحد التنظيمات المنحلة، أو لأسباب سياسية أخرى. مثال ذلك ما جرى لأحد أقطاب «الحركة» البارزين

---

(١١٥) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٢٠.

في دمشق. ففي الحملة التي شنتها قوات الأمن العام الفرنسية في أثر إعلان الحرب العالمية الثانية، واستهدفت حل الأحزاب والتنظيمات وإغلاق النوادي والجمعيات، دهمت تلك القوات مقر «النادي العربي» في دمشق، وفتشت أرجاءَه وأدراجه، وصادرت أوراقه ومستنداته، وأغلقت أبوابه. وكان هذا النادي إحدى نقط الاعتماد الرئيسية، للحركة العربية السرية في سوريا، كما كان رئيسه، طبيب الأسنان سعيد فتاح الإمام، أحد أقطاب «الحركة»[116].

وكانت التهم الموجهة إلى سعيد الإمام من المخابرات الفرنسية، ومن الوشايات السرية المرسلة إليها من خصوم النادي ورئيسه الإمام، تدور كلها حول علاقته بألمانيا النازية. وكان من أخطر هذه التهم الصداقة الحميمة المشبوهة التي تربط سعيد الإمام بقنصل ألمانيا في دمشق، واستقباله بعض المسؤولين النازيين الكبار واحتفاؤه بهم في النادي، وزياراته المتكررة لألمانيا في السنوات الأخيرة، وحصوله على أموال من مصادر حكومية ألمانية، واستقباله في عيادته بدمشق بعض الزوار الألمان، وتوسطه لدى جهات ألمانية معينة لتسهيل السفر والمعاملات لبعض التجار والطلاب وأصحاب المصالح السوريين الذين يقصدون ألمانيا، وأخيراً لا آخراً، جعله «النادي العربي» منبراً للدعاية النازية، وأداة لنشر النفوذ الألماني في سوريا. أما «الحركة العربية السرية» فإنها، كعادتها، بقيت في الظل خارج نطاق هذه التهم، ولم يرد لها أي ذكر على الإطلاق، إن كان بالنسبة إلى «النادي العربي»، أم بالنسبة إلى سعيد الإمام ذاته وعلاقته بالحركة.

وخشي سعيد فتاح الإمام أن يعتقل ويسجن بسبب هذه التهم، فتوارى عن الأنظار، واختبأ بمكان آمن في إحدى ضواحي دمشق. ولكنه وجّه من مخبئه إلى المسؤولين الفرنسيين مرافعة في ثماني صفحات من القطع الكبير باللغة الفرنسية مضروبة على الآلة الكاتبة[117]. دافع فيها عن نفسه، وعن «النادي العربي»، ورد على جميع التهم الموجهة إليه بعشرين

---

(١١٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٢، ص ٣٣٨.

(١١٧) أوراق كاظم الصلح، وفيها نسخة عن الرسالة.

بنداً، تناول فيها كل تهمة على حدة، نافياً ما نسب إليه فيها من تهم ووشايات، حسب قوله، ومؤكداً براءته من كل ما نسب إليه زوراً وبهتاناً.

وبالطبع لم تكن هذه المرافعة كافية لإقناع الفرنسيين ببراءته والعفو عنه والكف عن ملاحقته. فهرب سراً ولجأ إلى العراق.

تشبه هذه المرافعة الوثيقة، من بضعة وجوه، وخصوصاً من حيث الشكل، عريضة تقدم بها أمين سر «الحركة» كاظم الصلح إلى المراجع الفرنسية، لأمر يتعلق بالترخيص له بمغادرة البلاد. ويحمل هذا التشابه على الميل إلى الاعتقاد بأن «الحركة» تبنت مسألة الدفاع عن ابنها سعيد الإمام فوضعت بالتعاون والتنسيق معه هذه المرافعة، ودبرت أمر تقديمها، بالنيابة عنه، إلى المرجع الفرنسي المختص. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يُفسر وجودها بين الوثائق الرسمية للحركة العربية السرية في محفوظات كاظم الصلح الخاصة.

الظروف لنقل نشاط الحركة:

كان لهذه التطورات التي أفرزتها حالة الحرب، تأثير بالغ الخطورة على «الحركة العربية السرية»، بالرغم من أن سريتها حمتها من التعرض المباشر لإجراءات السلطة، كغيرها من التنظيمات الوطنية. وكان من أبرز مظاهر هذا التأثير السلبي غير المباشر تشتت أعضائها؛ فمنهم من اعتقل وسجن، ومنهم من كان مطلوباً وملاحقاً، ومنهم من منع من مغادرة البلاد ووضع تحت المراقبة، ومنهم من نجح بالفرار إلى العراق. أما الباقون فقد اضطروا إلى الاعتصام بحبل الصمت والتزام الهدوء، التماساً لسلامتهم وصوناً لسلامة «الحركة».

وكان من مظاهر هذا التأثير السلبي أيضاً، فقدان «الحركة» جميع نقط اعتمادها التي حلتها السلطات، وأغلقت مراكزها، واعتقلت قيادييها، والعناصر النشيطة الفاعلة فيها، وبحلها فقدت «الحركة» إحدى أهم ركائزها المساعدة وأدواتها التنفيذية المموهة.

وكان من مظاهر هذا التأثير السلبي أيضاً، أن السلطات الفرنسية تشددت في منع جميع النشاطات التي لا ترضى عنها، وفرضت قيوداً صارمة

على الحريات العامة والخاصة، ومارست رقابة دقيقة على تحركات الجماعات والأفراد، وعلى رسائلهم ومخابراتهم واتصالاتهم وأعمالهم. ومنعت بعضهم من مغادرة البلاد. فلم يبق أمام «الحركة»، والحالة هذه، ما تستطيع فعله بعد أن شلت هذه التدابير قدراتها وأقفلت مجالات العمل في وجهها.

إن هذه الظروف العصيبة، والعوامل المعطلة التي خلقتها حال الحرب وأوقفت نشاط «الحركة العربية السرية»، وكبلت قدراتها، وهددت وجودها ذاته في سوريا ولبنان، جعلت أمين سرها كاظم الصلح، يقرر نقل مركز مجلس القيادة من بيروت إلى بغداد فوراً، بناءً على قرار مجلس القيادة، وبموجب الصلاحيات الرئاسية المطلقة الممنوحة له من رئيس «الحركة» ومجلس القيادة في جلسته الأخيرة المنعقدة في آخر آب ١٩٣٩ في بيروت. ولكن قوات الأمن العام الفرنسي على الحدود بين سوريا والعراق منعته من مغادرة الأراضي السورية بناءً على تعليمات صادرة من مراجع فرنسية عليا من دون ذكر السبب.

لما عاد كاظم الصلح إلى بيروت،راجع دوائر الأمن العام، فلم يكن لديها ما يؤاخذ عليه، وقيل له إن قضيته سياسية وليست أمنية. فوجه بتاريخ ٧ تشرين الأول رسالة باللغة الفرنسية بصفحتين من القطع الكبير، مضروبة على الآلة الكاتبة، إلى مدير الدائرة السياسية بالمفوضية العليا الفرنسية في بيروت، عرض فيها للمدير المذكور، ما حصل له في نقطة الحدود، والتمس منه بإلحاح السماح له بالسفر القريب، زاعماً أنه ذاهب للتدريس في أحد معاهد التعليم التابع لوزارة المعارف العراقية في بغداد، وأنه يخشى إن طال تأخره في لبنان أن يفقد وظيفته ويخسر مورد رزق حيوي له ولعائلته[١١٨]. ويبدو أن المدير المذكور اقتنع بما أورده كاظم الصلح برسالته وسمح له بمغادرة البلاد.

وبانتقال كاظم الصلح ومعه قيادة «الحركة العربية السرية» إلى العراق، تكون صفحة من تاريخ «الحركة» في سوريا قد طويت، وبدأت صفحة مهمة أخرى في مقر «الحركة» الجديد في بغداد.

---

(١١٨) أوراق كاظم الصلح، وفيها الرسالة.

الفصل الخامس

الحركة العربية السرية في فلسطين

١ ـ الظروف المؤاتية لتأسيس الحركة في فلسطين:

بعد تأسيسها في لبنان وسوريا بوقت قصير امتدت الحركة العربية السرية إلى فلسطين. وكانت الظروف ملائمة، والأجواء مهيأة لانتشارها هناك. فمن جهة أولى، إن مبادىء الحركة لم تكن بعيدة عن تفكير الفلسطينيين، أو غريبة عن تطلعاتهم الوطنية وطموحاتهم القومية. وقد تميزت منهم نخبة من خريجي وطلاب الجامعة الأمريكية في بيروت، الذين تأثروا بفكر وتوجيه أستاذهم، أستاذ التاريخ العربي بالجامعة المذكورة، الدكتور قسطنطين زريق، صاحب أحد أقوى المنابر العربية صدى، وأعمقها فكراً، وأكثرها جدية وموضوعية، وأشدها تأثيراً في نفوس النخبة العربية. ليس هذا فحسب، بل إن بعضاً من هؤلاء كانوا أثناء وجودهم طلاباً في الجامعة الأميركية في بيروت، قد انتسبوا إلى الحركة العربية السرية، وتأثروا بالجو العروبي السائد بين الطلاب. ولا شك في أن هذا الواقع في فلسطين، كان أحد العوامل التي ساعدت على امتداد الحركة إليها بسرعة ويسر.

ومن جهة ثانية، كان الوضع المضطرب في فلسطين عاملاً مهماً آخر من العوامل التي ساعدت على انتشار الحركة هناك. فنقمة الشعب الفلسطيني على الانتداب البريطاني كانت عارمة، لأن هذا الانتداب حرم

فلسطين العربية من الاستقلال، وتحيز تحيزاً جائراً سافراً للجانب الصهيوني ضد الجانب العربي. وكانت النقمة أشد على السياسة الصهيونية الاستيطانية العدوانية التي وجد الفلسطينيون فيها خطراً ماحقاً، ليس على أرضهم وحقوقهم ومصالحهم فحسب، بل على كيانهم ووجودهم كذلك.

ولمواجهة هذين الخطرين الداهمين، ومن باب الدفاع عن النفس والوطن، سلك الفلسطينيون سبيل الكفاح في سائر المجالات: السياسية، والعسكرية، والإعلامية والتربوية. فعملوا على إثارة الحميَّة الوطنية، وشحن النفوس بالشعور القومي الوحدوي، وتشكيل التنظيمات السرية، وتدريب الشباب على القتال. وساهمت المدارس العربية الأهلية، إلى جانب الأحزاب والهيئات والقيادات الوطنية الفلسطينية، بدور فعال في تنمية هذا الشعور. وكان في طليعتها «مدرسة النجاح» في نابلس، التي دخلت الحركة العربية السرية إلى فلسطين عن طريقها. كانت مدرسة النجاح إحدى أعرق المؤسسات التربوية في فلسطين. اشتهرت بكونها مركزاً من مراكز الدعوة العربية، ومعقلاً من معاقل النضال العربي التحرري. تلك كانت الحال في مدرسة النجاح عندما جرى تعيين فريد زين الدين مديراً جديداً لها.

فريد زين الدين شاب لبناني من قرية «عين قِني» في قضاء الشوف بجبل لبنان. يحمل شهادة «بكلوريوس» (B. A.) من الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٢٥، وشهادة دكتوره بالقانون من جامعة السوربون بباريس سنة ١٩٣٢. قومي عربي ملتزم. قام بنشاط واسع أثناء وجوده في باريس في أواخر العشرينات حتى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين. وبعد عودته إلى لبنان تابع نشاطه القومي، واشترك بتأسيس «الحركة العربية السرية» في بيروت، قبل انتقاله إلى فلسطين مديراً لمدرسة النجاح في سنة ١٩٣٥. وفي مركز عمله الجديد، فكر فريد زين الدين في نشر الحركة العربية السرية في نابلس وفي فلسطين كلها. وشجعه على ذلك ما وجده لدى زملائه في مدرسة النجاح من صفاء العقيدة وصدق العزيمة. ففاتحهم، كما يروي واصف كمال في مذكراته، بخصوص:

«تشكيل تجمع سري يستهدف تحرير البلاد العربية واستقلالها، وتحقيق الوحدة العربية الشاملة، من الخليج إلى المحيط»[١].

واتسعت دائرة الاتصالات تدريجياً، وشملت عدداً من الشباب المثقف المهتم بالشؤون القومية. وقبل نهاية العام ١٩٣٥ كان «التجمع السري الفلسطيني» قد تشكل. والتزاماً منه بمبدأ السرية المطلقة، لم يشأ فريد زين الدين أن يبوح للتجمع الجديد بوجود الحركة العربية السرية، أو أن يربطه بها بشكل رسمي قبل انقضاء فترة اختبار كافية ليتأكد خلالها من نجاح التجمع ومن جدية أعضائه وثباتهم فيه.

٢ ـ التجمع السري الفلسطيني

تعريفه:

إن ما يدعى «التجمع السري الفلسطيني» ولد بمدرسة النجاح في نابلس سنة ١٩٣٥. وكان الذي شجع على إنشائه، وشارك فيه، هو نفس مدير المدرسة فريد زين الدين الذي كان قد اشترك قبل بضعة أشهر بتأسيس الحركة العربية السرية في بيروت. ليس هناك أي دليل يثبت أن هذا التجمع كان حزباً سياسياً مكتمل التنظيم، مثل الحركة العربية السرية، له دستوره، وقوانينه، وأنظمته وأجهزته وفروعه.وإن الأدلة المتوفرة في ماكتب وروي عنه تشير إلى أنه كان مجموعة أو عصبة من الشباب القوميين العرب الذين تآلفوا وتوافقوا على العمل في الحقل القومي معاً، وعلى تأسيس التجمع كردة فعل على ما كان يجري في فلسطين يومئذ. وقد رسموا لهذ التجمع هدفين: أولهما وأكثرهما إلحاحاً، مقاومة الانتداب البريطاني وسياسة الاستيطان الصهيونية، وثانيهما، نشر الفكرة العربية، وإيقاظ الوعي القومي في الضمائر والنفوس، ولا سيما في ضمائر ونفوس الأجيال الطالعة. كانت نواة هذا

---

(١) واصف كمال، مذكرات الأستاذ واصف كمال، الحديث الثاني، ص ١٢.مخطوطة لم تنشر، ولدى المؤلف نسخة منها. يشار إليه بعد الآن هكذا: واصف كمال، مذكرات.

التجمع بضعة أساتذة بمدرسة النجاح، كان أشدهم اندفاعاً، وأكثرهم فاعلية في العمل الوطني، ثلاثة هم، فريد زين الدين وواصف كمال وممدوح السخن. وكانت مدينة نابلس عرين النضال الوطني الفلسطيني والميدان الرئيسي لنشاط التجمع[٢]. وكان للتجمع تابعون ومؤيدون في مختلف مدن فلسطين.

كان التجمع يشبه الحركة العربية السرية في المبادىء والأهداف السرية وأسلوب العمل فكان مثلها، يتستر في عمله السري وراء واجهات علنية من صنعه أو من صنع سواه، مثل المؤسسات الكشفية والفرق الرياضية، والنوادي الأدبية وغيرها. وكان أفراده يقبلون على الانضمام إلى الأحزاب، والمشاركة في اللجان، والتعاون مع الزعامات والقيادات التي تنسجم سياساتها، وتتفق مواقفها في الشؤون الوطنية والقومية مع مبادىء التجمع وأهدافه.

وبالرغم من استقلاله الظاهري كان التجمع السري الفلسطيني، بمشاركة فريد زين الدين في قيادته وتوجيهه، قد أصبح كأية واحدة من نقط الاعتماد الكثيرة المنتشرة في لبنان وسوريا، التي كانت الحركة العربية السرية تستقطبها وتدعمها وتستخدمها لأغراضها القومية. ولم يكن أعضاء التجمع يشعرون بهذه العلاقة الخفية، باستثناء مهندس هذه العلاقة فريد زين الدين، الذي كان يهمه أن يختبر التجمع قبل أن يقرر ضمه إلى الحركة العربية السرية. لذلك يمكن القول إن الحركة العربية السرية بدأت تعمل في فلسطين قبل تأسيسها هناك بصورة رسمية، من خلال نشاطات التجمع وبواسطته، وكذلك بالتعاون غير المباشر، أحياناً، بين التجمع وبعض الحركيين في فلسطين، الذين كانوا قد انتسبوا إلى الحركة في بيروت في وقت سابق مثل عز الدين الشوا، ورشاد الشوا، وفريد يعيش.

---

(٢) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية. إعداد هالة سليمان الأسعد. ص ٦٣ ـ ٧٤، ٧٣ ـ ٧٤ (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١). يشار إليه بعد الآن هكذا: واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين.

دامت فترة الاختبار هذه، التي حددها فريد زين الدين، حوالى سنة، من أواخر سنة ١٩٣٥ إلى أواخر سنة ١٩٣٦. وقام التجمع خلالها بنشاطات وطنية ناجحة، شملت مختلف المجالات ولا سيما المجالات الأربعة التالية: تنشئة الأجيال الطالعة تنشئة قومية صحيحة، والمساهمة بالمقاومة الوطنية المدنية، وإنشاء الواجهات العلنية والتستر وراءها، والمشاركة الفعلية في ثورة فلسطين الكبرى. وفيما يلي عرض موجز لبعض هذه النشاطات الناجحة التي أهّلت التجمع بالنتيجة للانضمام إلى الحركة العربية السرية، والتي يمكن اعتبار بعضها نشاطاً حركياً لا سيما ما كان منها فيه للحركة دور مباشر مهم.

التجمع والتنشئة القومية:

اختار التجمع السري الفلسطيني المدارس ميداناً للتنشئة الوطنية، ولنشر الإيمان بالقومية العربية، وتنميته في نفوس الأجيال الطالعة. وكانت مدرسة النجاح في نابلس خير مثال على ذلك.وقد تحدث عضو التجمع واصف كمال عن خبرته الشخصية بهذا الشأن، كأستاذ بمدرسة النجاح في تلك الحقبة، فقال:

«فمن خلال التدريس في هذه المدرسة كنا نؤجج الروح الوطنية الموجودة لدى الطلبة بشكل عام، ونراقبها لتكون بشكلها الصحيح، وكي تطبق بشكل عملي»[٣].

ولم يقتصر الاهتمام بالتنشئة القومية للأجيال الطالعة، على مدرسة النجاح وحدها، بل إن معظم المدارس الأهلية بفلسطين كانت تساهم بهذا الجهد القومي التربوي. مثال ذلك ما ذكره الدكتور جورج حبش عن حدثين مدرسيين بهذا الخصوص. قال:

«في أثناء الدراسة، كان مدير مدرستنا الابتدائية... وطنياً متحمساً... في إحدى المرات نشب شجار بين الصغار فقال لهم معلقاً: «اطردوا اليهود بدلاً من أن تتقاتلوا». وذكر أنه كان هناك مستعمرة قريبة من اللّد، وفي أحد الأيام طلب منا

---

(٣) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ٣٦.

أستاذ مادة الحساب قائلاً: «قفوا دقيقة صمت... في هذه اللحظة، هناك شباب فلسطينيون يعلقون على المشانق، لأنهم يناضلون من أجل وطنهم». لقد تأثرت بهذا الحدث كثيراً في ذلك الوقت»[٤].

مشاركة التجمع بالمقاومة المدنية:

إلى جانب عمله السري الهادىء في مجال التنشئة القومية في المدارس، ساهم التجمع السري الفلسطيني بقوة وفعالية مع الهيئات الوطنية الأخرى وجماهير الشعب الفلسطيني في أعمال المقاومة المدنية، الهادئة حيناً، والصاخبة الغاضبة حيناً آخر. واتخذت المقاومة المدنية أشكالاً عدة اختلفت باختلاف الظروف التي استدعت اللجوء إليها، مثل المظاهرات، والإضرابات، والاعتصامات، وعقد الندوات، وإذاعة البيانات، وإطلاق التصاريح والشعارات، وتوزيع المناشير السرية، ووضع المذكرات، وإصدار الكتب والصحف والمجلات المعبرة عن الموقف العربي القومي. مثال ذلك أنه في أثر استشهاد الزعيم الفلسطيني الشيخ عز الدين القسّام في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥، قامت مظاهرات كثيرة في مختلف أنحاء فلسطين، كان من أكبرها حشداً، وأشدها عنفاً، المظاهرات التي جرت في يافا ونابلس، وقتل فيها عدد من الأشخاص. وقد شارك فيها بعض أعضاء عصبة التجمع، وذكر واصف كمال ذلك في مذكراته فقال:

«واستمر الاضراب المنظم والعام في جميع أنحاء البلاد. وقمنا نحن الصحب الثلاثة بتدارس الموضوع فيما بيننا حيث رأينا أن أرافق والأستاذ ممدوح السخن أعمال العنف في الإضراب ولتوجيهه وتدبيره بغية أن يولّد هذا الاضراب ثورة، بينما رأينا أن يختص الأستاذ أكرم زعيتر بالشؤون الشعبية والاتصالات السياسية لدعم ذلك وتوحيده»[٥].

---

(٤) جورج حبش، التجربة النضالية الفلسطينية ـ حوار شامل مع جورج حبش. أجرى الحوار محمود سويد. مرجعيات ٣. ص ١ ـ ٢. (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨).

(٥) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ٨٧.

وقامت السلطات البريطانية باعتقال عدد كبير من الزعماء والقادة الوطنيين الذين اعتبرتهم مسؤولين عن تلك الأحداث. وكان منهم، «**الصحب الثلاثة**» من التجمع السري الفلسطيني ممدوح السخن وواصف كمال وأكرم زعيتر، وآخرون مثل عبد الحميد شومان، وعزة دروزه، وعوني عبد الهادي ، وقدري طوقان، ورفعت النمر، الذين احتجزوا في معتقل الصرفند بضعة أشهر خلال ١٩٣٦[٦].

التجمع السري وواجهاته العلنية:

لجأ التجمع السري إلى الاستعانة بتنظيمات وهيئات وشخصيات رديفة، واتخاذها واجهات علنية لأعماله. كان من هذه الهيئات العلنية الرديفة، مثلاً، نادي الاتحاد الرياضي، والفرق الكشفية، والجمعيات الخطابية المدرسية، واتحاد الطلبة، واللجان القومية لمكافحة الصهيونية والاستعمار، وغيرها.

كان نادي الاتحاد الرياضي من أكثر هذه الهيئات الرديفة حركة ونشاطاً. أسسه أعضاء التجمع السري، واصف كمال وأكرم زعيتر وممدوح السخن. تولى هذا الأخير رئاسته طوال فترة وجوده. وذكره واصف كمال في مذكراته، بقوله:

«وقد قررنا أن نؤسس نادي تحت اسم «النادي الرياضي» ظاهرياً، نادي للكشفية والرياضية، ولكن حقيقة الأمر نستهدف تثقيف وتنشئة أعضاء النادي بحيث يصبحوا نواة حركة ثورية تأخذ على عاتقها تنفيذ توجيهاتنا»[٧].

وتوسع واصف كمال في الحديث إلى المؤلف في عدة مقابلات خاصة[٨] عن أعمال التجمع والنادي الرياضي، وكان مما أضافه إلى ما ورد أعلاه قوله ما يلي:

---

(٦) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٧) واصف كمال، مذكرات، الحديث الأول، ص ٤.

(٨) جرت مقابلات كثيرة بين واصف كمال والمؤلف، كانت أولاها في ٢٤ أيلول سنة ١٩٩٤.

«وكان ممدوح السخن يرأس نادي الاتحاد الرياضي، ومن خلاله تشكلت فرق رياضية، وكشفية. وقررنا أن تقوم هذه الفرق بالتدرب على استعمال السلاح، وكانت بقيادة ممدوح السخن نفسه. ولما كان حمل السلاح محظوراً في فلسطين وعقوبته الإعدام قررنا أن يذهب أفراد هذه الفرق بثيابهم الرياضية والكشفية للتدريب في الأردن لأن حمل السلاح لم يكن محظوراً فيه. وقمنا بالاتصالات مع أحد كبار الضباط الوطنيين في الجيش الأردني ينتسب إلى عائلة السخن، واسمه عاهد السخن، فقام بعمل الترتيبات اللازمة لنا. فذهبنا إلى منطقة «الزرقاء» النائية، حيث كنا نزود بالسلاح، ويقوم بعض المدربين بتدريب أفراد الفرق الرياضية والكشفية على حمل السلاح واستعماله طوال عشرة أيام قبل أن نعود إلى نابلس»[٩].

ويقول رفعت النمر في تذكاراته بهذا الخصوص ما يلي:

«وفي كلية النجاح في نابلس كانت دراستي الثانوية... وممدوح السخن أستاذ مادة الكيمياء وقائد فرقة الكشافة في الكلية... كان يأخذنا خارج حرم الكلية في أماكن نائية خارج المدينة ويقوم بتدريبنا على استعمال السلاح والتمرس على إصابة الهدف... وفي كلية النجاح كانت الخطب الحماسية والأفكار الوطنية والقصائد، بدعم وتشجيع من إدارة الكلية تلهبنا وتلهمنا... وأكسبتني بعض النجاح بإيصالي إلى رتبة رئيس اللجنة الخطابية في الكلية باللغة العربية»[١٠].

التجمع واللجان القومية وبدء الثورة ١٩٣٦:

مرت الثورة الكبرى في فلسطين، بالمراحل الأربعة التالية:

المرحلة الأولى ــ بداية الثورة. نيسان ــ آب ١٩٣٦.

المرحلة الثانية ــ الثورة بقيادة فوزي القاوقجي. آب ــ تشرين الأول ١٩٣٦.

---

(٩) اطلع واصف كمال على هذا النص ووافق عليه.

(١٠) رفعت النمر، تذكارات، ص ١. (مخطوط لم ينشر ولدى المؤلف نسخة منه). يشار إليه بعد الآن هكذا: رفعت النمر، تذكارات.

المرحلة الثالثة ــ الهدنة. تشرين الأول ١٩٣٦ ــ أيلول ١٩٣٧.
المرحلة الرابعة ــ الدور الأخير. أيلول ١٩٣٧ ــ أيلول ١٩٣٩.

انفجرت الثورة الكبرى في فلسطين في ١٥ نيسان ١٩٣٦، في أثر بضعة أحداث كان من أبرزها استشهاد المجاهد الشيخ عز الدين القسّام. وسرعان ما اتسعت رقعتها حتى شملت فلسطين كلها. بدأت الثورة بإعلان الإضراب العام المفتوح في جميع مرافق الحياة. وكان التجمع السري الفلسطيني قد تألف حديثاً. وبمبادرة منه تشكلت في مدينة نابلس «لجنة قومية» لدعم الثورة بكل الوسائل. فكانت أول «لجنة قومية» تشكلت لهذه الغاية في فلسطين[١١]. وما لبثت أن تشكلت «لجنة قومية» مشابهة في كل مدينة وبلدة عربية في فلسطين لتتولى قيادة الحركة الوطنية وتنظيمها في منطقتها. وتداولت جميع الأحزاب والفعاليات واللجان القومية بأمر الثورة، واتفقوا على ضرورة توحيد قيادة الحركة الوطنية في فلسطين كلها. وفي اجتماع عام عقده ممثلو تلك الأحزاب واللجان القومية والهيئات بمدينة القدس في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ تقرر إنشاء الهيئة الوطنية الموحدة التي اشتهرت باسم «اللجنة العربية العليا»، برئاسة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وعضوية كل من الزعماء السياسيين البارزين أحمد حلمي عبد الباقي أميناً للمال، وعوني عبد الهادي أميناً للسر، والدكتور حسين الخالدي، ويعقوب فراج، وعبد اللطيف صلاح، وألفرد روك، وجمال الحسيني، ويعقوب الغصين[١٢].

رافقت حركة الاضراب والتظاهر في المرحلة الأولى من الثورة غارات نظمها وقادها ضد القوات البريطانية والمواقع الصهيونية مجاهدون فلسطينيون انتشروا في معظم أنحاء البلاد. ولكن هذه الغارات لم تكن كثيفة، وذات تأثير كبير في الأسابيع الأولى. فالظروف السياسية، والمعطيات الطبيعية،

---

(١١) عجاج نويهض، مذكرات عجاج نويهض، ص ١٣٠.
(١٢) أكرم زعيتر، يوميات، ص ٧٦.

والإمكانات المادية، والأسلحة والذخائر لم تكن جميعها متوفرة بما فيه الكفاية للثوار الفلسطينيين. لذلك اعتمدوا أسلوب حرب العصابات البدائي البسيط. ومع أن أعمال الثوار أقلقت السلطات البريطانية وأزعجتها، فإن تأثيرها لم يكن بالغاً بالقدر الكافي. وبدا جلياً أن الثورة ستخمد وتتلاشى إذا ترك الفلسطينيون لوحدهم، وإذا لم ينجدهم إخوانهم العرب في كفاحهم ضد البريطانيين والصهيونيين.

٣ ـ المرحلة الثانية في الثورة: آب ـ تشرين الأول ١٩٣٦

الدعم الخارجي للثورة:

حظيت الثورة في فلسطين، خلال هذه المرحلة الثانية، بدعم خارجي من بضعة أطراف عربية، يذكر منهم بشكل خاص العراق وسوريا ولبنان والحركة العربية السرية. العراق دعم الثورة الفلسطينية بالمال، والرجال، والسلاح، وبالتأييد السياسي، وبتدريب المتطوعين سراً في معسكر الجيش العراقي في بغداد[١٣]، وكلف فوزي القاوقجي بقيادة الثورة، وأوفده إلى فلسطين على رأس فريق من المتطوعين العراقيين.

وفي سوريا ولبنان جرى تجنيد الرجال، وجمع التبرعات المالية، وشراء الأسلحة من مختلف المصادر وتهريبها عبر الحدود الدولية إلى الثوار، واستقبال اللاجئين الذين كانوا يضطرون إلى الهرب من فلسطين، وغير ذلك من وسائل الدعم وأساليب التأييد. وقام بدور فاعل في معظم هذه الأعمال التجمع السري الفلسطيني في الداخل، والحركة العربية السرية في الداخل وفي الخارج، من دون أن يكشف أي منهما عن هويته الخاصة للتنظيم السري الآخر.

---

(١٣) محمود الدرة، الحرب العراقية ـ البريطانية ١٩٤١، ص ١٣٠. (بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩). يشار إليه بعد الآن هكذا: محمود الدرة، الحرب العراقية ـ البريطانية.

دعم الحركة العربية السرية للثورة:

قبيل بدء ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦ بقليل، كانت الحركة العربية السرية قد تأسست في بيروت، وأنشأت فرعاً لها بدمشق. على رأسه عامل سوريا منير الريس. وكان قد انتسب إلى الحركة أيضاً عدد من الأعضاء الموزعين في فلسطين والعراق وأماكن أخرى، قبل أن ينشأ للحركة فروع رسمية في تلك الأماكن. ولما نشبت الثورة في فلسطين كانت الحركة في طليعة الأفرقاء الذين أيدوها منذ اللحظة الأولى. فقد قررت قيادة الحركة وضع كل إمكاناتها في خدمة الثورة. وتطوع للمشاركة في العمل الثوري عدد من أعضاء الحركة وقيادييها ونقط اعتمادها، مثل عز الدين الشوا ورشاد الشوا ومنير الريس وسواهم. ولعبت الحركة دوراً فاعلاً بمختلف جوانب الثورة، ومرحلة من مراحلها. وعندما قرر فوزي القاوقجي الالتحاق بالثورة وتولي قيادتها، وقفت الحركة إلى جانبه، وعمل متطوعوها تحت لوائه، وخضعوا لقيادته، من دون أن تتخلى الحركة عن التمسك بسريتها المطلقة، حتى ليقال إن القاوقجي نفسه لم يكن يعلم بوجودها. فقد كان أعضاؤها يعملون بالظاهر بصفتهم الشخصية، أو بصفتهم أعضاء في أحزاب وتنظيمات وطنية مختلفة، إمعاناً في التستر والتضليل.

ساهمت الحركة العربية السرية بنشر الدعوة إلى التطوع وجمع المتطوعين والأموال وشراء الأسلحة والذخائر من مختلف المصادر والأقطار لمدِّ الثورة بها. وكان للحركة جهاز منظم لاجراء الاتصالات، ونقل التقارير والتعلمات، وتبادل المعلومات والأخبار بين مراكز الحركة وفروعها الرئيسية وأعضائها المنتشرين في لبنان وسوريا والعراق وفلسطين. وقد ساعد هذا الجهاز فوزي القاوقجي في إجراء بعض الاتصالات السرية المتعلقة بالتحضير للثورة مع أفرقاء عديدين في فلسطين وخارجها. وكانت قيادة الثورة تحتاج إلى خبراء ووسطاء ذوي حنكة ودراية، ومخبرين سريين ماهرين. ويؤكد القاوقجي ذلك حيث يقول:

«وكان لا بد لي من وسطاء ـ إخفاءً لأثري ـ ممن أعتمد عليهم في مثل

هذه المهام، وليقوم كل منهم في ناحيته الخاصة بالتفاهم والاتفاق مع من يكونون أهلاً لهذه المهمة»[١٤].

وكان أعضاء الحركة خير من يتولون مثل هذه المهمات، ويؤتمنون على مثل هذه الأسرار. وقد وضعت الحركة بعضهم بتصرف القائد القاوقجي، فاعتمد عليهم، وقاموا بما أوكل إليهم من مهمات سرية بكل جدارة وأمانة.

فوزي القاوقجي قائد الثورة بمرحلتها الثانية:

ارتبط تاريخ هذه المرحلة الثانية من الثورة الكبرى في فلسطين باسم فوزي القاوقجي. وفوزي القاوقجي لبناني من مدينة طرابلس، نشأ في استنبول، وتخرج من معاهدها العسكرية، وتعين ضابطاً بالجيش التركي، واشترك بالحرب العالمية الأولى في جانب الأتراك. وبعد انتهاء الحرب مباشرة، وبناءً على رغبة الأمير فيصل، انضم إلى جيش الحكومة العربية السورية في دمشق، وخاض معركة ميسلون في تموز سنة ١٩٢٠. وفي أوائل عهد الانتداب عينه الفرنسيون آمراً لسرية الخيالة في حماه. ولما نشبت الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥، تخلى عن منصبه، وانضم إلى الثورة ضد الفرنسيين، حتى لفظت الثورة آخر أنفاسها في سنة ١٩٢٧، فلجأ إلى السعودية، ثم غادرها في سنة ١٩٣٢ إلى العراق، وعين أستاذ الفروسية بالمدرسة الحربية العسكرية الملكية في بغداد. واشترك مع بعض الرسميين والزعماء والسياسيين العراقيين والعرب في وضع خطة لإشعال الثورة في سوريا ولبنان لتحريرهما من الانتداب الفرنسي. واستملكت الاستعدادات، وكلف القاوقجي القيام بقيادة الثورة[١٥]. وفيما هو على وشك البدء بالتنفيذ،

---

(١٤) فوزي القاوقجي، فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨. إعداد خيرية قاسمية... جـ٢، ص ١١. (بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ومركز الأبحاث ودار القدس، ١٩٧٥). يشار إليه بعد الآن هكذا: فوزي القاوقجي، فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي.

(١٥) منير الريس، الكتاب الذهبي جـ٢، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

انفجرت الثورة في فلسطين في ١٥ نيسان سنة ١٩٣٦. فتقرر تأجيل تنفيذ الثورة في سوريا وتحويل الاهتمام إلى الثورة في فلسطين ضد الإنكليز واليهود، ومدها بما يلزم من مختلف وسائل الدعم والتأييد.

اختيار منطقة جنين مركزاً لقيادة الثورة:

كان من أهم ما قامت به «الحركة العربية السرية» في مساندة فوزي القاوقجي، تحديد الموقع الذي ستنطلق منه الثورة، وتتخذه مركزاً لإدارة عملياتها. وكان من الضروري أن تتوفر لهذا الموقع الشروط التي تؤمن للثوار وللثورة مقداراً من السلامة والتأييد والمساندة. وقد تم الاتفاق بين القاوقجي وبعض مسؤولي «الحركة» على اختيار منطقة «جنين» مركزاً ومنطلقاً للثورة: أولاً، لأنها تقع بوسط فلسطين، ويمكن للثورة أن تمتد منها إلى سائر الجهات، شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً. ثانياً، لأنه كان للحركة في هذه المنطقة وجود قوي مؤثر يمكنه أن يشكل درعاً للثورة وسنداً لها. فالقائم مقام بالمنطقة، عز الدين الشوا، عضو قيادي في «الحركة» ومناضل قومي واسع الحيلة وشجاع. فقد ارتضى أن تنطلق ثورة القاوقجي من منطقته، ووعد بتسهيل أمرها، ومدها بكل ما يستطيع من مساندة ومساعدة ومعلومات عن تحرك القوات البريطانية في منطقته، غير عابىء بما ينطوي عليه عمله هذا من مسؤولية كبيرة وخطر على مستقبله وحياته. وساعدت الحركة على تامين الاتصال بين القاوقجي والقائم مقام عز الدين الشوا في جنين. وتولى بعض الأدلاء والوسطاء الموثوقين من «الحركة» ومن نقط الاعتماد مرافقة القاوقجي ومساعدته على لقاء عز الدين الشوا.

اللقاء بين القاوقجي والشوا في جنين:

نجحت جميع الخطط التي اعتمدها فوزي القاوقجي في مرحلة التحضير والاستعداد لدخوله الثورة. وفي مطلع الأسبوع الأخير من شهر آب سنة ١٩٣٦ كان القاوقجي وجميع مفارز الثوار المتطوعين من غير الفلسطينيين قد تسللوا خفية عبر الحدود الدولية ووصلوا إلى فلسطين، واتخذوا مواقعهم بمنطقة جنين بانتظار صدور الأمر من القيادة العليا إليهم

ببدء القتال. وهنا يروي فوزي القاوقجي تفاصيل ما جرى له في المرحلة الحاسمة التي سبقت بدء القتال. وتظهر هذه التفاصيل ما أسدته إليه «الحركة العربية السرية» من مساعدة قيمة، فيقول:

«كان لزاماً عليّ قبل خوض المعارك أن أدرس طرز القتال الجاري بين الثوار الفلسطينيين والإنكليز، وأن أتفهم بالتفصيل الموقف العام في فلسطين من الوجهة السياسية والحربية والاقتصادية. وكنت على علم قبلاً بالأشخاص الذين يمكنني الاتصال بهم، والاعتماد عليهم، وبالأشخاص الذين يجب عدم الثقة فيهم. وكان من الضروري أن أسرع لمقابلة قائم مقام جنين [عز الدين الشوا] أحد من يعتمد عليهم... فتركت المعسكر ليلة ٢٧ [آب] على أمل التمكن من المواجهة والتفاهم والعودة قبل الصبح، دون أن أدع أحداً يعلم بمغادرتي سوى منير الريس [حركي]، قائد مفرزة حمص حماه، والذي أعتمد عليه كل الاعتماد. فتنكرت بزي تاجر زيت. ولما وصلت إلى قرية الوسيط الذي كان عليه أن يصحبني، أعلمني أنه لا يمكن الذهاب ليلاً بسبب قانون منع التجوّل، وأنه لا بد لنا من الانتظار في القرية حتى الصباح. وكانت قرية الوسيط قريبة من المديرية [جنين]. فأصبح الأمر مشكلاً في نظري: أولاً، قضية تغيبي عن المعسكر. ثانياً، من إمكان اكتشاف أمري في دخولي المدينة إذ كنت لم أحفل بالتنكر التام، فأبقيت السروال العسكري. ولكن لا بد من المواجهة. فدخلت المدينة حوالى الساعة التاسعة صباحاً، ممتطياً فرسي في أزقتها، ودخلنا سويةً على صاحبي في دائرته الرسمية، ولم يكد الوسيط يهمس في أذنه أنني فلان، حتى قفز من مكانه قفزة عصبية ولم يكن يتوقع مجيئي لعنده إلى دائرته، فصرف الوسيط وجلسنا، وإذا بالباب يطرق طرقتين فيفتح، وإذا بنا أمام منظر أعترف أنه كان رهيباً للغاية. وهو أن ضابطاً إنكليزياً برتبة كولونيل، يدخل ومن ورائه ضابطان (وقد علمت، فيما بعد، أنه كان قائد المنطقة العسكري والضابطان من ضباط البوليس). فتقدموا نحو صاحبي الذي ازداد دهشة واضطراباً. وظهر لي من عدم التكلف فيما بينهم أنهم كانوا أصدقاء وبدأ الحديث بالانكليزية، وإذا باسمي يتردد على لسان الكولونيل وإذا بالحيرة والارتباك يظهران على صاحبي. فتدخلت حالاً، وسألت صاحبي عما يقولون. فأجابني أنهم يسألون عن أخبار فوزي القاوقجي، وهل وصل إلى فلسطين أم لا؟ فقلت لصاحبي: إذن

فلنترك الحديث عن تجارة الزيت التي أتيت من أجلها، ولأحدثك عن فوزي القاوقجي، الذي أعرفه كل المعرفة. فقد كنت في بغداد منذ فترة حيث شاهدته مرتدياً لباسه العسكري في الجيش العراقي، وقد تركته فيها، ولا يمكن أن يأتي إلى فلسطين. فترجم الموظف كلامي إليهم، فقال الكولونيل: ولكن الأخبار الموجودة لدينا من بغداد ودمشق تؤكد لنا بأن فوزي القاوقجي ترك الجيش، وهو لا بد أن يكون الآن في فلسطين، وإذا لم يكن دخلها بعد فهو على وشك الوصول إليها. ولقد اتخذت التدابير اللازمة على حدود شرق الأردن ـ فلسطين، وشرق الأردن ـ العراق، للقبض عليه قبل دخولها.

فبينت لهم استحالة مجيء فوزي القاوقجي، ووصوله إلى فلسطين، بالنسبة إلى ما اتخذ من التدابير. فقال الكولونيل: إن الأخبار لا تدع مجالاً للشك عن عزمه وعن مجيئه. قلت: على تعرفونه؟ قالوا: لا ولكن لدينا كثير من صوره، وهذه إحداها. فتناولتها منه، فإذا بها إحدى صوري المأخوذة عن جواز سفري المزور بعد ثورة سوريا، الذي تمكنت به من السفر إلى مصر. وطلبت منهم إذا كان بإمكاني الاحتفاظ بهذه الصورة. لأساعدهم عند اللزوم. فقدمها إلي، فاحتفظت بها. وقمت مستأذناً صديقي، راجياً منه أن يسعى لي في تأمين كميات الزيت التي طلبت منه تسهيل مشتراها. ثم التفت إلى الضابط الإنكليزي ورجوت صاحبي أن يفهمهم أن مجيء فوزي القاوقجي إلى فلسطين مستحيل، وإذا جاء فيكون عمل المستحيل. وأسرعت إلى الوسيط، وامتطينا جوادينا وخرجنا من المدينة بين الجنود والشرطة.

رجعت إلى المعسكر بدون نتيجة. ولكنني قررت الاتصال بصديقي مرة أخرى في مكان آخر. فاجتمعت به اليوم الثاني في دار خاصة لأحد إخواننا الأطباء، وأخذت ما أردته من المعلومات والأخبار، وأُحِطت بالموقف العام من جميع نواحيه»[١٦].

مناطق القتال الرئيسية في الثورة:

بعد إجراء دراسة مفصلة لطبيعة منطقة جنين وجوارها، والاطلاع من

---

(١٦) فوزي القاوقجي، فلسطين في مذكرات القاوقجي، جـ٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

القائم مقام عز الدين الشوا وسواه من المستشارين والمخبرين على ما تهمه معرفته عن الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي العام في فلسطين، وضع فوزي القاوقجي خطة العمل استعداداً لخوض حرب ثورية شاملة. وهو يصف هذه الخطة في مذكراته، فيقول ما يلي:

«ولقد قسمت ميدان الثورة الرئيسي إلى ثلاث مناطق؛ المنطقة الأولى، تمتد شمال طريق طولكرم ـــ دير شرف، وغربي دير شرف ـــ جنين، وجنوبي وادي عرعرة. وعينت فخري عبد الهادي قائداً لهذه المنطقة. والمنطقة الثانية، جنوبي طريق دير شرف ـــ طولكرم، وغربي طريق دير شرف ـــ نابلس حتى السهول الغربية، وجعلت قائداً عليها عبد الرحيم أبو كمال يساعده عارف عبد الرزاق (من الطيبة)...، والمنطقة الثالثة هي التي تمتد شرقي طريق جنين ـــ نابلس، وكانت بقيادة الشهيد البطل الشيخ سلمان السعدي الصاتوري.

وكانت هناك، عدا المناطق الثلاثة، مناطق صغيرة مستقلة في حركاتها الخاصة. ولكننا كنا ربطناها بقيادة الثورة العامة، لتشترك حين الحاجة، بأن تقوم بأعمال تجلب عليها القوات الإنكليزية، فتشاغلها، وتمنعها من الاشتراك بالمعارك الكبرى التي تجري مع قواتنا الرئيسية. وكانت وسائل الارتباط قوية جداً بحيث لم تخطئ مرة في إيصال الأوامر إلى هذه المناطق التي لم تتخلف مرة عما طلب منها القيام به من الحركات والأعمال. وهذه المناطق كانت منطقة في الشمال، ومنطقة القدس، ومنطقة الخليل، ومنطقة عكا، ومنطقة حيفا، ومنطقة المزار الواقعة بين بيسان وجنين بقيادة الشيخ فرحان الدرع...

وكانت لي تشكيلات سرية خاصة في كافة مدن وقرى فلسطين تمونني بالأخبار الصادقة، وقامت هذه التشكيلات بأعظم الخدمات التي يجهلها الكل»[١٧].

أعضاء التجمع السري الفلسطيني ينضمون إلى الثورة:

أنهى فوزي القاوقجي تنظيم قواته، وأتمّ الاستعدادات اللوجستية

---

(١٧) فوزي القاوقجي، فلسطين في مذكرات القاوقجي، جـ ٢، ص ٢٧ ـ ٣٠.

الضرورية خلال بضعة أيام. وفي مطلع أيلول بدأت الاشتباكات العنيفة بين الثوار والقوات البريطانية. وشاركت عناصر التجمع السري الفلسطيني بالأعمال العسكرية في سائر المناطق والجبهات الرئيسية المذكورة أعلاه. ذلك، أنه عندما نشبت الثورة في أواسط نيسان قررت قيادة التجمع السري مساندة الثورة، وحثت الأعضاء على التطوع والانخراط في فصائل الثوار. فلبى الدعوة عدد من قادة التجمع وأوسعهم نشاطاً في فلسطين. ويصف أحدهم، واصف كمال، في مذكراته، كيف انه هو وبعض رفاقه لبوا نداء الواجب القومي، واستجابوا لقرار التجمع السري، وتطوعوا منذ نشوب الثورة، وانضموا إلى فصائل الثوار في مختلف الجبهات.

ويقول واصف كمال في مذكراته بهذه الخصوص ما يلي:

فاخترت أنا أن ألتحق بالمجموعة التي تعمل في المنطقة الشمالية، صفد وعكا وحيفا والجليل بكامله، والتي يقود حركتها القسّامون [مجموعة الشهيد عزّ الدين القسّام]. وقرر المرحوم الأخ ممدوح السخن أن يلتحق بمنطقة طولكرم مستشاراً أو معاوناً للمرحوم أبو كمال عبد الرحيم الحاج محمد. وقام الأخ المرحوم فريد يعيش يعمل مستشاراً للمجاهد عارف عبد الرزاق. وتمكن الأخ الصديق أحد أعضاء «الحركة» [والتجمع السري] السيد رشاد الشوا بالعمل مع المجاهدين في منطقة الجنوب.

شاركنا بالعمل الثوري بحمل السلاح تحت أسماء مستعارة؛ كنت أحمل اسماً مستعاراً باسم «أبو محمود»، ولا يعرف اسمي الحقيقي إلا قائد الثورة أبو إبراهيم الكبير... وكان الأخ ممدوح [السخن] أيضاً أخذ اسماً هو اسم «أبو محمود» وكانوا يقولون «أبو محمود الكبير» و«أبو محمود الصغير»، كعادة القسّامين أبو إبراهيم الكبير وأبو إبراهيم الصغير. في هذه الأثناء تمكنت الحكومة البريطانية من إلقاء القبض على المرحوم الأخ فريد يعيش وساقته إلى سجن عكا، وهناك بقي مريضاً في حالة خطرة إلى أن أفرج عنه»[١٨].

ولم تقتصر المشاركة الفعلية بالثورة الفلسطينية الكبرى على أعضاء

---

(١٨) واصف كمال، مذكرات، الحديث الثاني، ص ١٣.

التجمع السري الفلسطيني الأصليين فحسب، بل شملت أيضاً كثيرين من العناصر التي كان التجمع السري يوجهها ويدربها على النضال الثوري. مثال ذلك ما ذكره رفعت النمر في «تذكاراته» عن ثورة ١٩٣٦ من أن التوجيه القومي الذي خضع له وهو فتى، والتدريب على استخدام السلاح، ومصاحبة قوميين مخلصين شجعان مثل أستاذيه في كلية النجاح بنابلس واصف كمال وممدوح السخن، كانت من أهم العوامل، يقول رفعت النمر، التي:

«دفعتني وبعض الأصدقاء للالتحاق في طريق نضال مسلح مع حركة الثوار في فلسطين. وكنت قد التحقت بمجموعة القائد المرحوم عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال) حيث اشتركت معه في عدة معارك ضد الانتداب البريطاني، أذكر منها معركة «دير شرف»، ومعركة «وادي التفاح» في الطرف الغربي من نابلس»[١٩].

تميزت هذه المرحلة الثانية في الثورة الفلسطينية بوحدة القيادة، وبالخسائر التي منيت بها القوات البريطانية. فقد خاض الثوار بقيادة «قائد الثورة العربية العام» في سوريا الجنوبية «فوز الدين القاوقجي»[٢٠] خلال أربعين يوماً، ابتداءً من مطلع أيلول حتى الحادي عشر من تشرين الأول سنة ١٩٣٦، بضع معارك ضارية في مواقع بلعا، وجبع، ونابلس، وبيت أمرين، وكفر عبوش، وغيرها، فصمدوا وكبدوا القوات البريطانية خسائر بالأرواح لم يكن البريطانيون يتوقعونها.

قرار وقف إطلاق النار:

في الوقت الذي كان فيه القتال محتدماً بين الثوار الفلسطينيين

---

(١٩) رفعت النمر، تذكارات، ص ٢٢.

(٢٠) هكذا كان القاوقجي يوقع البلاغات الرسمية الصادرة عن مجلس القيادة العامة. يراجع: زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد بطل وثورة، صفحات مشرقة من تاريخ النضال الفلسطيني إبان ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، (الأردن ـ الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع والنشر، ١٩٧٤)، ص ٣٨، ٣٣، ٤٠. يشار إليه بعد الآن هكذا: زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد.

والقوات البريطانية جرت اتصالات دبلوماسية بين بعض الحكام العرب والحكومة البريطانية لتسوية القضية الفلسطينية سلمياً. وتمَّ الاتفاق على تعليق الثورة ووقف إطلاق النار، وإنهاء الإضراب العام الذي كان قد مر عليه ستة أشهر، وإرسال لجنة تحقيق ملكية بريطانية إلى فلسطين لدرس الوضع ميدانياً، واقتراح حلٍ عادل شامل للقضية الفلسطينية برمتها. ووافقت القيادة السياسية الفلسطينية المتمثلة باللجنة العربية العليا برئاسة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني. ويروي قائد الثورة فوزي القاوقجي في مذكراته كيف جرى إعلان هذا الاتفاق وتنفيذه، فيقول:

«فقد كنت انتقلت بالجيش بعد معركة كفر عبوش ليلة ١١ ـــ ١٠ ـــ ٣٦ شمالاً... وقبل طلوع الشمس وصلنا جبال بلعا واتخذنا ترتيباتنا فيها كالمعتاد. وبينما كنت أفتش مراكزنا إذا بنيران غزيرة تطلق من جهة الشمال ثم عمَّت الشرق والغرب وكافة القرى. فدهشت، لكن أهازيج النساء طمأنتني. ثم علمنا أن الإنكليز أعلنوا الهدنة، كما أن اللجنة العربية العليا أعلنت فك الإضراب، فزادت دهشتي لإقدام اللجنة على ذلك بدون إطلاعي وأخذ رأيي... حتى فوجئنا بإعلان الهدنة من قبل الإنكليز وبنداء ملوك العرب [الملك عبد العزيز آل سعود، والملك غازي ملك العراق، والأمير عبد الله أمير شرق الأردن] على لساني بالراديو دون أن يكون لي سابق اطلاع. وهذه أول خطيئة كبرى ارتكبت منذ إعلان الثورة»(٢١).

وفي أثر ذلك، صدر عن القيادة العامة للثورة» بتوقيع القائد العام فوزي القاوقجي البلاغ رقم ١٦، وقد استهل هكذا:

«إلى عموم المجاهدين في المناطق والميادين في سوريا الجنوبية ـ فلسطين. تلبية لنداءات ملوكنا وأمرائنا العرب، ونزولاً عند طلب اللجنة العربية العليا في القدس، نطلب توقيف أعمال العنف تماماً، وعدم التحرش بأي شيء يفسد جو المفاوضات التي تأمل فيها الأمة العربية الخير، ونيل حقوق البلاد كاملة»(٢٢).

---

(٢١) فوزي القاوقجي، فلسطين في مذكرات القاوقجي، جـ ٢ ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢٢) زياد عوده، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٥٧

وعطفاً على البلاغ المذكور أعلاه جاء في بلاغ لاحق يحمل الرقم ١٨ والتاريخ ٢٢ ـ ١٠ ـ ما يلي:

«إن قضية فلسطين المقدسة بعد نداء ملوكها وامرائها العرب، وتعهدهم ضمانهم في إنالة البلاد حقوقها، أصبحت قضية عربية وقضية كرامة وشرف للملوك والأمراء وللأمة العربية كافة، وأصبح كل فرد عربي مشترك في هذه القضية، ومجبر على الدفاع عن هذه الكرامة وهذا الشرف...»[٢٣].

لهذا ترى قيادة الثورة، اعتماداً على ضمانة الملوك والأمراء، وحفظاً لسلامة المفاوضات، ولعدم جعل أية ذريعة للخصم يتذرع بها للعبث في الحقوق المضمونة، أن يترك الميدان مرابطاً بجميع قوات الجيش بعد أن لم يبق له أي عمل»[٢٤].

ولأنه لم يبق لفوزي القاوقجي و«جيشه» أي عمل، كما يقول هو في بلاغه الرسمي، اضطر هو وجميع المتطوعين العرب غير الفلسطينيين إلى مغادرة الأراضي الفلسطينية معه عائدين إلى أوطانهم عن طريق إمارة شرق الأردن. فخلت الساحة منهم وعاد الهدوء النسبي إلى فلسطين، وانتهت بذلك المرحلة الثانية من مراحل الثورة، وبدأت مرحلة جديدة، يمكن تعريفها بأنها «مرحلة الهدنة» وقد تطلعت فيها الأنظار، وتعلقت الآمال على لجنة التحقيق الملكية البريطانية برئاسة اللورد بيل Peel، والمشهورة باسم «لجنة بيل» والتي عينتها حكومة لندن لتدرس المسألة الفلسطينية وتقدم الاقتراحات المناسبة لحلها.

٥ ـ المرحلة الثالثة في ثورة فلسطين ـ مرحلة الهدنة ـ تشرين الأول ١٩٣٦ إلى أيلول ١٩٣٧

تأسيس الحركة العربية السرية في فلسطين:

بعد إعلان الهدنة ووقف إطلاق النار، وفك الإضراب ـــ غادر فوزي

---

(٢٣) زياد عوده، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٥٩.

(٢٤) المصدر ذاته، ص ٥٩ ـ ٦٠.

القاوقجي ورجاله المتطوعون الأراضي الفلسطينية وعادوا إلى أوطانهم في العراق وسوريا ولبنان. وكان أول حدث بارز جرى بعد ذهابه مباشرة، تأسيس الحركة العربية السرية في فلسطين. فعند تأسيس التجمع السري الفلسطيني في نابلس بأواخر سنة ١٩٣٥، لم يشأ عرابه فريد زين الدين أن يبوح له بوجود الحركة العربية السرية في بيروت، قبل أن يختبره، ويقتنع بجديته وتصميم أركانه على الثبات. وبعد أن أيد أركان التجمع السري الثورة بقوة، وانضموا إلى صفوفها، وقاتلوا إلى جانب الثوار ضد الإنكليز واليهود، وبرهنوا عن جديتهم وإخلاصهم، اطمأن فريد زين الدين على مصداقية التجمع وتصميمه وثباته، وشاء قبل مغادرته نابلس أن يربط التجمع بالحركة، ففاتح أركانه بموضوع الحركة العربية السرية حسبما ذكر واصف كمال في مذكراته حيث يقول:

«أخبرنا الأخ الدكتور فريد أن حركة مماثلة قامت في لبنان، وهي تحمل نفس المبادىء، وتتكون من مجموعة من رجالات لبنان المشهورين في إيمانهم القومي، وفي مقدمتهم الدكتور قسطنطين زريق، والمرحوم فؤاد مفرج، والمرحوم كاظم الصلح، والمرحوم تقي الدين الصلح، والأخ عادل عسيران، وآخرين، أخبرنا الأخ فريد بوجود هذا التجمع، وأنه يحمل نفس الأهداف التي نحملها»[٢٥].

اقترح فريد زين الدين، على زملائه أعضاء التجمع السري الفلسطيني، إدخال التجمع في الحركة وتوحيدهما، فوافق الأعضاء على ذلك بالإجماع. وتولى فريد زين الدين إجراء الاتصالات التمهيدية بين نابلس وبيروت، فتكلّلت مساعيه بالنجاح، وتقرر عقد اجتماع يضم مندوبين مفوضين من قيادتي الطرفين، للتعارف وللاتفاق المبدئي على شروط الاندماج وتفصيل العلاقة المرغوبة إقامتها بين «التجمع» و«الحركة». وكلف فؤاد مفرج من قبل قيادة الحركة، وواصف كمال من قبل «التجمع» بإعداد الترتيبات للاجتماع المزمع عقده قريباً. فكتب فؤاد مفرج إلى واصف كمال بهذا الخصوص رسالة «شيفرة» يتعلق باطنها بتحديد زمان الاجتماع ومكانه وغايته، أما

(٢٥) واصف، مذكرات، الحديث الثاني، ص ١٢.

ظاهرها فخادع ومموه عمداً بقصد التضليل، انسجاماً مع مبدأ المحافظة على السرية التامة في كل ما يتصل بالحركة. وفيما يلي نص الرسالة المذكورة.

«بيروت، ٢٢/٤/٣٧

أخي الاستاذ واصف كمال حفظه الله

تحية صادقة

وبعد لقد تلقيت رسالتك بشأن الكتاب الذي كنت عرضته على المدرسة عندكم وسررت جداً بمضمونه. والواقع أني لم أكن أنتظر غير هذا لما تعرفه من الثقة المتبادلة بيننا. وقد نقلت الخبر إلى الزملاء هنا، فوقع من نفوسهم موقعاً حسناً.

تذكرون أنه من الحسن أن نجتمع قريباً لإنهاء الاتفاق حتى يتاح تطبيق الأمر قريباً، والشروع بتدريس الكتاب منذ السنة المدرسية القادمة. وهذا ما أتمناه أنا أيضاً. فما رأيكم أن يكون الموعد يوم السبت الواقع في ٨ أيار والأحد في ٩؟ إن بعض الزملاء ليست لديهم جوازات سفر فهل بالإمكان أن نلتقي في صيدا مثلاً؟ إذا لم يكن ذلك متيسراً بسهولة فليكن في حيفا كما تريد. وعسى أن ننهي كل شيء هناك.

جميع الإخوان هنا يسلمون عليكم. أرجو تبليغ سلامي الخاص لجميع الزملاء عندكم. وإلى اللقاء قريباً. على أمل أن أتلقى جواباً قريباً منكم. واسلم للمخلص

فؤاد خليل مفرج»[٢٦].

اجتماع حيفا وتأسيس الحركة في فلسطين:

عقد الاجتماع في حيفا يومي السبت والأحد في الثامن والتاسع من أيار سنة ١٩٣٧، وحضره ممثلو «الحركة» قسطنطين زريق وفؤاد مفرج وعادل عسيران، وممثلو التجمع الفلسطيني واصف كمال وفريد السعد

(٢٦) الملحق رقم ٢، ص ٤٣٢.

وفريد يعيش[٢٧]، وانتهى الممثلون إلى الاتفاق على دمج «التجمع» «بالحركة» وتوحيدهما. وبعد أن أقرت قيادتا الهيئتين ما توصل إليه المندوبون في اجتماع حيفا، جرت إعادة تنظيم مجلس قيادة «الحركة» المركزي في بيروت، فانضم إليه من الجانب الفلسطيني واصف كمال متولياً منصب «ركن الداخلية» وكل من خلوصي الخيري، وممدوح السخن، وفريد يعيش[٢٨]. وكان هؤلاء الأعضاء يغادرون فلسطين ويتوجهون إلى بيروت للاشتراك بالاجتماعات الرسمية لمجلس القيادة في مقره. وعلى الأثر جرى تنظيم هيكلية «الحركة» في فلسطين، وبُوشر بتأسيس الخلايا والمديريات والمعتمديات في مختلف أنحائها. فعين مجلس القيادة فريد السعد «عاملاً» للحركة وممثلها في فلسطين. وتوزعت المسؤولية عن رعاية مجموعات الخلايا في المناطق على الشكل التالي: ممدوح السخن بمنطقة نابلس، وخلوصي الخيري بمنطقة الرملة، والدكتور يوسف هيكل رئيس بلدية يافا بمنطقة يافا، ورشاد الشوا بمنطقة غزة، وعز الدين الشوا بمنطقة جنين حيث كان يُشغل منصب قائم مقام المنطقة، وفريد السعد بمنطقة حيفا.

البريطانيون يخرقون الهدنة:

وصفت هذه المرحلة الثالثة بأنها مرحلة الهدنة. ولكن الطرفين البريطاني والعربي، لم يلتزما بشروطها التزاماً كاملاً. فقد خرق البريطانيون الهدنة عندما قاموا بحملة واسعة لاعتقال أبرز قادة الثورة ومناصريها من الفلسطينيين الوطنيين لمحاكمتهم ومعاقبتهم والتخلص من خطرهم. فاضطر هؤلاء إلى الاختباء داخل فلسطين، أو إلى مغادرة البلاد سراً، واللجوء إلى أحد الأقطار العربية القريبة. وكان في مقدمة المطلوبين عضو الحركة العربية

---

(٢٧) هذا ما جاء في الكلمة التي ألقاها واصف كمال في الحفل التذكاري الذي أقيم بنادي خريجي الجامعة الأميركية في بيروت في ١٢ أيلول ٢٠٠٠ بمناسبة مرور شهر على وفاة قسطنطين زريق.

(٢٨) هذا ما أدلى به واصف كمال للمؤلف في لقاء بينهما جرى في نهار الخميس، ٢٥ أيلول ١٩٩٧.

السرية وقائم مقام منطقة جنين عز الدين الشوا. وقد روت لي ابنته السيدة مليكة الشوا خورشيد، قصة هربهم من فلسطين على عجل بعيد إعلان وقف إطلاق النار، ومغادرة فوزي القاوقجي إلى الأردن. لقد اخبرتني أنه في أحد الأيام من شهر تشرين طرق بابهم حوالى منتصف الليل ضابط عربي في شرطة فلسطين، اختلى بوالدها بعض الوقت، وأسر إليه أنه مطلوب من السلطة، وأن اعتقاله سيجري في وقت قريب جداً، وأشار عليه بأن يتدبر أمره بالسرعة القصوى ويختفي قبل الصباح. فأيقظ عز الدين جميع أفراد أسرته، وحملوا معهم ما استطاعوا من متاع ضروري، وغادروا منزلهم في جنين ليلاً، ولجأوا إلى دمشق حيث حلوا في ضيافة رفيق لوالدهم في الحركة العربية السرية من آل السادات بضعة أيام، ثم انتقلوا للإقامة في بيروت(٢٩). وللأسباب ذاتها، وفي الظروف عينها، فر متخفياً من فلسطين أحد قادة الثورة البارزين عبد الرحيم الحاج محمد في ٢٣ تشرين الأول ١٩٣٦ والتجأ إلى دمشق(٣٠). هكذا بدأت في السنة ١٩٣٦ حركة فرار المناضلين الوطنيين الفلسطينيين من ديارهم، واللجوء إلى أقطار لا تطالهم فيها أجهزة الأمن البريطاني مثل سوريا ولبنان والعراق. وقد اتسعت هذه الحركة واشتدت تدريجياً ما بين ١٩٣٧ و١٩٤٠ لأسباب سنبينها لاحقاً.

وساهم البريطانيون في زيادة شكوك العرب ومخاوفهم بقيامهم أثناء الهدنة باستقدام أعداد كبيرة من الجنود، وكميات وفيرة من الذخائر والأعتدة الحربية من مصر، ومن بريطانيا ذاتها، وعززوا بها حامياتهم وقدراتهم العسكرية في فلسطين.

وكذلك لم تلتزم بالهدنة في الجانب العربي مجموعات محدودة غير منضبطة، لأن عناصرها لم يثقوا بحسن نوايا الإنكليز، واعتبروا الهدنة خدعة، الغرض منها تصفية الثورة، وإنهاء الإضراب، وإحداث الشقاق في الصف

---

(٢٩) في مقابلة مع السيدة مليكة الشوا خورشيد جرت في بيروت نهار الخميس ٢٩ آذار سنة ١٩٩٩.

(٣٠) زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٦٦.

الوطني. وكان دليلهم على ذلك ما كان يقوم به البريطانيون من ملاحقة الزعماء والقادة الوطنيين، ومن تعزيز لقواتهم العسكرية في فلسطين. لذلك كان هؤلاء الرافضون للهدنة يشنون الغارات على مواقع البريطانيين، كلما سنحت الفرصة لهم لذلك.

لجنة بيل (peel) توصي بتقسيم فلسطين:

إن لجنة بيل الملكية، المكلفة درس المسألة الفلسطينية، واقتراح الحلول المناسبة لها باشرت عملها فور إعلان وقف إطلاق النار في تشرين الأول سنة ١٩٣٦. فراجعت ملف المسألة في لندن، ثم انتقلت إلى فلسطين، وأجرت دراسة ميدانية للموضوع واستطلعت آراء العرب واليهود، وصاغت نتائج استقصاءاتها واقتراحاتها المحددة في تقرير مفصل رفعته إلى الحكومة البريطانية، ونشر في ٧ تموز ١٩٣٧. أوصت اللجنة في تقريرها: أولاً، بإقامة دولة يهودية مستقلة في المنطقتين الشمالية والغربية من فلسطين، وثانياً، بضم المنطقة الجنوبية إلى إمارة شرق الأردن لتكون الدولة العربية الموازية. وثالثاً، بإبقاء القدس وبيت لحم وممر يربطهما بالبحر الأبيض المتوسط قرب يافا، تحت الانتداب البريطاني[٣١]. فرفض العرب واليهود على السواء هذا المشروع التقسيمي.

مؤتمر بلودان ٨ ــ ١٠ أيلول ١٩٣٧:

أحدث تقرير «لجنة بيل» خيبة أمل كبيرة للفلسطينيين وللعرب جميعاً. وردت عليه «لجان الدفاع عن فلسطين» في مختلف الأقطار العربية بعقد مؤتمر قومي في مصيف بلودان بسوريا من ٨ ــ ١٠ أيلول سنة ١٩٣٧. ضم المؤتمر نحواً من ٥٠٠ شخصية من كبار المشتغلين بالقضية العربية في

---

(٣١) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي تحت الإدارة البريطانية، (بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦) ص ٣٩ ـ ٤٠. يشار إليه بعد الآن هكذا: فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي.

مختلف الأقطار[٣٢] وأعلن المؤتمرون رفضهم المطلق لما تضمنه تقرير «لجنة بيل»[٣٣]، وتمسكهم بالمطالب العربية المعروفة بشأن فلسطين [٣٤]. ودعوا الحكومات والشعوب العربية إلى دعم القضية الفلسطينية والوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني في كفاحه. وقد لعبت «الحركة العربية السرية» دوراً رئيسياً في الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر، وفي تنظيمه وإدارته[٣٥].

اغتيال حاكم منطقة الجليل البريطاني:

أحيت مقررات مؤتمر بلودان الأمل في نفوس الفلسطينيين، وشجعتهم على العودة إلى اعتماد القوة سبيلاً ضد السياسة الاستعمارية البريطانية والأطماع الصهيونية. وتجددت المواجهة بين الثوار والقوات البريطانية، وأخذت الاشتباكات تتسع وتزداد ضراوة وعنفاً. ونجحت عناصر من الثوار «القسّاميين» في اغتيال حاكم منطقة الجليل البريطاني المستر أندروز بمدينة الناصرة في ٢٦ أيلول سنة ١٩٣٧. فكان وقع هذا الحادث بالغ الشدة على الجانب البريطاني وقرر القيام بحملة عسكرية حازمة شاملة ضد الثوار والزعماء الوطنيين الذين يقفون وراءهم ويمدونهم بالعون والتأييد، انتقاماً لاغتيال الحاكم اندروز وإنقاذاً لهيبة السلطات المدنية والعسكرية البريطانية التي هزها حادث الاغتيال هزاً عنيفاً ونال من هيبتها وعنفوانها.

وقد انتهت بهذا الحادث المرحلة الثالثة، مرحلة الهدنة، من مراحل الثورة الفلسطينية وبدأت المرحلة الرابعة والأخيرة التي امتدت من أيلول ١٩٣٧ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩. وتميزت هذه المرحلة بالشدة والعنف وشهدت نهاية الثورة.

---

(٣٢) فؤاد مفرج، المؤتمر العربي القومي في بلودان، ص ٢١ ـ ٣٥.
(٣٣) المصدر ذاته، ص ٣.
(٣٤) المصدر ذاته، ص ١٩.
(٣٥) يراجع ما ذكر عن مؤتمر بلودان في الفصل الرابع بعنوان الحركة العربية السرية في سوريا.

٦ ـ ثورة فلسطين ـ المرحلة الرابعة
أيلول ١٩٣٧ ـ أيلول ١٩٣٩

ردة فعل بريطانيا على اغتيال حاكم الجليل:

جاءَت أول ردة فعل بريطانية على اغتيال حاكم لواء الجليل أندروز بعد خمسة أيام على وقوع الحادث. فقد أذاعت حكومة فلسطين في مطلع تشرين الأول ١٩٣٧ بياناً انطوى على التهديد والوعيد، جاء فيه قولها، أنها «**وجدت من الضروري أن تتخذ التدابير ضد الأشخاص الذين كانوا يقومون بأعمال ضارة بالأمن العام في فلسطين، فيجب اعتبارهم مسؤولين أدبياً عن حملة الإرهاب والتقتيل**»[٣٦]. فكان هذا البيان الشرارة التي أشعلت نار الثورة من جديد، لأن البريطانيين أتبعوه بإجراءات قمعية واسعة ضد المناضلين الفلسطينيين، ولأن هؤلاء ردوا على هذه الإجراءات الانتقامية بإشعال نار الثورة مجدداً في معظم أنحاء البلاد.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الحركة العربية السرية عادت هي أيضاً إلى المشاركة بالثورة، إن كان في اللجان القومية المنتشرة في سائر أنحاء فلسطين، أم في مناطق القتال. فقد عاد واصف كمال إلى منطقة الجليل مع القسّاميين، وفريد يعيش إلى منطقة نابلس مع القائد عارف عبد الرزاق، ورشاد الشوا إلى منطقة الجنوب، ولازم ممدوح السخن القائد العام عبد الرحيم الحاج محمد بمنطقة المثلث نابلس ــ طولكرم ــ جنين، بصفته مستشار القائد العام السياسي والإداري. وفي الوقت ذاته كان «الحركيون» في سوريا ولبنان، وبشكل خاص منير الريس وعز الدين الشوا، بالتعاون مع الزعيم الفلسطيني الوطني عزة دروزة مدير «اللجنة المركزية للجهاد» في دمشق، يبذلون أقصى الجهود لجمع التبرعات، وشراء السلاح والذخائر والعتاد، وتهريبها عبر الحدود الأردنية والسورية واللبنانية إلى الثوار داخل فلسطين.

---

(٣٦) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٣٤.

تصميم البريطانيين على إخماد الثورة:

إذا كان اغتيال حاكم الجليل أندروز قد أثار غضب البريطانيين، فإن تجدد الثورة أقلقهم وأخافهم. لذلك صممت حكومة فلسطين البريطانية على إخماد الثورة كلياً، وتفكيك وحدة الحركة الوطنية والتنكيل برجالاتها وتعطيل عملها بأسرع وقت وبأي ثمن كان.

ارتكزت الخطة التي رسمتها السلطات البريطانية لتصفية الثورة نهائياً على عنصري العنف والإرهاب، تشهد على ذلك الأساليب القمعية العنيفة التي مارستها قواتها المسلحة في التصدي للثوار، وفي إرهاب المواطنين المدنيين المتعاطفين معهم. وكانت أول خطوة اتخذتها في هذا السبيل، حل اللجنة العربية العليا، واعتقال أعضائها ونفيهم إلى جزيرة سيشل في المحيط الهندي. وقام المندوب السامي البريطاني بعد ذلك بإصدار بلاغ رسمي وعد فيه بأن:

«تعطي حكومة فلسطين مكافأة لكل من يقدم إخبارية تؤول مباشرة إلى القبض على الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه»[٣٧].

تضمن الجدول ٢٢ اسماً من أسماء قادة الثوار، والحركة الوطنية، وتفاوتت المكافأة، حسب أهمية الشخص في العمل الثوري، وتراوحت ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جنيه استرليني ثمناً لرأس الثائر الوطني الواحد[٣٨]. أما المكافأة المرصودة لمن يرشد إلى قاتل حاكم الجليل أندروز فقد بلغت عشرة آلاف جنيه[٣٩]. وقد نشر هذا البلاغ بجريدة «الشباب» بتاريخ ٢٣ شباط سنة ١٩٣٨[٤٠].

وتضمنت الخطة تفتيش منازل المواطنين الذين تشتبه السلطة بأنهم يأوون فيها الثوار، أو يخفون الأسلحة. ويصف أحد المعاصرين كيفية إجراء التفتيش، فيقول:

---

(٣٧) زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٧٣.

(٣٨) المصدر ذاته، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٣٩) المصدر ذاته، ص ٧٤.

(٤٠) المصدر ذاته، ص ٧٤.

«كانت السلطة البريطانية حينما تشتبه بقرية ما تأمر حالاً بذهاب قوة كبيرة من الجند والبوليس بدباباتها ومدافعها الرشاشة وكامل أسلحتها إلى القرية... ومن ثم يأخذ الجنود بتفتيش بيوت القرية بين فزع النساء وعويل الأطفال، فيبعثرون محتوياتها ويحطمون آنيتها المملوءة بالسمن والزيت والحبوب ومختلف أنواع الأغذية. وفي انتهاء التفتيش يطلق الجند المدافع في الفضاء للإرهاب»[٤١].

وبالإضافة إلى ذلك كانت السلطة العسكرية تقوم بتفجير وتدمير منازل الثوار، ومن يثبت على أصحابها أنهم يتعاملون معهم. وقد فجرت ودمرت مئات المنازل في المدن والقرى في مختلف أنحاء فلسطين. وقد دمرت منزل القائد عبد الرحيم الحاج محمد في قريته «عنابة» بالقرب من مدينة طولكرم مرتين[٤٢].

أما الثوار الذين كانوا يقعون في الأسر بيد السلطات العسكرية البريطانية فكانوا يقدمون للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية. وقد أصدرت هذه المحاكم عشرات الأحكام بالإعدام، وخلال سنة ١٩٣٨ وحدها صدق القائد العام على ٥٤ حكماً بالإعدام ونفذت بالمحكومين[٤٣].

وتضمنت الخطة أيضاً مهاجمة تشكيلات الثوار بقوات كبيرة، وعزل بعضها عن البعض الآخر، واستفراد كل تشكيل منها على حدة، وتطويقه بقوات من الجند مزودة بمختلف أنواع الأسلحة، ومدعومين بطائرات سلاح الجو الملكي البريطاني. إلى غير ذلك من أساليب البطش والإرهاب.

نزوح القادة الوطنيين عن فلسطين:

في هذه الحال وجد قادة الحركة الوطنية والنضال أن بقاءهم في فلسطين لا يفيد، بل يعرضهم للخطر دون طائل، ويحد من قدرتهم على التحرك والعمل الوطني المجدي. لذلك قرر معظمهم مغادرة البلاد. وتسللوا

---

(٤١) زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد، ص ٢٠.

(٤٢) المصدر ذاته، ص ٢١.

(٤٣) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٣٥.

خلسة عبر الحدود، ولجأوا إلى أقطار عربية مجاورة. وكان في طليعة النازحين وأوائلهم المفتي الحاج أمين الحسيني. فقد تمكن من الفرار متنكراً من مقر اعتصامه بالحرم الشريف بالقدس في ١٣ تشرين الأول ١٩٣٧، وقصد يافا، وأبحر منها ليلاً، في زورق خاص متوجهاً شمالاً. وبدخول الزورق المياه الإقليمية اللبنانية اعترضه أحد زوارق خفر السواحل واقتاده إلى بيروت، وسلم المفتي الحسيني إلى إدارة الأمن العام الفرنسي. ومنحه الفرنسيون حق اللجوء السياسي، والإقامة في لبنان، وليس في دمشق كما كان يرغب(٤٤)، تحت مراقبة أجهزة الأمن العام. وما لبث أن تبعه للاقامة في لبنان عدد كبير من أتباعه وأنصاره الفلسطينيين.

بعد فرار المفتي الحاج أمين الحسيني اشتدت حركة النزوح عن فلسطين بصورة تدريجية تصاعدية، واستمرت من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠. فقد غادرها معظم الأشخاص المعروفين بمواقفهم الوطنية ونشاطهم السياسي.

نزوح قادة الحركة العربية السرية عن فلسطين:

ومع أن أعضاء الحركة العربية السرية، الذين انخرطوا بالثورة منذ بدايتها، واشتركوا في مراحلها الثلاث استمروا في ذلك إلى ما بعد اغتيال الحاكم اندروز، فإنهم اضطروا أخيراً كسواهم من الوطنيين المناضلين إلى الهرب من فلسطين، مثل، واصف كمال وفريد يعيش وعز الدين الشوا(٤٥)، ورشاد الشوا وسواهم. وتوزع أكثرهم لاجئين إلى سوريا ولبنان والعراق. وإن قلة منهم لجأوا إلى أقطار أخرى مثل السعودية والكويت. أما الحركي

---

(٤٤) أكرم زعيتر، يوميات، ص ٣٣٧. وفيها قصة هرب المفتي أمين الحيسني من القدس إلى لبنان.

(٤٥) كان عز الدين الشوا قد هرب وعائلته من فلسطين في أثر وقف اطلاق النار في تشرين الأول سنة ١٩٣٦ واستقر في لبنان. ثم عاد وحده متنكراً إلى فلسطين. وبقي فيها متخفياً إلى ما بعد اغتيال الحاكم أندروز. ثم اضطر إلى الهرب منها مجدداً، وكان هربه هذه المرة برفقة واصف كمال متنكرين، وقصدا دمشق. يراجع: واصف كمال، مذكرات، الحديث الثاني، ص ١٠ ـ ١١.

الديناميكي ممدوح السخن، فقد بقي في نابلس متخفياً لتأمين الاتصال بين الثورة داخل فلسطين وقيادتها التي أجبرت على اللجوء إلى سوريا ولبنان. وقام ممدوح السخن بهذه المهمة الدقيقة خير قيام. فكان يزود قيادتي «الحركة» والثورة بالمعلومات عن الحالة في داخل فلسطين، ويتسلم توجيهاتهما وتعليماتهما ويسهر على تنفيذها. من دون أن تتمكن سلطات الانتداب من اكتشاف أمره وإلقاء القبض عليه.

وقد قام بهذه المهمة إلى جانب القائد العام للثورة عبد الرحيم الحاج محمد، واستمر في قيادتها بعد استشهاد قائده. ولم يغادر فلسطين ويلتحق برفاقه الحركيين حتى أواخر سنة ١٩٣٩ حين نشبت الحرب العالمية الثانية وتوقفت الثورة. فتسلل إلى لبنان وأقام متخفياً في بلدة عين سعادة بمنطقة المتن الشمالي بعض الوقت. وبهجرة هؤلاء «الحركيين» القياديين جميعاً توقف عمل «الحركة العربية السرية» الرسمي داخل فلسطين وانتقل ليظهر في ميادين أخرى، ولا سيما في العراق.

٧ ـ مؤتمر لندن «والكتاب الأبيض» وموقف الحركة العربية السرية منهما

فشل مؤتمر لندن:

بعد أن ضمنت انتصار قواتها على الثوار الفلسطينيين حاولت الحكومة البريطانية أن تخفف مشاعر الغضب والكراهية والحقد المتأججة في صدور الشعوب العربية تجاهها بسبب سياستها في فلسطين. فدعت الفلسطينيين والصهيونيين والدول العربية، مصر والعراق والسعودية واليمن والأردن[٤٦] إلى عقد مؤتمر في لندن للتفاوض من أجل التوصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية يرضى عنه الجميع. وكانت تلك أول مرة تدعو

(٤٦) لم تدعَ سوريا ولبنان للاشتراك بالمؤتمر لأن الحكومة الفرنسية أبلغت الحكومة البريطانية معارضتها لتوجيه مثل هذه الدعوة إلى حكومتي البلدين الخاضعين لانتدابها.

فيها بريطانيا العرب من غير الفلسطينيين للمشاركة في إيجاد الحل المطلوب. عقد المؤتمر في لندن واستمر من ٧ شباط حتى ١٥ آذار ١٩٣٩. ولكنه باء بالفشل لأن ممثلي كلا الجانبين العربي والصهيوني تمسكوا بمطالبهم الأساسية، ورفضوا التنازل عنها أو التساهل بشأنها.

مشروع الكتاب الأبيض:

بسبب فشل المؤتمر وضعت الحكومة البريطانية مشروعاً للحل، ونشرته في أيار ١٩٣٩ تحت اسم «الكتاب الأبيض» (The white paper)، وتعهدت بالبدء بتطبيقه في أقرب وقت بعد عرضه على لجنة الانتدابات في عصبة الأمم بجنيف، والحصول على موافقتها عليه. وقد تمحور مضمون «الكتاب الأبيض» حول ثلاثة مواضيع رئيسية هي، الدولة الفلسطينية، والهجرة اليهودية، وبيع الأراضي.

دولة فلسطين المستقلة:

نص «الكتاب الأبيض» على ثلاثة أمور رئيسية بشأن قيام الدولة الفلسطينية:

نص، أولاً، على «**إقامة دولة فلسطين المستقلة خلال عشر سنوات يشترك في حكومتها العرب واليهود بطريقة تضمن صيانة مصالح الطائفتين الأساسية**»(٤٧).

ونص ثانياً، على «**وجوب إقامة العلاقات بين الدولة المستقلة والمملكة المتحدة البريطانية على أساس معاهدة**»(٤٨).

ونص، ثالثاً، على أنه «**بعد فترة العشر سنوات إذا ظهر للحكومة البريطانية إنه خلافاً لآمالها تتطلب الظروف تأجيل إقامة الدولة المستقلة فإنها ستستشير ممثلي شعب فلسطين ومجلس عصبة الأمم والدول العربية المجاورة قبل تقريرها التأجيل. فإذا رأت الحكومة البريطانية أن لا مفر**

---

(٤٧) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٤٥.

(٤٨) المصدر ذاته، ص ٤٦.

من التأجيل فستطلب تعاون هذه الجماعات في وضع خطط المستقبل بقصد تحقيق الهدف المطلوب في أقرب وقت ممكن»[٤٩].

الهجرة الصهيونية:

كانت مطالب العرب والصهيونيين بشأن الهجرة الصهيونية إلى فلسطين متناقضة تماماً. اليهود يطالبون بفتح باب الهجرة إلى فلسطين على مصراعيه دون قيد أو شرط. وكان العرب يرفضون الموافقة على مبدأ الهجرة من أساسه رفضاً مطلقاً ونهائياً. أما الحل التسوية لهذه المعضلة كما ورد في «الكتاب الأبيض» فقد نصَّ على الأمرين التاليين:

أولاً، يسمح بقبول ما لا يزيد على ٧٥ ألف مهاجر صهيوني إضافي في فلسطين في خلال السنوات الخمس التي تلي نشر «الكتاب الأبيض» والتي تبدأ تحديداً في مطلع نيسان ١٩٣٩، وتنتهي في ٣١ آذار ١٩٤٤. وثانياً، توقف الهجرة إلى فلسطين وقفاً تاماً في نهاية السنوات الخمس المذكورة، ولا يسمح بدخول أي مهاجر يهودي إليها بعد ذلك إلا بموافقة العرب[٥٠].

بيع الأراضي:

وكانت مطالب العرب واليهود متناقضة في هذا المجال أيضاً. كان العرب يطالبون بمنع بيع الأراضي العربية إلى الصهيونيين، فيما كان اليهود يطالبون بجعل بيع الأراضي حراً لا يخضع لأي قيد أو شرط. أما الحل الذي نص عليه «الكتاب الأبيض» فقد ارتكز على المبادىء الثلاثة التالية:

أولاً، يكون بيع الأراضي حراً بين اليهود أنفسهم، وبين العرب أنفسهم.

---

(٤٩) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٤٥.

(٥٠) المصدر ذاته، ص ٤٦.

ثانياً، يمنَع بيع الأراضي العربية إلى اليهود منعاً باتاً في المناطق ذات الكثافة السكانية العربية.

ثالثاً، يجوز بيع الأراضي العربية لليهود في المناطق الأخرى شرط أن يوافق المندوب السامي البريطاني على عملية البيع[٥١].

٨ ـ موقف الفريقين من المشروع

رفض اليهود مشروع «الكتاب الأبيض» جملة وتفصيلاً. وكان أخشى ما يخشون فيه أنه يجعلهم أقلية في الدولة الفلسطينية العتيدة.

واختلف العرب في الرأي حوله. منهم من رفضه رفضاً تاماً، ومنهم من لم يرفضه، ولكنه لم يقبله على علاته، واعتبره نقطة انطلاق لحوار مفيد من أجل تذليل العقبات والتوصل إلى حل مقبول.

٩ ـ موقف الحركة العربية السرية من المشروع

اتخذت «الحركة العربية السرية» موقفاً قريباً من موقف الفريق العربي المعتدل. فقد رأت الحركة في مؤتمر لندن وفي مشروع «الكتاب الأبيض» بوادر تطور إيجابي في موقف الحكومة البريطانية لا يجوز تجاهلها أو التقليل من أهميتها. وتجلى هذا التطور، بنظر الحركة، في البوادر السياسية التالية:

أولاً، جاء في «الكتاب الأبيض» قول الحكومة البريطانية أنها: **«تعلن الآن بوضوح بأنه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية»**[٥٢]. فأزال هذا التعهد الصريح بعض المخاوف العربية من أن الهدف الحقيقي لوعد بلفور هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

ثانياً، اعتراف الحكومة البريطانية رسمياً لأول مرة بأن قضية فلسطين ليست قضية فلسطينية فحسب، وإنما هي قضية عربية، وتهم العرب جميعاً. وعلى هذا الأساس دعت الدول العربية الخمس إلى مؤتمر لندن باعتبارها طرفاً عربياً سياسياً وصاحب مصلحة في موضوع المؤتمر.

---

(٥١) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٥٢) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٤٤.

ثالثاً، ولأول مرة أيضاً، تعترف الحكومة البريطانية بأن حل القضية الفلسطينية يجب أن يتم بالتشاور والاتفاق مع الجانب العربي. وهذا ما أكده اشتراك الدول العربية الخمس في مباحثات مؤتمر لندن، كما أكده كذلك «الكتاب الأبيض» حيث ينص على أن الحكومة البريطانية:

ستستشير ممثل شعب فلسطين، ومجلس عصبة الأمم، والدول العربية المجاورة، قبل تقرير التأجيل [تأجيل إعلان استقلال دولة فلسطين]. فإذا رأت الحكومة البريطانية أن لا مفر من التأجيل فستطلب تعاون هذه الجماعات في وضع خطط المستقبل بقصد تحقيق الهدف المطلوب في أقرب وقت ممكن»[٥٣].

وقد صدر عن مجلس قيادة «الحركة العربية السرية» في ١٥ آذار ١٩٣٩ تعميم حزبي داخلي يوضح موقف «الحركة» من مؤتمر لندن[٥٤]، وجرى توزيعه على جميع مراكز الحركة وفروعها لإطلاع الأعضاء على موقف «الحركة» من هذا الموضوع[٥٥].

١٠ ـ خاتمة

قدمت الحكومة البريطانية «الكتاب الأبيض» إلى عصبة الأمم في جنيف للموافقة عليه حسب الأصول، لكي يصبح صالحاً للتنفيذ. ولكن قبل أن تنتهي «العصبة» من درسه، نشبت الحرب العالمية الثانية في مطلع أيلول ١٩٣٩، فانشغل العالم كله بالحرب، قبل أي شيء آخر، وأودع «الكتاب الأبيض» في أدراج عصبة الأمم والحكومة البريطانية، وأهمل. وكان على قضية فلسطين أن تنتظر نهاية الحرب.

---

(٥٣) فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي، ص ٤٥.

(٥٤) إن معظم مقترحات «الكتاب الأبيض» كانت قد عرضت ونوقشت في مؤتمر لندن قبل نشرها مستقلة في الكتاب الابيض في أيار ١٩٣٩.

(٥٥) أوراق كاظم الصلح، إذاعة داخلية بتاريخ ١٥ آذار ١٩٣٩. تراجع أطروحة رغيد الصلح بعنوان «لبنان والقومية العربية»، باللغة الإنكليزية، ص ١١١، وص ١٤٣ هامش رقم ٩.



الفصل السادس

الحركة العربية السرية في العراق

١ ـ النشاط القومي العربي السابق لتأسيس الحركة في العراق

«التشكيل القومي»:

كان العراق القطر العربي الرابع الذي تأسست فيه الحركة العربية السرية، بعد لبنان وسوريا وفلسطين. وكان قد سبقها في العراق قيام بضعة تكتلات وأحزاب كان من أكثرها شبهاً بالحركة، وأشدها تأثيراً في تاريخ العراق الحديث، التشكيل السري الذي نشأ سنة ١٩٢٧ وعرف يومئذ باسم «التشكيل القومي»، كما دعي أيضاً في أوقات لاحقة باسماء أخرى منها «الكتلة القومية» و«الكتلة العسكرية» و«الوردة البيضاء»، و«فوج العروبة»[١].

أسس «التشكيل القومي» السري الملازمان في الجيش العراقي صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد. وهما من الضباط العرب الذين التحقوا بالجيش العراقي بعد تنصيب فيصل ملكاً على العراق سنة ١٩٢١. وكان الجامع المشترك بينهم ايمانهم بالعروبة وتصميمهم على تحرير بلدهم وتحقيق استقلاله الناجز. ويقدر عدد الذين انتسبوا إلى «التشكيل القومي» من الضباط بحوالى مئة وعشرين ضابطاً[٢]. ولم يكن «التشكيل القومي» حزباً منظماً له رئيسه وملاكه وأنظمته كباقي الأحزاب، بل تكتلاً عسكرياً له قيادة جماعية

---

(١) نضر علي أمين الشريف، محمد فهمي سعيد، ص ١٧٣ و١٨٠، (بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٠٢). يشار إليه بعد الآن هكذا: نضر علي الشريف، محمد فهمي سعيد.

(٢) نضر علي الشريف، محمد فهمي سعيد، ص ١٨٣ ـ ١٩٤. وفيها أسماء الضباط.

مؤلفة من أربعة ضباط هم، صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب[٣].

«الميثاق القومي»[٤]

وضع الضباط المؤسسون برنامجاً لعمل «التشكيل القومي» دعوه «الميثاق القومي»، يتألف من ثلاثة أقسام، يتضمن القسم الأول تعديداً للصفات الحميدة التي يفترض أن يتحلى بها الأعضاء، مثل الكفاءة والتعاون والطاعة والكتمان. ويتضمن القسم الثاني تحديداً لأهداف التشكيل، منها، السيطرة على الجيش وعلى سياسة الدولة، والتعاون والتآخي مع الأكراد، والتعاون مع الهيئات القومية في الأقطار العربية الأخرى، وتحقيق الوحدة العربية. ويتضمن القسم الثالث تعيين الوسائل لتحقيق هذه الأهداف، ومنها تقوية الجيش العراقي، والقضاء تدريجياً على النفوذ الانكليزي في الجيش، والتشهير بأعوانه، وغرس الروح القومية الوحدوية في الضباط، ودعم الحركات الاستقلالية في لبنان، سورية وفلسطين بقدر الإمكان.

«الجناح المدني للتشكيل القومي»[٥]

حافظ «التشكيل القومي» في السنوات الأولى على طابعه العسكري الصرف، لذلك غلبت عليه تسميته «الكتلة العسكرية»، وبعدها وسع دائرة اهتماماته لتشمل غير العسكريين، وذلك بإنشاء جناح مدني يساعد «الكتلة العسكرية» على نشر رسالتها، ويقف إلى جانبها وينصرها في أوقات الملمات. وقد تم ما بين ١٩٣٢ و١٩٣٤ تشكيل هذا الجناح المدني السري من أشخاص معروفين بميولهم القومية، مثل جمال المفتي، وصادق حبه، ويونس السبعاوي، ومتّى عقراوي وكثيرين آخرين، وتولى فهمي سعيد إجراء الاتصالات بين الكتلتين، العسكرية والمدنية.

---

(٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١، ص١٢٠.
(٤) نضر علي الشريف، محمد فهمي سعيد، ص ١٦٠ ـ ١٦٣.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢١١.

«نادي المثنى»[٦]:

كان الجناحان العسكري والمدني للتشكيل القومي سريين، يعملان في الظلام، ورأت القيادة أن سريتهما تعرقل نشر رسالتهما، وتحصر نشاطهما في نطاق ضيق محدود. فتقرر إنشاء هيئة نظامية تكون بمثابة واجهة علنية للتشكيل القومي، تساعده على المحافظة على سريته، وتمكن جناحيه العسكري والمدني، من القيام باسمها ومن خلالها بالنشاطات والأعمال العلنية التي تمنعهما سريتهما من القيام بها. واستقر الرأي على تأسيس ناد رياضي أدبي باسم «نادي المثنى»، «غايته المعلنة نشر الثقافة القومية والعمل لرفع المستوى الأخلاقي والعلمي والاجتماعي». واستبعدت كلمة «السياسي» لأن العمل السياسي محظور على النوادي والجمعيات. وفي ٢٥ شباط سنة ١٩٣٥ قامت لجنة من أعضاء «التشكيل القومي» مؤلفة من فهمي سعيد والدكتور متّى عقراوي، وخالد الهاشمي، وتقدمت من وزارة الداخلية بطلب للترخيص بقيام النادي. فجاءت الموافقة الرسمية بأواسط ذلك العام، وأقبل على الانتساب إلى «نادي المثنى» كثيرون من أعضاء الجناحين العسكري والمدني في «التشكيل القومي»، ومن الأدباء، وبعض زعماء العشائر، وأعضاء «جمعية الجوال»، وسواهم من أبناء الشعب. وتولت إدارة النادي لجنتان: لجنة علنية تعنى بتصريف الشؤون العلنية، ولجنة سياسية سرية تعنى بالشؤون السياسية بالسر، وكانت تضم عدداً من الضباط القوميين باسماء مستعارة، منهم فهمي سعيد، وصلاح الدين الصباغ، ومن الشباب القومي مثل يونس السبعاوي، وصديق شنشل، وابراهيم عطار باشي، وسعيد وسليم ثابت. وكان أعضاء هذه اللجنة المدنيون يشتركون في أعمال اللجنة العلنية.

قام «نادي المثنى» بنشاطات كثيرة متنوعة تهدف كلها لخدمة القضية العربية. فكانت قاعاته ملتقى النخبة من القوميين العرب، تلقى فيها المحاضرات وتعقد الندوات وتبحث الشؤون العربية بدراسات مفصلة يقدمها

---

(٦) نضر علي الشريف، محمد فهمي سعيد، ص ٢١١ ـ ٢١٧. وعنه: جريدة «البلاد» البغدادي، العدد ٤٨٩، ٢٦ شباط ١٩٣٥.

أساتذة متخصصون وسياسيون بارزون عراقيون وعرب وأجانب. وأصدر النادي «مجلة المثنى»، فكانت تعبر عن أهدافه القومية، وتدعو العرب للتضامن وانهاء الهيمنة الأجنبية الاستعمارية على بلدانهم. ودافع النادي عن القضايا العربية الكبرى مثل قضايا فلسطين والاسكندرونة والانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان. واتصل النادي بالهيئات والشخصيات القومية القيادية في الأقطار العربية الأخرى، وتبادل معها الزيارات والتشاور لتنسيق المواقف والتعاون في مواجهة المشاكل العربية الكبيرة.

لاقى «نادي المثنى» من معارضي نهجه القومي مقاومة شديدة. فاتهموه بممالأة الأنظمة النازية حيناً، والشيوعية حيناً آخر. ونبهت قيادة الجيش فهمي سعيد وزملاءه الضباط القوميين بأن القانون يمنعهم من الانتساب الى النوادي والجمعيات المدنية. وروى فاضل الجمالي أنه تلقى مذكرة من رئيس مجلس الوزراء ياسين الهاشمي «ينصحه» فيها بالانقطاع عن الاجتماع بفهمي سعيد والضباط القوميين في نادي المثنى. ولكن النادي استمر وازدهر، ولم ينقطع عنه رواده ومؤيدوه.

كانت هذه أبرز منجزات «التشكيل القومي» في مجالي التوعية والتنظيم القوميين. فماذا كان أمره في المجال السياسي.

«الكتلة العسكرية» والمعارضة السياسية:

دخلت «الكتلة العسكرية» حلبة السياسة منذ أوائل الثلاثينات، فكانت تؤيد الوزارات التي تسلك نهجاً سياسياً يتلاءم مع مبادئها وأهدافها القومية والوطنية، وتعارض الوزارات التي تخالف هذا النهج[(٧)]. وانطلاقاً من هذا الموقف المبدئي عارضت الكتلة وزارة علي جودت الأيوبي، ووزارة جميل المدفعي التي خلفتها، ووزارة ياسين الهاشمي التي أعقبتها، وساهمت، مع الفئات المعارضة الأخرى في إسقاطها، الوزارة تلو الأخرى، في ٤ آذار ١٩٣٥، وفي ١٤ آذار ١٩٣٥، وفي ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٧. فبرهنت عن

---

(٧) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، ص ٨٤. (الرباط، تانيت للنشر والتوزيع، ١٩٩٤). يشار إليه بعد الآن هكذا: صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة.

قوتها، وبرزت كتلة مستقلة لا يمكن تجاهلها في سوق المعادلات السياسية.

اغتيال بكر صدقي:

لما قام الضابط بكر صدقي، المتحدر من أصل كردي، بانقلابه بعهد وزارة ياسين الهاشمي في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦، حاول استمالة ضباط «الكتلة العسكرية» إلى جانبه، فرفضوا ذلك بسبب المآخذ الكثيرة التي كانت لهم على سياسة بكر صدقي ونظامه، و«**خوفاً منه على عروبة العراق**» حسب قول صلاح الدين الصباغ[٨]. فردّ بكر صدقي على رفض «الكتلة العسكرية» التعاون معه باتخاذ اجراءات انتقامية قضت بنقل أركانها من مراكز عملهم بقصد تشتيت شملهم وإضعافهم. ورأت «الكتلة» ان إنقاذ العراق من المصير المشؤوم الذي ينتظره لن يكون إلا بتصفية بكر صدقي ونظامه. وأشرف فهمي سعيد على ترتيب عملية اغتياله في مطار الموصل، وهو في طريقه إلى تركيا في ١١ آب سنة ١٩٣٧[٩].

سيطرة «الكتلة العسكرية» على الجيش والسياسة

حاولت حكومة حكمت سليمان الاقتصاص من مرتكبي عملية اغتيال بكر صدقي، ولكنها جوبهت بمقاومة شديدة من الجيش والشعب، ففشلت واضطرت إلى الاستقالة[١٠]، وخرج أركان «الكتلة العسكرية» الأربعة، صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب منتصرين. فاستأثروا بالسيطرة على الجيش وبتوجيه سياسة البلاد توجهاً قومياً عربياً متشدداً، ابتداءً من صيف ١٩٣٧. فما من رئيس وزارة أو وزير يعيّن في منصب أو يُقال منه إلا بموافقة أولئك الضباط الأربعة. وكان الملك غازي يضطر احياناً إلى القبول، على مضض، بمن لا يرغب فيه رئيساً أو وزيراً، رضوخاً لإرادة صلاح الدين الصباغ وفريقه، مثال ذلك، أنه بعد استقالة وزارة حكمت سليمان في أثر مقتل بكر صدقي اضطر الملك غازي، على غير رضا منه، إلى تعيين

---

(٨) نضر علي الشريف، محمد فهمي سعيد، ص ٢٥٨ في الهامش رقم ٨١.
(٩) المصدر ذاته، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٢.
(١٠) المصدر ذاته، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

مرشح الضباط الأربعة جميل المدفعي رئيساً للوزارة. ولما سحبوا ثقتهم به، بعد حين، أجبروه على الاستقالة. وكان مرشحهم لرئاسة الوزارة في هذه المرة نوري السعيد، خلافاً لرغبة الملك غازي، ولكن الملك اضطر في نهاية الأمر إلى تعيينه نزولاً عند إصرار صلاح الدين الصباغ ورفاقه[١١].

ويظهر من تتبع سير الأحداث في العراق، ما بين ١٩٣٧ و١٩٤١، أن سياسة العراق الداخلية التي تعهدت بتنفيذها الوزارات المتعاقبة في عهد سيطرة «الكتلة العسكرية» كانت سياسة قومية عربية مرتكزة على مبادئ عامة شبيهة، بدرجة كبيرة، بمبادئ «الحركة العربية السرية». وكان من أبرز نتائجها في الحقل الداخلي، تقوية الجيش ونشر التعليم وازدياد الوعي القومي وانتشار الشعور الوطني، وفي الحقل الخارجي السعي لتحرير البلدان العربية المشرقية، وخاصة لبنان وسورية وفلسطين والأردن، من السيطرة الأجنبية، وتوحيدها بزعامة العراق، لتصبح، كما تمناها صلاح الدين الصباغ **«امبراطورية عربية مركزية في المشرق العربي»**[١٢]، وتشكل اللبنة الأولى في بناء الوحدة العربية الشاملة.

وتعامل العراق مع الدول الأجنبية على أساس مواقفها من القضايا العربية عامة، ومن سياسة العراق القومية خاصة. فاعتبر الدول المؤيدة لهذه السياسة دولاً صديقة وحليفة، أما الدول التي عارضت هذه السياسة وقاومتها، فقد نظر إليها كخصم سياسي وعدو، وتعامل معها على هذا الأساس، مثلما فعل عندما دعم الثورة في فلسطين ضد الإنكليز، وحرض السوريين واللبنانيين على الثورة ضد الفرنسيين.

في هذا الوقت الذي كان فيه «التشكيل القومي» في العراق قد رسّخ وجوده بجناحيه العسكري والمدني، واستأثر بالسيطرة على الجيش والسياسة، كانت نظيرته «الحركة العربية السرية» قد استكملت تنظيمها

---

(١١) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، ص ١١٠. .

(١٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

وزرعت فروعها وخلاياها السرية في لبنان وسورية وفلسطين. ومع أنها لم تطرق باب العراق بصورة رسمية في هذه الفترة فإن أفراداً منها وجدوا في العراق صدفة بصفتهم الشخصية لا غير.

٢ ـ الحركيون سبقوا الحركة إلى العراق

مدرسون ولاجئون سياسيون في العراق

قبل أن تفكر قيادة الحركة العربية السرية بنقل مقرها ومحور نشاطها من بيروت إلى بغداد، كان قد سبق الحركة ذاتها إلى العراق عدد من الحركيين الأفراد من مدرسين ولاجئين سياسيين، مثل فريد زين الدين، ومحمد علي حمادة، ونديم دمشقية، ويوسف شديد، وحليم أبو عز الدين، ومحمد شقير، والطبيب رفيق حنينة من لبنان، وواصف كمال، وممدوح السخن، ودرويش المقدادي، وخلوصي خيري وعز الدين الشوا، وفريد يعيش من فلسطين، وآخرون سواهم من سورية.

ولمساعدة المحتاجين من هؤلاء، وتأمين العيش الكريم لهم من جهة، وللاستفادة من مؤهلاتهم العلمية من جهة ثانية، عينت السلطات العراقية بعضهم في مدارسها ومعاهدها العلمية العليا. مثال ذلك ما اورده واصف كمال في مذكراته، حيث يقول: «**فعُينت في الثانوية العسكرية أستاذاً للغة الإنكليزية والتاريخ السياسي الأوروبي. وكذلك عين ممدوح السخن، أستاذاً للرياضيات والطبيعيات**»[١٣]. **وعين محمد علي حماده مدرساً في كلية الحقوق ببغداد**». ودرويش المقدادي مديراً لدار المعلمين العليا في بغداد.

واقتصر نشاط أولئك الحركيين في العراق في تلك الحقبة المتقدمة على مبادرات فردية للمساهمة في توضيح الفكرة القومية العربية، وشرح مبادئها وأهدافها. وكان أكثر ما يجري ذلك في المدارس

(١٣) واصف كمال، مذكرات، الحديث الثاني، ص١٤.

على أيدي مدرسين حركيين كانت غالبيتهم فلسطينيين ولبنانيين وسوريين[١٤].

زيارة وفد جمعية العروة الوثقى إلى بغداد

جرى أول تحرك شبه رسمي توجهت به الحركة العربية السرية نحو العراق في سنة ١٩٣٩، تحت غطاء زيارة طلابية قام بها وفد جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأميركية في بيروت إلى بغداد، بدعوة رسمية من وزارة المعارف العراقية. وكانت أكثرية أعضاء الوفد من المنتسبين إلى الحركة وفي طليعتهم رئيسها الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق.

وروى تفاصيل ما جرى في هذه الزيارة أحد أعضاء الوفد وعضو الحركة الطالب نديم دمشقية في ذكرياته السياسية حيث قال ما يلي:

«كنت ضمن الوفد الذي زار بغداد... ومثل العروة الوثقى... وفي اليوم التالي لوصولنا... استقبلنا المسؤولون... كما قام الوفد بزيارة نادي المثنى... والنادي هذا كان شبه منتدى للقوميين العرب في العراق. وفي اليوم الثاني تم إبلاغ الوفد بأن الملك غازي حدد موعداً لاستقباله صباح اليوم التالي... إلا أن الصدمة التي واجهتنا صباحاً كانت قاسية على الجميع. فقد سمعنا من إذاعة بغداد أن الملك قتل في حادث سيارة في تلك الليلة (٤ نيسان/ إبريل ١٩٣٩)... وبعد فترة اتصل بنا مسؤولون من وزارة المعارف وطلبوا أن نختار أربعة أشخاص من الوفد لحمل أكاليل باسم «العروة الوثقى» إلى ضريح الملك بعد المسيرة في الجنازة حتى المقبرة الملكية. فقررنا أن يقوم بهذه المهمة كل من الدكتور قسطنطين زريق وعوني الدجاني ويوسف شديد وأنا [نديم دمشقية][١٥]. وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما علمنا أن المكان المخصص لنا في مسيرة التشييع كان في الصف الرابع.

---

(١٤) واصف كمال، مذكرات، الحديث الثاني، ص١٤.

(١٥) جميعهم أعضاء بالحركة العربية السرية.

الصف الأول للعائلة المالكة، ويشمل الملك فيصل وخاله الأمير عبدالإله وعم أبيه الأمير زيد. وفي الصف الثاني رئيس الوزراء ورئيس مجلس الأعيان. وفي الصف الثالث الوزراء وعددهم لا يتعدى العشرة. وفي الصف الرابع «العروة الوثقى». وبعدنا جاء مدراء الدولة وأعضاء مجلس الأعيان والنواب... وكان تمثيل «العروة الوثقى» في جنازة الملك غازي بمثابة تمثيل للأمة العربية كما علمنا في ما بعد[١٦].

العراق بروسيا العرب:

إنه بفضل ما كان توفر للعراق من إمكانات مادية وبشرية، وأهمية دولية، ونفوذ سياسي في أقطار المشرق العربي، وقيادة شجاعة تقاوم الهيمنة الأجنبية وتتحداها، ووعي قومي آخذ بالانتشار، وجو عام مشحون بالشعور الوطني الملتهب حماسة واندفاعاً. أصبح العراق «قبلة» أنظار الشعوب العربية المشرقية، ورائدها، ومحط آمالها المرتجى في تحرير العرب جميعاً من السيطرة الأجنبية، وجمع شملهم وتوحيدهم في كيان سياسي مستقل. وقد حمل هذا الواقع بعضهم على إطلاق اسم «بروسيا العرب»[١٧] على العراق، تيمناً بأن يحقق الوحدة العربية الشاملة، مثلما كانت بروسيا قد حققت الوحدة الألمانية الشاملة قبل ذلك بحوالى سبعين سنة.

لذلك، عندما تعطل عمل الحركة العربية السرية في سوريا ولبنان في أواخر سنة ١٩٣٩، بسبب الإجراءات الأمنية الفرنسية. كان من الطبيعي أن يقرر مجلس قيادة الحركة الأعلى، نقل مقره من بيروت إلى بغداد. فالعوامل المساعدة على استئناف نشاطه الحركي بحرية وفعالية لم تكن متوفرة في أي قطر عربي، بقدر ما كانت متوفرة في العراق.

---

(١٦) نديم دمشقية: محطات في حياتي الدبلوماسية، ذكريات في السياسة والعلاقات الدولية، ص ٢٩ ـ ٣٠. (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٥) يشار إليه بعد الآن هكذا: نديم دمشقية، محطات في حياتي الدبلوماسية.

(١٧) حليم أبو عزالدين، تلك الأيام، ج ٢، ص ١٥٣.

٣ - تأسيس الحركة العربية السرية في العراق

أول اجتماع لمجلس القيادة في العراق:

تنفيذاً لقرار مجلس قيادة الحركة العربية السرية الأعلى، المتخذ في آخر اجتماع عقده هذا المجلس في بيروت، والقاضي بنقل مقر مجلس قيادة الحركة إلى العراق، للأسباب التي جرى شرحها في ما سبق، غادر رئيس الحركة وأمينها العام كاظم الصلح لبنان بأواخر العام ١٩٣٩ قاصداً بغداد، مقر القيادة الجديد. ولما استقر به المقام هناك، دعا أعضاء مجلس القيادة الموجودين في بغداد، وكانوا بضعة من «الأركان»، جلهم من اللاجئين السياسيين الفلسطينيين، إلى اجتماع لبحث وضع الحركة وتقرير ما يلزم عمله بشأنها في هذه المرحلة الجديدة.

عقد الاجتماع نهار الجمعة بتاريخ ٢٦ نيسان سنة ١٩٤٠، برئاسة كاظم الصلح، وألقى فيه، حسبما جاء في محضر الاجتماع:

«بياناً بالأسباب التي دعت إلى نقل القيادة من مقرها السابق إلى العراق... وبالأسباب التي جعلت السلطات كلها في يديه من يوم وقف القيادة في بيروت الذي حصل في آخر آب سنة ١٩٣٩ إلى هذا اليوم... وقرأ تقرير القيادة ومقرراتها في جلستها السنوية الدورية السابقة، فوافق الأعضاء المجتمعون عليه»[١٨].

تداول الأعضاء بعد ذلك بشؤون الحركة واتخذوا بصددها المقررات اللازمة، وكان أهمها ما يلي:

- تقرر اعتبار هذا الاجتماع اجتماعاً دورياً لمجلس القيادة.
- تقرر وضع برنامج مفصل للعمل الحزبي العام في المرحلة المقبلة.
- تقرر تشكيل لجنة خاصة مؤلفة من «الأركان» عامر (كاظم الصلح)، وحيدر (يونس السبعاوي)، ود. (درويش المقدادي)، لدرس وضع الحركة واقتراح برنامج العمل الحزبي المذكور أعلاه.

---

(١٨) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.

ـ تقرر تطبيق التشكيلات التنظيمية في الحركة من الأعلى إلى الأدنى: القيادة، فالوكالات، فالعمالات، فالمعتمديات، فالمديريات، فالخلايا، على أن يبدأ هذا التطبيق بعد وضع برنامج العمل الحزبي للفترة المقبلة[١٩].

توصيات وملاحظات اللجنة الخاصة:

أنجزت اللجنة الخاصة المهمة الموكولة إليها خلال بضعة عشر يوماً، وتألف التقرير الذي وضعته من قسمين: القسم الأول بعنوان «مقررات فرعية» تضمن توصية بأن لا يقتصر انعقاد مجلس القيادة على مرة واحدة بالسنة، بل أن يكثر عدد اجتماعاته ليتمكن من متابعة نشاط مجلس الوكلاء عن كثب، ويحاسبه على أعماله[٢٠]. وركز التقرير كذلك على تفنيد «**أسباب الفتور في الأعمال الحزبية**». ونثبت في ما يلي ما جاء في التقرير بهذا الخصوص، نظراً لأهميته في فهم ما آلت إليه حال الحركة في النهاية. وقد ورد في التقرير هذا القول:

«بعد أن قامت القيادة بأبحاث وتجارب عدة خلال السنين المنصرمة، كانت تظن أن الفتور سببه:

١ ـ عدم التفرد بالمسؤولية في إدارة الحزب ـ فأوكلتها تشريعاً وتنفيذاً إلى واحد.

٢ ـ تعدد الوكالات والوظائف ـ فاختصرتها إلى خمس.

٣ ـ نقص البرنامج العملي بتفصيله ـ فأصدرت برنامجاً عملياً.

٤ ـ نقص الاتصال بين الآمرين والمأمورين سواء في الأوامر الحزبية أو وجهات النظر ـ فأصدرت القيادة البلاغات والإذاعات.

٥ ـ عدم وجود من يتفرغ للعمل الحزبي ـ فخصص له متفرغ.

٦ ـ المركزية الشديدة في الخطط العملية ـ فأطلقت يد العمال والمعتمدين ضمن خطوط عامة.

---

(١٩) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.
(٢٠) المصدر ذاته، ص ١.

بعد هذه التعديلات التي انطوت على تجارب متعددة مترادفة، يكاد يثبت لدى اللجنة أن السبب الأصلي في هذا الفتور هو خلقي طبعي في الفرد العربي إذا ما انضم إلى مجتمع. إذ ينطوي هذا الخلق على النقائص التالية:

أولاً ـ ضعف روح الانتظام في الأفراد.

ثانياً ـ ترك المسؤولين في الحزب وإهمالهم محاسبة المقصرين والمتخلفين عن واجباتهم.

ثالثاً ـ طغيان العلاقات الشخصية الودية بين الأعضاء على العلاقات الحزبية الرسمية.

رابعاً ـ ضعف الأنظمة التي تنص على معاقبة المقصر والمتخلف.

على أن هناك رأياً بأن أهم البواعث على الفتور هو اتساع الأهداف والأغراض التي يأخذها الحزب على عاتقه. فيحسن أن يحدد الحزب له برنامجاً عملياً محدداً في زمانه وفي مرماه متكافئاً مع قواه الحقيقية وقوى وكفاءات أفراده، آخذاً بعين الاعتبار نقائص الأفراد الخلقية»[٢١].

وتضمن القسم الثاني من تقرير اللجنة، برنامجاً عاماً لعمل الحركة، وبرامج عمل تفصيلية لكل وكالة بذاتها. ورفعت اللجنة تقريرها إلى مجلس القيادة لدرسه وإقراره.

تعيين الوكلاء:

عقد مجلس القيادة بضعة اجتماعات بأواسط شهر أيار لاستكمال التنظيمات التي بدأها في ٢٦ نيسان السابق، وكان أهمها اجتماع الخامس عشر من أيار. فقد ناقش فيه المجلس وأقر مشروع البرنامج العام لعمل الحزب، وباشر بقراءة ومناقشة برامج عمل الوكالات، كل وكالة بمفردها، وإقرارها لتكون بمثابة تواصٍ للوكلاء، لكي ينظموا برامج عمل وكالاتهم على أساسها. واستغرقت هذه العملية عدة جلسات. وتقرر جعل العراق

---

(٢١) أوراق كاظم الصلح، مقررات فرعية، ص ١ ـ ٢.

«عمالة» جديدة مستقلة، وتعيين صديق شنشل «عاملاً» عليها[٢٢]، بعد أن كان قد رفع إلى رتبة «ركن»[٢٣]. وأصبح عضواً بمجلس القيادة، فكان ثاني عضو عراقي، بعد يونس السبعاوي، يرفع إلى هذه الرتبة.

وأجرى المجلس أخيراً الانتخابات، فجاءت النتيجة على الشكل التالي:

درويش المقدادي (فلسطيني) - رئيساً للحركة، ووكيلاً للمالية.

كاظم الصلح (لبناني) - أميناً عاماً.

يونس السبعاوي (عراقي) - وكيلاً للخارجية.

واصف كمال (فلسطيني) - وكيلاً للداخلية.

عزالدين الشوا (فلسطيني) - وكيلاً للفتوة.

ممدوح السخن (فلسطيني) - وكيلاً للدعاية[٢٤].

وتولت الهيئة الجديدة العمل في الحال.

والملفت في هذه التشكيلة أن ثلثي أعضاء مجلس الوكلاء كان يتألف من لاجئين سياسيين فلسطينيين. ذلك لأنه بقيام حالة الحرب أصبحت المواصلات والاتصالات للمدنيين بين لبنان وسوريا والعراق شبه معطلة، وزادت معاملات السفر وإجراءاته وتكاليفه صعوبة وتعقيداً، فانقطع أعضاء مجلس القيادة اللبنانيون والسوريون عن الذهاب إلى بغداد لحضور الاجتماعات، واقتصر هذا الحضور على بضعة «أركان» موجودين في العراق.

وبناءً على توجيه اللجنة الخاصة بأن «**لا يقتصر انعقاد مجلس القيادة على مرة في السنة، كما في السنة السابقة**»[٢٥]، ونظراً إلى أن أعضاء مجلس الوكلاء هم أنفسهم أعضاء مجلس القيادة، ويشكلون بالواقع الأكثرية

(٢٢) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٢.

(٢٣) المصدر ذاته، ص ٢.

(٢٤) المصدر ذاته، ص ٢.

(٢٥) أوراق كاظم الصلح، مقررات فرعية، ص ١.

في هذا المجلس، فقد أصبحت الاجتماعات تعقد مشتركة، والقرارات تصدر باسم «مجلسي القيادة والوكلاء» معاً[٢٦]، وأوصى المجلس كذلك أعضاء الحركة بأن ينشطوا ويكثروا من اتصالاتهم بموظفي الدولة وسواهم من المثقفين وأصحاب الميول العربية لكسبهم إلى الحركة[٢٧].

انتشار الحركة في العراق:

يذكر أمين الحركة كاظم الصلح في وثيقة بخط يده في أوراقه، أنه في البدء«**لم يكن في الحركة من العراقيين غير يونس السبعاوي وصديق شنشل ومرشحين ثلاثة**»[٢٨]. وتنفيذاً لتوصية «مجلسي القيادة والوكلاء»، بتاريخ ٢ حزيران سنة ١٩٤٠ انطلق «**دعاة الحزب**» بإجراء الاتصالات مع عدد من المثقفين النشيطين العاملين في الدوائر الحكومية وفي الجيش ومعاهد التعليم، وفي المؤسسات والمنظمات والهيئات المدنية[٢٩]، ونجحوا في اجتذاب عدد منهم من مختلف مناطق العراق: ـ شماله وجنوبه ووسطه، وكان منهم الموظفون الكبار، والضباط من أصحاب الرتب العالية في الجيش، والأطباء، والمحامون، والتجار والصحافيون والسياسيون وسواهم[٣٠].

ويذكر ركن الداخلية بالحركة واصف كمال بهذا الخصوص:

«وقد تمكنا في هذه المدرسة [الثانوية العسكرية] من تأليف وتشكيل عدة حلقات من طلابها، وتم إدخالها بحركتنا السرية، ولنذكر أحد طلاب هذه الثانوية، وأصبح فيما بعد قائداً قام بانقلاب العراق الذي أطاح بالوصي عبدالإله وبـ نوري السعيد، إنه السيد عبدالسلام عارف... ودخل في عداد الحركة كذلك خيرة الشباب العراقي وهو يونس السبعاوي وآخرون أمثال الدكتور جابر العمر، ود. سليم النعيمي، وناجي معروف، وعبدالحميد

---

(٢٦) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.
(٢٧) المصدر ذاته، ص ٣.
(٢٨) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير، ص ١.
(٢٩) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٣.
(٣٠) أوراق كاظم الصلح، في جداول بأسماء الأعضاء.

الهلالي»[٣١]. وكذلك علي صافي، ومحمد حسن سلمان، وعبدالرزاق شبيب، وفائق السامرائي، وسلمان الصفواني، ومتى عقراوي، وعباس كاشف الغطاء[٣٢].

نقط الاعتماد: خلية العقداء الأربعة في الجيش:

انطلقت الحركة، كعادتها دائماً، لإيجاد نقط اعتماد لها في مختلف المجالات. وقد نجح يونس السبعاوي وواصف كمال في تأسيس خلية سرية للحركة في الجيش العراقي ضمت العقداء القوميين الأربعة: صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب. وكان السبعاوي مقرباً جداً من هؤلاء العقداء الأربعة، ويعتبر بمثابة مستشارهم السياسي[٣٣]. وقد أكد واصف كمال هذه المعلومات للمؤلف مراراً في أحاديثنا الكثيرة المتكررة عن الحركة. فكانت هذه الخلية ومعها مؤيدو العقداء الأربعة في الجيش نقطة اعتماد ذات وزن كبير. وقد لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ الحركة وفي سياسة العراق الداخلية والخارجية، ولا سيما خلال الحرب العراقية البريطانية في أيار ١٩٤١.

سيطرة الحركة على نادي المثنى:

كان نادي المثنى في بغداد، مثل النادي العربي بدمشق، وجمعية العروة الوثقى في بيروت، المركز الرئيسي للنشاط العربي القومي، ومحور الدعوة للقضية العربية في العراق[٣٤]. ولما تأسست الحركة العربية السرية في العراق، أوعزت إلى عناصرها للدخول في عضويته، ففعلوا. وما لبثوا أن شكلوا الأكثرية في هيئته الإدارية[٣٥]. فسيطروا عليه وسيروه وفق مبادئهم

---

(٣١) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٢٢.

(٣٢) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.131.

(٣٣) Ibid., p.132.

(٣٤) محمد أحمد الجواهري، نادي المثنى وواجهات التجمع القومي في العراق، ١٩٣٤ ـ ١٩٤١.

(٣٥) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.

ومصالح حركتهم، وجعلوه إحدى أقوى نقط اعتمادهم. وأفادت الحركة كثيراً مما كان لنادي المثنى من تقدير واحترام كبيرين في الأوساط القومية، بما كان يقوم به من نشاطات واتصالات واسعة في حقل العمل القومي العربي داخل العراق وخارجه.

سيطرة الحركة على وسائل الإعلام:

ذكر كاظم الصلح في وثيقته المذكورة آنفاً، أنه قد تمّ للحركة «**الاستيلاء على الدعاية تماماً**»[٣٦]. وإن كان في هذا الكلام شيء من المبالغة، فإن مما لا شك فيه أن سيطرة الحركة على أقنية الإعلام ووسائل الدعاية الرسمية والخاصة كانت كبيرة وقوية. فقد خصصت الحركة إحدى وكالاتها الخمس للدعاية، وأسندت إدارتها إلى الحركي النشيط ممدوح السخن[٣٧] المعروف بإخلاصه واندفاعه لنشر الفكرة العربية بمختلف الوسائل، وفي سائر الأوساط. وكانت الإمكانات الواسعة في حقل الدعاية والأعلام التي يملكها نادي المثنى قد وضعت في خدمة الحركة بعد أن سيطر الحركيون على إدارة هذا النادي وسياسته. ومما زاد الحركة قوة في حقل الدعاية والإعلام أن الحكومة العراقية كانت قد عينت عضو الحركة وعاملها في العراق المحامي الركن صديق شنشل مديراً عاماً لمصلحة الدعاية والإعلام في الإدارة المركزية في بغداد[٣٨]. يضاف إلى ذلك، أنه كان للنشاط الإعلامي المركز الذي كان يقوم به صحافيون حركيون مثل يونس السبعاوي وسلمان الصفواني وسواهما، تأثير ملموس في الرأي العام، وفي خدمة أهداف الحركة ومخططاتها. وباختصار، لقد شكلت هذه الأقنية الإعلامية المختلفة نقط اعتماد جزيلة الفائدة للحركة العربية السرية في العراق.

---

(٣٦) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ١.
(٣٧) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٣.
(٣٨) حليم أبو عزالدين، تلك الأيام، ج ١، ص ١٦٠.

استيلاء الحركة على جمعية الجوال العربي:

ويذكر كاظم الصلح كذلك، في وثيقته المشار إليها، أن الحركة استولت على جمعية الجوال العربي(٣٩). وهي مؤسسة كشفية لليافعين، شبه عسكرية، تأسست سنة ١٩٣٤، وتشبه جمعية النجادة في بيروت بقيادة الحركي جميل مكاوي، وإشراف الحركيين الآخرين حسين سجعان وأنيس الصغير وعبدالله دبوس(٤٠). ومثل «الكشاف العربي» في دمشق بقيادة الحركي علي الدندشي(٤١).

وكان الشبان المنتمون إلى الجوال يتدربون على النظام والانتظام، ويقومون بالتمارين الرياضية والأعمال الكشفية المتقدمة، ويتلقون التوجيه القومي وفق مناهج من وضع الحركة بواسطة مدربين. وقد تولى رئاسة جمعية الجوال العربي وتوجيهها مربون حركيون مشهود لهم بالعلم والوطنية والكفاءة، مثل متى عقراوي ودرويش المقدادي(٤٢). وقامت قيادة الحركة بدورها في تشجيع الجوالين الكبار على الانتساب إلى الحركة بتقديمها لهم بعض التسهيلات والإغراءات؛ مثال ذلك أن مجلس القيادة والوكلاء في اجتماعه المنعقد نهار الاثنين في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٠ قرر:

«أن يطلب من وكالة المالية أن تصدر بلاغاً واضحاً إلى عمالة العراق بشأن تأجيل استيفاء ضريبة العشرة بالمئة من الدخل (التي كانت مفروضة على جميع الأعضاء بموجب النظام المالي) عن أعضاء «جمعية الجوال العربي» فقط في العراق من الآن إلى آخر سنة ١٩٤٠، وتبليغ ذلك إلى العمالة والدوائر»(٤٣).

باستكمال هذه الإجراءات التنظيمية والتحضيرية، تكون الحركة العربية السرية قد تأسست في عمالة العراق، وأصبحت جاهزة لمشاركة

---

(٣٩) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ١.

(٤٠) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.128.

(٤١) علي الدندشي، باعث النهضة الكشفية العربية.

(٤٢) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.132.

(٤٣) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٤.

العمالات الأخرى في العمل الجدي لتحقيق مبادئ الحركة وأهدافها المعروفة. ولكن الأمر لم يخلُ من ظهور بعض المشاكل التي واجهت مجلس القيادة الجديد، وكان عليه أن يعالجها، ويجد لها الحلول المناسبة التي تصون مصالح الحركة وتحافظ على وحدتها وتماسكها.

٤ ـ مشاكل ما بعد الانتقال

عن هذه المشاكل:

بدأت المشاكل من داخل الحركة العربية السرية، تواجه مجلس القيادة، منذ انتقال مقره إلى بغداد. كان بعضها خطيراً، يتحدى سلطة القيادة العليا، ويهدد وحدة الحركة وتماسكها ومصيرها. المعلومات الرسمية عنها غير متوفرة بالكامل في معظم الحالات. فالتقارير المفصلة عن نشاطات الحركة وأعمالها في العراق أحرقت[٤٤]، لأسباب أمنية في أثر فشل ثورة أيار ١٩٤١ ضد الإنكليز. والمصادر الأخرى الباقية التي تذكرها تشير إليها بتحفظ وباقتضاب كلي، وتستخدم الأسماء الرمزية للأشخاص المتورطين بها، بدل الأسماء الحقيقية، مما يحدث بلبلة والتباساً في بعض المراجع. وفيما يلي عرض لأهم تلك المشاكل، كما صورتها وتحدثت عنها تلك المصادر، مقرون ببعض الشروحات والتوضيحات الضرورية المستندة إلى الوقائع والأحداث.

مشكلة س. أ. مع مجلس القيادة:

برزت أولى تلك المشاكل في أول اجتماع للأركان دعا إليه كاظم الصلح، وانعقد في بغداد نهار الجمعة في ٢٦ نيسان سنة ١٩٤٠. وقد ورد بمحضر ذلك الاجتماع ما يلي:

«بسط رئيس الاجتماع الأسباب الموجبة لعدم دعوة أحد «الأركان» س. أ. معتمداً بذلك على نص قانوني. فوافقت القيادة وتقرر تكليف عصام

---

(٤٤) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٤.

[واصف كمال] بمخاطبته نهائياً بموقفه»(٤٥).

ويظهر أن المهمة الموكولة إلى عصام فشلت مع س. أ. الذي بقي مصراً على موقفه، ومستمراً بنشاطه المغاير لموقف القيادة، بدليل أن محضر اجتماع المجلس المنعقد نهار الأحد في ٢ حزيران ١٩٤٠، تضمن الفقرة التالية التي تقول إنه تقرر:

«أن يبلغ س. أ. بواسطة وكيل الداخلية [عصام] بصورة شخصية ترك كل نشاط وعمل حزبي أو غير حزبي في العراق»(٤٦).

تؤكد هاتان الفقرتان، وجود خلاف جوهري بين مجلس قيادة الحركة وأحد أعضائه المشار إليه بالحرفين س. أ.، وتثيران بعض التساؤلات حول مضمونهما، مثل: من هو س. أ. هذا؟ ولماذا استبعد عن الاجتماع؟ وما هو النص القانوني المذكور؟ وبأية صفة، وبموجب أية سلطة طلبت إليه القيادة عدم القيام بأي نشاط وعمل حزبي أو غير حزبي داخل العراق؟

فيما يتعلق بأولى هذه التساؤلات تدل القرائن كلها على أن س. أ. هو «الركن» سعيد فتاح الإمام، الهارب من وجه سلطات الأمن الفرنسية في سوريا، واللاجئ السياسي إلى العراق سنة ١٩٤٠. ويرجح صحة هذا الاستنتاج أن الحرفين س. أ. هما الحرفان الأولان من الاسمين سعيد وإمام، المعروف بعدم الانضباط(٤٧). فقد ذكر منير الريّس، عامل الحركة في سوريا، في تقرير رفعه إلى مجلس القيادة في بغداد بتاريخ ٥ شباط سنة ١٩٤١ أن سعيد الإمام حاول شق صفوف الحركيين وإحداث انقسام في الحركة في سوريا بمساعدة أنصار المفتي الحاج أمين الحسيني(٤٨).

---

(٤٥) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ١.

(٤٦) المصدر ذاته، ص ٣.

(٤٧) سألت «عصام» واصف كمال توضيحاً لخلاف س. أ. مع قيادة الحركة، لأنه هو الذي خاطب س. أ. بهذا الموضوع. فلم يستطع أن يتذكر الحادثة بالتحديد. ولكنه قال إن سعيد الإمام أثار بضعة خلافات مع قيادة الحركة بسبب عدم التزامه الكامل بالانضباط الحزبي، وأن القيادة عاقبته مرة بوقف عضويته في الحركة بعض الوقت. المؤلف.

(٤٨) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.148: Also.

صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة في العراق، ص ١٨.

وليس في محاضر اجتماعات مجلس القيادة ما يجيب عن التساؤلات الأخرى، ولا سيما عن سبب هذا الخلاف الناشب بين س. أ. ومجلس القيادة. والمرجح هنا أيضاً، هو أن السبب يرجع إلى الاختلاف بوجهات النظر السياسية بصدد الموقف الذي ينبغي على الحركة أن تتخذه من المعسكرين المتحاربين. فالمعروف أن سعيد الإمام كان من المراهنين على انتصار ألمانيا النازية والداعين إلى اتخاذ موقف صريح بالانحياز إلى جانبها بالحرب، في حين أن مجلس القيادة لم يكن قد اتخذ موقفاً نهائياً بهذا الشأن، بل كان لا يزال يوازن بين الخيارات المختلفة ليتخذ منها الخيار الأفضل الذي يؤمل بالنصر، وبأفضل النتائج لمصلحة القضية العربية.

مشاكل الإفشاء:

نمي إلى أمين الحركة كاظم الصلح في بغداد، أن أفراداً قليلين من أعضاء الحركة العربية السرية في سوريا ولبنان لا يلتزمون كليّاً بمبدأ المحافظة على السرية المطلقة في ما يتعلق بالحركة. فقلق لهذا الخروج على الانضباط، والتهاون في تحمل المسؤوليات الحزبية، واعتبر ذلك «مشكلة» حقيقية تواجه القيادة والحركة، ولا يجوز التغافل عنها، والتنبيه إلى خطرها. وقد ضمن كاظم الصلح مشروع التقرير الذي أعده عن أعمال القيادة، وعلى الأخص في العراق، بنداً عن هذا الموضوع توجه بالعنوان التالي:

«مشاكل الإفشاء: قوزما، الرفاعي، صيدا، عسيران، الثرثار الذي في الشام، إلخ»(٤٩).

وفي أغلب الظن أن الثرثار الذي بالشام المقصود، هو سعيد الإمام. ولكن هذه «الثرثرة» كما وصفها كاظم الصلح، كانت محدودة الأثر، وجرت معالجتها، وأمكنت السيطرة عليها، وحافظت الحركة على سريتها بشكل جيد كامل.

---

(٤٩) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٣.

مشاكل غير محددة:

وتذكر الوثيقة، أيضاً، مشاكل سعد، وسمير، وأسامة، وصادق، وعدنان، من دون أن تورد أية تفاصيل عن طبيعة هذه المشاكل وعن علاقة هؤلاء بالحركة[٥٠].

مشكلة «الصاحب»:

تحدثت إحدى وثائق الحركة في أوراق كاظم الصلح عن مشكلة «الصاحب». والصاحب هذا هو الاسم الرمزي الذي أطلقته الحركة على الزعيم الوطني السوري شكري القوتلي في قضية معينة بقصد التمويه والمحافظة على السرية.

نشأت المشكلة في أثر سقوط فرنسا الذريع أمام الجيش الألماني في أوائل الحرب العالمية الثانية. وكان من نتائجها المباشرة ما أصاب فرنسا من ضعف عسكري، وانقسام سياسي، وإحباط معنوي؛ ناهيك عن احتلال الجيش الألماني معظم أراضيها، وتحكمه بسائر شؤونها بموجب اتفاقية الهدنة الموقعة بتاريخ ٢٢ حزيران سنة ١٩٤٠. وكان هذا التطور المفاجيء الذي أنهك فرنسا قد أنعش في نفوس اللبنانيين والسوريين الأمل بالحصول على الاستقلال قريباً. وقد وصف عامل الحركة في سوريا حالة الشعب النفسية السائدة في ذلك الحين بقوله:

«إن معنويات الشعب النفسية ارتفعت في الآونة الأخيرة، وإن الناس يشعرون بأن بقاء الفرنسيين في هذه الديار لن يدوم طويلاً»[٥١].

وحفز هذا الشعور المناضلين الوطنيين في البلدين، وفي العراق كذلك، على الاستعداد للقيام بالثورة ضد الفرنسيين، إذا لزم الأمر ذلك.

---

(٥٠) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٣.

(٥١) أوراق كاظم الصلح، من رسالة من رئيس فرع الحركة في سوريا إلى القيادة في بغداد بتاريخ ٣١ تموز ١٩٤٠. عن رغيد الصلح Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.125, 145.

واستغل شكري القوتلي الانهيار الذي أصاب فرنسا ودعا إلى تأسيس تكتل سياسي تشارك فيه سائر الأحزاب والهيئات والشخصيات الوطنية في سوريا ولبنان، تكون غايته العمل بمختلف الوسائل لتحرير البلدين من الحكم الفرنسي، وتحقيق الاستقلال لكليهما.

راقت الدعوة التي أطلقها شكري القوتلي لتأسيس التكتل المذكور لبعض «الأركان» الحركيين الموجودين في سوريا ولبنان. فعقدوا اجتماعاً، متخذين صفة «مجلس أركان الحركة»، بحثوا فيه الدعوة، وقرروا مبدئياً الاستجابة لها، والمشاركة بالتكتل المقترح، ليس باسم الحركة جهاراً، وإنما بشكل غير مباشر. وقد اتخذ «الأركان» هذا القرار بنية السيطرة على التكتل، واحتوائه، وجعله نقطة اعتماد إضافية للحركة، وقام رئيس فرع الحركة في سوريا بإبلاغ مجلس القيادة في بغداد خلاصة ما جرى، برسالة بتاريخ ٣١ تموز ١٩٤٠[٥٢].

غبّ استلامها رسالة عاملها في سوريا عقدت قيادة الحركة في بغداد اجتماعاً نهار الجمعة التاسع من آب ١٩٤٠، للنظر في ما تضمنته الرسالة من معلومات وأخبار. فكانت ردة فعلها إيجابية مرضية من ناحية، وسلبية رافضة من ناحية أخرى. فقد أعربت القيادة عن رضاها لاستمرار عمالة سوريا في العمل، وبذل الجهد لتحقيق أهداف الحركة، ونوهت بشكل خاص، بالاستعدادات الثورية التي تقوم بها العمالة السورية، والتي يجب أن تبقى محصورة ضمن إطار الحركة، وبالتنسيق الكامل مع القيادة في كل ما يتعلق بهذا الموضوع. وسجلت القيادة موقفها بقرار هذا نصه:

«تلي تقرير وارد من عمالة سوريا فتقرر: أن يشكر العامل ورفاقه على مجهوداتهم... وأن يبلغ العامل بوجوب الاستمرار على التشكيلات الثورية التي يقوم بها أحد الأعضاء، على أن يصب ذلك كله في بوتقة الحركة،

---

(٥٢) أوراق كاظم الصلح، الوثيقة رقم ٤٨.
أيضاً .Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.125

وأن لا يشرع بالعمل إلا بأمر من القيادة»[٥٣].

ولكن القيادة أعربت، في الوقت ذاته عن معارضتها ورفضها لما قام به «مجلس الأركان» في سوريا ولبنان منفردين، وللصفة غير الشرعية التي ادعوها لأنفسهم، خلافاً لقوانين الحركة، وأنظمتها وتسجل بمحضر الجلسة المذكورة بهذا الشأن القرار التالي:

«فتقرر: أن «مجلس الأركان»، الذي دعا إليه بعض الأركان، ليس قانونياً. فتبطل أعماله واجتماعاته»[٥٤].

ويبدو أن «الأركان» في سوريا ولبنان لم يتقيدوا بالأوامر والتعليمات الحزبية الصادرة إليهم من القيادة في بغداد، واستمروا بالتعاون مع «الصاحب» القوتلي، واشتركوا معه بتأسيس التكتل العلني الذي يتزعمه. فقد ورد في مذكرات منير الريّس بهذا الخصوص ما يلي:

«حاولت بعد إطلاق سراحنا[٥٥] **تنظيم الصف الوطني الذي تهلل وانفرط خلال الأحداث التي مرت بسوريا. فدعونا ممثلين عن الشباب الوطني، وعصبة العمل القومي، والنادي العربي، والمستقلين، وألفنا لجنة تمثل هذه الهيئات لتسير بالعمل الوطني جبهة واحدة. استعرضنا أسماء أقطاب الكتلة الوطنية لعلنا نتعاون مع الصالحين، فلم نجد في الساحة من نتعاون معه منهم غير شكري القوتلي... فانتدبتني اللجنة التي ألفناها، وتمثل أكثر الهيئات السياسية في البلد، وانتدبت معي علي الدندشي... لنتفاوض مع شكري القوتلي على التعاون معه في الحقل الوطني... وتنظيم العمل الوطني»**[٥٦].

ولدى اطلاعها على ما كان يجري في سوريا ولبنان، عقد مجلس القيادة في بغداد جلسة في السادس من تشرين الثاني ١٩٤٠، للنظر

---

(٥٣) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٣.
(٥٤) المصدر ذاته، ص ٣. أيضاً، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٣.
(٥٥) كان معتقلاً منذ ٢١ آذار ١٩٣٩ حتى تشرين الأول ١٩٤٠.
(٥٦) منير الريس، الكتاب الذهبي، ج ٣، ص ٢٩ . ٣٠.

بالأوضاع المستجدة، واتخذ بشأنها المقررات التالية التي أبلغت إلى العامل في دمشق:

«تقرر أن يسأل عامل سوريا (١) هل عمله ينطبق على الأصول، لما أسسوا نقطة اعتماد حول «الصاحب»، وما هي هذه النقطة؟ (٢) هل اتصاله المباشر بعمالة لبنان مشروع كذلك؟ وأن يسأل عامل لبنان السؤال ذاته.

وتقرر أن يسألا أن الرأي عندهم حتى الآن كان ضد رأي إنشاء حزب علني. فهل نقطة الاعتماد هذه حول «الصاحب» هي حزب علني»؟

وتقرر أن يبلغ العامل بأن خمسة دنانير شهرياً تكفي في هذه الآونة (ترسل من القيادة له) على أن تصرف فيما هو حزبي محض، أو الأعمال الأكثر حيازة على صفة الحزبية. (نقطة الاعتماد ليست بهذا الشكل مستحقة»[٥٧].

إن مشكلة «الصاحب» هذه، بقطع النظر عما آلت إليه، دلت مع غيرها من المشاكل، على بدء التمرد والارتباك بين القيادة والعمالات، وأظهرت أن نقل مقر القيادة إلى بغداد كانت له مساوئه ومشاكله التي أدت مع سواها من الأمور إلى تفكك الحركة وانهيارها.

مشاكل أخرى:

وشكت القيادة في بغداد من مشاكل أخرى ذات طابع داخلي صرف. وكان من أبرزها عدم مثابرة الحركيين، عموماً، بدقة على حضور الاجتماعات الرسمية، وتهاونهم وعدم اندفاعهم في العمل الحزبي. وفي محاولة لمعالجة مسألة الغياب، قررت القيادة في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٠ أن يُغرم المتأخر عن حضور الجلسة بدفع مئة فلس، والغائب بدفع مئتين وخمسين فلساً. وأن يعود إلى رئيس كل دائرة حق الإعفاء من العقاب إذا

---

(٥٧) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٥. ومواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٢.

كان للغياب ما يبرره بنظره[٥٨].

أما مسألة عدم النشاط في العمل الحزبي، فيبدو أن القيادة لم تأخذ بعين الاعتبار، بما فيه الكفاية، الظروف الاستثنائية التي قد تكون مسؤولة إلى حد بعيد عن التهاون في ذلك. فالمفاجآت الدراماتيكية المثيرة، والتطورات العسكرية الخطيرة، التي كانت تتوالى في مختلف جبهات القتال في الحرب العالمية الثانية خلال ذلك العام، ١٩٤٠، أوجدت حالة من الهلع والخوف في نفوس المواطنين، وشلت أعمالهم، وقيدت تحركاتهم في البلدان المحاربة والمحايدة على السواء. وقد عانى العراق من هذا الوضع مثل ما عاني منه سواه من الأقطار. وكان من الطبيعي في مثل تلك الأحوال القلقة المضطربة، وفي ظل الأحكام العرفية، وما يرافقها من القيود الأمنية الصارمة، أن تخفف الحركة نشاطاتها، وأن يتحاشى الحركيون كل عمل من شأنه أن يثير حولهم شكوك المخابرات المنتشرة في كل مكان، ويجلب لهم المتاعب. لهذه الأسباب عينها كانت الحركة قد خفضت نشاطاتها في سوريا ولبنان، ونقلت مقر مجلس قيادتها من بيروت إلى بغداد، قبل أن ينتقل الغليان والاحتقان إلى بغداد ذاتها.

إن المشاكل التي تم عرضها، وأسباباً مختلفة أخرى، تضافرت بنظر القيادة، في التسبب بعرقلة أعمال مجالس الحركة وأجهزتها، وساهمت في الحد من نشاطاتها وفاعليتها. لذلك رأى مجلس القيادة أن يعيد النظر في أوضاع الحركة، لكي يدخل عليها الإصلاح الضروري، الذي يؤمل أن يزيل أسباب التخاذل والضعف ويمدها بالحيوية والحزم. وكانت باكورة الإصلاح انتخاب يونس السبعاوي رئيساً للحركة.

٥ ـ انتخاب يونس السبعاوي رئيساً للحركة

أسباب اختيار السبعاوي:

تولى درويش المقدادي رئاسة الحركة العربية السرية في بغداد حوالى

---

(٥٨) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٤.

ستة أشهر، من ١٥ أيار حتى ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٠. وواجهت الحركة خلالها المشاكل المشار إليها أعلاه، والتي كانت موضع شكوى القيادة. وفي أثناء هذه الفترة ذاتها، وبسبب التطورات السياسية السريعة التي كانت تشهدها الساحة العراقية، تألق نجم «الركن» الحركي يونس السبعاوي، واشتهر كمناضل قومي مخلص واسع النشاط، شديد المراس، وتردد اسمه كمرشح لتولي منصب وزاري، وأصبح رقماً له وزنه في المعادلات السياسية.

قد يكون لهذين العاملين المتناقضين: فشل الحركة النسبي من جهة، ونجاح السبعاوي الملفت من جهة ثانية، تأثيرهما المباشر في التغيير الذي حصل بقيادة الحركة، وأوصل السبعاوي إلى الرئاسة تحت شعار الإصلاح. فرئيس الحركة درويش المقدادي فلسطيني، وموظف بوزارة المعارف. وكان بروتوكولياً، وتنظيمياً يتقدم في الحركة على السياسي البارز يونس السبعاوي. ولعل مجلس القيادة شعر بالحاجة لإجراء هذا التعديل في القيادة، أولاً، لتصحيح هذا الوضع البروتوكولي الشاذ، وثانياً، لاعتقاده بأن السبعاوي، كرئيس للحركة، يستطيع أن ينفعها ويساعدها في العراق، أكثر مما يستطيعه الرئيس المقدادي الفلسطيني. وثالثاً، لأمله بأن ما اشتهر به السبعاوي من نشاط وحركة سينتقل بالعدوى إلى سائر أجهزة الحركة وعناصرها. يضاف إلى ذلك كله الشعور الباطني بأن السبعاوي العراقي أحق برئاسة الحركة في بلده من الحركيين اللاجئين إليها من أقطار عربية أخرى مثل درويش المقدادي.

قد تكون هذه التقديرات صائبة كلها، أو بعضها، أو لا تكون كذلك. ولكن لا بد من أخذ هذه العوامل المذكورة أعلاه بعين الاعتبار عند النظر بحادث تغيير القيادة الذي نحن بصدده، لا سيما وأن وقائع جلسات مجلسي القيادة والوكلاء صامتة، ولا تلقي أي ضوء على هذا الموضوع، قبل طرحه فجأة على بساط البحث الجدي بأواخر ذلك العام. فما الذي حدث بالفعل حسبما ترويه الوثائق المتوفرة حتى الآن.

انتخاب السبعاوي رئيساً للحركة:

عقد مجلسا القيادة والوكلاء اجتماعاً مشتركاً نهار الجمعة في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٠، وتسجلت خلاصة ما جرى فيه بالمحضر، وهي بالنص الحرفي التالي:

«بحث [المجلسان] في مسألة عدم انتشار العمل الحزبي، فتقرر: تعيين لجنة من عامر [كاظم الصلح]، وعصام [واصف كمال]، وم. [ممدوح السخن]، لبحث مسألة حصر السلطات في شخص يكون رئيساً، باعتبار ذلك إصلاحاً يجري مفعوله خلال دورة، ثم ما يحيط بذلك من إصلاحات»(٥٩).

وعاد المجلسان إلى الاجتماع نهار الاثنين في ٢٧ تشرين الثاني ليستمعا إلى ما آلت إليه مداولات اللجنة بصدد موضوع الرئاسة. وقد تسجلت وقائع ذلك الاجتماع بمحضر تضمن النص التالي:

«عرضت اللجنة تقريرها، فكان رأي أعضائها متشعباً. ففي الرأي أن يكون المتولون ثلاثة تحصر بهم السلطات. وفيها البقاء على الحالة الحاضرة مع المضي في العمل. وانتهى البحث بأن يكون الحل بشخص واحد. فاقترح م. (وليد) [ممدوح السخن] أن يكون الشخص حيدر [يونس السبعاوي]. فحصلت الموافقة، فاستلم حالاً. ووقف اختصاص كل وكيل وغيره»(٦٠).

ويضيف أمين السر كاظم الصلح فقرة من عنده يفسر فيها هذا القرار، ويوضحه، ويبرز أهم خصائصه ومميزاته، وهي تتلخص بالأمور التالية:

١ ـ إن الصلاحيات المعطاة للرئيس الجديد يونس السبعاوي صلاحيات مطلقة تماماً، ولا يشاركه فيها أحد.

٢ ـ إن اجتماعات أعضاء مجلسي القيادة والوكلاء صارت استشارية فحسب، وليس للمداولات التي تجري فيها أية صفة تشريعية، أو قوة إجرائية.

---

(٥٩) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٥.
(٦٠) المصدر ذاته، ص ٦.

٣ - إنه لم يبق للوكالات والوكلاء أي اختصاص بعينه. وأصبحت مهمتهم تنحصر في تنفيذ الأوامر والتعليمات والتنظيمات التي تصدر عن رئيس الحركة، أو عمن يوكل إليه الرئيس بعض هذه المهمات بموجب الصلاحيات المطلقة الممنوحة له.

وطبقاً لهذا التنظيم الجديد توقفت الاجتماعات الرسمية لمجلسي القيادة والوكلاء، وبالتالي توقف الأمين العام عن تدوين محاضر الجلسات لأنه لم يبق من حاجة إليها(٦١).

الرئيس السبعاوي يستعين بمعاونين في إدارة الحركة:

لم يفت يونس السبعاوي، منذ اختياره رئيساً للحركة العربية السرية، أن وقته وطاقاته البشرية المحدودة لن تمكنه من تلبية اهتماماته وطموحاته السياسية، وإيلاء مسؤولية رئاسة الحركة حقّها من العناية والجهد على الوجه الأكمل في آن. وأدرك أن عليه أن يفاضل بينهما ليعطي الأولوية للجهة الواحدة على حساب الأخرى. وكان أن اختار الجانب السياسي، وانصرف بكليته إليه، واستعان بحركيين معتمدين ومقربين إليه، وعهد إليهم ممارسة صلاحياته المطلقة في نواح معينة بالنيابة عنه. مثال ذلك، ما سجله كاظم الصلح من أن يونس السبعاوي، بعد أيام قليلة من توليه رئاسة الحركة: «**كلف عامر [كاظم الصلح نفسه]، مثلاً، بأن يتولى ويكون مسؤولاً عن جميع ما يختص بسوريا ولبنان**»(٦٢).

ولما اضطر كاظم الصلح إلى التغيب عن العراق في السعودية بعض الوقت بمهمة حزبية وللحج أيضاً، ابتداءً من ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٤٠(٦٣)، «**تولى عصام [واصف كمال] أكثر الأعمال بتوكيل من حيدر [السبعاوي]**»(٦٤). استغرقت رحلة كاظم الصلح حوالى خمسة أشهر، ولما

(٦١) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٦.
(٦٢) المصدر ذاته، ص ٦.
(٦٣) أوراق كاظم الصلح، مواد لتقرير عن أعمال القيادة، ص ٢.
(٦٤) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٦.

عاد إلى بغداد في نيسان ١٩٤١ كان الوضع السياسي في العراق قد أصبح في غاية التأزم والخطورة بسبب الخلافات الحادة بين حكومة العراق والحكومة البريطانية، وكذلك بين القيادات السياسية والعسكرية العراقية ذاتها. وكان يونس السبعاوي في تلك الفترة قد أصبح وزيراً للاقتصاد بحكومة رشيد عالي الكيلاني، ومنهمكاً بالقضايا السياسية انهماكاً كلياً استغرق كل وقته وجهده، ولم يعد قادراً على التفرغ للاهتمام بالقضايا الإدارية والمسائل الحزبية الداخلية العادية، فتنازل عنها لسواه، واحتفظ لنفسه بصلاحيات تقرير سياسة الحركة العليا، واتخاذ القرارات الأساسية المصيرية.
ويذكر كاظم الصلح بهذا الصدد ما يلي:

«ولما رجعت ـ آخر نيسان ١٩٤١ ـ عهد إليّ حيدر [السبعاوي] بموجب الصلاحيات المطلقة المعطاة له، بجميع تلك الصلاحيات، فمارستها غير تارك الاستشارة والاستعانة بجميع الأركان»[٦٥].

وخاض السبعاوي بصفتيه الشخصية والحركية غمار المعركة السياسية الناشبة بين الحكومتين العراقية والبريطانية والتي أدت إلى حرب ١٩٤١ بين البلدين.

وهنا لا بد من استعراض دور الحركة في السياسة العراقية في الفترة ما بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤١.

٦ ـ الوضع السياسي في العراق قبيل الحرب العراقية البريطانية

الأفرقاء السياسيون:

منذ أن اشتدت الأزمة السياسية العالمية، وأخذت تهدد بنشوب الحرب العالمية الثانية في وقت قريب، بدأ المسؤولون والقادة الوطنيون العراقيون، يفكرون بالموقف الذي يجب عليهم اتخاذه من المعسكرين المتخاصمين، لتأمين مصالح العراق الحيوية، وتجنيبه أخطار الحرب ومآسيها المدمرة. وكانت بريطانيا، بموجب المعاهدة العراقية ـ البريطانية (١٩٣٠)،

(٦٥) أوراق كاظم الصلح، الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة، ص ٦.

تحتفظ بقاعدتين جويتين: الأولى في الحبانية على نهر الفرات غربي مدينة بغداد، والثانية في الشعيبة بالجنوب شمالي مدينة البصرة. وكانت بريطانيا تتمتع، في حال دخولها الحرب مع دول أخرى، بحق استعمال المرافئ والأجواء والأنهار والطرق العراقية، واستقبال الجنود البريطانيين، ومرورهم عبر الأراضي العراقية بأعداد محددة وفق شروط معينة. ولا تلزم المعاهدة العراق بإعلان الحرب على الدول العدوة لبريطانيا، أو بقطع العلاقات معها.

وكان السياسيون العراقيون فريقين: أحدهما موالٍ لبريطانيا، ويقول بالتحالف معها، والإخلاص لها بقوة وصدق، لاقتناعه بأن جميع مصالح العراق الحيوية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببريطانيا. وكان أبرز الشخصيات في هذا الفريق الوصي على العرش الأمير عبدالإله، ونوري السعيد، ورستم حيدر، وصالح جبر، وشاكر الوادي، وتوفيق السويدي، وجميل المدفعي. وكان الفريق الثاني، يرى أن يتريث العراق، ويتخذ موقف الحياد من المعسكرين، ويسعى، كما تفعل تركيا، للاستفادة من الأزمة السياسية الراهنة الضاغطة على بريطانيا لاستعادة حقوق العرب الوطنية، وتحقيق استقلال سوريا ولبنان وفلسطين، وتخفيف القيود الاستعمارية المفروضة على الأقطار العربية الأخرى. وضم هذا الفريق عدداً من السياسيين والعسكريين البارزين أمثال رشيد عالي الكيلاني وناجي السويدي، وناجي شوكت، وآخرين.

وفي أثناء ذلك دخل عنصر جديد على الوضع في العراق، ولعب دوراً رئيسياً في توجيه سياسته الخارجية وفي مجرى الأحداث الداخلية التي وقعت في العامين ١٩٤٠ - ١٩٤١. ففي أواخر ١٩٣٩ فرّ المفتي الحاج أمين الحسيني من لبنان ولجأ إلى العراق بتدبير ومساعدة من مسؤولين وزعماء سياسيين عراقيين كبار. وضمَّ ديوان المفتي الحسيني في بغداد عشرات اللاجئين السياسيين الفلسطينيين من زعماء وطنيين وثوار سابقين ومستشارين وأتباع وأنصار، كان منهم بعض الحركيين الذين كانوا يشاطرون المفتي قناعاته الوطنية وتوجهاته السياسية. وما لبث المفتي أن أصبح مرجعاً كبيراً ومحوراً رئيسياً من محاور النشاط السياسي، واتخاذ المقررات الوطنية

والقومية المصيرية[٦٦]. وكان المفتي وأنصاره لا يثقون ببريطانيا نظراً لتاريخها الطويل الحافل بالمواقف المعادية للمصالح العربية ولا سيما لمصالح وحقوق الشعب الفلسطيني في بلدهم.

وكان لقيادة الحركة العربية السرية في العراق، ومعظم أعضائها من اللاجئين السياسيين الفلسطينيين، رأي خاص في موضوع العلاقات العربية - البريطانية، عبرت عنه في مذكرة داخلية صدرت في أوائل سنة ١٩٤٠، وكان بعض ما جاء فيها يفيد ما يلي:

«إن العرب يأملون في أن تعترف بريطانيا بحقوقهم الوطنية في فلسطين لكي تضمن معاونتهم لها في الحرب القائمة. ولكن إخمادها الثورة الفلسطينية، وإحجام معظم العرب عن مدها بالدعم اللازم السريع الفعال أحبطا هذه الإمكانية... وإن على العرب من الآن وصاعداً أن يتابعوا المقاومة دون هوادة ضد السيطرة البريطانية»[٦٧].

وكانت الحركة العربية السرية متواجدة، بأعضائها وبنقط اعتمادها، في معظم الدوائر والأوساط السياسية، دون الاعلان عن هويتها الحزبية. مثال ذلك أنه كان من الحركيين المقربين من المفتي الحسيني عزالدين الشوا، وممدوح السخن وواصف كمال، وفي الجيش العقداء الأربعة وأنصارهم، وفي المحافل السياسية يونس السبعاوي وموسى الشابندر ومحمد حسن سلمان، وفي الإعلام مدير الدعاية صديق شنشل، وفي معاهد التعليم درويش المقدادي وواصف كمال ومحمد علي حمادة. وكان هؤلاء ورفاق لهم يمارسون أدواراً وطنية ناشطة في المواقع التي كانوا يشغلونها.

كان هؤلاء أبرز الأفرقاء السياسيين في الساحة العراقية، آنئذٍ. وكانت الحركة تدعم الفريق الذي يتبنى مبادئها ويخدم أهدافها، وتعارض كل ما تعتبره منافساً لتلك المبادئ والأهداف، ومضراً بالمصالح العربية الأساسية.

---

(٦٦) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٣٦.

(٦٧) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, pp.137-138.

نوري السعيد يقطع علاقة العراق مع ألمانيا:

كان المفترض من سائر الأفرقاء السياسيين العراقين، احترام المعاهدة البريطانية ـ العراقية، والتقيد بأحكامها نصاً وروحاً. ولكن رئيس الوزراء، لولب النشاط السياسي في الفريق الموالي للإنكليز، ووزير الخارجية علي جودت الأيوبي، خالفا هذا المبدأ، وتجاوزا نص المعاهدة وانفردا بالتصريح للسفير البريطاني في بغداد، قبل نشوب الحرب بأيام قليلة، بأن العراق سيقطع علاقته بألمانيا ويعلن الحرب عليها، حالما تعلن بريطانيا عليها الحرب[٦٨]. ولما نشبت الحرب، بادر نوري السعيد إلى قطع علاقات العراق مع ألمانيا، وسلم الرعايا المدنيين الألمان الموجودين في العراق إلى البريطانيين، الذين أخذوهم أسرى إلى الهند، خلافاً لنص المعاهدة وللأعراف الدولية[٦٩].

ردة الفعل على تصريح نوري السعيد:

أثار تصريح نوري السعيد ووزير خارجيته عاصفة من النقد الشديد في الأوساط السياسية والعسكرية على السواء. فقد تنصل عدد من الوزراء (طه الهاشمي ورستم حيدر ومحمود الدفتري) من تبعة هذا التصريح، وأعلنوا أن معاهدة التحالف مع بريطانيا لا تلزم العراق بقطع العلاقات ودخول الحرب إلى جانبها. واستنكر السياسيون الآخرون الذين يختلفون مع نوري السعيد في نهجه السياسي. واستنكره كذلك رئيس أركان الجيش وضباط كبار آخرون[٧٠].

العقداء الأربعة يسيطرون على الجيش:

تطور الخلاف بسرعة، في شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، بين الفريق المؤيد

---

(٦٨) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٠٦، أيضاً، عبد الهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٦٩) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ و١٤٠.

(٧٠) المصدر ذاته، الحرب ١٠٦.

للبريطانيين، والفريق الآخر الذي لم يكن قد حدد موقفه من الحرب بعد. وتعمق الخلاف واشتد، وانتقلت عدواه إلى العسكر، وأحدث انقساماً خطيراً في صفوفهم، أفضى في ليل ٢١ - ٢٢ شباط سنة ١٩٤٠ إلى حدوث انقلاب أبيض كسب الجولة فيه العقداء الأربعة، وتمكنوا من تثبيت سيطرتهم على الجيش[٧١]. ويورد محمود الدرة بهذا الصدد قوله ما يلي:

«وحرص العقداء الأربعة: صلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، وكامل شبيب، ومحمود سلمان، وخامسهم العقيد سعيد يحيى الخياط على أن يكون الجيش بيدهم بلا منازع ينازعهم السلطة عليه، أو أن يتخذ أحد غيرهم بعض قطاعات الجيش آلة يستخدمونها لإسقاط الوزارة التي لا يثقون بغير رجالها[٧٢]. وهكذا تبلور الصراع السياسي في العراق وتحول... إلى خلاف عميق بين وجهتي نظر مختلفتين، وترتبطان، بحكم الصراع الأممي القائم بين معسكري العالم النازي والديمقراطي، بهذا المعسكر أو ذاك»[٧٣].

خطة للوفاق:

إن الخلافات السياسية، والصراعات الحزبية، والنزاعات الشخصية، التي عصفت في الساحة العراقية في أوائل سنة ١٩٤٠، وبلغت ذروتها في الانقلاب الأبيض، الذي حسمه العسكريون بمعسكر الرشيد في بغداد بليل ٢١ - ٢٢ شباط ١٩٤٠، دقت ناقوس الخطر، وأنذرت العراق بأوخم العواقب، إذا لم يجرِ احتواؤها، وتتم السيطرة عليها. وكانت أجواء الحرب العالمية الثانية، وانعكاساتها القوية المتباينة على الوضع في العراق، تغذي هذه الخلافات والصراعات، وتزيدها حدة وخطراً على الأمن والاستقرار.

وهذا ما حفز المسؤولين والزعماء السياسيين، على اختلاف مواقعهم ونزعاتهم، على التلاقي والاتفاق على وجوب مواجهة هذا الوضع الدقيق بحكمة ودراية وإجماع، وذلك برص الصفوف، وتوحيد الكلمة، ونبذ

(٧١) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٠٦.
(٧٢) المصدر ذاته، ص ١٢٢.
(٧٣) المصدر ذاته، ص ١٣٨.

الصراعات الداخلية، ووقف هيمنة الجيش على الحياة السياسية، وتشكيل حكومة اتحاد وطني تتمثل فيها التيارات السياسية المختلفة، ويشترك فيها أكبر عدد ممكن من الأقطاب السياسيين، وتكون قادرة على مواجهة التحديات الناشئة عن حالة الحرب، وصون المصالح القومية العليا للعراق خصوصاً، وللعرب عموماً، في تلك الظروف الصعبة. وبذلت جهود حثيثة، ساهم فيها بفعالية الحاج أمين الحسيني، لإقناع العقداء الأربعة بقبول هذه الخطة وتأييدها[٧٤].

وزارة الأقطاب:

عندما تم الإجماع على تبني الخطة المذكورة، قدم رئيس الوزراء نوري السعيد استقالة حكومته في ٣١ آذار ١٩٤٠ إلى الوصي على العرش الأمير عبدالإله، فقبلها فوراً وكلف رئيس الديوان الملكي رئيس الوزراء الأسبق رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الحكومة الجديدة، فتشكلت في ١ نيسان، وكانت حكومة أقطاب واتحاد وطني بالفعل، لأنها ضمت، فضلاً عن رئيسها رشيد عالي الكيلاني، ثلاثة رؤساء وزارة سابقين هم نوري السعيد، وناجي السويدي، وناجي شوكت، وستة وزراء من العسكريين والمدنيين الفاعلين، وهم طه الهاشمي، وعمر نظمي، ومحمد أمين زكي، وصادق البصام ورؤوف البحراني[٧٥].

لم يتيسر لهذه الحكومة أن تباشر أعمالها في جو هادئ مريح. فما كادت تنقضي بضعة أيام فقط على تأليفها حتى فوجئت، مثلما فوجئ العالم بأسره، بالتطورات العسكرية الدراماتيكية التي وقعت في غرب أوروبا وشرقها. ففي الغرب شن الجيش الألماني هجوماً كاسحاً على الدانمرك والنروج، فهولندة وبلجيكا وفرنسا، وانتصر عليها، وبسط سيطرته القوية على كامل القارة الأوروبية الغربي. وفي الشرق كان الاتحاد السوفياتي قد استولى كذلك على القسم الشرقي من بولندة وعلى دول البلطيق الثلاث. وأصبحت بريطانيا

---

(٧٤) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٣٨.
(٧٥) المصدر ذاته، ص ١٣٩.

وحيدة معزولة معتصمة بجزرها، ومهددة بالغزو الألماني في كل لحظة.

إيطاليا تدخل الحرب:

شجعت انتصارات هتلر السريعة السهلة صنوه وحليفه موسوليني على دخول الحرب ليضمن لإيطاليا حصتها من الغنائم المتوقعة. فأعلن الحرب في العاشر من حزيران سنة ١٩٤٠ على فرنسا وهاجمها وهي على آخر رمق، فقلقت بريطانيا لهذا التطور الخطير، وقدرت أن إيطاليا لن تلبث طويلاً قبل أن تنقل الحرب إلى حوض البحر المتوسط الشرقي، وتهدد طرق مواصلاتها ومصالحها الحيوية بمنطقة الشرق الأدنى كلها، بما في ذلك قناة السويس ذات الأهمية الاستراتيجية العسكرية في زمن الحرب. ولمواجهة هذا الخطر، قررت الحكومة البريطانية استقدام قوات كبيرة من مستعمراتها في الهند وأوستراليا وغيرهما من بلدان الشرق الأقصى، وحشدها في مصر لصد غزوٍ محتمل لوادي النيل، انطلاقاً من ليبيا المجاورة، التي كانت مستعمرة إيطاليا في ذلك الحين. ولما كان على تلك القوات القادمة من الشرق، أن تمر بالعراق في طريقها إلى مراكز تجمعها في فلسطين ومصر، فقد أرادت الحكومة البريطانية أن تؤمن سلامة هذه الطريق التي ستسلكها قواتها، وأن تمتحن، في الوقت ذاته، حقيقة نوايا حكومة العراق تجاهها[٧٦]. فتذرعت بدخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، لتتقدم من حكومة رشيد عالي الكيلاني ـ حكومة الأقطاب ـ بطلبين ملحين: يقضي أولهما بقطع علاقات العراق مع إيطاليا[٧٧]، وينطوي ثانيهما على تهديد بالقوة، غير مباشر، في رسالة من الحكومة البريطانية إلى وزارة الخارجية العراقية بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٤٠ بالنص التالي:

«إن الحكومة البريطانية قررت إنزال بعض الجنود البريطانيين في البصرة للتوجه منها إلى حيفا عن طريق بغداد والموصل. ولكي يكون في الإمكان الشروع بنقل هؤلاء الجنود بعد مدة قصيرة ـ أي حوالى منتصف

---

(٧٦) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ، ص ١٥٠.

(٧٧) المصدر ذاته، ص ١٥٠.

شهر تموز سنة ١٩٤٠ ـ طلبت السفارة أن تقوم القوة الجوية البريطانية من قاعدتها في الشعيبة (القريبة من البصرة) بتأسيس معسكرات للاستراحة في البصرة وبغداد والموصل بتاريخ مبكر»[٧٨].

٧ ـ بين المطالب البريطانية والمطالب العربية

مجلس الدفاع الأعلى العراقي:

فوجئت حكومة رشيد عالي الكيلاني بالمطالب البريطانية، لمخالفتها أحكام المعاهدة العراقية ـ البريطانية، ولأنها تمس أمن العراق وسيادته. فلم تشأ الانفراد بالرد عليها، ودعت مجلس الدفاع الأعلى العراقي، وشخصيات عسكرية أخرى فاعلة، لبحث هذه المطالب، والمشاركة في اتخاذ المقررات المناسبة بشأنها. عقد المجلس اجتماعاته في تموز سنة ١٩٤٠، وكان يتألف من رئيس مجلس الوزراء رشيد عالي الكيلاني، وعضوية كل من: وزير الخارجية نوري السعيد، ووزير الدفاع طه الهاشمي، ووزير المالية ناجي السويدي، ووزير المواصلات عمر نظمي، ووزير الاقتصاد محمد أمين زكي، ووكيل رئيس أركان الجيش اللواء أمين زكي سليمان، وأمين سر المجلس المكلف بتدوين الوقائع والمقررات الرائد الركن محمود الدرة»[٧٩].

مجلس الدفاع الأعلى ينظر بالمطالب البريطانية:

تضمن جدول أعمال المجلس ثلاثة بنود رئيسية، هي: مسألة قطع العلاقات مع إيطاليا، ومسألة بناء معسكرات بريطانية جديدة في جنوب العراق ووسطه وشماله، ومسألة تحديد موقف العراق الصريح من المعسكرين المتحاربين.

ناقش المجتمعون هذه المسائل بعمق وتفصيل في ضوء المعاهدة العراقية ـ البريطانية، ومصلحة العراق العليا. واتفقوا على احترام المعاهدة، والتقيد الكامل بتنفيذ جميع بنودها نصاً وروحاً، والالتزام بتقديم كل ما

---

(٧٨) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٥٠ ـ ١٥١.
(٧٩) المصدر ذاته، ص ١٥٧.

تفرضه على العراق من موجبات نحو حليفته بريطانيا. ويصف سكرتير المجلس محمود الدرة في مذكراته كيف جرت تلك المداولات، والأجواء التي سادتها، والقررات التي تم التوصل إليها.

مسألة قطع العلاقات:

بالنسبة إلى المسألة الأولى، وجد المجلس، وقررت هيئة من المستشارين الخبراء القانونيين، أن المعاهدة لا تلزم العراق بقطع علاقاته مع أية دولة ثالثة تكون في حالة حرب مع بريطانيا، وبالتالي فإن العراق غير ملزم بقطع تلك العلاقات. ونتيجة لذلك، يذكر محمود الدرة، ما يلي:

«ورأت غالبية أعضاء المجلس فيما يتعلق بقطع العلاقات السياسية مع إيطاليا وجوب التريث والانتظار لأنهم يعتقدون بانتصار المحور على بريطانيا، وانفرد نوري السعيد برأيه بوجوب قطع العلاقات فوراً، وأيده بالرأي محمود أمين زكي»[٨٠].

فكان هذا القرار بمثابة رفض ملطف للطلب البريطاني غير المشمول بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية.

مسألة بناء المعسكرات:

وبالنسبة إلى مرور القوات البريطانية الآتية من الشرق عبر العراق، وبناء معسكرات جديدة في البصرة وبغداد والموصل لاستقبالها وإقامتها، فقد اختلف العراقيون والبريطانيون في تفسير بنود المعاهدة العراقية ـ البريطانية وملاحقها، بهذا الخصوص. قال العراقيون إن المعاهدة تحدد طريق عبور القوات المذكورة، على الشكل التالي:

«إن مرور القوات البريطانية عبر العراق يقصد به المرور من أي محل غربي الفرات إلى الخليج الفارسي، وبعكس هذه الجهة»[٨١].

وبما أن بغداد والموصل بعيدتان عن مجرى نهر الفرات لجهة

---

(٨٠) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٨١) المصدر ذاته، ص ١٥٢.

الشرق، ولا تقعان بطريق عبور القوات البريطانية المذكورة، فإن المطالبة ببناء معسكرين فيهما هو مطلب في غير محله، فضلاً عن أنه مخالف لمعاهدة التحالف، إذ ليس فيها أي بندٍ يجيز لبريطانيا القيام ببناء مثل هذه المعسكرات الجديدة في الأراضي العراقية.

ولكن البريطانيين فسروا المعاهدة بشكل مغاير للتفسير العراقي. فزعموا بأن النصوص التي تتحدث عن مرور القوات البريطانية عبر العراق، إنما «**تشير إلى المحلات النهائية المقصودة، ولا تفرض شيئاً من التحديد بشأن الطريق أو الطرق التي قد تتبع للسير داخل العراق... والتي قد تستخدمها قوات صاحب الجلالة**»[٨٢].

بإزاء هذا التباين الكبير في تفسير المعاهدة، طلب مجلس الدفاع الأعلى من رئاسة أركان الجيش، دراسة الوضع وإعداد تقرير للموقف العسكري، يبين رأي الجيش بهذا الموضوع وانعكاساته على أمن العراق ومصالحه. فكلفت رئاسة الأركان العقيد صلاح الدين الصباغ (حركي) إعداد التقرير المطلوب. وقد أثار الصباغ في تقريره بضعة تساؤلات حول الاحتمالات التي يمكن أن تشكل تهديداً لأمن العراق وسلامته، وتوصل إلى الاستنتاجات التالية:

«**أما وإن هدف الإنكليز من تحشدهم في العراق ينافي كل هذه الاحتمالات، فإنه لم يبق غير احتمال واحدٍ لا احتمال غيره، وهو أن هدف الإنكليز من تحشدهم في العراق هو العراق نفسه، وأن تحشيد جيش بريطاني في العراق يعتبر مخالفاً لنصوص المعاهدة العراقية ـ البريطانية**»[٨٣].

إن طلب بريطانيا بناء المعسكرات في البصرة وبغداد والموصل فاجأ القوميين العراقيين وأثار مخاوفهم وشكوكهم بصدق الحكومة البريطانية وحسن نواياها. وعبر أمين سر مجلس الدفاع الأعلى محمود الدرة عن هذه المخاوف والشكوك التي ساورت الخواطر، بقوله:

---

(٨٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٥٣.

(٨٣) المصدر ذاته، ص ١٦٢.

«والواقع أن العسكريين العراقيين كانوا يرون في هذا الطلب إنذاراً موجهاً إلى العراق. فإن مرور قوات عن طريق الموصل، لا يمكن أن يفسر غرضه، ذهاب تلك القوات إلى حيفا (فلسطين)، إذ تعترض تلك القوات الحدود السورية ـ العراقية المشتركة التي لا تستطيع قوات بريطانية المرور عبرها»(٨٤).

ومرة أخرى لم تستجب حكومة رشيد عالي الكيلاني للمطالب البريطانية المخالفة للمعاهدة بين البلدين.

مسألة موقف العراق من المعسكرين المتحاربين:

استحوذت مسألة تحديد موقف العراق من المعسكرين المتحاربين على قسم كبير من المداولات التي جرت في اجتماعات مجلس الدفاع الأعلى. ولعل أفضل ما يمكن قوله بهذا الصدد، ما سجله أمين المجلس محمود الدرة، فقد دوّن في مذكراته، ما يلي:

«وكانت هناك ثلاثة اتجاهات مؤثرة في تحديد موقف العراق من المعسكرين المتحاربين... فالاتجاه الأول هو الانحياز المطلق إلى معسكر الحلفاء ـ أي إلى الجانب البريطاني دونما قيد أو شرط. وتبناه نوري السعيد، وأيده فيه محمد أمين زكي وعمر نظمي. ويعتقد نوري بنصر الحلفاء النهائي في الحرب. ويرى بأن ميثاق الصداقة الروسي ـ الألماني سينهار، وأن هتلر سيهاجم أراضي الاتحاد السوفياتي في مستقبل غير بعيد، وعندها ستقرر هزيمة هتلر وحلفائه المحتمة. ويرى نوري السعيد أن العراق مجبر على سلوك هذا الاتجاه وغير مخير في ربط مصيره بالحلفاء الغربيين والأميركان الذين يقفون إلى جانبهم، نظراً لوضعه الداخلي العام ولضعفه العسكري...

أما الاتجاه الثاني لبعض أعضاء المجلس، فكان يرى وجوب مساومة بريطانيا لكي يقرر العراق مصيره إلى جانبها. والاتجاه الثالث يقضي بوجوب التريث في عدم الانحياز لأي من المعسكرين المتحاربين، على نحو ما تفعل

---

(٨٤) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٥٣.

تركيا، إلى أن ينجلي الموقف العسكري... وتبنى هذا الرأي العناصر السياسية المتطرفة في خارج الحكم، وعلى رأسها الحاج أمين الحسيني والمحامي يونس السبعاوي، رئيس الحركة العربية السرية، اللذان أوثقا روابط الصلة بالقادة [العقداء] الأربعة [حركيون]، فصاروا يتبنون مع الوقت رأي المفتي والسبعاوي. كما ينتصر للاتجاه الثالث أولئك الذين يتبنون الاتجاه الثاني، في حالة عدم التوصل إليه»[٨٥].

ومجمل القول أن مجلس الدفاع والحكومة آثرا التريث في تحديد موقف العراق، الذي كانت الحكومة البريطانية تستعجله إلى جانبها.

حقيقة الموقف العربي:

لم تستجب مقررات حكومة رشيد عالي الكيلاني ومجلس الدفاع الأعلى للمطالب البريطانية الجديدة، كما أنها لم ترفضها بالمطلق، بل أوصت بالتريث في البتّ بأمرها، بانتظار الموقف العسكري في جبهات القتال، وإبقاءً على الباب مفتوحاً للحوار والمساومة واستغلال ظروف الحرب الحرجة الضاغطة على الطرفين المتحاربين، للحصول منهما على أكبر قدر ممكن من المكاسب[٨٦].

والواقع هو أن معظم المعنيين بالقضايا القومية العربية في العراق وفلسطين وسوريا ولبنان كانوا، في قرارة نفوسهم، يفضلون الاتفاق مع بريطانيا، على علاتها، والوقوف إلى جانبها في الحرب، إذا ما استجابت لمطالبهم، وقطعت لهم عهداً صادقاً، وأعطتهم ضمانات أكيدة، لمساعدتهم على تحقيق تلك المطالب بعد انتصار الحلفاء في الحرب[٨٧]. ذلك، على حد قول عثمان كمال حداد:

---

(٨٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤١ . ١٤٢.

(٨٦) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١، ص ٢٩. (صيدا، المكتبة العصرية، . . .).

(٨٧) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٥٥. أيضاً:
Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.137.

«لأن العرب يعرفون تمام المعرفة أن المحور لا يقل تعسفاً واستعماراً عن الحلفاء، وأن ألمانيا وإيطاليا من الدول الغارقة حقاً في الاستعمار، وأنه لا يرجى منهما انتصار لحق الشعوب المظلومة، وبالأخص للأمة العربية، وأن كل ما هنالك هو الاستفادة من الوضع الدولي لتحسين وضع العرب... وسنرى فيما بعد أن رجال هذه الفئة كانوا أقرب إلى الاتفاق مع الحلفاء على هذه الشروط، وأنهم كانوا يخشون المحور أكثر من خشيتهم الحلفاء أنفسهم»(٨٨).

وبالنتيجة يمكن القول إن الاعتراف بالمطالب العربية والتعهد بتحقيقها كانا المعيار الأهم والشرط الرئيسي لقبول القوميين العرب في العراق توجيه سياسة بلدهم للانحياز إلى أحد المعسكرين المتنازعين.

المطالب العربية:

كانت حكومة رشيد عالي الكيلاني وأنصارها القوميون يرفضون الانحياز إلى أحد المعسكرين مجاناً. ويعتبرون أن لكل شيء في الحياة ثمناً يجب على صاحب الحاجة أن يؤديه. وجعلوا ثمن انحيازهم الاعتراف بحقوقهم وتلبية مطالبهم القومية والوطنية. وقد أصبحت تلك المطالب محددة ومعروفة ومعلنة. وهي تتلخص بالآتي:

- تعديل معاهدة التحالف مع بريطانيا، بقصد إلغاء جميع البنود والشروط التي تحد من سيادة العراق الكاملة، والاعتراف باستقلاله التام الناجز.
- الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره بحرية كاملة.
- التعهد بموجب مواثيق رسمية بمنح الاستقلال الكامل الناجز لكل من سوريا ولبنان وفلسطين.
- تسليح الجيش العراقي ليكون قادراً على تحمل نصيبه في المجهود الحربي العام إلى جانب الحلفاء.

---

(٨٨) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي، ص ١١.

- مساعدة العراق اقتصادياً ومالياً ليجتاز أزمة الحرب دون ضنك أو عناء شديدين.

- الموافقة والمساعدة على تحقيق قيام الوحدة العربية[٨٩].

فشل مساعي التوفيق:

فيما كانت شقة الخلاف حول مطالب بريطانيا من العراق، ومطالب العراق من بريطانيا، تتسع وتشتد، جرت مساع للتوفيق بينهما، قام بها مسؤولون عرب وبريطانيون. لقد بذل أصدقاء بريطانيا في العراق، وفي مقدمتهم الوصي عبدالإله ووزير الخارجية نوري السعيد وآخرون، جهوداً حثيثة لإقناع القوميين بفوائد التحالف والتساهل مع بريطانيا من جهة، ولحمل الحكومة البريطانية على تلبية بعض المطالب العربية، كمبادرة لحسن النية، وإعادة بناء الثقة بينهما من جهة ثانية.

وفي الوقت ذاته قام مسؤولون بريطانيون بمحاولة توفيقية مماثلة. ففي ٢١ حزيران سنة ١٩٤٠ قام الخبير البريطاني بالشؤون العربية الكولونيل نيو كمب بزيارة بغداد وتحاور مع عدد من المسؤولين والزعماء العراقيين. وبعد عودته إلى لندن عرض للمسؤولين فيها بضعة حلول للمسألة الفلسطينية والقضايا العربية الأخرى باعتبارها تشكل أساساً للتسوية العامة ونقطة انطلاق للحوار البناء مع المفتي الحاج أمين الحسيني ورئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني[٩٠].

وكان السفير البريطاني في بغداد، نيوتن (Newton)، والسفير البريطاني في القاهرة، لمسن، قد أوصيا حكومتهما بإظهار بعض التفهم والتعاطف مع المطالب العربية، لأن ذلك من شأنه أن يساعد على تعزيز نفوذ بريطانيا، ويدعم مواقف أصدقائها العرب في المنطقة، ويمهد لتوجيه السياسة

---

(٨٩) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٣٨ . ١٤١. أيضاً:
Raghid. Solh, Lebanon and Arab, Nationalism, p.137.

(٩٠) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.137.

الخارجية العربية العامة إلى الانحياز إلى معسكر الحلفاء[٩١].

ولكن جميع هذه المحاولات التوفيقية كانت قبل نهاية آب سنة ١٩٤٠ قد جوبهت بالرفض من جانب الحكومة البريطانية، ومن رئيسها ونستن تشرشل بالذات[٩٢].

خيبة أمل العراقيين:

كانت حكومة الاتحاد الوطني التي تشكلت برئاسة رشيد عالي الكيلاني، في ١ نيسان سنة ١٩٤٠، قد راهنت على إمكان التوصل إلى اتفاق مرضٍ مع الحكومة البريطانية، وأملت في أن تلبي بريطانيا مطالب العراق الأساسية، ويقف العراق بالمقابل إلى جانبها في حربها ضد دول المحور، ويؤمن لها حاجاتها اللوجستية والاستراتيجية داخل أراضيه متجاوزاً موجبات معاهدة التحالف بينهما. وبعد مساع حثيثة ومداولات جادة في هذا السبيل، استغرقت حوالى شهرين ونصف الشهر، تبين للحكومة العراقية أن رهانها كان خاسراً، وأن أملها كان وهماً وسراباً. وزادت العلاقات بين الحكومتين العراقية والبريطانية توتراً وسوءاً، وفقد الأمل بالتفاهم الودي المتكافئ بينهما. وفي ضوء هذا الواقع، ترتب على حكومة الكيلاني أن تعيد النظر في سياستها العامة، وفي علاقاتها الخارجية بشكل خاص، وأن تتخذ القرارات، وتتبنى المواقف التي تراها ضرورية لحماية سيادة العراق واستقلاله من الأخطار، وتأمين مصالحه الوطنية الحيوية، وتحقق أهدافه القومية العليا.

٨ ـ العرب ودول المحور

بدء الاتصالات العربية بدول المحور:

كان لموقف الحكومة البريطانية السلبي من المطالب العربية، ولإصرار القوميين العرب بقوة على التمسك بتلك المطالب، أسوأ العواقب. فقد أدت تلك المواقف المتضاربة التصادمية، إلى انعدام الثقة كلياً بين الجانبين،

(٩١) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, pp.136-137.

(٩٢) Ibid., p.137.

وتصعيد حدة الأزمة الناشبة بينهما، وإقدام الجانب العربي على فتح أقنية اتصال سرية بدول المحور في محاولة للحصول منها على مثل ما تعذر الحصول عليه من معسكر الحلفاء. وكانت أهم تلك الأقنية السرية، الأقنية الثلاث التالية:

أولاً - اتصال العقيد صلاح الدين الصباغ، بممثلي سفارتي إيطاليا واليابان في بغداد بقصد تزويد الجيش العراقي بحاجته من السلاح والذخائر والأعتدة العسكرية الأخرى[٩٣].

ثانياً - اتصال العراق بالاتحاد السوفياتي، حليف ألمانيا النازية، بقصد إقامة علاقات سياسية بينهما، لاعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية. وذكر عثمان كمال حداد بهذا الخصوص، ما يلي:

«وعليه كتب رشيد بك لأخيه كامل بك الكيلاني سفير العراق في أنقرة، طالباً إليه مقابلة السفير الروسي وإعلامه بأن الحكومة العراقية تود تنظيم العلاقات الودية بينها وبين الاتحاد السوفياتي وتبادل السفراء بين البلدين. وهي لذلك تطلب من الحكومة الروسية أن تعترف رسمياً باستقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً ناجزاً. وقد قابل كامل بك السفير الروسي الذي أظهر ارتياحه لهذا الأمر واتصل بحكومته لأخذ الجواب النهائي»[٩٤].

ويؤكد محمود الدرة ما ذكره عثمان حداد بهذا الخصوص، ويضيف إليه أن رد الحكومة السوفياتية كان إيجابياً، وأن السفير الروسي في أنقرة أبلغ كامل الكيلاني الرد السوفياتي التالي:

«إن حكومة موسكو تعطف على العرب عطفاً صادقاً، وتود بتأسيس علاقات سياسية بينها وبين العراق، فإذا كنتم تبادلونها هذه الرغبة فإنها تعين حالاً سفيرها إليكم»[٩٥].

---

(٩٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٧.
(٩٤) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٨٣.
(٩٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٨.

ولكن هذه الاتصالات مع الاتحاد السوفياتي لم تثمر نتيجة إيجابية؛ ذلك:

«أن سفير روسيا في أنقرة رفض إعطاءَه [رفض إعطاء سفير العراق كامل الكيلاني] تصريحاً رسمياً مكتوباً بالاعتراف باستقلال البلاد العربية كشرط أساسي لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين العراق وروسيا وتبادل السفراء بينهما»(٩٦).

ويعلل عثمان حداد هذا الرفض بعدم ميل روسيا إلى مناهضة انكلترا **«في الوقت الحاضر، لأن هذه الأخيرة هي الدولة الوحيدة التي يستهدفها هذا التصريح»**(٩٧).

أما قناة الاتصال السرية الثالثة والأهم فكانت مع ألمانيا.

مسألة قطع علاقات العراق مع إيطاليا:

كانت الحكومة العراقية قد تلقت، تكراراً، طلباً ملحاً من الحكومة البريطانية، بقطع علاقات العراق مع إيطاليا، بعد دخول هذه الأخيرة الحرب إلى جانب ألمانيا ضد فرنسا في العاشر من حزيران ١٩٤٠. تداولت الحكومة بهذا الطلب في جلسة حضرها الوصي على العرش الأمير عبدالإله، وتقرر فيها، أولاً، التريث في اتخاذ قرار بهذا الشأن. وثانياً، إرسال وفد حكومي إلى تركيا، جارة العراق، التي كانت تربطه بها علاقات طيبة، بحجة التشاور معها بموضوع قطع العلاقات مع إيطاليا، لأن تركيا كانت تتمسك بمبدأ الحياد بين المعسكرين، وتحافظ على علاقات طبيعية بين دولهما، من دون أن تقطع علاقاتها السياسية مع ألمانيا وإيطاليا(٩٨).

اتصال العرب بالألمان:

تشكل الوفد العراقي من وزير الخارجية نوري السعيد ووزير العدل

---

(٩٦) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٩٧.

(٩٧) المصدر ذاته، ص ٩٧.

(٩٨) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٣.

ناجي شوكت، وغادر بغداد في ٢١ حزيران ١٩٤٠ قاصداً أنقرة لهذه الغاية. والواقع أن سفر الوزير ناجي شوكت بصفته عضواً بالوفد كان للتمويه وللتغطية على المهمة الحقيقية السرية التي ذهب من أجلها، وهي التوفير:

«لمسؤول عراقي الاتصال المباشر بالألمان، ومفاوضتهم على مستقبل البلاد العربية بعد انتصارهم في الحرب»[٩٩].

كان ناجي شوكت يقوم بتلك المهمة السرية بالاتفاق مع جماعة من الشخصيات والقوميين، ويحمل كتاب «تعارف» وتوصية من المفتي أمين الحسيني إلى سفير ألمانيا في تركيا فون بابن (Von Papen). ولم يكن أحد من أعضاء الحكومة العراقية على علم بتلك المهمة سوى رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء، والوزيرين طه الهاشمي وناجي السويدي. أما باقي الوزراء فكانوا على جهل تام بما كان يجري في وراء الستار[١٠٠].

عاد نوري السعيد إلى بغداد بعد إنجاز مهمته. أما ناجي شوكت فقد بقي في تركيا بضعة أيام اجتمع خلالها بفون بابن في استنبول مستوضحاً منه عن موقف ألمانيا من القضايا العربية، ولا سيما من قضايا لبنان وسوريا وفلسطين، كما أعرب له عن عدم اطمئنان العرب إلى نوايا حليفتهم إيطاليا تجاه العرب[١٠١]. وأبدى فون بابن تفهماً للقضايا العربية وعطفاً عليها، ووعد ناجي شوكت بأن يسعى لدى حكومته لتأييد مطالب العرب وحقوقهم بالتفاهم والاتفاق مع إيطاليا[١٠٢]. وعاد ناجي شوكت إلى بغداد في ١٢ تموز تاركاً مهمة الاتصال بالممثلين الألمان إلى وزير العراق المفوض في أنقرة كامل الكيلاني، شقيق رشيد عالي رئيس الوزراء[١٠٣].

اتصال المفتي الحاج أمين الحسيني بالألمان:

ما كاد الوزير ناجي شوكت يعود من تركيا في ١٢ تموز ١٩٤٠،

---

(٩٩) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(١٠٠) المصدر ذاته، ص ١٤٧.

(١٠١) المصدر ذاته، ص ١٤٥.

(١٠٢) المصدر ذاته، ص ١٤٧.

(١٠٣) المصدر ذاته، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

حتى قصدها في آخر ذلك الشهر عثمان كمال حداد سكرتير المفتي الحاج أمين الحسيني، موفداً من قبله، ومزوداً بكتاب توصية منه إلى السفير الألماني فون بابن، لمتابعة الاتصالات بألمانيا، التي كان قد بدأها معه ناجي شوكت في استنبول[١٠٤].

ويذكر بهذا الصدد أن مجموعة من القياديين القوميين في العراق، بعد أن يئسوا من إمكان الاتفاق مع بريطانيا، قرروا الاتصال سراً بدول المحور، ألمانيا وإيطاليا وحليفهما الاتحاد السوفياتي، لاختبار نواياهم تجاه المطالب العربية، ومعرفة مدى استعدادهم لتلبيتها، والاطلاع على الثمن الذي يطلبون في مقابل ذلك[١٠٥] وكانت الحركة العربية السرية ممثلة بشكل واسع وفاعل في هذه المجموعة بوجود رئيسها يونس السبعاوي وأعضاء الخلية السرية في الجيش العقداء الأربعة، بالإضافة إلى الدائرين في فلك المفتي الحاج أمين الحسيني من اللاجئين الفلسطينيين و«الأركان» بالحركة، مثل واصف كمال وممدوح السخن وعز الدين الشوا ودرويش المقدادي وسواهم. وبناء على رغبة هذه المجموعة وموافقتها، أرسل المفتي سكرتيره عثمان كمال حداد لمتابعة المفاوضات مع دول المحور[١٠٦].

التصريح الإيطالي لحكومة العراق:

قدرت إيطاليا عدم استجابة حكومة رشيد عالي الكيلاني لطلب بريطانيا بقطع علاقات العراق السياسية معها، وشاءت أن ترد لها الجميل وتدعم موقفها. كما أن إيطاليا، وقد شعرت بالاتصالات السرية بين العرب وحليفتها ألمانيا، أرادت أن تسبقها وتنافسها في السعي لكسب ثقة العرب ووقوفهم إلى جانبها، وذلك بإعلان تأييدها لمطالبهم السياسية القومية،

---

(١٠٤) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٢٤.

(١٠٥) المصدر ذاته، ص ٢١ و٢٥.

(١٠٦) المصدر ذاته، ص ٢٠ . ٢١. أيضاً: محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٤.

فأوعزت إلى سفيرها «غبريالللي» في بغداد بتقديم التصريح المكتوب السري التالي، إلى رئيس الوزراء الكيلاني، وهذا نصه:

«بغداد، ٧ تموز ١٩٤٠

عزيزي صاحب الفخامة

قد أمرني معالي الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا، أن أبلغ فخامتكم أن إيطاليا، طبقاً للسياسة المتبعة حتى الآن، ترمي إلى تأمين الاستقلال التام والاحتفاظ بالكيان السياسي لكلٍ من سوريا ولبنان والعراق والبلاد العربية التي تحت الانتداب البريطاني. لهذا، فإن إيطاليا ستقاوم كل ادعاء بريطاني أو تركي لاحتلال الأراضي سواء كان ذلك في سوريا أو لبنان أو العراق.

وتفضلوا بقبول خالص تحياتي

التوقيع: «غبريالللي»[١٠٧] (Gabrielli)

فكانت هذه الرسالة أول وثيقة رسمية يقدمها المحور للجانب العربي. وقد صدرت أثناء وجود الوزير ناجي شوكت في تركيا، وقبل حوالى ثلاثة أسابيع من سفر عثمان كمال حداد إلى تركيا لمقابلة فون بابن، وكانت أحد البنود الأساسية التي جرت مناقشتها في محادثاته مع المسؤولين الألمان والطليان.

موفد المفتي الحسيني، عثمان حداد، يفاوض الألمان والطليان:

غادر عثمان كمال حداد العراق بجواز سفر مزور باسم «توفيق علي آل شاكر» تضليلاً للمخابرات الحليفة. وصل تركيا عبر حلب في أوائل آب ١٩٤٠، وقابل السفير الألماني فون بابن، وسجل في مذكراته عن هذا اللقاء ما يلي:

«وتمكنت من مقابلته، وأبرزت له كتاباً من سماحة المفتي الأكبر، يؤكد له فيه ما جاء في كتابه الأول الذي أرسله مع السيد ناجي شوكت

---

(١٠٧) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٢٢ ـ ٢٣.

من قبل. وخلاصة هذا الكتاب أن سماحته بالاتفاق مع بعض رجال السياسة في البلاد العربية، أوفدني إلى برلين وروما للمباشرة بمفاوضة المحور على أسس معينة»(١٠٨).

اتصل فون بابن بوزارة الخارجية الألمانية، وأعلمها بما جاء عثمان حداد من أجله. ولما جاءت التعليمات بالموافقة على سفر حداد إلى برلين، عبر البلقان والمجر ببطاقة سفر باسم «ماكس موللر»، فوصلها في أواسط آب. وفي برلين وروما عقد عثمان حداد عدة اجتماعات تخللتها مداولات مستفيضة مع كبار المسؤولين بوزارتي الخارجية في البلدين، استغرقت أكثر من شهرين ونصف الشهر، وتمحورت حول طبيعة العلاقات المنشودة بين الدول العربية ودول المحور. وعرض حداد في تلك الاجتماعات للجانبين الألماني والإيطالي المطالب العربية التي زودته بها جماعة القوميين العرب في العراق التي أوفدته إلى أوروبا للتفاوض مع المحور على أساسها. وقد صاغها بشكل تصريح رسمي تعترف فيه الحكومتان الألمانية والإيطالية بالمطالب العربية المدرجة في التصريح، وتتعهدان بتنفيذها. وتقدم بمشروع هذا التصريح إلى جانب المحور، وتمنى على حكومتي البلدين تبنيه كما هو، وإبلاغه كتابة بصورة رسمية للعرب لطمأنتهم؛ وهو بالنص التالي:

«إن ألمانيا وإيطاليا تعلنان رسمياً سياستهما النهائية بخصوص البلاد العربية، وتتعهدان باحترام هذه السياسة وتأييدها وفقاً لما يلي:

١ ـ إن ألمانيا وإيطاليا تعترفان بالاستقلال التام للبلاد العربية المستقلة الآن، وبالاستقلال التام للبلاد العربية التي هي تحت الانتداب الإفرنسي (سوريا ولبنان)، وبالاستقلال التام للبلاد العربية التي هي تحت الانتداب الإنكليزي (فلسطين وشرق الأردن)، أو التي هي مستعمرات ومحميات بريطانية (كالكويت، وعمان، ومسقط، وحضرموت، أما عدن وهي الجزء الجنوبي من اليمن فإنها سوف تعود لأحضان المملكة اليمنية المستقلة).

(١٠٨) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٢٥.

وبالاختصار فإن ألمانيا وإيطاليا تعترفان بالاستقلال التام لجميع البلاد العربية المعروفة أنها عربية بأكثرية سكانها.

٢ ـ إن ألمانيا وإيطاليا تعلنان بصورة قاطعة لا مواربة فيها أن ليست لهما أية مطامع استعمارية في مصر والسودان، وتعترفان أيضاً باستقلال مصر والسودان التام وفقاً للمادة الأولى من هذا التصريح. ومن جهة أخرى، فإن دولتي المحور تعلنان بأن التحفظات التي وضعتها إنكلترا على هذين البلدين تعتبر لاغية من أساسها.

٣ ـ إن ألمانيا وإيطاليا تتعهدان بعدم اللجوء إلى أي أسلوب من الأساليب ضد استقلال البلاد العربية التام، كأسلوب الانتداب الذي اخترعته جمعية الأمم بصورة احتيالية بالاتفاق مع الديمقراطيات لإخفاء شهواتها الاستعمارية.

٤ ـ إن ألمانيا وإيطاليا تعترفان للبلاد العربية بحق تأسيس وحدتها القومية حسب رغائبها وبالطريقة التي تراها موافقة، ولن تعمدا إلى وضع العراقيل في سبيل إنشاء هذه الوحدة.

٥ ـ إن ألمانيا وإيطاليا، وهما غير معترفتين بمشروعية الوطن القومي الصهيوني في فلسطين، تعترفان للبلاد العربية بحق إيجاد حل عادل لهذه القضية حسب مصلحة العرب القومية.

٦ ـ إن ألمانيا وإيطاليا لا تطالبان سوى أن تريا الأمة العربية متمتعة بالازدهار والإقبال، وأن تتبوأ مكانها التاريخي والطبيعي تحت الشمس، وهذا لصالح الإنسانية جمعاء وفي سبيل تعاون اقتصادي على أساس تبادل المنافع. وإن ألمانيا وإيطاليا تطلبان من البلاد العربية أن تحترم الحالة الراهنة (ستاتوكو) في فلسطين أو سواها فيما يتعلق بأملاك الكنائس والإرساليات المسيحية، وحرية تمتع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم بإقامة طقوسهم الدينية ورعاية المنشآت الخيرية (المستشفيات ودور الأيتام ومآوي العميان)، وحرية الاعتقاد في المسائل الدينية»[١٠٩].

---

(١٠٩) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٢٩ و٣١.

التصريح الألماني:

لم تتبنَّ دولتا المحور هذا النص للتصريح المطلوب، المقدم من الجانب العربي. وجرت مخابرات ومناقشات طويلة بين الحكومتين الألمانية والإيطالية بصدده[١١٠]، وانتهت بالتصريح الرسمي الذي أدلت به الحكومة الألمانية، وأذيع في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠ في برلين. وقد تضمن ما يلي:

«إن ألمانيا، لما كانت دوماً تشعر بصداقة متينة مع البلاد العربية وتتمنى حياة سعيدة ورفاهاً للأمم العربية يليق بمكانتها التاريخية والطبيعية وبأهميتها بين شعوب العالم، فهي - كما كانت في السابق - تتتبع الآن أيضاً كفاح هذه الأمم من أجل استقلالها، وباهتمام الشعوب العربية، وهي تجاهد وتكافح في سبيل هذا الاستقلال، تستطيع أن تعتمد وتضمن عطف ألمانيا في المستقبل. وألمانيا بإعطائها هذا التصريح الرسمي، هي على اتفاق تام مع حليفتها إيطاليا أيضاً»[١١١].

وأعلنت روما نص هذا التصريح الألماني، مظهرة تأييدها التام له[١١٢].

ردود فعل العرب على التصريح الألماني:

ظلت الاتصالات العربية بدول المحور سرية، وبقيت نتائجها غامضة طول فصل الصيف وبعض الخريف، حتى إذاعة التصريح الألماني في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠. وجاءت ردود الفعل عليه باردة في أوساط القوميين العرب، وحامية غاضبة في بريطانيا وفي الأوساط العراقية الموالية لها.

ردة فعل عثمان كمال حداد:

بالنسبة إلى القوميين العرب، لم يرضهم التصريح، لا من حيث

---

(١١٠) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٣١ ـ ٤٧.

(١١١) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٧. أيضاً:

Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.139.

(١١٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٧.

الشكل، ولا من حيث المضمون. وعبرت ردود فعلهم عن شعورهم بالإحباط، كما يتبين من النماذج الثلاثة التالية:

جاءت أول ردة فعل من عثمان كمال حداد نفسه. وهي تفيد بأنه لم يرض كل الرضا عن التصريح لبضعة أسباب يوضحها في مذكراته، حيث يقول ما يلي:

«وطلبت تغيير بعض جمله، وإضافة جملة، «الاعتراف باستقلال البلاد العربية»، بصورة مفصلة، فلم أنجح لأن التصريح في شكله الحاضر وضعه هتلر وموسوليني، وإن هذه الصيغة هي الأخيرة. وطلبت أن يكون التصريح رسمياً من وزارة الخارجية الألمانية ويرسل إلى ممثل العراق في أنقرة، كامل بك الكيلاني، موقعاً من وزارتي الخارجية الألمانية والإيطالية معاً، فوعدوني بذلك. ولكن يوم إعلان التصريح في الراديو اطلعت على النسخة العربية التي قدمت للمذياع بدون كلمة تصريح رسمي من وزارة الخارجية الألمانية. وبعد التي واللتيا وافقوا على أن يقولوا: (أعلنت الحكومة الألمانية رسمياً»... ثم رجعتُ إلى وزارة الخارجية الألمانية وأعلنت أن هذه الحالة لا تطمئن، وأن التصريح غير كاف. فأصروا على أنه بداية وخطوة أولى»[١١٣].

ويضيف عثمان حداد إلى ذلك قوله أنه وهو في طريق عودته إلى العراق: **«وصلت إلى تركيا وتوجهت إلى أنقرة، وعلمت هناك أن فون بابن لم يعط ناجي بك شوكت التصريح الرسمي المكتوب الذي صدر عن وزارة الخارجية الألمانية رغم وعد برلين لي بتحقيق هذه الرغبة»**[١١٤].

رأي الأمير شكيب أرسلان بالتصريح الألماني:

وكان للأمير شكيب أرسلان، المقيم في سويسرا، رأي بموضوع التصريح المذكور، أدرجه في رسالة مشتركة بتوقيع اسم مستعار هو «أبو غالب»، وموجهة منه **«إلى الأخ صلاح [صلاح الدين الصباغ] والابن عثمان**

(١١٣) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٤٧ ـ ٤٨.
(١١٤) المصدر ذاته، ص ٥٥.

[عثمان كمال حداد] المحترمين»، ورد فيها قوله ما يلي:

«قضية الإعلان الرسمي... كتبت بشأنها عدة مرات، وكانوا يجيبون [الألمان] أنهم أذاعوا ذلك بالراديو. وكنت أجيبهم: «إن كلاماً يذهب في الهواء لا أعده تصريحاً رسمياً. فنحن، لأجل اطمئنان الأمة العربية، نريد تصريحاً خطياً من الحكومة الألمانية بذلك، تنشره الجرائد وتذيعه المذاييع... وإلى الآن لم نحصل عليه حسبما طلبناه»(١١٥).

موقف الحركة العربية السرية من التصريح الألماني:

لم يفت الحركة العربية السرية أن تعبر عن عدم رضاها بالتصريح الألماني، فأصدرت بتاريخ الأول من تشرين الثاني ١٩٤٠ مذكرة جاء فيها:

«إن التصريح الصادر حديثاً عن ألمانيا وإيطاليا... تعيبه الأمور التالية:

أولاً - إنه لم يوضع بشكل معاهدة أو تعهد، وبالتالي فإنه من اليسير إلغاؤه إذا ما تبدلت الظروف في الوضع العالمي.

وثانياً - إنه تستعمل فيه عبارات غامضة تحمل المرء على التساؤل: من هم العرب بعرف هاتين الدولتين، وما تعني عبارة «تعتمد على» إلخ.

لقد قلنا، وما زلنا نقول، إن خلاص العرب مرهون بفعل العرب وحدهم فقط. لذلك، فإن عليهم أن يتكلوا على أنفسهم»(١١٦).

التأرجح في موقف القوميين العرب:

إن خيبة أمل القوميين العرب من التصريح الألماني، ومن تردد دول المحور في إعطائهم تعهدات صريحة وضمانات أكيدة للاستجابة لمطالبهم جعلتهم لا يطمئنون إلى صدق تلك الدول ووعودها، ويشكون في حسن نواياها تجاههم. وقد حمل هذا الشعور، حتى القوميين الذين كانوا يراهنون على دول المحور ويتفاوضون معها، على إعادة النظر مجدداً في حساباتهم

---

(١١٥) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٧١ - ٧٢.

(١١٦) أوراق كاظم الصلح، مذكرة حزبية بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩٤٠، يراجع بشأنها:
Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.139.

ومواقفهم، والتفكير بالرجوع إلى محاولة الاتفاق مع بريطانيا. وقد وصف عثمان كمال حداد في مذكراته هذا التحول في الموقف العربي، حيث يقول:

«في هذه الأثناء [خريف سنة ١٩٤٠]، أخذنا ندرس الوضع على ضوء الحوادث في أوروبا... وكان رشيد بك، والقواد العراقيون [العقداء الأربعة بشكل خاص] يدركون أن إيطاليا تشكل خطراً كبيراً على البلاد العربية... ورغم ما كنا نشعر به جميعاً من العداء لبريطانيا بسبب سياستها الاستعمارية في البلاد العربية وسياستها اليهودية في فلسطين، فإن قلوبنا لم تكن مستعدة قط للترحيب بانتصارات إيطاليا، لأن هناك نقطة مهمة جعلت خوفنا من إيطاليا أعظم من خوفنا من إنكلترا[١١٧]... وبعد اجتماعات عديدة في بغداد استعرضنا الحالة العامة، فإذا بها كما يأتي... إن مصلحة العراق خاصة، والعرب عامة، تتطلب المحافظة على الحياد التام لأسباب كثيرة أهمها:

- أن البلاد العربية ضعيفة جداً من الوجهة العسكرية، وهي لا تتحمل الصدمات لا من المحور ولا من أعدائهم.

- مهما حاولنا أن نحصل على تصريحات من جانب المحور فإن هذه لا تكفي مطلقاً لتقرير المصير.

- أن الحرب فرصة ثمينة يجب العمل في أثنائها لأخذ أكبر قسط ممكن من الحقوق للأمة العربية.

وعلى هذا الأساس استقر الرأي بين رشيد بك وقواد الجيش على ما يلي[١١٨]... وفي هذه الحال تجدر بنا أن نكون شديدي الحذر في علاقاتنا مع المحور، وأن نمتنع عن كل ما يثير شكوك الإنكليز، متظاهرين لهم بالتودد والرغبة في التفاهم والتعاون... فإن ذلك يدفعنا للاتفاق على شكل ما مع

---

(١١٧) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٨٠.

(١١٨) المصدر ذاته، ص ٨١ ـ ٨٢: الطلب إلى ألمانيا إرسال السلاح إلى العراق بطريق روسيا وإيران وليس بطريق تركيا.

الإنكليز بصورة تحسن وضع العرب بعد الحرب»[١١٩].

حدثان مهمان بمنطقة الشرق الأدنى:

لم يكتب للخطة العراقية الجديدة أن تدخل حيز التنفيذ، لأن أحداثاً جساماً كانت قد سبقتها، وغيرت كثيراً من المعطيات، وخلفت وضعاً ميدانياً جديداً كان له تأثير كبير على مسرى العلاقات العراقية ــ البريطانية. وكانت أهم تلك الأحداث، أولاً، توسيع ميادين القتال إلى شمال أفريقيا حيث قامت إيطاليا في ١٣ أيلول ١٩٤٠ بفتح جبهة قتال ضد القوات البريطانية في مصر. وثانياً إذاعة التصريح الألماني في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠، الذي كشف النقاب عن الاتصالات والمفاوضات السرية التي كانت تجري منذ بضعة أشهر بين القوميين العرب ودولتي المحور ألمانيا وإيطاليا.

٩ ـ تدهور العلاقات بين بريطانيا والعراق

ردة فعل بريطانيا على التصريح الألماني:

في أثر صدور التصريح الألماني في ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٠، انتشرت الأخبار عن اتصالات سرية يجريها القوميون العرب في العراق، من داخل السلطة وخارجها، بمعسكر المحور لعقد اتفاقات وتحالفات بين دوله والعراق. أثار ما تجمع لدى الحكومة البريطانية من معلومات بهذا الخصوص قلقها وغضبها[١٢٠]، واعتبرت أن سياسة حكومة رشيد عالي الكيلاني تعرقل تنفيذ استراتيجيتها الحربية في المنطقة، وتضر بمصالحها الحيوية وتهدد أمنها. لذلك، قام السفير البريطاني في العراق في ١٧ تشرين الثاني ١٩٤٠، بناءً على تعليمات من حكومته، بمقابلة الوصي الأمير عبدالإله بحضور وزير الخارجية نوري السعيد، وأبلغهما رسالة شفهية تقول: **«إن الحكومة**

---

(١١٩) عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ٨٢ . ٨٣.
(١٢٠) عبد الهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ٩٨.

البريطانية لا تثق بالحكومة الكيلانية القائمة»[١٢١]؛ وأبلغ هذه الرسالة أيضاً إلى رئيس الوزراء الكيلاني نفسه. فلم يأبه الكيلاني لكلام السفير، واعتبره **«تدخلاً في شؤون البلاد الداخلية، ولا يلتئم مع المعاهدة العراقية البريطانية»**[١٢٢]. وضاعفت الحكومة البريطانية ضغطها على الحكومة العراقية، فقام السفير البريطاني في ٢٦ تشرين الثاني بمقابلة وزير الخارجية نوري السعيد، وأبلغه رسالة شفهية جديدة، وهي شبه إنذار، تقول هذه المرة ما يلي:

«إن الحكومة البريطانية لا تثق بوزارة يرأسها رشيد عالي، وعلى العراق أن يختار أحد حلين: إما الاحتفاظ برشيد عالي رئيساً لحكومته، وإما الاحتفاظ بصداقة بريطانيا العظمى»[١٢٣].

وطلبت بريطانيا إلى بعض أصدقائها وحلفائها مشاركتها في الضغط على الحكومة العراقية لوقف اتصالاتها بدول المحور، وتعديل سياستها الخارجية لمصلحة معسكر الحلفاء، والاستجابة لمطالب بريطانيا الاستراتيجية. فلبت بعض الدول هذه الرغبة البريطانية. ففي ٥ كانون الأول ١٩٤٠، أبلغ وزير الولايات المتحدة الأميركية المفوض في بغداد رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني رسالة من الحكومة الأميركية تقول ما يفيد: **«أن أميركا لا تتمنى للعراق إلا كل خير، وتنصح الحكومة العراقية بضرورة سيرها بالتعاون مع الحكومة البريطانية... وإن عدم تعاون العراق مع بريطانيا... سيحدث تأثيراً سيئاً لدى الحكومة الأميركية... لا يكون في مصلحة العراق»**[١٢٤].

وفي ٦ كانون الأول أجرت الحكومة التركية اتصالاً بالحكومة

---

(١٢١) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٨.
(١٢٢) المصدر ذاته، ص ١٤٨. أيضاً: عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ٩٨ - ٩٩.
(١٢٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٨. أيضاً: عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٠٠.
(١٢٤) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٩.

العراقية بخصوص هذا الموضوع ذاته[١٢٥].

وفي ٢٨ كانون الأول كتب رئيس الحكومة المصرية حسين سري رسالة إلى رئيس الحكومة العراقية يحذره فيها من:

«إن مستقبل المدنية إذا ظفرت إيطاليا وصاحبتها [ألمانيا] مكفهر، وإن أمل الأمم الصغرى كمصر والعراق في الاحتفاظ بشخصيتها واستقلالها وهما ظافرتان يحوطه الشك الشديد»[١٢٦].

رد رشيد عالي الكيلاني على الوساطات الدولية:

رد رشيد عالي الكيلاني على المساعي التوفيقية للدول الثلاث، بأسلوب دبلوماسي مرن يقول فيه إنه يوافق حكام تلك الدول على ما جاء في رسائلهم الموجهة إليه، ويبدي استعداده لتوجيه سياسة العراق نحو معسكر الحلفاء، ولكنه جعل هذا التحول رهناً، وإن بشكل ضمني، باستجابة الحلفاء للمطالب العربية، حيث يقول:

«وإننا موقنون أيضاً بأن الوصول إلى تحقيق أماني مصر والعراق وسائر البلاد العربية، سيكون أيسر وأهون بالتفاهم مع حليفتنا بريطانيا»[١٢٧].

الرفض البريطاني للمطالب العربية:

اتصفت الردود البريطانية على مطالب القوميين العراقيين بالتصلب الشديد. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة البريطانية تطلب بإلحاح من الحكومة العراقية أن تقطع علاقات العراق بإيطاليا، وأن تقبل بالتفسير البريطاني الخاص لبنود معاهدة التحالف بين البلدين لصالح المجهود الحربي البريطاني في المنطقة، وأن تصرف رشيد عالي الكيلاني من رئاسة الحكومة، كانت ترفض أن تقطع للعرب عهداً صريحاً لا لبس فيه بالاستجابة

---

(١٢٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٥٠.

(١٢٦) المصدر ذاته، ص ١٥٠.

(١٢٧) المصدر ذاته، ص ١٥٠.

لمطالبهم، ولو بعد انتهاء الحرب وتحقيق النصر. وقد بدا هذا الموقف السلبي البريطاني من المطالب العراقية واضحاً في التعليمات التي وجهها رئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل إلى السفير البريطاني الجديد في العراق كورنواليس (Cornwallis) في أوائل سنة ١٩٤١. فقد جاء فيها قول تشرشل للسفير بشأن الوحدة العربية ما يلي:

«إن حكومة صاحب الجلالة سوف تنظر بعطف في المشاريع العملية التي تنمي هذا التعاون»(١٢٨).

وبالرغم مما يشوب هذا الكلام من تعميم وغموض مقصودين، فإن تشرشل ربطه بشرط الحصول مقابل ذلك على:

«دعم جميع الفئات العربية، وأن تكون الموجبات الدولية والضرورات الاستراتيجية لحكومة صاحب الجلالة مضمونة ومصونة»(١٢٩).

وفيما يتعلق بالمسألة السورية، أوصى تشرشل السفير بأن يقول:

«إن سياسة حكومة صاحب الجلالة بخصوص المسألة السورية هي قيد المراجعة في الوقت الحاضر. وإن كل ما يمكنك قوله الآن هو أن حكومة صاحب الجلالة تعطف كثيراً على رغبة السوريين بالاستقلال، علماً بأنها تشك، نظراً لحالة العالم الحاضرة، في أن سوريا ستكون قادرة، أكثر من العراق، على الوقوف على رجليها لوحدها»(١٣٠)...

«وبخصوص المسألة الفلسطينية يمكنك أن تقول إن حكومة صاحب الجلالة لا ترى مسوغاً يحدوها إلى إحداث أي تغيير في السياسة التي أرستها في الكتاب الأبيض للعام ١٩٣٩، والتي لم يدخل عليها أي تعديل... وليس لك أن تتبرع بالإفضاء بأية معلومات إضافية غير هذه»(١٣١).

---

(١٢٨) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.137.

(١٢٩) Raghid Solh, Lebanon and Arab Nationalism, p.137.

(١٣٠) Ibid.

(١٣١) Ibid.

وبالإضافة إلى هذه التعليمات الموجهة من رئيس الوزراء تشرشل إلى السفير البريطاني في بغداد، أبلغت الحكومة العراقية أن الحكومة البريطانية ترفض التورط بأعطاء أي وعد سياسي للعرب، مثلما فعلت في الحرب العالمية الأولى، وأنها لن تسلح الجيش العراقي لعدم ثقتها به وبولائه لها[١٣٢]، وأنها لن تساعد العراق على تخفيف وطأة الضائقة الاقتصادية والمالية التي يعاني منها، قبل أن تتخذ حكومة العراق موقفاً عملياً صريحاً إلى جانبها في الحرب القائمة[١٣٣].

الطلاق السياسي بين البريطانيين والقوميين العراقيين:

إن فتح الجبهة الإيطالية ضد البريطانيين في مصر في ١٣ أيلول ١٩٤٠، وإعلان التصريح الألماني بعد ذلك بحوالى ستة أسابيع، جعلا رئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل يزداد تصلباً في عدم الاستجابة للمطالب العربية. وبالمقابل كان القوميون العراقيون يزدادون اقتناعاً بسوء نوايا الإنكليز تجاههم، وإصراراً على تحقيق مطالبهم أولاً. وقطع هذا التشبث بهذين الموقفين المتناقضين شعرة معاوية بين الجانبين، وأدخل المسألة العراقية ـ البريطانية في مرحلة جديدة شديدة التأزم وبالغة الخطورة في المجالين الداخلي والخارجي.

عودة الانقسام في الجبهة الداخلية العراقية:

أحدث الطلاق السياسي بين القوميين العراقيين والبريطانيين ارتباكاً حاداً في الساحة السياسية العراقية في أواخر ١٩٤٠، وأوائل ١٩٤١، وأعاد الانقسام في الجبهة الداخلية بوتيرة أشد عنفاً من السابق. واحتدم الصراع فيها بين الفريقين السياسيين التقليديين، الفريق الموالي للإنكليز، القائل بأن مصير العراق مرتبط ببريطانيا، وبأن مصالحه العليا تفرض عليه أن ينحاز إلى جانبها في الحرب دون قيد أو شرط[١٣٤]. والفريق الثاني المصر على تلبية

(١٣٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٢.
(١٣٣) المصدر ذاته، ص ١٤٢.
(١٣٤) المصدر ذاته، ص ١٥٥.

المطالب العربية أولاً، كشرط لانحيازهم إلى جانب هذا المعسكر أو ذاك. وتألف هذا الفريق من ثلاث كتل متضامنة هي، أولاً، كتلة المفتي الحاج أمين الحسيني. وكانت تملك الشعبية الواسعة والنفوذ القوي الذي يتمتع به زعيمها المفتي في الأوساط القومية العربية في العراق وخارجه. وثانياً، كتلة رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وصحبه من السياسيين العراقيين، وكانت تملك الشرعية، بصفتها حكومة العراق الدستورية، التي تتكلم وتتعامل باسمه، والمؤتمنة على رسم وتنفيذ سياسته، ورعاية مصالحه. ثالثاً، كتلة الحركة العربية السرية، وإن لم تعمل تحت اسم الحركة، وقوامها المحامي الديناميكي الشاب ورئيس الحركة العربية السرية يونس السبعاوي، ومعه زملاؤه بالعقيدة القومية والحركة العقداء الأربعة في الجيش، ونقط الاعتماد، مثل نادي المثنى ومؤسسة الجوال. وكانت هذه الكتلة الأخيرة تملك القوة الفعلية، لأن العقداء الأربعة كانوا يسيطرون على معظم قطاعات الجيش، ويفرضون رأيهم في الشؤون السياسية والعسكرية.

إحراج الفريق المؤيد لبريطانيا:

إن طلب بريطانيا من العراق أن يختار بين المحافظة على رشيد عالي الكيلاني رئيساً للوزراء، وبين المحافظة عى صداقة بريطانيا، أربك الفريق الأول الموالي، وسبب له حرجاً عظيماً. فهو كان راغباً في الاستجابة للطلب البريطاني وإقصاء رشيد عالي عن رئاسة الحكومة، ولكنه كان يتردد في الإقدام على تحقيق هذه الرغبة، لخوفة من ردة فعل العقداء الأربعة، وخشيته من إقدامهم، في حال التعرض التعسفي لرئيس الوزراء، على القيام بانقلاب عسكري يطيح بالنظام وأهله. وتبين بالنتيجة لأركان هذا النظام أن قوة الفريق الثاني المعارض، تستند بالدرجة الأولى إلى التأييد المطلق له من العقداء الأربعة[١٣٥]، وأنه إن كان هناك من أمل في النجاح بتغيير هذا الوضع الراهن لمصلحة الفريق الأول، فإن العمل يجب أن

---

(١٣٥) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٠٦.

يبدأ بإضعاف العقداء الأربعة، وإنهاء سيطرتهم على الجيش بأية وسيلة كانت.

محاولة إضعاف العقداء الأربعة:

قام بمحاولة إضعاف العقداء الأربعة بعض أركان الفريق الموالي للإنكليز، وفي مقدمتهم الوصي عبدالإله ونوري السعيد. ويذكر محمود الدرة بهذا الصدد في مذكراته ما يلي:

«وحاول نوري السعيد أن يثني [العقداء الأربعة] عن عزمهم وإصرارهم، فساومهم تارة بمناصب رفيعة في السلك الخارجي، وأخرى بالمال، فأبوا ذلك وازدادوا عناداً وإصراراً. فجرب أن يؤلف جناحاً من بينهم مناوئاً لهم ليتغلب عليهم مع الزمن، ويبعدهم بطريقة ما عن الجيش...

وقام الوصي بدوره ـ عن طريق أعوانه في الجيش بالاتصال بضباط الجيش الفاعلين الذين كانوا يتولون قيادة القطاعات الصغرى كي يتخلوا عن تأييدهم للقادة الأربعة... [وقام] أكثر أعوان الوصي فعالية في هذا الميدان، فاتصل بأكبر عدد ممكن من الضباط القوميين، بما فيهم صديقه القديم كاتب هذه السطور [محمود الدرة].. وأفهمه من طرف خفي عن عزم الوصي على وضع حد لتدخل القادة في توجيه سياسة البلاد، وأبلغه رسالة شفوية من الوصي، بأنه لما عهده فيه من خلال لقائهما المستمر منذ أكثر من عام... فإن مستقبلاً عظيماً يتوقعه له إذا أصاخ السمع لمنطق العقل بدلاً من الانسياق وراء العواطف المجردة من كل معنى. ورفض كاتب هذه السطور بإصرار الانحياز إلى جانب الوصي»[١٣٦].

محاولة تفجير الحكومة من الداخل:

بعد فشل هذه المحاولات مع الضباط زملاء العقداء الأربعة، لجأ الوصي ونوري السعيد إلى تفجير الحكومة من الداخل بهدف إسقاطها. فقدم نوري السعيد استقالته من الحكومة بتاريخ ١٩ كانون الأول

---

(١٣٦) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

١٩٤٠[١٣٧]. وبعد يومين عقدت الوزارة ،جلسة بحضور الوصي ورئاسته، ناقشت فيها ما جاء في كتاب استقالة نوري السعيد. وعلق الوصي على ذلك بقوله إن الوزراء غير متضامنين، وطلب أن يعيدوا النظر في مواقفهم. ولكن الوزراء أجابوا الوصي بأنهم متضامنون ما عدا نوري السعيد. «**وبعد الاجتماع طلب الوصي استقالة الحكومة بسرعة لئلا يحرج موقفه مع الإنكليز**». فلم تستجب الحكومة لهذا الطلب الذي اعتبرته مخالفاً للدستور[١٣٨]، وتشبثت بالبقاء في الحكم طالما أنها تحظى بثقة مجلس الأمة.

إثارة المعارضة ضد الحكومة في مجلس الأمة:

بعد فشل جميع المحاولات الآنفة الذكر لإقصاء رشيد عالي الكيلاني عن رئاسة الحكومة، وإبعاد العقداء الأربعة عن الساحة السياسية، عمدت المعارضة إلى محاربة الحكومة في مجلسي النواب والأعيان، لاسقاطها بطريقة لا تتعارض مع الدستور. وكانت الخطة الجديدة ذات شقين. الشق الأول يتضمن حث أكبر عدد من الوزراء على الاستقالة، حتى إذا ما تجاوز عدد المستقيلين حداً معيناً، جاز عندئذٍ اعتبار الحكومة ساقطة قانوناً. وقام الوصي ونوري السعيد وأعوانهما بجهد كبير في هذا السبيل. وشهد النصف الأول من كانون الثاني ١٩٤١ استقالة الوزراء صادق البصام، وناجي السويدي، وطه الهاشمي. ولمنع الحكومة من السقوط بهذه الطريقة، تدخل العقداء الأربعة، واضطروا الوصي على توقيع إرادة ملكية بتعيين أربعة وزراء جدد بدل الوزراء المستقلين؛ وكان منهم وزيران من أعضاء الحركة العربية السرية، وهما يونس السبعاوي رئيس الحركة، وموسى الشابندر[١٣٩].

أما الشق الثاني من الخطة التي اعتمدتها المعارضة لإسقاط الحكومة

---

(١٣٧) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٦٦. أيضاً، عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٠٤.

(١٣٨) المصدر ذاته، ص ١٦٩. أيضاً، عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٠٦.

(١٣٩) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦ و٢٩ ـ ٣٣١.

فكانت حملة شديدة ضد الحكومة، ولا سيما ضد سياستها الخارجية، ودعوة النواب لسحب الثقة منها[١٤٠]. وبإزاء هذا الوضع المتأزم عقد رئيس الحكومة رشيد عالي والعقداء الأربعة اجتماعاً لدرس ما يجب عمله، وقرروا حل مجلس النواب. فأعد رئيس الحكومة إرادة ملكية بحله، ورفعها إلى الوصي الأمير عبدالإله، فرفض توقيعها[١٤١].

حكومة توافق برئاسة طه الهاشمي:

بعد رفض الوصي توقيع «الإرادة الملكية» بحل مجلس النواب، خشي ردة فعل غاضبة قد تصدر عن رشيد عالي والعقداء الأربعة، فغادر العاصمة سراً عصر نهار ٣٠ كانون الثاني ١٩٤١، ولجأ إلى الديوانية، حيث كان قائد الفرقة الرابعة اللواء إبراهيم الراوي من مؤيدي الأسرة المالكة. وراح الوصي يحرضه وبعض القادة الآخرين ضد حكومة الكيلاني[١٤٢]. ولتفادي نشوب حرب أهلية تدخلت بعض الشخصيات السياسية المحايدة للتوفيق بين الفريقين المتنازعين. واستجابت الحكومة للوساطة، بموافقة العقداء الأربعة، في حين رفضها وعارضها بشدة يونس السبعاوي[١٤٣]. وقدم رشيد عالي الكيلاني استقالة حكومته في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤١. فقبلها الوصي فوراً، وكلف طه الهاشمي تأليف الحكومة الجديدة. فتألفت في ١ شباط ١٩٤١ على أساس: «**أن تعمل الوزارة ضمن حدود معاهدة التحالف، وأن لا يتدخل أحد في شؤون الجيش بصورة مخالفة للقانون**»[١٤٤].

سعى رئيس الوزراء طه الهاشمي إلى إزالة التوتر وتهدئة الوضع

---

(١٤٠) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٠٨ و١٢١.
(١٤١) المصدر ذاته، ص ١٠٨ . ١٠٩، أيضاً: محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٧٢.
(١٤٢) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١١٠.
(١٤٣) المصدر ذاته، ص ١١٢.
(١٤٤) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، ص ٢٤٥.

المضطرب، بالتعامل المتوازن مع مختلف الأفرقاء. ولكنه فشل في ذلك، ولم يُرض لا البريطانيين، ولا الوصي الأمير عبدالإله، لأنه لم يفِ بوعده بنقل العقداء الأربعة إلى مراكز نائية خارج العاصمة، ولم يرضِ العقداء الأربعة لأن حكومته عجزت عن تنفيذ ما كان قد اتفق عليه مع الوسطاء عند تشكيلها. فالعقداء الأربعة تعرضوا في مجلسي النواب والأعيان لحملة من الانتقادات القاسية من خصومهم السياسيين أعوان الوصي الأمير عبدالإله[١٤٥]. ثم إن الحديث عن نقلهم من العاصمة، والرغبة في إقصائهم عن الجيش، والتصميم على إضعافهم والانتقام منهم كان قد أخذ يتردد في مختلف الأوساط[١٤٦]. وفي الوقت نفسه رفض الوصي الأمير عبدالإله طلب رئيس الحكومة طه الهاشمي بإجراء مصالحة بينه وبين العقداء. فأثارت هذه الأمور مخاوف العقداء، وعززت شكوكهم في ما كان يدبره لهم خصومهم السياسيون من مكائد.

بين «اللجنة العربية السرية» والحركة العربية السرية:

إزاء هذه التطورات، اجتمعت في ٢٨ شباط ١٩٤١ قيادات المحاور السياسية الثلاثة: محور رشيد عالي الكيلاني، ومحور المفتي الحاج أمين الحسيني، ومحور يونس السبعاوي، والعقداء الأربعة، وأسسوا تنظيماً سرياً دعي باسم «اللجنة العربية» أو «اللجنة السباعية». تألفت قيادة هذا التنظيم من سبعة أشخاص، اتخذ كل واحد منهم اسماً مستعاراً للمحافظة على السرية. وفيما يلي أسماؤهم الحقيقية، وإلى جانبها الأسماء المستعارة بين هلالين وهم: الحاج أمين الحسيني (مصطفى) ورشيد عالي الكيلاني (عبدالعزيز)، ويونس السبعاوي (فرهود)، وناجي شوكت (أحمد)، وصلاح الدين الصباغ (رضوان) وفهمي سعيد (نجم)، ومحمود سلمان (فارس). وأقسموا اليمين على العمل يداً واحدة لتحقيق بنود الميثاق الوطني الإصلاحي الذي تم

---

(١٤٥) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٢، أيضاً، محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص١٧٣. أيضاً صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، ص٢١٥.
(١٤٦) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٣.

الاتفاق عليه. وانتخبوا (مصطفى) الحاج أمين الحسيني **«ناظماً لنا ورئيساً مطاعاً»**[١٤٧].

إن اسم «اللجنة العربية» السرية، يذكِّر بـ «الحركة العربية السرية». والواقع أن هذا التذكُّر مصيب وفي محله. فرئيس الحركة يونس السبعاوي، الذي اعترض على استقالة وزارة رشيد عالي الكيلاني في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤١، كانت له اليد الطولى في الدعوة إلى إقامة تحالف المحاور الثلاثة، وفي تأسيس «اللجنة العربية» السرية، وفي تأمين الأكثرية العددية فيها للحركة العربية السرية، وفي رسم سياستها، وتحديد مطالبها وموقفها من حكومة طه الهاشمي التي خلفت حكومة الكيلاني. فمن أصل الأعضاء السبعة الذين يشكلون اللجنة العربية، كان أربعة منهم من المنتسبين إلى الحركة العربية السرية وهم: يونس السبعاوي، وصلاح الدين الصباغ، وفهمي سعيد، ومحمود سلمان. وبهذا دخلت «الحركة» في صميم هذه المعركة السياسية عن طريق «اللجنة العربية».

أما أهداف «اللجنة العربية السرية» فقد حددتها اللجنة في ميثاقها، وكانت أهم بنوده تنص على ما يلي:

١ ـ التمسك بالمعاهدة العراقية البريطانية التي تحدد للعراق ما له وما عليه.

٢ ـ رفض قطع العلاقات مع إيطاليا.

٣ ـ حل مجلس النواب وانتخاب مجلس نيابي جديد يمثل الأمة تمثيلاً صادقاً، ثم تعرض عليه مطالب الإنكليز المستجدة.

٤ ـ السعي لتعديل الدستور لتحديد صلاحيات الوصي.

٥ ـ التوسل بكل الوسائل لجعل الوصي يرضى عن قادة الجيش.

٦ ـ تعيين نوري السعيد وجميل المدفعي وجودت الأيوبي سفراء، لإبعادهم عن العراق وإنقاذ البلاد من عبثهم خلال الحرب القائمة.

---

(١٤٧) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٢. أيضاً، محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٨٤.

٧ ـ الطلب من طه الهاشمي الاستقالة إذا عجز أو إذا امتنع عن تحقيق هذه المطالب.

٨ ـ يقطع الجيش على نفسه عهداً صارماً بأن لا يتدخل في شؤون الحكومة القائمة إذا وثق من سلامة الانتخابات النيابية، وتأكد لديه أن السلطة التشريعية تمارس كل ما لديها من صلاحيات، وأنها ليست آلة بيد الوزراء أو الوصي، أو الجالس على العرش، وأن ما من وزارة تتولى الحكم بتأثير الأجنبي ودسائسه[١٤٨].

تقدم أعضاء اللجنة العربية السرية، بصفتهم الشخصية، بهذه الشروط إلى رئيس الحكومة طه الهاشمي، طالبين إليه تكراراً وبإلحاح أن يتعهد بتلبيتها في أقرب وقت، ووجد الهاشمي نفسه عاجزاً عن تحقيق هذه المطالب التي يرفضها الإنكليز والوصي. وعبر عن قناعته بهذا العجز وعن واقع الحال بقوله بصراحة كلية، أنه:

«لا بد من الموافقة على ما يريده الإنكليز، أما رضا الوصي من قادة الجيش فمستحيل»[١٤٩].

وبناء على هذه القناعة بدأ طه الهاشمي منذ أوائل آذار ١٩٤١ يميل إلى قطع العلاقات مع إيطاليا والاستجابة لمطالب البريطانيين لقاء وعد منهم بدعم الاقتصاد العراقي وتسليح الجيش[١٥٠]. ولكن المسألة التي فجرت الوضع كانت صدور «إرادة ملكية» في ٢٦ آذار ١٩٤١ تقضي بنقل العقيد كامل شبيب من قيادة الفرقة الأولى في بغداد إلى قيادة الفرقة الرابعة في الديوانية، بدل اللواء الركن إبراهيم الراوي... كما صدرت الأوامر إلى العقيد صلاح الدين الصباغ بنقل مقر قيادته من بغداد إلى بعقوبة[١٥١].

---

(١٤٨) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٨٥ ـ ١٨٨. أيضاً: عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٣.

(١٤٩) المصدران السابقان: الدرة، ص ١٨٨، والخماسي، ص ١٢٣.

(١٥٠) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٣.

(١٥١) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٩٨. أيضاً: صلاح الدين =

انقلاب أبيض:

جرت محاولات لإلغاء قرار نقل العقيد شبيب من العاصمة، ولمصالحة العقداء الأربعة مع الوصي. ولكن جميع هذه المحاولات باءَت بالفشل. فالوصي رفض بشكل قاطع مصالحة العقداء. وكان رشيد عالي ويونس السبعاوي رئيس الحركة العربية السرية وزملاء له وقياديون سياسيون آخرون، لغايات مختلفة في النفس، يحثون العقداء الأربعة على عدم الانصياع، ويحذرونهم من أن الغرض الحقيقي من نقلهم من مراكز قيادتهم في العاصمة هو تشتيت شملهم وإضعافهم والانتقام منهم[١٥٢]. وازدادت علاقتهم بالوصي تدهوراً وسوءاً، وأيقنوا أن مراكزهم وحياتهم أصبحت في خطر. وقد عبر صلاح الدين الصباغ عن هذه المخاوف بقوله:

«إن من اليسير على نوري السعيد، بعد تحشيد الجيش البريطاني، أن يتخلص في ليلة واحدة من قادة الجيش ورشيد عالي وغيرهم ممن لا يرضى الإنكليز عنهم»[١٥٣].

وبعد أن اشتد الضغط عليهم من الوصي وأعوانه، ورفضت مطالبهم ولا سيما ما يتعلق منها بحل مجلس النواب، وصدر القرار بنقل بعضهم، اتخذ العقداء الأربعة قراراً بحسم الموقف. فقاموا باحتلال مراكز البريد والبرق والهاتف وسائر المراكز المهمة في العاصمة. وأحاطوا قصر الوصي بقوة عسكرية، وأجبروا رئيس الوزراء طه الهاشمي على توقيع استقالته[١٥٤]. فما كان من الوصي، وقد أدرك جدية الموقف وحراجته، إلا أن تسلّل متنكراً عبر الحصار المضروب حول قصره، وهرب من العاصمة سراً إلى جهة مجهولة[١٥٥]. وكان ذلك في ١ نيسان ١٩٤١.

الصباغ، فرسان العروبة، ص ٢٥٦

(١٥٢) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٣.
(١٥٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ١٤٧.
(١٥٤) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٦.
(١٥٥) المصدر ذاته، ص ١٢٣ و١٢٦ و١٣٢.

إجراءات ثورية:

في ١ نيسان ١٩٤١ دخلت الأزمة السياسية في العراق مرحلة حادة ومصيرية. فهروب الوصي عبدالإله من العاصمة، ولجوؤه إلى قاعدة الحبانية، أولاً، ثم إلى البصرة بعدها، بمساعدة السفارة البريطانية وحمايتها[١٥٦]، عطل الحياة الدستورية في البلاد. واشتدت حدة النزاع بين الفريق الموالي للوصي وللإنكليز، وفريق القوميين المعارضين من عسكريين ومدنيين. وأعلن الوصي وفريقه في البصرة في ٣ نيسان عزمهم على تشكيل حكومة موقتة تكون مهمتها مواجهة حكومة بغداد والقضاء عليها بالقوة[١٥٧]. فردّ عليه الفرق الآخر بنفس اليوم، باتخاذ إجراءات ثورية كان أهمها، تسلم الجيش زمام السلطة، وتشكيل حكومة عسكرية موقتة لمواجهة الوضع الناشئ دعيت باسم «مجلس الدفاع الوطني»، وضمت عشرة وزراء، برئاسة رشيد عالي الكيلاني وعضوية سبعة عسكريين، ومدنيين اثنين. وكان نصف هذه الحكومة من أعضاء الحركة العربية السرية وهم، رئيس الحركة يونس السبعاوي والعقداء الأربعة[١٥٨].

وفي ١٠ نيسان اجتمع مجلس الأمة، بطلب من رئيس مجلس الدفاع رشيد عالي الكيلاني، وقرر بإجماع الحاضرين، إقالة الأمير عبدالإله من الوصاية، وتعيين الشريف شرف، أحد أفراد الأسرة الحاكمة، وصيّاً جديداً على العرش العراقي[١٥٩]. وقبل الوصي الجديد استقالة طه الهاشمي المعلقة منذ بعض الوقت، وكلف رشيد عالي الكيلاني تشكيل الحكومة الجديدة. فتشكلت في ١٢ نيسان ١٩٤١ بدعم قوي من الجيش على الوجه التالي:

رشيد عالي الكيلاني ـ للرئاسة والداخلية

---

(١٥٦) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(١٥٧) المصدر ذاته، ص ١٣٣. أيضاً: محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٠٦.

(١٥٨) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٢٩.

(١٥٩) المصدر ذاته، ص ١٤٤. أيضاً: محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٢٢.

ناجي السويدي ـ للمالية

ناجي شوكت ـ للدفاع

يونس السبعاوي ـ للاقتصاد

موسى الشابندر ـ للخارجية

الدكتور محمد حسن سلمان ـ للمعارف

علي محمود الشيخ علي ـ للعدلية

رؤوف البحراني ـ للشؤون الاجتماعية

محمود علي محمود ـ للأشغال العامة[١٦٠].

وكان في جملة أهدافها التخلص من الوصي السابق الأمير عبدالإله، والقضاء على حركته وفريقه المتمرد في البصرة. وبذلك تحولت الأزمة السياسية في العراق إلى حرب أهلية بين الفريقين المتخاصمين، بحيث يبغي كل فريق منهما القضاء على الفريق الآخر، للانفراد في حكم العراق.

وقد تمثلت الحركة العربية السرية في هذه الحكومة أيضاً بثلاثة وزراء، هم يونس السبعاوي وموسى الشابندر والدكتور محمد حسن سلمان. ولعب «الحركيون» المدنيون والعسكريون، دوراً بارزاً ومصيرياً في الأحداث التي توالت بعد ذلك خلال شهر أيار، والمعروفة باسم «الحرب العراقية ـ البريطانية» أو «ثورة رشيد عالي الكيلاني».

قلق الإنكليز على العراق:

كان قلق الإنكليز على العراق عظيماً. فالعراق يشكل حلقة وسطية رئيسية في طريق المواصلات الاستراتيجي الطويل، الذي يربط الهند ومستعمرات بريطانيا الأخرى في الشرق الأقصى، بممتلكاتها في الشرق الأدنى وببريطانيا ذاتها. وإن سقوط العراق بيد العدو النازي يقطع هذه الطريق، ويؤدي إلى سقوط منطقة الشرق الأدنى بكاملها بأيدهم، ويعرقل المجهود الحربي البريطاني بدرجة كبيرة.

---

(١٦٠) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٢٢.

وفي أواسط نيسان سنة ١٩٤١ كان الجيش الألماني يدق أبواب مصر من جهة الغرب، وكان قد احتل اليونان في البلقان، وبدأ يستعد للاستيلاء على جزيرة كريت ذات الموقع الاستراتيجي الهام، بوسط الحوض الشرقي في البحر الأبيض المتوسط.

أما بيانات رئيس الحكومة العراقية المطمئنة، وتصاريحه الداعية إلى المحافظة على صداقة العراق لبريطانيا، وتطبيق المعاهدة المعقودة بينهما بكل صدق وإخلاص، فلم تأخذها الحكومة البريطانية على محمل الجد، ولم تعتبرها كافية. فالإنكليز لم يكونوا يثقون برشيد عالي أصلاً، وخصوصاً بعد أن اكتشفت مخابراتهم أن العراقيين يفكرون بالقيام بثورة تحريرية ضد الإنكليز، وأن الألمان وعدوهم بالتأييد والدعم ولا سيما في مجال الطيران، وأن الفرنسيين الفيشيين في سوريا ولبنان وعدوا بتقديم بعض التسهيلات اللوجستية للطائرات وللقوات الألمانية المتوجهة من اليونان إلى العراق. وكانت هذه الخطوات، بنظر المسؤولين البريطانيين، تمهيداً للاستيلاء على العراق ذاته، وتوجيه ضربة قاسمة للمواصلات وللنفوذ البريطانيين في هذا القسم من العالم، وفي هذا الوقت الحرج في الحرب.

إن هذه الوقائع، والتطورات الميدانية أثارت قلق الإنكليز ومخاوفهم، وجعلتهم يقررون الاستيلاء على العراق عسكرياً قبل أن يسبقهم العراقيون والألمان إلى تنفيذ مخططاتهم ضد الوجود الإنكليزي في بلاد الرافدين[١٦١].

١٠ ـ أسباب الحرب العراقية البريطانية

السبب المباشر لنشوب الحرب:

إن السبب المباشر لنشوب الحرب العراقية البريطانية في أيار سنة ١٩٤١، يرجع إلى الاختلاف بين المسؤولين العراقيين والمسؤولين البريطانيين على تفسير مواد المعاهدة العراقية البريطانية بخصوص كيفية

---

(١٦١) عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٥٢ . ١٥٣.

الوجود العسكري البريطاني في العراق. المسؤولون العراقيون يرون أن المعاهدة صريحة واضحة لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل. فهي تخول البريطانيين إقامة قاعدتين عسكريتين، واحدة في الحبانية غربي بغداد، والأخرى في الشعيبة شمالي البصرة، وتحدد عدد الجنود فيهما - وسوى ذلك لا يجوز للبريطانيين إقامة قواعد أخرى، ولا أن ينزل في البصرة جنود بريطانيون إضافيون إلا بعلم الحكومة العراقية وموافقتها، وإلا إذا كان الغرض من إنزالهم نقلهم عبر الأراضي العراقية خلال فترة قصيرة من الزمن إلى فلسطين. وكان المسؤولون المعارضون يقولون إن العراق راغب في تطبيق المعاهدة بكل دقة وأمانة، ومخلص في سعية للحفاظ على صداقة بريطانيا والتحالف معها عى هذا الأساس.

أما المسؤولون البريطانيون فكانوا يرون عكس ذلك، ويزعمون أن بنود المعاهدة قابلة للتفسير والتأويل، ويذهبون بعيداً في ذلك بحيث يجعلون المعاهدة تخدم مجهودهم الحربي ومصالحهم الاستعمارية قبل أي شيء آخر، دون الاستجابة للمطالب القومية العربية المعروفة. وإن ما كان يهمهم هو استقدام الجنود من الهند وأوستراليا وغيرهما من المستعمرات البريطانية في الشرق الأقصى، وتجميعهم في العراق، لنقلهم إلى حيث تدعو الضرورات العسكرية وتطور الأحداث السياسية والحربية في منطقة الشرق الأوسط، إن كان ذلك في مصر أو فلسطين أو إيران أو سوريا ولبنان.. وحدد رئيس الوزراء ونستون تشرشل (Winston Churchill) هذا الموقف البريطاني، في التعليمات التي بعثها إلى السفير البريطاني في العراق، وقد جاء فيها قوله:

«إن ما يهم بريطانيا بالدرجة الأولى من إرسال الجنود إلى العراق، هو إنشاء وتغطية قاعدة للتجمع في البصرة... وإن حقوقنا المنصوص عليها في المعاهدة تستهدف تغطية هذا الإنزال، وتحاشي سفك الدماء. ولكن عند الضرورة علينا أن نستعمل القوة إلى أقصى حدودها لضمان هذا الإنزال. لهذا فإن وضعنا في البصرة لا يتوقف على المعاهدة فحسب، بل على حدث

جديد ناشئ من الحرب. لا يمكن إعطاء تعهد بإرسال الجنود إلى بغداد ومنها إلى فلسطين، كما أن حق المطالبة لا يمكن الاعتراف به تجاه حكومة هي نفسها اغتصبت الحكم بنتيجة انقلاب عسكري»(١٦٢).

كيف بدأت الحرب العراقية البريطانية:

استغل الإنكليز اختلاف العراقيين بصدد سياسة بلدهم الخارجية، وانقسامهم إلى فريقين متنافسين، وسلطتين متنازعتين، إحداهما موالية للإنكليز، والأخرى ضدهم. وأخذ الإنكليز منذ أواسط نيسان ١٩٤١ يستقدمون الجنود والمعدات من مختلف المصادر إلى العراق لدعم موقفهم السياسي ووضعهم العسكري فيه. فأنزلوا في ١٨ وفي ٢٩ نيسان في البصرة، القوات والمعدات الحربية الوفيرة، الآتية من الهند والشرق الأقصى. وبنوا قاعدة جديدة لتجميعهم فيها بالقرب من المدينة. وعزز البريطانيون كذلك قاعدة الحبانية بالجنود والأسلحة والطائرات المستقدمة من فلسطين ومصر. وكانت الحكومة العراقية تحتج على هذه الأعمال المخالفة للمعاهدة، ولكن البريطانيين، قلما كانوا يعيرون هذه التنبيهات والاحتجاجات الاهتمام الجدي اللازم، متذرعين بالمبررات التي لم تكن لتقنع العراقيين(١٦٣).

ونظراً لقرب قاعدة الحبانية من بغداد، وبسبب الزيادة الكبيرة في قدرتها القتالية التي تحققت خلال شهر نيسان، خشي المسؤولون العراقيون من أن تنطلق منها يوماً حملة عسكرية مفاجئة، فتستولي على العاصمة، وتنهي حكم رشيد عالي الكيلاني، وتعيد الوصي وفريقه الموالين للإنكليز إلى السلطة. وتفادياً لحصول مثل هذه المفاجأة، قرر العراقيون إحاطة قاعدة الحبانية بخط دفاع على التلال المشرفة عليها. وقد تم تنفيذ هذا المشروع على عجل، واحتل الجنود العراقيون مواقعهم فيه في الثلاثين من نيسان

---

(١٦٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(١٦٣) المصدر ذاته، ص ٢٥٧. أيضاً: عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، حاشية رقم ٣، ص ١٤٩.

١٩٤١. فاحتج قائد القاعدة البريطاني على إنشاء هذا الخط حول القاعدة، وطلب إلغاءه. ولكن الحكومة العراقية لم تستجب لهذا الطلب. فوجه إليها قائد القاعدة في ١ أيار، وبناءً على تعليمات من حكومته، إنذاراً يطلب بأن يكون سحب القوات العراقية من مواقعها المحيطة بالقاعدة، قد استكمل بحلول الساعة الخامسة من صباح الثاني من أيار[١٦٤]. فتجاهلت الحكومة العراقية هذا الإنذار. وحوالى الساعة السادسة تقريباً قامت الطائرات الحربية البريطانية من قاعدة الحبانية بشن غارات عنيفة دمرت تلك المواقع المستهدفة. فرد عليها العراقيون بقدر ما كانوا يملكون من قدرات وإمكانيات[١٦٥].

وهكذا بدأت الحرب العراقية البريطانية في صباح اليوم الثاني من أيار سنة ١٩٤١.

١١ ـ الحرب العراقية ـ البريطانية

حرب غير متكافئة:

جرت الحرب العراقية ـ البريطانية خلال شهر أيار بكامله. وكان الخصمان المتحاربان غير متكافئين، فإمكانات الجيش العراقي وقدراته في جميع النواحي كانت محدودة، ولا تقارن بإمكانات وقدرات الجيش البريطاني الضخمة وغير المحدودة. أما المساعدة الألمانية الموعودة، وخصوصاً في مجال الطيران، فقد جاءت هزيلة محدودة، وغير ذات تأثير ملموس في مجرى الحرب.

ولم يكن العراقيون يجهلون هذا الواقع، أو يأملون بالانتصار على الإنكليز، ولكنهم حاربوا بشجاعة وروح وطنية عالية. ويذكر العقيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته بهذا الصدد ما يلي:

«وما قصدنا قتالهم [أي الإنكليز]، أو الاشتباك معهم، ولكنهم بادأونا

---

(١٦٤) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٧٢.

(١٦٥) المصدر ذاته، ص ٢٧٤.

بالقتال، فكان لا بد من الدفاع عن شرفنا ووطننا»[١٦٦].

ونتيجة لعدم التكافؤ في القدرات والإمكانات لم يستطع الجيش العراقي الصمود طويلاً، وراح يخلي مواقعه الواحد تلو الآخر، ويتراجع أمام القوات البريطانية الزاحفة من البصرة شمالاً، ومن الحبانية شرقاً، باتجاه العاصمة بغداد. وأصبح الموقف العراقي في غاية الحرج وميؤوساً منه، وبدت النهاية قريبة الوقوع.

فشل الوساطة التركية:

رأت تركيا أن مصالحها الحيوية وضرورات أمنها، تستدعي وقف الحرب الدائرة في العراق المجاور لحدودها الجنوبية[١٦٧]. فقبلت القيام بدور الوسيط بين العراق وبريطانيا، وتقدمت بمشروع صلح وتسوية يحترم كرامة العراق ويحفظ ماء وجه العراقيين. فقد انطوى الاقتراح التركي، فيما انطوى عليه، على اعتراف بريطانيا بحكومة رشيد عالي الكيلاني، والاستجابة لبعض مطالبها، كما انطوى على ضمان مصالح بريطانيا الاستراتيجية في العراق التي تستدعيها ظروف الحرب العالمية الثانية، ولا سيما فيما يتعلق بمرور الجنود البريطانيين في الأراضي العراقية وكيفية هذا المرور إلى فلسطين[١٦٨].

وافق معظم الزعماء السياسيين على الوساطة التركية بالشروط التي تضمنتها[١٦٩]. وعارضها بشدة وزير الاقتصاد رئيس الحركة العربية السرية يونس السبعاوي والعقداء الأربعة، والمفتي الحاج أمين الحسيني ومن لف لفهم من القوميين العرب المتشددين في مواقفهم من الإنكليز[١٧٠]. فقد

---

(١٦٦) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٢٣٩.
(١٦٧) المصدر ذاته، ص ٣٠٥.
(١٦٨) المصدر ذاته، ص ٣٠٦.
(١٦٩) المصدر ذاته، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨. أيضاً: عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ١٢٠.
(١٧٠) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

راهن هؤلاء على نصر قريب يحرزه الألمان بمنطقة الشرق الأدنى، ويغير الأوضاع فيها بشكل جذري لصالح العراق. وقد حملهم هذا الرهان الخائب على رفض الوساطة التركية لأسباب أعلنها العقيد صلاح الدين الصباغ في مجلس الوزراء، وجاء فيها قوله:

«يجب أن لا نسرع في عقد الصلح مع الإنكليز... ومن الضروري أن نستمر في المقاومة شهرين أو ثلاثة، لنرى ما سيحدث من الأمور، وما سيؤول إليه الهجوم الألماني العتيد على كريد [جزيرة كريت]، فإني أرى أن الألمان لن يتخلوا عن احتلال سوريا، والتقدم نحونا، وربما تخضع لهم تركيا وتتغير الأحوال»(١٧١).

وهكذا غلبت إرادة العسكريين إرادة السياسيين، ورفضت الوساطة التركية، وانصب اهتمام المعارضين على تنظيم المقاومة الشعبية.

دور الحركة العربية السرية في التصدي للعدوان البريطاني على العراق:

لاقت الدعوة إلى التطوع والانخراط في صفوف المقاومة الشعبية لصد العدوان البريطاني تأييداً واسعاً من مختلف طبقات الشعب العراقي وقطاعاته(١٧٢). فأعلن رجال الدين المسلمون في المساجد، ورجال الدين المسيحيون في الكنائس الجهاد الوطني المقدس(١٧٣). وحرك زعماء القبائل والعشائر رجالهم ودفعوهم للثورة(١٧٤). وتطوع الأساتذة والطلاب في الكليات، وتطوع الأطباء والمهندسون والعمال والمواطنون العاديون القادرون(١٧٥). وطلب وزير المعارف الدكتور محمد حسن سلمان، العضو

---

(١٧١) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٠٨ . ٣٠٩. أيضاً: عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني، ص ١٢١.

(١٧٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤١٣ . ٤١٦.

(١٧٣) المصدر ذاته، ص ٤١٤.

(١٧٤) المصدر ذاته، ص ٤١٤ . ٤١٥. أيضاً: واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٢٨.

(١٧٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤١٣ . ٤١٦.

بالحركة العربية السرية، تشغيل طلاب تنظيم «الفتوة» في المدارس الثانوية للمشاركة في تهيئة خطوط الدفاع، فأرسل آلاف الطلاب، وجيء بالمتطوعين للجهاد، الذين امتلأت بهم جوامع بغداد، ليساهموا في حفر الخنادق(١٧٦).

وشاركت الحركة العربية السرية في العراق بالمقاومة الشعبية والرسمية على السواء، وقامت بدور بارز وفاعل في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والتربوية والتعبوية والتنظيمية. فرئيس الحركة المحامي يونس السبعاوي كان ذا نفوذ سياسي داخل الحكومة كوزير للاقتصاد بوزارة رشيد عالي الكيلاني الأخيرة، وفي الجيش كرفيق حزبي في الحركة وكمستشار سياسي، وصاحب نفوذ ورأي مسموع لدى العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد، ومحمود سلمان، وكامل شبيب. ومعلوم أن العقداء المذكورين حركيون منتسبون، وأنهم كانوا، منذ ١٩٣٧ وحتى ١٩٤١، يسيطرون على الجيش العراقي، ويوجهون سياسة البلاد الداخلية والخارجية، ويتحكمون في اتخاذ القرارات المصيرية. وقد أفشلوا أكثر من محاولة مصالحة مع بريطانيا، لأنها، بنظرهم، لم تكن تراعي مصالح العراق الحيوية، وتحترم كرامته وسيادته واستقلاله. وكان بعض عناصر الحركة العربية السرية البارزين يشغلون مناصب رفيعة ومؤثرة في دوائر رسمية حساسة مثل صديق شنشل مدير الدعاية والأنباء والإذاعة، ودرويش المقدادي مدير دار المعلمين العليا في بغداد.

«كتائب الشباب»:

لما اشتد الضغط العسكري البريطاني على الجيش العراقي خلال الحرب العراقية البريطانية في أيار ١٩٤١، قام رئيس الحركة العربية السرية يونس السبعاوي ورفاق حركيون له، بتأسيس التنظيم الشعبي الثوري المعروف باسم «كتائب الشباب». وعهد بزعامته إلى رئيس الحركة السابق

---

(١٧٦) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٧٥.

درويش المقدادي، ثم خلفه في زعامتها بأواخر الحرب رئيس الحركة يونس السبعاوي نفسه. وكان الغرض من تأسيسه دعم حكومة رشيد عالي الكيلاني، ومساندة الجيش العراقي في مواجهة القوات البريطانية، والسعي لعرقلة تقدمها نحو بغداد، وتأخيره بقدر الإمكان، أملاً في أن تتبدل الحال ويأتي الفرج المرتقب خلال بضعة أسابيع(١٧٧).

كان الإقبال على الانضمام إلى «كتائب الشباب» كبيراً، وكانت غالبية المتطوعين من تنظيم «الفتوة» الذي كانت الحركة العربية السرية قد أنشأته سابقاً برئاسة درويش المقدادي، وجعلته إحدى نقط اعتمادها الرئيسية لجمع شمل الشباب العراقي وتوجيهه التوجيه القومي الصحيح، وتدريبهم على أساليب المقاومة وفنون القتال. ولم يقتصر التطوع في «كتائب الشباب» على فتيان «الفتوة» العراقيين فحسب، بل التحق بها بالتطوع أيضاً شبان من أقطار عربية أخرى، وكان عدد من هؤلاء من أعضاء الحركة العربية السرية المقيمين في العراق يومئذٍ، مثل الشبان اللبنانيين نديم دمشقية وحليم أبو عزالدين ويوسف شديد والدكتور رفيق حنينة ومحمد شقير وعبدالله النجار(١٧٨) وغيرهم.

توزعت عناصر «كتائب الشباب» على مختلف المرافق والقطاعات، حسب الحاجة إليهم. ذهب بعضهم إلى جبهات القتال، وتولى بعضهم الآخر مسؤوليات أمنية وإدارية في العاصمة وخارجها. وقد أخبرني حليم أبو عز الدين أن صديق شنشل مدير الدعاية والأنباء والإذاعة، أوكل إليه الإشراف على قسم اللغات الأجنبية بالإذاعة العراقية(١٧٩). وعاونه في عمله عدد من المتطوعين الذين يحسنون اللغات الأجنبية مثل سعيد فتاح الإمام الذي عين في قسم الأخبار باللغة الألمانية.

---

(١٧٧) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٠٨ . ٣٠٩.
(١٧٨) نديم دمشقية، محطات في حياتي الدبلوماسية، ص ٣٣.
(١٧٩) حليم أبو عزالدين، تلك الأيام، ج ١، ص ١٦٠.

يونس السبعاوي في الجبهة:

«الحالة في العراق مزرية، والوضع يرثى له، ونحن في حيرة من أمرنا». بهذه الكلمات صور واصف كمال الحالة في العراق في أحد الأيام بأواخر أيار. ثم تابع يقول: **«ولكن السيد السبعاوي خطرت له فكرة [فقال] يا أخي واصف... إننا لا نستطيع الاعتماد على الجيش لمقاومة هذا الزحف [زحف الجيش البريطاني نحو بغداد]، فلا بد من أن نجد وسيلة»**[١٨٠].

انطوت فكرة السبعاوي على إنشاء مركز للمقاومة الشعبية في الجبهة، يتولى هو ورفاق له من أعضاء الحركة العربية السرية إدارته. ويكون لهذا المركز مهمتان: المهمة الأولى جمع عدد من المتطوعين من «كتائب الشباب» وشن الغارات المفاجئة على خطوط الجيش البريطاني، وأماكن تواجد عناصره، وعرقلة تقدمه. والمهمة الثانية الاتصال بزعماء القبائل لقيام قبائلهم بشن حرب عصابات ضد القوات البريطانية لإرباكها وإشغالها وتخفيف ضغطها على الجيش العراقي.

لاقت الفكرة تحبيذاً وتأييداً، وتطوع للمساهمة في إنشاء هذا المركز وإدارته، أفراد من الحركة العربية السرية هم رئيسها يونس السبعاوي نفسه، وركن الداخلية في الحركة واصف كمال، وركن الدعاية ممدوح السخن. ويصف واصف كمال بمذكراته ما جرى في ذلك المركز خلال تلك الأيام القليلة الأخيرة العصيبة، فيقول:

«قررنا مغادرة المكان الذي نحن فيه إلى منطقة تدعى «صدر أبو غريب»، حيث يقيم الجيش العراقي، وجعلناه مركزاً لنا كـ «كتائب الشباب». وكان مركزاً للتدريب على استعمال السلاح، ومقراً لقيادته الميدانية. فتجمع في هذا المخيم أغلب المتطوعين لمساعدة ودعم الجيش العراقي والذود عن الحياض. فحفرت الخنادق وبدأت التهيئة الميدانية العسكرية للمتطوعين، وتم توزيع السلاح والتدريب عليه.

وبعد أن تمكنا من إقامة المخيم بفترة وجيزة قامت الطائرات البريطانية

---

(١٨٠) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٢٧.

بالتحليق فوقه وفوق المركز وبدأت القصف بالطيران على المخيم... ولكن لحسن الحظ أن أحداً منا لم يصب بأذى. فقد كنا توجهنا إلى «صدر أبو غريب» للقاء رئاسة الجيش وتحريضهم على الثبات، وإعلامهم بتهيئتنا للقوة سواء من المتطوعين، أو الأعداد الهائلة التي ستقوم بمساعدتهم من العشائر.

ولعل اتصال السبعاوي بالعشائر وطلب المعونة والوقوف إلى جانب الجيش قد أجدى نفعاً. فقد أعلنت جميع القبائل استعدادها للقتال، فوزع عليها السلاح، ونظمت عملية الدفاع المسلح على أن يكون كقتال العصابات، وذلك بسبب عدم الاستعداد التعبوي الفعلي للقتال النظامي...

وبعد أن أتممنا مهمتنا، أنا والسيد يونس السبعاوي وممدوح السخن مع قيادة الجيش في «صدر أبو غريب» عدنا إلى المخيم وانتظرنا وصول أخبار من بغداد. ولما لم نحصل على أي خبر قررنا الذهاب إلى أقرب مكان للاتصال ببغداد هاتفياً للاطلاع على ما يجري هناك. فتركنا الأستاذ ممدوح السخن في المخيم لقيادة المجموعة، ووعدناهم بالعودة بعد الاتصال الهاتفي.

وصلنا مركزاً للهاتف، وسارع السبعاوي للاتصال، بينما بقيت أنا في السيارة انتظره. وكان الوقت حينهامساءً.

عاد الأخ يونس من مخابرته... وأخبرني بما لديه قائلاً: الوضع في بغداد سيئ للغاية، ويبدو أن الحكومة الوطنية قد تركت بغداد... فاتفقنا وقررنا الذهاب فوراً إلى بغداد، وأرسلنا خبراً للسيد ممدوح السخن بأننا مضطرون للذهاب إلى بغداد، وأرسلنا بطلبه على أن يلحق بنا بأسرع ما يمكن»[١٨١].

وفي الجبهة الجنوبية قرب «صدر أبو غريب» كان فريق آخر من المتطوعين الفلسطينيين بقيادة عبدالقادر الحسيني يواجه القوة البريطانية الزاحفة شمالاً، ويشتبك معها، ويشغلها ويعرقل تقدمها، بالتنسيق مع الجيش العراقي في المنطقة.

---

(١٨١) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

دور فوزي القاوقجي في المقاومة الشعبية:

ما إن تألف فريق مقاومة إلا وكان للحركة العربية السرية دور فيه، بشكل أو بآخر. لقد جهز البريطانيون قوة بريطانية ـ أردنية بقيادة قائد الجيش الأردني الجنرال كلوب باشا، وأرسلتها إلى البادية بين العراق والأردن لتقوم بحماية خط أنابيب النفط الممتدة بين كركوك وحيفا، ولاحتلال موقع «الرطبة» الاستراتيجي والانطلاق شرقاً باتجاه قاعدة «الحبانية» ومن بعدها إلى بغداد. وكانت حامية «الرطبة» صغيرة لا تقوى على مواجهة القوة البريطانية وصدها. فطلبت النجدة السريعة من بغداد.

وعلم المسؤولون العراقيون بالأمر، فجهزت وزارة الدفاع سرية من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين، بقيادة فوزي القاوقجي، وزودتها بحاجتها من السلاح والذخيرة والعتاد[١٨٢]، وأوكلت إليها نجدة حامية «الرطبة» ومشاغلة القوات البريطانية ـ الأردنية، والدفاع عن البادية، وهي البادية الشاسعة الممتدة من حدود الأردن جنوباً إلى حدود تركيا شمالاً.

وكانت الحركة العربية السرية ممثلة بقوة في تلك السرية من المتطوعين. فكان منهم على سبيل المثال، منير الريّس، والدكتور جابر عمر، وعثمان الحوراني، وسليمان المعصراني، وحمد صعب، ومحمود الهندي، وعبد الهادي المعصراني، وصبحي العمري، وجميل العلواني. وكان للعقيد صلاح الدين الصباغ فضل في تجهيز هذه السرية، حسب رواية مساعده محمود الدرة، الذي روى في مذكراته ما يلي:

«وكان صلاح الدين الصباغ قد أمر مؤلف هذا الكتاب [محمود الدرة]... أن يجهز المحارب القديم فوزي القاوقجي... بما يحتاج إليه المتطوعون السوريون والفلسطينيون وبعض العراقيين الذين نظموا وحدة عسكرية بقيادته لكي يقوم هؤلاء المتطوعون العرب بمشاغلة أية قوة بريطانية

(١٨٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٢٤.

زاحفة من الغرب»[١٨٣]. وقد استشهد المتطوع الحركي اللبناني محمد صعب في معركة الرطبة هذه.

وبصرف النظر عما حققته أفواج المقاومة المختلفة، من «كتائب الشباب» وغيرها، أو لم تحققه من انتصارات، وعن الأهمية الفعلية للمساندة التي قدمتها للجيش العراقي، فإنها حاربت، وعملت بحماسة وإخلاص وتصميم، وقدمت أكثر ما تستطيع تقديمه من مساعدات وخدمات للعراق في محنته.

١٢ ـ انهيار المقاومة العراقية:

هرب المسؤولين العراقيين من العراق:

في ٢٧ أيار بدأ البريطانيون هجومهم النهائي على بغداد. وفي ٢٨ أيار تكونت لدى المسؤولين العراقيين المدنيين والعسكريين، القناعة بأن الوضع العسكري ميؤوس منه تماماً، وأنهم خسروا حربهم ضد الإنكليز، وبات عليهم أن يتدبروا أمرهم بسرعة قبل فوات الأوان، وقبل استيلاء الإنكليز على العاصمة عسكرياً. فشكل رئيس الحكومة رشيد عالي الكيلاني لجنة رباعية دعاها «لجنة الأمن الداخلي». وكانت تتألف من أمين العاصمة أرشد العمري، ومدير الشرطة العام حسام الدين جمعة، وممثل عن الجيش العميد الركن حميد نصرت، ومتصرف لواء بغداد خالد الزهاوي[١٨٤]. وكانت مكلفة بالمحافظة على الأمن والهدوء واستقبال المندوبين البريطانيين للتفاوض معهم بخصوص إنهاء الحرب ووقف القتال وإعداد شروط الهدنة.

وفي منتصف ليل ٢٩ ـ ٣٠ أيار ١٩٤١، غادر العاصمة معظم المسؤولين السياسيين والعسكريين الكبار المتورطين مباشرة بالحرب، مثل رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني، والوزراء، والعقداء الأربعة، والمفتي

(١٨٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٢٤.

(١٨٤) المصدر ذاته، ص ٤٠٣ و٤٠٥. أيضاً: عبدالهادي الخماسي، الأمير عبدالإله، ص ١٦١.

الحاج أمين الحسيني وأتباعهم. فاتجه العراقيون والفلسطينيون شرقاً إلى إيران، فدخلوها وطلبوا من حكومتها منحهم حق اللجوء السياسي، فأعطوه[١٨٥]. أما السوريون وبعض الفلسطينيين والعراقيين مثل واصف كمال، وأنور قطب، وأكرم زعيتر، وعادل العظمة، وسعيد فتاح الإمام، فقد اتجهوا شمالاً إلى الموصل ومنها غرباً، فعبروا بادية الشام واجتازوا الحدود العراقية السورية بمنطقة الجزيرة الفراتية خلسة وفي غفلة من الحراس الفرنسيين، وبمساعدة بعض زعماء القبائل بمنطقة الجزيرة والعضو بقيادة الحركة العربية السرية جبران شامية[١٨٦].

إبعاد السبعاوي قسراً من العراق:

ما إن علم يونس السبعاوي ورفيقاه واصف كمال وممدوح السخن بمغادرة المسؤولين العراقيين بغداد، حتى عادوا إليها فوراً من الجبهة. وقرر السبعاوي أن يتسلم زمام السلطة ويستمر في المقاومة. فاتفق مع مدير الإذاعة العراقية صديق شنشل على أن يذيع شنشل نبأ بالراديو باسم «زعيم كتائب الشباب» المتطوعين يدعوهم فيه إلى الحضور في مقر وزارة الاقتصاد في الساعة الرابعة من صباح ٣٠ أيار ١٩٤١. فلبى النداء حوالى ٤٠٠ متطوع، فزودوا بالبنادق، وأبلغوا أن مسؤولية المحافظة على الأمن في العاصمة أنيطت بهم[١٨٧].

وذهب السبعاوي بعد ذلك إلى ديوان رئيس مجلس الوزراء لممارسة سلطاته. وأعد بياناً ليذاع من إذاعة بغداد بالنص التالي:

بلاغ رسمي:

أصدر فخامة رشيد عالي الكيلاني، رئيس الوزراء، أمراً بتعيين معالي السيد يونس السبعاوي حاكماً عسكرياً في بغداد وأطرافها. وقد خوّله جميع

---

(١٨٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٣٩٦.
(١٨٦) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٣٦ ـ ١٤٢.
(١٨٧) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤٠٤.

الصلاحيات التي تتطلبها سلامة الأهلين، والدفاع عن عاصمة المملكة.

٣٠ مايس ١٩٤١

مدير الدعاية العام[١٨٨]

يلاحظ أن هذا البيان يدعو إلى «الدفاع عن عاصمة المملكة»، مما يعني أن يونس السبعاوي مصرّ على الاستمرار في الحرب ضد البريطانيين. وهذا مخالف للمهمة السلمية الموكولة إلى «لجنة الأمن الداخلي». ويروي رفيق السبعاوي في تلك المرحلة واصف كمال بتفصيل مسألة «البيان»، وما جرى للسبعاوي وشنشل من مشاكل، فيقول في مذكراته ما يلي:

«وفي هذه الأثناء كان الأخ السيد صديق شنشل يتولى مديرية الدعاية والأنباء والإذاعة، وهو من الإخوان في الحركة العربية السرية... ولكنه عندما قرأ البيان رفض السماح بإذاعته قائلاً: وإن هذا البيان خطير جداً، وهذا الموقف قد يؤدي إلى مذابح في بغداد، وإننا لسنا في موقف وحال نستطيع فيه الوقوف في وجه الغازين. لكن السيد يونس السبعاوي أصرّ على أن يذاع البيان... وطلب مني إقناعه بذلك. لكن صديق أصر على موقفه. فما كان مني إلا أن أصدرت إليه أمراً حزبياً، باعتباري المسؤول عن الشؤون الداخلية في الحركة العربية السرية، وطلبت في هذا الأمر أن يذعن صديق ويسمح للسبعاوي بإذاعة البيان... وبالفعل أذيع البيان»[١٨٩].

وحدث ما توقعه صديق شنشل. فلم يعجب «بيان» السبعاوي «لجنة الأمن الداخلي»، واعتبرته مخالفاً لمهمة إحلال السلام التي أنشئت من أجلها. وكانت اللجنة قد اقتنعت بعدم جدوى المقاومة ضد البريطانيين وقررت وقفها، لأنها تعني الانتحار، وخسارة عدد كبير من المدنيين[١٩٠]. ويكمل واصف كمال قصة «البيان»، فيقول:

«وقد أرسلت [لجنة الأمن الداخلي] قوة إلى حيث يجلس يونس

---

(١٨٨) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤٠٤.
(١٨٩) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٣١.
(١٩٠) المصدر ذاته، ص ١٣٢.

السبعاوي في رئاسة الوزراء، وألقت القبض عليه... وعلمنا أن يونس السبعاوي وصديق شنشل وضعا في سيارة مكبلين، وتم تسفيرهما إلى إيران، أي أخرجا من العراق عنوة»[١٩١].

وذلك ليتسنى للجنة الأمن الداخلي عقد الهدنة مع البريطانيين حسب قول محمود الدرة[١٩٢].

ماذا بعد السبعاوي:

بعد إبعاد يونس السبعاوي وصديق شنشل قسراً من العراق، بدأت «لجنة الأمن الداخلي» ممارسة أعمالها بصورة شرعية، فاتخذت بضعة إجراءات، وأصدرت بضعة بيانات متلاحقة، جاء في أولها ما يلي:

«بلاغ رسمي رقم ١

إن البيان الذي أذيع بتعيين معالي السيد يونس السبعاوي حاكماً عسكرياً لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية، قد انتهى حكمه في الساعة ١٢ ظهراً، اليوم. وقد تولت لجنة المحافظة على الأمن الداخلي... مسؤولية الأمر. وعليه يطلب من الجمهور الكريم المحافظة على الهدوء والسكينة، وأن يطمئنوا من أن أرواحهم، وأموالهم، وحقوقهم ستكون مصونة من أي تعرض»[١٩٣].

بغداد ٣٠ مايس (أيار) ١٩٤١

رئيس لجنة الأمن الداخلي

وبذات الوقت أصدرت اللجنة بياناً رسمياً ثانياً ينص على حل «كتائب الشباب»، ويطلب إلى جميع المنتسبين إلى هذا التنظيم المحلول تسليم ما لديهم من الأسلحة والعتاد إلى أقرب مركز للشرطة، وأن يعودوا إلى ارتداء ألبستهم العادية[١٩٤].

وبدأت لجنة الأمن الداخلي الاتصالات مع البريطانيين، والتفاوض

---

(١٩١) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين، ص ١٣٢.

(١٩٢) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤٠٤.

(١٩٣) المصدر ذاته، ص ٤٠٤.

(١٩٤) المصدر ذاته، ص ٤٠٥.

معهم بشأن شروط الهدنة وإنهاء الحرب. وقد أصدرت اللجنة في مساء ٣١ مايس (أيار) البلاغ رقم ٥ الذي تضمن الإعلان عن انتهاء الحرب. وكان بالنص التالي:

بلاغ رقم ٥

نعلن للجمهور العراقي الكريم بأن الاتفاق قد تم بين الجهتين: العراقية والبريطانية على توقيف القتال على الفور بشروط تحافظ على كرامة البلاد، واستقلالها التام، وشرف جيشها الباسل، وفق الأسس المبينة في البلاغ الرسمي رقم ٤. وقد أصبحت الحالة اعتيادية من الآن. ولذلك يطلب من أفراد الشعب العراقي الكريم أن يستأنفوا أعمالهم الاعتيادية بكل طمأنينة.

بغداد ٣١ مايس (أيار) ١٩٤١

رئيس لجنة الأمن الداخلي»[١٩٥].

نهاية مقاومة فريق القاوقجي:

استجاب الجيش والمقاومة والشعب العراقي لنداء «لجنة الأمن الداخلي»، ما عدا القائد فوزي القاوقجي وفريقه. فقد قرروا الاستمرار في المقاومة ومحاربة البريطانيين. واتصل رئيس الوزراء العراقي الجديد جميل المدفعي بفوزي القاوقجي ودعاه للعودة هو وفريقه إلى بغداد مع التأكيد على ضمان أمنهم وسلامتهم. ولكن القاوقجي رفض هذا العرض، ولم يلبِ الدعوة[١٩٦].

وكان القاوقجي، بعد انسحابه من منطقة الرطبة، قد حشد قوته في وسط غربي البادية السورية حول مواقع عانة والحديثة والحصيبة والقنيطرة على ضفاف نهر الفرات داخل الأراضي العراقية، مقابل موقعي البوكمال ودير الزور في الجانب السوري من الحدود. وخاضت قوته

(١٩٥) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤٠٦ . ٤٠٧.

(١٩٦) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ج ٣، ص ١١٣ . ١١٤.

بعض المعارك والمناوشات ضد القوات البريطانية المتقدمة صوب تلك المنطقة[١٩٧].

ولما هاجم البريطانيون والفرنسيون الأحرار (الديغوليون) في ٨ حزيران ١٩٤١ سوريا ولبنان التابعين لحكومة فيشي الخاضعة للاحتلال الألماني، أرسل المفوض السامي الجنرال دانتز (Dentz) في بيروت على وجه السرعة، وبذات اليوم، مندوباً منه، تفاوض مع القاوقجي على أساس أن البريطانيين، «**بهجومهم اليوم أصبحوا أعداءنا وأعداءك، وأنا مستعد لأستمع إلى كل شروطك للتعاون**»[١٩٨]. ووافق موفد المندوب السامي باسمه على جميع مطالب القاوقجي المتعلقة بتزويده بالسلاح والذخائر والعتاد والدعم وتبادل المعلومات والحرب جنباً إلى جنب ضد البريطانيين، ولكن بشرط أن يكون ذلك خارج الأراضي العراقية، وفي حال انسحاب قواته إلى داخل الأراضي السورية[١٩٩]. وقد «**أبلغه الكابتين فيت [أبلغ القاوقجي] ضابط المصالح الخاصة أن باستطاعته أن يدخل بقواته الأراضي السورية في أي مكان يريد من الحدود، وأن أمراً بذلك أبلغ إلى جميع المخافر الفرنسية والسورية على الحدود**»[٢٠٠].

ولكن هذا التوافق بين القاوقجي والفرنسيين الفيشيين لم يدم طويلاً لبضعة أسباب أهمها، أنه في ٢٤ حزيران، وأثناء غارة جوية بريطانية، أصيب القاوقجي في رأسه وجسده إصابات بالغة استدعت نقله فوراً إلى دير الزور حيث أدخل المستشفى وأجريت له عملية جراحية كبيرة تكللت بإنقاذ حياته. وقد نقل بعدها إلى المستشفى في حلب، ومن ثم إلى ألمانيا لاستكمال العلاج[٢٠١]. فانفرط عقد سريته، وراح كل فرد من أفرادها في

---

(١٩٧) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ص ٩٠ . ٩٦.
(١٩٨) المصدر ذاته، ص ٨٦ . ٨٨.
(١٩٩) المصدر ذاته، ص ٩٠.
(٢٠٠) المصدر ذاته، ص ٩٠.
(٢٠١) المصدر ذاته، ج ٣، ص ١١٨ . ١٢٠ و١٣٠.

السبيل الذي أراد[٢٠٢]. وكان بين فريق القاوقجي عدد من الأعضاء الناشطين بالحركة العربية السرية، وقد اضطر معظمهم إلى اللجوء إلى بلدان مختلفة مثل تركيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا المحتلة، وخصوصاً بعد أن استولى البريطانيون على سوريا في تموز ١٩٤١.

١٣ ـ خاتمة

بتوقيع اتفاق الهدنة بين بريطانيا والعراق في ٣١ أيار ١٩٤١، وبإصابة فوزي القاوقجي في ٢٤ حزيران وانفراط عقد فريقه المقاوم، يكون العراق قد طوى صفحة أليمة من تاريخه الحديث، وفتح صفحة جديدة ـ قديمة، بعودة الوصي الأمير عبدالإله إلى بغداد في ١ حزيران ١٩٤١، ومعه فريقه السياسي المعروف مثل نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت وداود الحيدري وغيرهم، وعاد النفوذ البريطاني في العراق، كسابق عهده وأكثر منه[٢٠٣]. أما الحركة العربية السرية فقد خاضت تجربة قومية قاسية، ودفع قادتها وفاعلياتها ثمناً باهظاً بالأرواح والاضطهاد والتشرد.

---

(٢٠٢) منير الريّس، الكتاب الذهبي، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢٠٣) محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية، ص ٤١٢.



الفصل السابع

انتشار الحركة العربية السرية

١ ـ انتشار الحركة في البلدان العربية

الثابت من أخبار انتشار الحركة:

إن من الثابت الذي تؤكده الوثائق، أن الحركة العربية السرية تأسست في لبنان، وأنها انتشرت منه شرقاً وغرباً، وأسست سبع «عمالات»: خمساً منها تأسست في أقطار عربية، واثنتين في بلدان أجنبية. العمالات الأربع الأولى في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق، هي الأهم، إن من حيث عدد الحركيين فيها، أم من حيث اتساع نشاطاتها، وتنوعها، وأهميتها وأثرها في العمل السياسي، وفي توضيح الفكر القومي العربي ونشره. وقد جرى تفصيل ذلك كله في الفصول الستة الأولى من هذا الكتاب. أما العمالة الخامسة في الكويت فقد كانت محدودة الفاعلية، واقتصر الانتساب للحركة فيها على بضعة أعضاء فقط. وليس في أوارق الحركة ما يدل على أنها لعبت دوراً ذا شأن في تاريخ الحركة.

غير الثابت من أخبار انتشار الحركة:

وإن من غير الثابت أن تكون الحركة العربية السرية قد وصلت بانتشارها إلى أبعد من الأقطار المذكورة أعلاه، ولا سيما إلى الأقطار العربية في شمالي أفريقيا. فأعضاء الحركة لا يجمعون في الرأي حول هذا الموضوع. وهناك ثلاث روايات مختلفة بهذا الخصوص، هي التالية.

الرواية الأولى:

الرواية الأولى لمحمد علي حمادة تؤكد انتشار الحركة العربية السرية في الأقطار العربية بأفريقيا الشمالية. فقد جاء على لسان حمادة في الحديث الصحافي بمجلة الشراع قوله:

«... كاظم الصلح الذي أسس حركة سرية قومية ذات خلايا انتشرت في جميع الأقطار العربية»[1].

ويقول في مكان آخر من المجلة ذاتها:

«كنا جداً سريين. وانتشرنا عن طريق الخلايا. وكان لنا انتشار في الوطن العربي مع علال الفاسي في المغرب»[2].

ويرد في ذات الصفحة أيضاً قوله:

«واتصالاتنا بمصر كانت مع أعضاء ينتمون إلى خلية تابعة للكتاب الأحمر، منهم محمد صلاح الدين الذي أصبح وزيراً للخارجية فيما بعد»[3].

وفي عدد آخر من مجلة الشراع يقول حمادة:

«وقد لعب الدور الأساسي في تأسيس «الحركة العربية السرية»، وفي المشاركة بالمناقشات التي انتهت بصياغة ميثاق الحركة في ٦٠ مادة وبند كل من كاظم الصلح وقسطنطين زريق... صديق شنشل، سعيد فتاح الإمام، يونس السبعاوي، وعلال الفاسي.... وانضم إليه [إلى الحركة] بعد فترة كل من محمد صلاح الدين (الذي أصبح وزيراً لخارجية مصر)، وأكرم زعيتر، ومحمد شقير»[4].

يتبين من هذه الفقرات الواردة في حديثه، أن محمد علي حمادة، يقول بوضوح تام لا لبس فيه ولا إبهام، إن الحركة العربية السرية تخطت

---

(١) مجلة الشراع، السنة ٢، العدد ٥٦، الاثنين ١١ نيسان ١٩٨٣، ص ٦٥.
(٢) المصدر ذاته، ص ٦٥.
(٣) المصدر ذاته، ص ٦٥.
(٤) المصدر ذاته، ص ٢، العدد ٦٠، الاثنين ٩ أيار، ١٩٨٣، ص ٦١.

منطقة الهلال الخصيب، وعبرت قناة السويس إلى الضفة المقابلة، وأرست قواعدها وخلاياها السرية في الجانب الأفريقي، بمصر والجزائر والمغرب. وحدد حمادة رواد الحركة وقادتها هناك، وذكر منهم بالأسماء، علال الفاسي المغربي، وأحمد بلفريج الجزائري، ومحمد صلاح الدين المصري.

الرواية الثانية:

إنها الرواية الثانية التي يكاد يجمع على صحتها كل أعضاء الحركة، وهي تناقض الرواية الأولى، وتنفي نفياً قاطعاً كل ما جاء فيها بخصوص انتشار الحركة العربية السرية في الأقطار العربية بأفريقيا الشمالية، وتؤكد أن هذه الأقطار بقيت خارج نطاق انتشار الحركة، وأنها خلت في كل وقت من أية عمالة، أو معتمدية، أو خلية تابعة لقيادة الحركة الأم في لبنان. ويرد أصحاب هذا الموقف على ما جاء على لسان محمد علي حمادة، صاحب الرواية الأولى، بهذا الخصوص، فيقولون:

أولاً - إن محمد علي حمادة ينفرد بالأخذ بهذا الرأي، وهو لا يذكر المصادر التي اعتمدها والمراجع التي استقى منها هذه الأخبار، علماً بأن الحركة كانت تلتزم السرية المطلقة في جميع شؤونها، ولا تسمح بنشر وتعميم مثل هذه المعلومات عن مدى انتشارها، وأسماء المنتسبين إليها، وأنه، ما عدا أفراد الخلية الواحدة، لم يكن أعضاء الحركة يعرفون بعضهم بعضاً. فكيف تيسر لحمادة أن يطلع على كل هذه المعلومات التي رواها.

ثانياً - إنه ليس في أوراق الحركة ووثائقها، التي بين أيدينا، أي ذكر لأولئك الأشخاص الذين سماهم محمد علي حمادة، أو أية إشارة لأي علاقة لهم بالحركة.

ثالثاً - إن أول رئيس للحركة، قسطنطين زريق، وركن الداخلية بمجلس القيادة الأعلى، واصف كمال، وعامل الحركة في سوريا، جبران شامية، ينفون أن يكون الأشخاص المذكورون قد انتسبوا إلى الحركة، أو أن تكون الحركة ذاتها قد عبرت قناة السويس ووصلت بانتشارها إلى الأقطار

العربية في أفريقيا الشمالية، وقد سمعت هذا النفي أكثر من مرة من كل واحد منهم.

رابعاً ـ إن أحداً من الأشخاص الأفريقيين الذين ذكرهم محمد علي حمادة، لم يصدر منه في أي وقت من الأوقات، وبأي شكل من الأشكال ما يفيد بأنه انتسب إلى الحركة، أو أنه كان على علاقة بها، أو على علم بوجودها.

خامساً ـ إننا في مجلس «عمالة» لبنان، وكنت أحد أعضاء هذا المجلس، كنا نتلقى بين الفينة والفينة معلومات وأخباراً عامة عن نشاطات وأعمال «العمالات» في سوريا وفلسطين. وأذكر تماماً أننا لم نتلقَ في أي وقت من الأوقات شيئاً من هذا النوع من أي من الأقطار العربية في أفريقيا الشمالية، ولم نكن على علم بأن للحركة أي وجود رسمي هناك.

ولعل ما ورد في حديث حمادة عن انتشار الحركة من مبالغات ومغالطات عائد، بالدرجة الأولى، إلى أحد العاملين التاليين، أو إلى كليهما معاً: أولاً، إن محمد علي حمادة اعتمد على مخزون الذاكرة فحسب، عندما تطرق إلى أحداث تتعلق بالحركة العربية السرية كان قد مضى عليها حوالى نصف قرن. والذاكرة، في مثل هذه الفترة الطويلة من الزمن، قد تضعف، ويغلب عليها النسيان، وتختلط فيها الأمور، فتخون أصحابها وتأتي الذكريات، والتذكارات متداخلة مشوشة ومغايرة للحقيقة والواقع من بعض الجوانب والوجوه، أو منها كلها معاً. وثانياً، إنه خلال العقد الممتد من أواخر العشرينات إلى أواخر الثلاثينات كان عدد كبير من الطلاب العرب من مختلف الأقطار العربية في آسيا وأفريقيا يطلبون العلم في الجامعات الفرنسية، وخصوصاً في جامعات باريس. ولم تصرفهم الدروس عن الاهتمام بقضايا أمتهم العربية. فنددوا بالاستعمار والانتداب والصهيونية الاستيطانية في فلسطين، وطالبوا بالحرية والاستقلال، ودعوا إلى الوحدة العربية الشاملة. وأسسوا، لهذه الغاية، النوادي والجمعيات التي كان من أكثرها نشاطاً وفاعلية الجمعية العربية السورية، وجمعية نجمة أفريقيا، والجمعية العربية

الثقافية. فكانت هذه الجمعيات محور النشاط العربي في فرنسا، والإطار السياسي الذي عاش في كنفه أولئك الطلاب. فتلاقوا وتعارفوا وعملوا معاً في سبيل تحقيق أهداف الأمة العربية في التحرر والاستقلال والوحدة. وبعد عودتهم إلى بلدانهم لعب كثيرون منهم أدواراً قيادية بارزة في حركات النضال القومي والتحرر الوطني في أقطارهم، مثل علال الفاسي في المغرب، وأحمد بلفريج في الجزائر، ومحمد صلاح الدين في مصر. وصدف أن تأسست الحركة العربية السرية في أواسط تلك الحقبة في لبنان لتحقيق الأهداف القومية العربية ذاتها التي كان أولئك الشبان المثقفون يسعون إلى تحقيقها في الأقطار العربية بأفريقيا الشمالية. وكان بين مؤسسي الحركة العربية السرية وأعضائها عدد من زملاء أولئك الشبان ورفاقهم بمعهد الدراسة في باريس، مثل فريد زين الدين، ومحمد علي حمادة، وحليم أبو عزالدين وسواهم. ولم تنقطع بعض تلك العلاقات والصداقات التي نشأت بين أولئك الشباب بالأمس في باريس، بل إنها استمرت ونمت بين بعض القياديين في الجانبين، فتشابهت اهتماماتهم السياسية وأهدافهم الوطنية وحركاتهم النضالية، وأثمرت بعض التعاون والتنسيق فيما بينهم في مكافحة الاستعمار. مثال ذلك أنه عندما كان أحد الأقطار العربية في أفريقيا الشمالية يتعرض للتعسف والظلم كانت مظاهرات الاستنكار والاحتجاج تنطلق في شوارع بيروت ودمشق وبغداد والقدس تضامناً مع أحرار تلك الأقطار وتأييداً لمطالبهم. ولعل هذا التشابه في الأهداف، والتعاون في سبل المقاومة والنضال كانا من الأسباب التي جعلت محمد علي حمادة يقع في الالتباس، ويحسب أن علال الفاسي المغربي وأحمد بلفريج الجزائري، ومحمد صلاح الدين المصري، كانوا أعضاء بالحركة العربية السرية، في حين أن الواقع يدل على عكس ذلك، وعلى أن الحركة لم تعبر قناة السويس إلى بلدان أفريقيا الشمالية، كما يستدل من القرائن المنطقية، والوثائق الرسمية المتوفرة حالياً، وكما شهد بذلك كبار قادة الحركة المطلعين على أسرارها وخفاياها يومئذٍ.

ولا يجوز الاستنتاج بأن الحركة لم تكن راغبة بالانتشار في الأقطار

العربية بأفريقيا الشمالية. فإنها كانت ترغب في ذلك بالتأكيد، لأن رسالتها عربية شاملة، ولكن الوقت لم يكن قد حان لاتخاذ هذه الخطوة. فمعلوم أن الحركة تأسست سنة ١٩٣٥ في لبنان، وفي سنة ١٩٣٦ انتشرت في سوريا، وتأسست في فلسطين سنة ١٩٣٧، وفي سنة ١٩٣٩ بالولايات المتحدة الأميركية، وفي سنة ١٩٤٠ بالعراق والكويت. ومن يدري أن الخطوة التالية لم تكن تأسيسها في مصر أو السعودية مثلاً. ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩ غيّر جميع المعطيات التي كانت قائمة. كان تأثيرها السلبي كبيراً جداً على الحركة العربية السرية بشكل خاص كما تبين في الفصول السابقة من هذا الكتاب.

الرواية الثالثة عن انتشار الحركة:

ورواية ثالثة، عن انتشار الحركة العربية السرية في الأقطار العربية بأفريقيا الشمالية، أدلى بها ركن الداخلية بالحركة واصف كمال إلى المؤلف في مقابلة خاصة جرت في بيروت نهار السبت في ٢٢ نيسان سنة ٢٠٠٠، جاء فيها ما خلاصته، أن الحكومة المغربية كانت ترسل وفود الطلاب المغاربة في تلك الآونة إلى فرنسا لتلقي العلم في مدارسها وجامعاتها، فيتخرجون منها وهم يتقنون اللغة الفرنسية كلغتهم الأصلية الأم، ويكادون يعجزون عن التعبير عن أفكارهم باللغة العربية. وفي إحدى زياراته إلى بلاد المغرب أشار الأمير شكيب أرسلان على المسؤولين المغاربة بأن يوفدوا طلابهم إلى بعض الأقطار العربية حيث توجد فيها مدارس راقية متميزة بمستواها العلمي، وباهتمامها بتدريس اللغة العربية، وبتعزيز الروح القومية وغرسها في نفوس طلابها. وكانت مدرسة النجاح بمدينة نابلس بفلسطين إحدى المدارس التي أوصى الأمير شكيب أرسلان المسؤولين المغاربة بإرسال وفود طلابهم لتحصيل العلم فيها. فاستجابوا لمشورته في إحدى السنين، وأرسلوا بعثة إلى مدرسة النجاح مؤلفة من أربعة طلاب هم: مهدي بنونة، والطيب بنونة، ومحمد الفاسي، وعبد السلام بن جلون. وفي مدرسة النجاح تأثر هؤلاء الطلاب بأفكار أساتذتهم، ولا سيما بأفكار الأستاذين

الحركيين واصف كمال وممدوح السخن، وأظهروا استعداداً طيباً للانخراط في العمل القومي العربي. فأدخلهم واصف كمال في الحركة العربية السرية، وجعلهم خلية سرية مستقلة تابعة لعمالة فلسطين. ولما غادروا مدرسة النجاح وعادوا إلى المغرب انقطعت علاقاتهم كلياً بالحركة. لأن الجهاز الحزبي الذي انتسبوا إليه في فلسطين توقف بسبب الثورة، ولأن أركان الحركة وقادتها هناك كانوا قد احتجزوا في المعتقلات، أو غادروا فلسطين كباقي الزعماء الفلسطينيين، هرباً من البطش البريطاني. ولجأوا إلى الأقطار العربية المجاورة.. ولكن أولئك الشبان الأربعة لم ينسوا مبادئ الحركة العربية السرية وأهدافها، وتابعوا نشاطهم القومي على أساسها في بلادهم، وأصبحوا في طليعة العاملين المناضلين في سبيل التحرر الكامل من السيطرة الأجنبية على أقطارهم. هذا كل ما قاله واصف كمال بهذا الخصوص، ونفى أن تكون الحركة قد تأسست بشكل رسمي في أي قطر من أقطار أفريقيا الشمالية.

٢ ـ انتشار الحركة في أوروبا

بدأ انتشار الحركة العربية السرية والحركيين في البلدان الأجنبية بصورة عفوية، وبشكل غير مباشر ومنظم في أول الأمر. فإن عدداً من الشبان المنتسبين إلى الحركة قصدوا بلداناً أجنبية معينة، وأقاموا فيها لاستكمال تحصيلهم العلمي في جامعاتها، أو للعمل وكسب الرزق فيها، أو لغير ذلك من الأسباب. وفي أثناء ذلك قاموا بنشاطات لنشر مبادئ الحركة في الجاليات العربية ولشرح القضايا العربية والدفاع عنها، أمام حكومات وشعوب تلك البلدان.

إن المعلومات القليلة جداً المتوفرة الآن عن هذا الموضوع تثبت أنه كان للحركة وجود، من نوع ما، في بلدان أوروبية، ولا سيما في بريطانيا وفرنسا وألمانيا. ولكن هذه المعلومات على قدر كبير جداً من الضآلة والاقتضاب بحيث إنها لا تعطي صورة واضحة عن طبيعة هذا الوجود الحركي وأهميته.

إن مصادر هذه المعلومات عبارتان موجزتان وردتا في أوراق الحركة، وأخبار مستقاة من مذكرات حركيين أقاموا في تلك البلدان بعض الوقت. جاءت أولى هاتين العبارتين في رسالة وجهها فؤاد خليل مفرج من الولايات المتحدة الأميركية إلى أمين الحركة العام كاظم الصلح، وقال له فيها بخصوص عودته إلى لبنان ما يلي:

«أرجو أن أعود... في النصف الثاني من أوكتوبر... فأرجو أن أسمع منكم، بخصوص ذلك، وبخصوص ما أشرتَ إليه من تكليفي بالاتصال ببعض الإخوان في أوروبا. والتعقيد الوحيد في هذا الأمر هو... شركة البواخر التي تقف في إيطاليا لا فرنسا»(٥).

وهذا يعني ضمناً أن من «الإخوان» المقصودين، من هم مقيمون في فرنسا.

وجاءت العبارة الثانية في البطاقة الشخصية الحزبية لدرويش المقدادي، وهي تقول:

«درويش المقدادي - في... بمعتمدية برلين، في عمالة ألمانيا»(٦).

وتؤكد هذه العبارة قيام تنظيم حركي كامل في ألمانيا استحق أن يرفع إلى رتبة «العمالة». هذا كل ما جاء في ما بقي من أوراق الحركة حول وجود الحركة والحركيين في أوروبا. وهو إذ يعطي الدليل على حقيقة هذا الوجود، بشكل أو بآخر، فإنه يبقيه لغزاً محيراً محاطاً بالغموض، وليس فيه أية بارقة تلقي الضوء على طبيعة هذا الوجود وتفاصيله.

أما بالنسبة إلى الوجود الحركي في بريطانيا، فإن في مذكرات السفير نديم دمشقية، وكذلك في مذكرات السفير يوسف شديد ما يدل على أنه لم يكن في تلك البلاد تنظيم حركي كامل، كما كان في ألمانيا، وإنما كان فيها عدد من الحركيين الذين قاموا بنشاط حركي محدود إلى جانب الأعمال والمهمات الموكولة إليهم. فعندما تأسست أول بعثة دبلوماسية

---

(٥) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى سامر، ص ٢.
(٦) أوراق كاظم الصلح، بطاقات هوية حزبية.

لبنانية في لندن في أثر الاستقلال برئاسة كميل شمعون كوزير مفوض، كان ثلاثة من أفراد المفوضية الخمسة من أعضاء الحركة العربية السرية وهم: نديم دمشقية وجميل مكاوي ويوسف شديد[٧]. ويذكر يوسف شديد في مذكراته عن تلك الفترة، فيقول:

«وفي تلك الحقبة التي وجدنا بها في لندن (١٩٤٤ - ١٩٥١) كنت مع مجموعة من الشباب القوميين العرب في السفارات وفي المكتب العربي نعمل ما في وسعنا من أجل القضية الفلسطينية، وإيضاح ملابساتها في المجتمع الإنكليزي عن طريق الاتصالات الخاصة مع المسؤولين، وإلقاء المحاضرات، وعقد الندوات. وأذكر من بينهم الأصدقاء: نديم دمشقية [حركي]، وفؤاد السعيد، ووصفي التل، ورجائي الحسيني، وأكرم عبد الرحيم، وجورج طعمة [حركي]، وبرهان دجاني [حركي]، وبرهان باش أعيان، وفيصل دملوجي»[٨].

وأخبرني كل من السفيرين نديم دمشقية ويوسف شديد، أنهما في أثناء ذلك في لندن، فاتحا زميليهما الدبلوماسيين في المفوضية العراقية فيصل الدملوجي، وبرهان الدين باش أعيان، بأمر الحركة العربية السرية، وأقنعاهما بالانتساب إليها. وقد أكد لي هذه الواقعة فيصل الدملوجي في مقابلة بيننا جرت في بيروت في صيف العام ٢٠٠١.

إن هذه المعلومات المقتضبة هي كل ما هو متوفر حتى الآن عن أخبار انتشار الحركة والحركيين في البلدان الأوروبية. ويرجح أن أوراق الحركة المتضمنة التفاصيل الوافية عن هذا الموضوع، وخصوصاً عن «عمالة» ألمانيا، قد أتلفت، مع أوراق الحركة الأخرى، خلال الحرب العالمية الثانية للأسباب الأمنية المعروفة.

---

(٧) نديم دمشقية، محطات في حياتي الدبلوماسية، ص ٥٥.
(٨) يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية، ص ٦٠.

٣ - إيفاد فؤاد خليل مفرج إلى أميركا

الرسالة السرية:

كادت مسألة وجود الحركة العربية السرية في أميركا، أن تكون شبيهة بمسألة وجودها في أوروبا، من حيث غموضها وافتقارها إلى الأدلة الثابتة والمصادر الموثوقة التي تتحدث عنها بدقة وتفصيل. ولكن التخوف من مواجهة وضع غامض مربك كهذا خف، نوعاً ما، حين عثرتُ مؤخراً في أوراق كاظم الصلح على وثيقة فريدة في بابها تتضمن بعض المعلومات التفصيلية الجديدة التي تذاع لأول مرة حول انتشار الحركة العربية السرية في الولايات المتحدة الأميركية وكندا.

هذه الوثيقة هي رسالة حزبية سرية، محررة بصيغة الشيفرة، ومرسلة من الحركي المدعو «نوري» في الولايات المتحدة الأميركية، إلى زميله الحركي المدعو «عامر» في لبنان. وهي بتاريخ ٥ تموز سنة ١٩٣٩[٩]. وتبيّن لي أن هذين الاسمين اسمان حركيان رمزيان. فمرسل الرسالة المدعو «نوري» هو بالحقيقة فؤاد خليل مفرج عضو مجلس قيادة الحركة العربية السرية، الموفد بمهمة حزبية إلى أميركا. أما الشخص المرسلة الرسالة إليه المدعو «عامر» فهو بالحقيقة كاظم الصلح عضو مجلس قيادة الحركة وأمين الحركة العام. تقع الرسالة في ١٣ صفحة من القطع الوسط، وهي مكتوبة بخط مرسلها باللغة العربية، ما عدا ٢٦ اسماً مع عناوين أصحابها المهاجرين العرب المقيمين بالولايات المتحدة الأميركية وكندا، فإنها مكتوبة باللغة الإنكليزية في الصفحات ٩ - ١٢. والرسالة خالية تماماً من ذكر أي اسم أو صفة تدل صراحة على «الحركة العربية السرية» بالرغم من أن معظم مضمونها يتعلق بالحركة ذاتها. فمثلما لجأ فؤاد مفرج إلى استخدام الاسمين المستعارين «عامر» و«نوري» للتمويه والتضليل التزاماً منه بمبدأ المحافظة على سرية الحركة، فإنه، ولذات الأسباب، تحاشى ذكر الحركة باسمها،

(٩) يراجع الملحق رقم ٥، ص ٤٥٠. وفيه بضع فقرات من الرسالة.

واستعاض عنه باسم مستعار لها هو «الشركة»، فتحدث في رسالته عن «الشركة»، وعن المساهمين الجدد فيها موهماً بأنه يتحدث عن شركة تجارية مساهمة. وهو إنما يعني الحركة والأعضاء الذين انتسبوا إليها حديثاً في أميركا.

أهداف رحلة فؤاد مفرج إلى أميركا:

يتبيّن لدُن قراءَة الرسالة بدقة وإمعان، أنه كان لجولة فؤاد مفرج في أميركا هدفان متقاربان متداخلان، ولكنهما متميزان. أولهما، هدف حزبي سري[١٠]، وثانيهما هدف إعلامي علني عربي. ويتبين كذلك أن فؤاد مفرج كان يتمتع في تلك الجولة ويعمل فيها بصفتين متقاربتين، ولكنهما متميزتان أيضاً. فهو، من جهة، موفد سري من قبل مجلس قيادة الحركة العربية السرية في بيروت، ومكلف بمهمة خاصة في الولايات المتحدة الأميركية وكندا، تتعلق بتأسيس الحركة ونشرها بين المهاجرين العرب هناك[١١]. وكان، من جهة ثانية، موفداً خاصاً من قبل مكتب النائب فخري البارودي المشهور أيضاً باسم «المكتب العربي القومي للدعاية والنشر» في دمشق الذي كان مفرج مديره العام، وكذلك موفداً خاصاً من قبل «لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا» التي كان نبيه العظمة رئيسها وفؤاد مفرج أمينها العام[١٢]. وكان بموجب تمثيله لهاتين الهيئتين الوطنيتين مكلفاً بالدفاع عن قضية فلسطين بشكل خاص، وبشرح القضايا العربية وتوضيحها والدفاع عنها أمام الرأي العام الأميركي بشكل عام[١٣]. وكان الهدف الأول الحزبي السري هو الهدف الأساسي والأهم لتلك الرحلة. وكان الهدف الثاني، على أهميته، هو الواجهة العلنية والغطاء المطلوب للتستر على الهدف الأول، مثلما كانت صفة فؤاد مفرج

(١٠) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٣.
(١١) المصدر ذاته، ص ٣.
(١٢) المصدر ذاته، ص ٣.
(١٣) المصدر ذاته، ص ٢.

الثانية وسيلة لحجب الأنظار عن صفته الحزبية السرية الأولى(١٤).

رسالة فؤاد مفرج إلى سكرتير مجلس النواب الكندي:

وصل فؤاد مفرج إلى أميركا في مطلع العام ١٩٣٩. ووصلت إليها بذات الوقت بعثة عربية مؤلفة من محمد جميل بيهم وإميل الغوري للدفاع عن القضية الفلسطينية أمام الرأي العام الأميركي، ولجمع التبرعات المالية لنصرتها. وصدف وصول أمين الريحاني إليها أيضاً. فرحبت الجالية العربية في نيويورك بقدومهم، وأقامت في ٧ كانون الثاني ١٩٣٩ حفلة استقبال كبرى على شرفهم وتكريماً لهم، تكلم فيها محمد جميل بيهم، وإميل الغوري، وأمين الريحاني، وفؤاد مفرج وعدد من أعيان الجالية العربية هناك(١٥). ركزت معظم الكلمات التي ألقيت في ذلك الاحتفال على القضية الفلسطينية، ودعت العالم إلى إنصاف الفلسطينيين، وإدانة الحركة الصهيونية الغاصبة الطامعة في أرضهم وممتلكاتهم وبلدهم.

أثار ما جرى وما قيل في ذلك الاحتفال غضب الصهيونيين في أميركا، وانبروا للتصدي للجهود العربية. وكانت أولى ثمار هذه المواجهة تدخل الحركة الصهيونية لدى الكنديين ونجاحها في حملهم على إلغاء محاضرة كان سيلقيها فؤاد مفرج في أوتاوا برعاية سكرتير مجلس النواب الكندي. وكذلك ألغيت محاضرة أخرى كان سيلقيها أمين الريحاني في مدينة تورنتو في ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٩(١٦).

لم يسكت فؤاد مفرج على هذه الإهانة التي لحقت بالجانب العربي، فوجه إلى سكرتير مجلس النواب الكندي رسالة طويلة شديدة المضمون دبلوماسية الأسلوب شرح فيها الموقف العربي من القضية الفلسطينية، واستهجن كيف يقبل الكنديون بأن يقيد الصهاينة حريتهم، ويفرضوا عليهم

---

(١٤) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٢.

(١٥) جريدة السائح (النيويوركية)، السنة ٢٦، العدد ٦٣، الخميس ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٩، ص ٢.

(١٦) المصدر ذاته، السنة ٢٦، العدد ٧٠، في ٦ شباط ١٩٣٩، ص ٦.

سماع وجهة نظرهم الخاصة وحدها، ويمنعوهم من الاطلاع على الرأي الآخر[١٧]. ويظهر أن هذه الرسالة فعلت فعلها، فرفع الحظر عن فؤاد مفرج، وسمح له بالكلام، فخاطب الكنديين بحرية وصراحة في محاضرة طويلة ألقاها في دار البرلمان الكندي برعاية سكرتير البرلمان نفسه[١٨].

الجولات الإعلامية:

باشر فؤاد مفرج العمل بوقت واحد في المجال الإعلامي العربي العلني، وفي المجال الحزبي السري. تضمن الجانب العلني من مهمته خطة ترمي إلى زيارة أكبر عدد ممكن من تجمعات الجاليات العربية في الولايات المتحدة الأميركية وكندا، وإلى إجراء الاتصالات المباشرة بالجمعيات والنوادي والصحف العربية والأجنبية التي تهتم بالشؤون العربية، وكذلك بالمؤسسات والشخصيات الرسمية، وبرجال الفكر وأصحاب الرأي والنفوذ، لشرح القضايا العربية لهم، والدفاع عنها، وذلك بإلقاء المحاضرات والخطب ونشر البيانات وتوزيع الدراسات والكراريس التي تظهر بالحجج والوقائع والأرقام حقوق العرب المشروعة، وتطالب بإنصافهم والحؤول دون إلحاق الأذى والظلم بهم. وقد كتب في رسالته إلى كاظم الصلح واصفاً بعض ما قام به بهذا الخصوص، فقال:

«هذه الرحلات تنظمها معاهد للشؤون الخارجية في كندا والولايات المتحدة على نفقتها، فلم تكلفنا إلا الشيء القليل. ومع هذا فقد بثثنا الدعوة لقضيتنا بصورة حولت مجرى الرأي العام في كندا التي قطعتها من الأطلنتيك إلى الباسيفيك. وزرت كل مدينة فيها، وتحدثت إلى كل صحيفة في تلك المدن، وحاضرت في جامعاتها ونواديها، فضلاً عن إلقاء محاضرة مطولة في اجتماع للبرلمان الكناداياني (طبعاً اجتماعاً عاماً لا جلسة رسمية)».

وقد ساعدتنا في الولايات المتحدة كثيراً، وإن يكن إلى درجة أقل من

---

(١٧) جريدة السائح، السنة ٢٦، العدد ٧٠، في ٦ شباط ١٩٣٩، ص ٦. وفيها النص الكامل لترجمة رسالة فؤاد مفرج.

(١٨) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٢.

كندا، نظراً لكبر الولايات المتحدة وقوة الصهيونيين فيها. ولكننا أبلغنا صوتنا إلى الرأي العام والحكومة في كل مناسبة»[19].

ويظهر أن فؤاد مفرج كان راضياً عن الرحلات والجهود التي قام بها، وعن النتائج التي أسفرت عنها[20]. وقد أشار إلى بعضها باقتضاب في رسالته. فبالنسبة إلى المسألة الفلسطينية ومآسي الشعب الفلسطيني المدافع عن بيته وأرضه ووطنه، يقول فؤاد مفرج:

«وقد أصبح لنا عدد كبير من الأصدقاء من كبار الأميركيين، وقد بدأوا بحملة واسعة أمس لمساعدة أطفال وأرامل الشهداء بفلسطين تحت رعاية الدكتور غرانت وسنيدر. وقد كنت طلبت إليكم [إلى كاظم الصلح] إرسال بعض رسائل الشكر إليهما»[21].

وبالنسبة إلى مسألة لواء الإسكندرونة، وما لحق بأهله العرب والأرمن على السواء من اضطهاد وظلم بسبب الاحتلال التركي، فقد خصص فؤاد مفرج قسماً من وقته وجهوده مع الجالية الأرمنية في الولايات المتحدة الأميركية لحثها على مدّ يد الغوث إلى إخوانهم الأرمن المهجرين من الإسكندرونة إلى سوريا ولبنان. وهو يذكر بهذا الخصوص ما يلي:

«الأرمن سعينا معهم مستمر. وهم الآن يجمعون الأموال لأرمن إسكندرونة وعربها معاً. وقد خطبت في اجتماعهم العام. ولكنهم أمرهم طويل، وعلينا أن نسير فيه ببطء»[22].

ويتحدث فؤاد مفرج، أيضاً، عما لقيه من عناية من الأميركيين وجرائدهم، وعن سخاء معاهدهم التي كانت تدفع معظم نفقات الرحلات الكثيرة التي يقوم بها لإلقاء المحاضرات في نواديها. وهو يعترف بأنه **«لولا ما حصلنا عليه من مال لقاء هذه المحاضرات، لما تمكنا من القيام بما قمنا**

---

(١٩) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٢.
(٢٠) المصدر ذاته، ص ٣.
(٢١) المصدر ذاته، ص ٢.
(٢٢) المصدر ذاته، ص ٤.

به من زيارة جميع أنحاء كندا، وحوالى نصف الولايات المتحدة»[٢٣].

كان همّ فؤاد مفرج في تلك الرحلات واللقاءات والمحاضرات أن يشرح القضايا العربية، ويبين عدالتها، ويدافع عن حقوق العرب المشروعة أمام الأميركيين والكنديين ليكسب ثقتهم وتأييدهم، وقد أحرز بعض النجاح في ذلك. وبالنسبة إلى الجاليات العربية في أميركا فقد كان همّه، كما يقول، «**توضيح الفكرة العربية لهؤلاء المهاجرين إبعاداً لهم من أخطار الإقليمية**». وكانت هذه «الإقليمية» التي عناها، والتي كان يهمه أن يقي المهاجرين من الوقوع في شركها، عقيدة الحزب السوري القوي[٢٤].

ما إن بدأ فؤاد مفرج جولته في العالم الجديد حتى اكتشف أن «السوريين القوميين» قد سبقوه إلى نشر عقيدتهم السياسية في تلك الديار، وكسبوا فيها المؤيدين والأنصار. وكانت عقيدتهم، يومئذٍ، ترتكز على الإيمان بوجود أمة سورية عريقة، وقومية سورية مستقلة مميزة عن سواها من القوميات، موطنها البلاد المعروفة باسم سوريا الطبيعية الكبرى، وتدعو إلى إقامة الدولة السورية الموحدة، ذات السيادة الكاملة، والاستقلال الناجز. ولما كانت هذه العقيدة تتناقض تماماً مع فكرة القومية العربية، وتتعارض كلياً مع مبادئها وأهدافها الوحدوية الشاملة، فقد اعتبر القوميون العرب أن عقيدة الحزب السوري القومي عقيدة انفصالية إقليمية انعزالية يجب التصدي لها ومحاربتها. وقد روى فؤاد مفرج في رسالته إلى كاظم الصلح رأيه وبعض ما قام به في هذا المجال، فقال:

«حركة أنطون في كندا والولايات المتحدة قد فضحتها للناس، وأعتقد أن تشكيلاتنا ستحول دائماً دون انتشارها، وكذلك كاتبت من أعتمد عليهم من المكسيك وأميركا الجنوبية، وحذرتهم، فتريثوا، ولكنهم يائسون من الوضع، ويخاف أن يستغل أمره هناك. ولكني أعتقد أنه لن يلبث أن يضعف. ولكن المهاجرين هنا يعرفون أنفسهم كسوريين وليس كعرب، حتى

(٢٣) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٥.

(٢٤) المصدر ذاته، ص ٥.

أنهم يدعون لغتهم Syrian Language. ولهذا فالخطر عليهم كبير، لأنهم تركوا البلاد قبل النهضة العربية القومية[٢٥]... وحبذا لو كانت حركتنا تستطيع تمويل رحلة لجنوبي أميركا، إذن لكنا أنهينا المهاجر الأميركية دفعة واحدة، وقضينا على جراثيم الإقليمية الأنطونية في الجنوب كما قضينا عليها في الشمال. ولكن الحالة ليست بخافية عليّ. وسجن نبيه [نبيه العظمة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا][٢٦] أخَّر في المدد من الجهة الأخرى، إذ أنه كان قد أعرب لي عن استعداده لما طلبت منه»[٢٧].

كان هذا أهم ما جاء في الرسالة عن النشاطات الإعلامية العلنية التي قام بها فؤاد مفرج على هامش عمله السياسي السري. وقد أعرب عن ارتياحه إلى ما حققه بهذه النشاطات من نجاح، وعن رضاه بما جناه بها من فوائد[٢٨].

٤ ـ «الجامعة العربية» في نيويورك أول نقطة اعتماد للحركة في أميركا

تزامن العمليتين الإعلامية والحزبية:

إن قيام فؤاد خليل مفرج بالجانب الإعلامي العربي العلني من مهمته، لم يصرفه عن الاهتمام بتنفيذ الجانب الحزبي السري الآخر من تلك المهمة، المتعلق بتأسيس الحركة العربية السرية في أميركا. ففي نفس الوقت الذي كان يجري فيه العمل بالجانب الإعلامي، كان يجري، كذلك، العمل بالجانب الحزبي السري، بالتزامن والتنسيق الكاملين مع الجانب الإعلامي الآخر.

---

(٢٥) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٤.

(٢٦) إشارة إلى الاعتقالات في صفوف الشباب القومي العربي التي قامت بها السلطات الفرنسية بدمشق في ٢١ آذار ١٩٣٩ وكان من المعتقلين نبيه العظمة ومنير الريّس وسيف الدين المأمون وسواهم. وكان نبيه العظمة يساهم في تمويل رحلة فؤاد مفرج إلى أميركا.

(٢٧) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٣.

(٢٨) المصدر ذاته، ص ٢.

«الجامعة العربية» في نيويورك:

بدأ فؤاد خليل مفرج العمل بمهمته الحزبية السرية، بالتفتيش عن هيئة أو مؤسسة مهجرية يمكنه احتواءَها، والسيطرة عليها، وجعلها أول نقطة اعتماد للحركة بأميركا، والمركز الرئيسي لانطلاق العمل الحزبي، والواجهة العلنية التي يستطيع أن يخفي وراءَها نشاطاته الحزبية السرية. فوجد ضالته المنشودة هذه في جمعية تدعى **«الجامعة العربية في أميركا الشمالية»** التي تمثل نهضة العرب في هذه المهاجر[٢٩]. والتي وصفها في رسالته إلى كاظم الصلح بقوله: **«هذه المؤسسة هي المؤسسة القومية الوحيدة في هذه البلاد»**[٣٠].

كان قد أسس هذه الجامعة في نيويورك، وتولى رئاستها منذ بضع سنوات، طبيب اسمه فؤاد شطارة يرجع بأصله العربي إلى مدينة رام الله في فلسطين. وكان فؤاد شطارة قومياً عربياً متحمساً نشيطاً. فلفت إليه نظر فؤاد مفرج، وأثار إعجابه بتوجهه السياسي العربي. وسرعان ما تعرف إليه، واختبره، ورحب به عضواً بالحركة العربية السرية. وبانتساب فؤاد شطارة إلى الحركة، وتفاهمه الكامل وتعاونه المخلص مع فؤاد مفرج تحولت «الجامعة العربية» إلى أداة بيد الحركة، وصح فيها قول فؤاد مفرج إلى كاظم الصلح بأنها: **«أصبحت مؤسستنا للأسباب التي تعرفونها. وإني عامل على تنظيمها بشكل دقيق حتى تصبح مضمونة السير وفوق الانتقاد»**[٣١].

تطوير «الجامعة العربية» في أميركا:

اتفق فؤاد مفرج وفؤاد شطارة على خطة تهدف إلى توسيع «الجامعة العربية» في نيويورك، وزيادة فاعليتها وعدد أعضائها، وتطوير فروعها القديمة، وتأسيس فروع جديدة حيث لا يوجد لها فروع في المدن الأميركية

(٢٩) أوراق كاظم الصلح، رسالة فؤاد عيسى شطارة، رئيس الجامعة العربية، إلى كاظم الصلح، بتاريخ ١٥ تموز ١٩٣٩.
(٣٠) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٥.
(٣١) المصدر ذاته، ص ٥.

والكندية الكبيرة، والقيام بحملة دعائية واسعة قوية في الجاليات العربية لهذه الغاية. وساهم فؤاد مفرج مساهمة جدية مثمرة في مختلف هذه المجالات. فكان يستغل الرحلات الكثيرة التي يقوم بها لإلقاء المحاضرات والخطب في النوادي الأميركية والكندية بالمدن المختلفة في البلدين، فيتعرف بالمناسبة على الجاليات العربية فيها، ويجتمع بها، ويتحدث إليها شارحاً معنى القومية العربية، ومستعرضاً المشاكل التي تواجه الأمة العربية في حينه، ويدعو المهاجرين إلى التضامن والتكاتف، ويحثهم على دعم «الجامعة العربية» والانخراط في صفوفها، والمساهمة في تحقيق أهدافها ومشاريعها. وكانت الاستجابة مشجعة على العموم، وجرت تشكيلات جديدة في هيكلية الجامعة والفروع، وأعيد النظر في قانون الجامعة، وأرسل مشروع القانون الجديد إلى قيادة الحركة العربية السرية في بيروت للموافقة عليه. وقد طلب فؤاد مفرج من كاظم الصلح الإسراع في إعادة المشروع، قائلاً:

«حبذا لو أرسلت لي برنامج الجامعة منقحاً تنقيحاً مرضياً قبل مؤتمر فلنت لنقره في المؤتمر وننشره في الصحف. ليكن برنامجاً محترماً ـ لا تتهاون به يا أخا العرب!»[٣٢].

كان هذا بعض ما قام به فؤاد مفرج، حتى تاريخ ٥ تموز ١٩٣٩، من أجل تطوير الجامعة العربية في نيويورك، ووضعها في خدمة القومية العربية والحركة العربية السرية معاً.

٥ ـ تأسيس الحركة العربية السرية في أميركا

المنتسبون الجدد إلى الحركة في أميركا الشمالية:

خشي فؤاد مفرج أن يكون تبادر إلى ذهن كاظم الصلح الشك في أن المحاضرات والخطب التي ألقاها، والرحلات والنشاطات الكثيرة التي يقوم بها مع الجاليات ومع الجامعة العربية، قد استنفدت كل قوته وجهده، وصرفته عن الاهتمام بالمهمة الأساسية التي أوفدته قيادة الحركة إلى أميركا

(٣٢) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٤.

من أجلها؛ ألا وهي تأسيس الحركة العربية السرية في تلك الديار. لذلك كتب إليه مطمئناً وموضحاً يقول:

«لا أزال مثابراً على العمل هنا، وأكثر العمل يتستر بالحفلات الخطابية[٣٣]... وفي نفس الوقت الذي كنا نقوم فيه بالرحلة للمحاضرة عند الأجانب، كنت أجتمع بجوالينا وأعقد لها الاجتماعات وأساعد على تنظيمها، واختيار عيونها للعمل الصميمي»[٣٤].

فمثلما استغل فؤاد مفرج الرحلات الخطابية للاجتماع بالجاليات العربية في أميركا، فإنه كذلك، استغل هذه الاجتماعات للتعرف على تلك الجاليات عن كثب، واختبارها، «**واختيار عيونها للعمل الصميمي**»، حسبما قال مجازيّاً في رسالته. فالمقصود هنا «بعيون الجوالي» أفضل أبنائها، و«بالعمل الصميمي»، العمل الحركي الحزبي.

كان فؤاد مفرج يختار أفضل أبناء الجاليات، ويحثهم على الالتحاق بالجامعة العربية. وإنه في حال عثوره بينهم على الشخص المميز، الذي يجده يملك المؤهلات المطلوبة، وعنده الرغبة الصادقة في المشاركة بالعمل القومي العربي ضمن تنظيم سري معين، كان يفاتح ذلك الشخص بأمر الحركة العربية السرية، ويطلعه على أهم مبادئها وأهدافها ونظمها، ويعرض عليه الانتساب إليها، وفق الأصول المتبعة في الحركة بهذا الشأن. ومثلما نجح في إقناع كثيرين من أبناء الجاليات العربية بالانضمام إلى الجامعة العربية، فإنه نجح كذلك في استقطاب نخبة من أبناء تلك الجاليات لدخول الحركة العربية السرية في القسم الأول من رحلته، وحتى الخامس من تموز ١٩٣٩، تاريخ رسالته إلى كاظم الصلح، كان فؤاد مفرج قد نجح بإضافة حوالى ثلاثين عنصراً جديداً إلى أعضاء الحركة العربية السرية. وكانوا جميعهم من الجوالي العربية القاطنة في النصف الشرقي من الولايات المتحدة الأميركية، وخصوصاً في مدنه الكبيرة مثل نيويورك وديترويت

---

(٣٣) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٢.

(٣٤) المصدر ذاته، ص ٥.

وشيكاغو وفلنت وغيرها. وكان فؤاد مفرج، في حينه لا يزال مستمراً بالقيام بعملية الاستقطاب هذه لكسب المزيد من الأعضاء للحركة، حسبما ورد في رسالته إلى كاظم الصلح بهذا الخصوص، حيث يقول:

«وقد قمت برحلة خاصة لهذا الأمر لم تنتهِ بعد، إذ أكتب إليكم حاليّاً من نياغرا فولز بطريقي إلى تورنتو، وسبرنغفيل، وبوسطن، لأنهي عملنا قبل انعقاد المؤتمر. وسأكتب إليكم أسماء من يشتري سهماً [يعني من يدخل الحركة] في هذه المحلات التي ذكرتها في حينها، وهي آخر الأمكنة التي أذهب إليها قبل عودتي. وتجد في الصفحة التالية لائحة بأسماء وعناوين المساهمين(٣٥) [أي أسماء الذين انتسبوا إلى الحركة حديثاً]. وهم: الدكتور فؤاد شطارة، وعلي محيي الدين، وألبرت عازار، وكريم صليبي، ج. أ. نجم، أحمد بدر، الدكتور أطناس داوود، إبراهيم علوان، إبراهيم أبو حيدر، توفيق منصور، الأمير صلاح الدين الأيوبي، نجيب أبو سمرا، إبراهيم فليحان، حسن عبد الحكيم، أحمد حمزة، الشيخ كايد الحاج، محمود صعب، يوسف أبو الحسن، محمد مشرف، الياس كرم، حسن حمود، عبد اللطيف حمود، حنا أبو الصوف، علي سمحات، قاسم غازي، عبد حسن مصطفى. وننشر بالملحق رقم ٦ صورة اللائحة الأصلية بأسمائهم وعناوينهم باللغة الإنكليزية كما جاءت في رسالة فؤاد مفرج وبخط يده(٣٦).

ويطلب فؤاد مفرج في رسالته من كاظم الصلح: **«أن ترسل إلى كل من هؤلاء رسالة، بالعربية للبعض وبالإنكليزية لثلاثة أو أربعة منهم، تقول فيها لهم ما يلي:**

«نقل إلينا السيد فلان مندوب (شركتنا) في المهاجر خبر مساهمتكم معنا في العمل وحيازتكم سهم فيه (فالق...) [يعني - فالقيادة] ترحب بكم وهي على ثقة أنها ستقوى بكم وستقوون بها، وتحييكم تحية العروبة. أما في

---

(٣٥) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٨.

(٣٦) يراجع الملحق رقم ٦، ص ٤٥٣.

المستقبل فلتبقَ صلتكم مع مندوبنا عندكم وبعد رجوعه إلى الوطن إلى إشعار آخر، وهو بدوره يكون صلة الوصل بيننا وبينكم».

أو بما هو بهذا المعنى:

ومن الضروري أن ترسل هذه الرسائل فوراً، أي أن تصل قبل أول سبتمبر، فتكون بمثابة رباط يشد صلتهم بنا ويوثقها»[٣٧].

وبهذا تكون أول خطوة لتأسيس الحركة العربية السرية في أميركا قد تمت بنجاح، وأن أول ثمرة لجهود فؤاد مفرج في هذا السبيل قد أينعت.

تنظيم «عمالة» الحركة في أميركا:

اتبع فؤاد مفرج تنظيم الحركة في «عمالة» أميركا الشمالية ذات الأسلوب المتبع في العمالات الأخرى. فقد جعل مركز العمالة بمدينة نيويورك، وعين «عاملاً» عليها رئيس الجامعة العربية فؤاد شطارة. وأنشأ الخلايا السرية، حسب قوله، بحيث:

«يكون لنا في كل بلد حلقة من أنصار الشركة [من أعضاء الحركة] تتصل بمركز واحد في المهجر، وتتصل بنا كل منها على حدة أيضاً. وهؤلاء المساهمون [الحركيون] يختلف عددهم بحسب عدد الجوالي ووطنيتها»[٣٨].

النواحي المالية الثلاث:

يتبيَّن في رسالة فؤاد مفرج وجود ثلاثة عناوين مالية، يتمتع كل عنوان منها باستقلال تام عن العنوانين الآخرين. العنوان الأول موضوعه، نفقات الرحلة، ويقدرها فؤاد مفرج بما لا يقل عن ثلاثة آلاف دولار أميركي، تأمنت له من مصدرين، هما، كما يذكر.

«(١) من ريع المحاضرات التي ألقيتها، والتي سددت حتى اليوم [٥ تموز] حوالى نصف نفقاتي.

---

(٣٧) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٨.

(٣٨) المصدر ذاته، ص ٤.

و٢) من بعض أقربائي هنا، أبناء عمتي، الذين قاموا بالجزء الباقي»[٣٩].

والعنوان الثاني موضوعه، أحوال الجامعة العربية في نيويورك. وتأتي أموال الجامعة العربية من مصدرين هما: رسم الاشتراك بالجمعية من أعضائها، والتبرعات من المناصرين. وحتى تاريخ الخامس من تموز كانت الجامعة:

«قد جمعت ٣٤ ألف ريال. أنفق منها ١٤ ألفاً[٤٠] على مكتبها في نيويورك، وعلى الدعاية، وعلى الوفود التي كانت ترسلها إلى الداخلية لتحث المهاجرين على التبرع... وهذا المبلغ أيضاً لا يمثل كل ما جمع بواسطتها، إذ أنها تدفع نفقات الجمع. ولكن أكثر ما يجمع يرسل رأساً، فتظهر النفقات في موازنة الجامعة، أما ما يجمع فلا يظهر في دخلها. والمبلغ الذي ينفقه المكتب هو مخصص من قبل المتبرعين للمكتب، إلا القسم القليل. وعقيدتي الشخصية أنه مهما كان الأمر فالمال في الوطن ينفع أكثر من هنا. وقد أخذوا بهذا الرأي، وسيختصرون هذا المبلغ في مؤتمر فلنت...»[٤١].

«أما أنا... لم أكلف الجامعة طول هذه المدة وخلال كل ما قمت به من أعمال أكثر من مئتي دولار. وقد جمع بواسطتي أثناء تنقلي، أضعاف أضعاف هذا المبلغ كانت ترسل رأساً للجنة الدفاع[٤٢].

«وقد أرادت الجامعة أن تخصص لي ٣٥ دولاراً في الأسبوع، ولكنني وجدت أن هذا من شأنه أن يعطي سلاحاً لأخصامنا، كما يقلل من نفوذي بين الجوالي. فرفضت [أي] شيء من ذلك، وتنازلت عنه بتاتاً. كما رفضت رفضاً باتاً قبول الهدايا المالية من أية جالية أو جمعية. وكان من

(٣٩) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٧.
(٤٠) المصدر ذاته، ص ٥.
(٤١) المصدر ذاته، ص ٦.
(٤٢) المقصود: لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا، التي أمينها العام فؤاد مفرج.

نتيجة ذلك أنني لم أكن في سعة، من جهة، ولكنني أصبحت أقوى عشرات المرات مما كنت، واحترامي في عيون الناس أزود، وكلمتي أنفذ. وباختصار فقد آمنت الجالية أننا نحن غير من رأوا حتى اليوم من الوطنيين أو الذين زاروا المهجر وهمهم الأول الدولار. ولم تكتم جماعتهم وجمعياتهم شعورها من هذا القبيل، إذ قال أكثرها، إن فلاناً هو أول رسول من رسل الوطن جاء «ليعطي» المهاجرين، ولا يأخذ منهم شيئاً»(٤٣).

والعنوان المالي الثالث هو الترتيبات المالية في «عمالة» الحركة بأميركا. فقد شعر فؤاد مفرج أن التنظيمات المالية النافذة في العمالات بالبلدان المشرقية غير ملائمة للتطبيق بحذافيرها فوراً في العمالة الجديدة لبضعة أسباب. لقد رأى أن الأمر في هذه المرحلة الأولى يتطلب ترتيبات خاصة ملائمة، وأن:

«الوضع يقضي ببعض التصرف، كأن يكون السهم في الشركة(٤٤) (٥) دولارات نقداً، ثم نصف دولار كل شهر يرسل لنا نصفه، أما ما زاد عن ذلك فيكون من باب التبرع للشركة»(٤٥).

ويظهر أن فؤاد مفرج اعتبر هذه الترتيبات المالية الأولية موقتة، وقال لكاظم الصلح في رسالته: **«سأنظم المالية للمستقبل»**(٤٦).

ولما كان فؤاد مفرج قرر أن يقوم بالفترة المتبقية من رحلته بجولة خاصة بين نياغرا فولز، وتورنتو، وبوسطن لاستقطاب المزيد من المنتسبين إلى الحركة(٤٧) فقد كتب إلى الصلح يقول:

«أما المبلغ الصغير الذي يتجمع من رسم السهم الأول [رسم دخول

---

(٤٣) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٧.
(٤٤) المصدر ذاته، ص ٤. المقصود: كأن يكون رسم الدخول إلى الحركة العربية السرية خمسة دولارت.
(٤٥) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٤.
(٤٦) المصدر ذاته، ص ٨.
(٤٧) المصدر ذاته، ص ٧.

الحركة] فسأستعمله بعد إذنكم، لسد جزء من نفقات الرحلة التنظيمية هذه»(٤٨).

بين الجامعة العربية والحركة:

جاء في رسالة فؤاد مفرج قوله إلى كاظم الصلح بخصوص الجامعة العربية في نيويورك ما يلي:

«وإني عامل على تنظيمها بشكل دقيق حتى تصبح مضمونة السير وفوق الانتقاد»(٤٩).

وكان هذا التنظيم المشار إليه دقيقاً بالفعل، ويخدم مصالح الجامعة والحركة معاً في آن، ويجعل عملهما مشتركاً متكاملاً، مع المحافظة على مبدأ السرية التامة فيما يتعلق بالحركة. فالجامعة، كالحركة، مؤسسة عربية، وأعضاؤها نخبة من القوميين العرب المؤمنين بقضيتهم، والعاملين بوحي من مبادئها وأهدافها. وكانت فروع الجامعة قد انتشرت في بعض المدن الرئيسية بالقسم الشرقي من الولايات المتحدة الأميركية وكندا. وكان عدد الأعضاء في كل فرع يتوقف على حجم الجالية في ذلك البلد، وعلى وطنية أفرادها(٥٠). وكان رئيس الفرع ورؤساء التنظيمات التابعة للحركة، وفق الخطة التي كان فؤاد مفرج قد اعتمدها بالاتفاق مع فؤاد شطارة، يختارون من أعضاء الحركة العربية السرية في حال وجودهم. وبهذه الطريقة أصبحت معظم أجهزة الجامعة العربية برئاسة حركيين. فكان رئيس الفرع يوجه فرعه ويسيِّره وفق مصالح الحركة ومبادئها، التي لا تختلف في الجوهر عن مصالح الجامعة ومبادئها، من دون أن يجعل رفاقه في الفرع يشعرون بانتمائه الحزبي أو يعرفون شيئاً عن وجود الحركة. ومن الأمثلة على ذلك أن رئيس الجامعة فؤاد شطارة كان «عامل» الحركة في أميركا الشمالية، وعلي محيي الدين بمدينة جرسي نائباً للرئيس، وعلي سمحات من ديترويت أميناً للصندوق، وكريم صليبي من بروكلن رئيساً لتشكيلات الشباب، وألبرت

---

(٤٨) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٧.

(٤٩) المصدر ذاته، ص ٥.

(٥٠) المصدر ذاته، ص ٤.

عازار من بروكلن نائباً لرئيس تشكيلات الشباب. وجميع هؤلاء من أعضاء الحركة العربية السرية، وتظهر أسماؤهم في اللائحة التي أعدها فؤاد مفرج والمنشورة بالملحق رقم ٦. وبهذه الطريقة أمن فؤاد مفرج سيطرة الحركة على الجامعة، وجعلها نقطة اعتماد رئيسية لها. فأصبح تأثير الحركة في أميركا أكبر من حجمها الحقيقي، ومن عدد أعضائها المحدود. كما أن التنسيق والتعاون في العمل القومي العربي بين الحركة والجامعة، كانا يحققان التكامل بينهما على الوجه الصحيح.

التحضير لمؤتمر فلنت:

فلنت (Flint) مدينة بولاية متشغن، تقع بوسط القسم الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة الأميركية، قريباً من مدينة ديترويت (Detroit) ومن الحدود مع كندا. توجد فيها جالية كبيرة، وفرع نشيط للجامعة العربية بإدارة أمينه العام أمين فرح. تقرر أن يستضيف هذا الفرع في فلنت المؤتمر العربي القومي الرابع المزمع انعقاده في ٢ و٣ و٤ أيلول القادم (١٩٣٩) بدعوة من الجامعة العربية، التي تتحمل مسؤولية تنظيمه وإدارته ورعايته بمشاركة فرعها في فلنت. «**والمؤتمر العربي القومي هذا هو الهيأة العامة التي تتمثل فيها الجمعيات والنوادي والمنظمات الوطنية في أميركا الشمالية ـ الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وبعض جمهوريات أميركا الوسطى ـ العاملة على بث الروح الوطنية والتنظيم بين صفوف المهاجرين من أبناء الأقطار العربية جميعها، وتأييد القضية الوطنية في البلاد العربية مادياً وأدبياً**»[٥١].

بدأ التحضير للمؤتمر في مركز الجامعة في نيويورك وفي مكتب فرعها في فلنت منذ أواخر أيار سنة ١٩٣٩[٥٢]. وفي أوائل تموز وجهت إدارة الجامعة الدعوة الرسمية لحضور المؤتمر باسم الجامعة وباسم فرعها المضيف في فلنت. وكان بعض ما جاء في الدعوة يقول:

«**وتتخذ الجامعة العربية هذه الفرصة لحث جميع الجمعيات الوطنية**

(٥١) أوراق كاظم الصلح، رسالة فؤاد شطارة إلى كاظم الصلح بتاريخ ١٥ تموز ١٩٣٩.
(٥٢) جريدة السائح، السنة ٢٦، الاثنين ٥ حزيران ١٩٣٩، ص ١٢.

والأفراد الذين لهم خدمات مأثورة في الحركة العربية في جميع المهاجر على الاهتمام الشديد في هذا المؤتمر القادم بأمر تنظيم الحركة العربية في المهاجر وتوحيدها على أساس متين يكفل ثباتها ونموها المطرد.

ولأجل هذه الغاية تدعو الجامعة العربية جميع القوميين العرب في الولايات المتحدة، وكندا، والمكسيك، وفنزويلا، وغيرها من مهاجر أميركا الشمالية والوسطى أن يرسلوا ما يعنُّ لهم من الاقتراحات الوجيهة بهذا الصدد لتنظيمها وعرضها على المؤتمر»[٥٣].

وجاء في الدعوة بخصوص التمثيل في المؤتمر ما يلي:

«وقد قرر... أن يكون لكل جمعية وطنية عضوان ممثلان رسمياً في المؤتمر، على أن هذا لا يمنع حضور العدد الأكبر ممن يريد الحضور والاشتراك في أبحاث المؤتمر ومناقشاته، إنما التصويت يكون للمندوبين الرسميين فقط»[٥٤].

وتمنت الجامعة على الهيئات الراغبة بالمشاركة في المؤتمر إرسال أسماء مندوبيها الرسميين واقتراحاتها إلى مكتب الجامعة قبل نهاية الأسبوع الأول من شهر آب. وجاء في ختام الدعوة الدعاء التالي:

«طالبين منه تعالى أن يأخذ بيدنا لنتمكن من القيام بخدمة الوطن العربي القديم خدمة جلّى فعالة وترفع اسم العروبة عالياً في ديار المهجر»[٥٥].

وكانت الدعوة موجهة باسم:

«رئيس الجامعة العربية في نيويورك

الدكتور فؤاد شطارة

مدير مكتب الجامعة العربية

حبيب إبراهيم كاتبة»[٥٦].

---

(٥٣) جريدة السائح، السنة ٢٧، العدد ١٨، الاثنين في ١٧ تموز ١٩٣٩، ص ٤.

(٥٤) المصدر ذاته، ص ٤.

(٥٥) المصدر ذاته، ص ٤.

(٥٦) المصدر ذاته، ص ٤.

إن نَفَس فؤاد خليل مفرج ظاهر في سطور هذه الدعوة. فقد ساهم في التحضير للمؤتمر بحثّ أبناء الجاليات والهيئات التي التقاها على حضوره، وبالمشاركة الفعلية في تنظيمه، وفي وضع جدول أعماله وخصوصاً فيما يتعلق بالتشكيلات الجديدة في جهاز الجامعة، والتي كان له اليد الطولى في صنعها، والتي كان يهمه كثيراً أن يوافق المؤتمر عليها ويقرها. كما أنه سعى للحصول على دعم معنوي عربي واسع للمؤتمر من كبار الزعماء السياسيين في العالم العربي، حيث يقول في رسالته لكاظم الصلح ما يلي:

«وقد كتبت عدداً من الرسائل لكبراء العرب ليبعثوا لنا كلمات تناسب المقام ـ وأنت منهم ـ فأرجو السهر على إرسال الكلمات في حينها»[٥٧].

وأخيراً، حان موعد انعقاد المؤتمر في ٢ و٣ و٤ أيلول ١٩٣٩. وكان فؤاد مفرج يأمل في أن يتوج به نشاطاته وجهوده، وأن يكون نجاح المؤتمر أفصح دليل على نجاح مهمته في أميركا، وأثمن مكافأة معنوية له قبل عودته إلى لبنان. وكان قد ذكر لكاظم الصلح بشأن هذه العودة قوله: **«أرجو أن أعود، وهذا مؤكد بقدر ما يستطيع الإنسان ضبط الحوادث»**[٥٨]. وكأنه بهذه الجملة الاستدراكية الأخيرة كان يقرأ في صحائف الغيب ما يخبئه القدر له وللحركة العربية السرية وللعالم من مفاجآت كارثية قريبة.

٦ ـ النهاية المأسوية

كان الأسبوع الممتد بين أواخر آب وأوائل أيلول أسبوع شؤم ومآسٍ مفجعة. ففي عشية الموعد المحدد لانعقاد المؤتمر، غادر فؤاد مفرج مدينة نيويورك، وبرفقته صديقه وزميله في الحركة العربية السرية الطالب العراقي بجامعة كولومبيا فخري الشيخ، قاصدين ديترويت في طريقهما إلى فلنت.

---

(٥٧) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٥.

(٥٨) المصدر ذاته، ص ٢.

وقريباً من ديترويت تعرّضا لحادث سير مفجع أودى بحياتيهما معاً على الفور. فكان فقدهما صدمة أليمة وخسارة كبيرة مذهلة للحركة[٥٩].

وزادت الأقدار سوءاً على سوء، بأن نشبت الحرب العالمية الثانية في تلك الفترة ذاتها. فتوقفت خطوط المواصلات البحرية والجوية المدنية تلافياً للأخطار الناجمة عن أعمال الغواصات والطائرات الحربية العدوة. وتعطلت وسائل الاتصالات وانقطعت العلاقة المباشرة بين عمالة الحركة في أميركا الشمالية وبين قيادة الحركة في الشرق. وعلى كل حال لم تكن تلك العلاقة المستحدثة قد بدأت بالفعل وترسخت. ذلك لأن علاقة الحركيين الجدد في أميركا بالحركة الأم بقيت محصورة بشخص فؤاد مفرج وحده بناءً على توصية من مجلس القيادة الأعلى تقول لأولئك الحركيين، ما يلي:

«أما في المستقبل فلتبقَ صلتكم مع مندوبنا عندكم وبعد رجوعه إلى الوطن إلى إشعار آخر، وهو بدوره يكون صلة الوصل بيننا وبينكم»[٦٠].

وبموت فؤاد مفرج انقطعت العلاقة بين العمالة في أميركا ومجلس القيادة الأعلى لأكثر من سبب، وفقدت إلى الأبد المعلومات الوافية عن العمالة التي أسسها، والتي كان يحتفظ بأخبارها وأسرارها في صدره وفي جعبته إلى حين عودته إلى الوطن، كما ذكر ذلك في الأماكن الثلاثة التالية في رسالته:

«وسأكتب لكم عن أسماء من يشتري سهماً في هذه الأماكن التي ذكرت، في حينها. وهي آخر الأماكن التي أذهب إليها قبل عودتي»[٦١].

- «هذه هي الأسماء، أما تفاصيلها حسب البيان فعندي أحتفظ بها لحين حضوري»[٦٢].

---

(٥٩) جريدة السائح، السنة ٢٧، العدد ٣٤، الخميس في ١٤ أيلول سنة ١٩٣٩، ص ٢.
(٦٠) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ٨.
(٦١) المصدر ذاته، ص ٨.
(٦٢) المصدر ذاته، ص ١٣.

ـ وسأكتب لكم، حالما أنهي هذه الرحلة، لأرسل لكم العناوين الباقية»[٦٣].

لقد وافاه القدر قبل أن يفي بأي من هذه الوعود. وضاع بوفاته سائر ما كان يملك من معلومات، باستثناء ما جاء في رسالته إلى كاظم الصلح بتاريخ ٥ تموز ١٩٣٩، والتي هي المصدر الرئيسي لما ورد في هذا الفصل عن رحلته إلى أميركا.

وفي تلك الفترة المشؤومة بالذات من العام ١٩٣٩، وبسبب الظروف الناشئة عن الحرب العالمية الثانية أنهى مجلس قيادة الحركة الأعلى وجوده في بيروت في آخر آب، وقرر نقل مركز القيادة إلى بغداد. ورافق هذا الإجراء، ونتج عنه استقالة قسطنطين زريق من رئاسة الحركة، بعد أن كان قد استمر فيها منذ تأسيس الحركة في سنة ١٩٣٥. وكانت هذه التطورات المشؤومة المتتالية ـ وفاة فؤاد مفرج المفاجئة في أيلول، إلى نشوب الحرب العالمية الثانية في ١ أيلول، والقرار المتخذ في آخر آب بنقل مركز مجلس قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد ـ التي حصلت كلها خلال أسبوع واحد، قد أدت إلى انقطاع الاتصال بين الحركة وبين عمالة أميركا الشمالية.

وخلاصة ما يمكن قوله بصدد تأسيس الحركة العربية السرية في أميركا، أن الجهود التي بذلها فؤاد مفرج في هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح، وأن المعلومات والتفاصيل عن هذا الموضوع قد ضاعت معها. وأنه لما انتهت الحرب العالمية الثانية في منتصف سنة ١٩٤٥ كانت معطيات كثيرة قد تغيرت، وكانت الحركة العربية السرية، حركة ١٩٣٥، قد تفككت وانهارت وزالت من الوجود.

---

(٦٣) أوراق كاظم الصلح، رسالة نوري إلى عامر، ص ١٣.



الفصل الثامن

نهاية الحركة العربية السرية

١ ـ تأثير الحرب العالمية الثانية على الحركة

عاشت الحركة العربية السرية عشر سنوات، من ١٩٣٥ سنة التأسيس، إلى ١٩٤٥ سنة الزوال. تميزت فترة السنوات الخمس الأولى بالازدهار والانتشار. فقد أسست قيادة الحركة سبع «عمالات» في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق والكويت والولايات المتحدة الأميركية وألمانيا. واستقطبت بضع مئات من الشباب «النخبة» إلى عضويتها، وعملت جادة، وبنجاح ملحوظ، على نشر رسالتها القومية العربية الوحدوية بمختلف الوسائل في هذه الأقطار.

أما فترة السنوات الخمس الثانية، فقد كان من سوء طالعها، أنها استهلت بنشوب الحرب العالمية الثانية. إن العقيدة القومية العربية الوحدوية، كما آمنت بها الحركة، وسجلتها في ميثاقها المعروف باسم «الكتاب الأحمر»، لم تتأثر بالحرب، بل عاشت ذخيرة حية في وجدان الحركيين. أما الحركة كتنظيم سياسي، فقد أصابتها الحرب بنكسة كبيرة، وجعلتها تتراجع، وتهزل تدريجاً على مدى السنوات الخمس الثانية، وصولاً إلى الانهيار الكامل والزوال في مطلع العام ١٩٤٥. ففي أثناء ذلك، طرأت عدة متغيرات على مسيرة الحركة، ساهمت مع غيرها من العوامل والأسباب، التي فرضتها ظروف الحرب، في إضعاف الحركة، وإيصالها إلى ما آلت إليه حالها أخيراً. وفيما يلي عرض موجز لأهم تلك المتغيرات المشار إليها.

٢ ـ تنحي قسطنطين زريق عن رئاسة الحركة

كان أول تلك المتغيرات، القرار الذي اتخذه المجلس الأعلى لقيادة الحركة، قبل بضعة أيام من نشوب الحرب العالمية الثانية، بنقل مركز قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد، لأسباب أمنية سبق ذكرها. وكانت أولى نتائج هذا القرار، تنحي قسطنطين زريق عن رئاسة القيادة والحركة، وتفويضه الأمين العام للحركة كاظم الصلح، ممارسة صلاحياته الرئاسية، وتكليفه إنجاز عملية الانتقال إلى بغداد. وكان تنحي قسطنطين زريق من قيادة الحركة يرجع في الظاهر إلى نقل مركز القيادة العليا إلى بغداد. فعمله بالجامعة الأميركية في بيروت لا يسمح له بالانتقال إلى بغداد، ولو لفترات زمنية محدودة. أما السبب الحقيقي لتنحيه فمرده إلى حصول تطور مهم في فكره السياسي بلغ حد النضج في أواخر الثلاثينات.

في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي (القرن العشرين) كانت الأنظمة السياسية الكلية الديكتاتورية، مثل الحزب النازي في ألمانيا والحزب الفاشيستي في إيطاليا والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، قد حققت لبلدانها انتصارات سياسية وعسكرية وعلمية واقتصادية كبيرة، أهلتها لتتربع في مصاف الدول المتقدمة العظمى. ولقي الفكر السياسي الكلي، من الشباب عموماً تحبيذاً حماسياً، وإقبالاً شديداً على تبنيه، لأنهم وجدوه النظام الأقدر والأسرع لتحقيق أمانيهم القومية. وانتشرت الأحزاب الديكتاتورية بسرعة، وقامت الأنظمة الكلية في عدد كبير من البلدان بمختلف أنحاء العالم. وفي جو الفكر السياسي الكلي المسيطر هذا، تأسست الحركة العربية السرية في لبنان في سنة ١٩٣٥. وقد استوحى مؤسسوها أنظمة الأحزاب الكلية وفلسفتها في وضع ميثاق الحركة وقوانينها الداخلية.

كانت الحركة العربية السرية عند تأسيسها شبيهة إلى حد كبير بالحزب الشيوعي اللبناني، والحزب السوري القومي، وغيرهما من الأحزاب الديكتاتورية. ولكن رئيسها قسطنطين زريق لم يمارس المظاهر الاستعراضية

والصلاحيات المطلقة الممنوحة له، كما فعل سواه من زعماء الأحزاب الكلية في حينه في سوريا ولبنان، لأن ذلك مخالف لطبعه وأخلاقه، ولأن الحركة كانت سرية وتتحاشى المظاهر والتحديات التي تفضح وجودها. وأذكر أنني في أحد الأيام في السنتين السابقتين لرحيله، كنت أزوره في منزله بحضور زوجته السيدة نجلا. وفيما كنا نستعيد ذكرياتنا عن الحركة، سألته كيف وفق بين نزعته الديمقراطية وصلاحياته الديكتاتورية كرئيس لمجلس القيادة الأعلى في الحركة. فصفن قليلاً ثم أجابني: «**يا شفيق، لقد عملت معي في مجلس عمالة لبنان فترة طويلة. فهل تذكر أني في أي يوم من الأيام فرضت عليكم في المجلس رأياً لا تقرونه، أو أني طلبت منكم الموافقة على قرار ما عن غير قناعة ورضا؟**».

كان قسطنطين زريق يعاني صراعاً نفسياً داخلياً بين نزوعه الديمقراطي الحر، وبين كونه رئيساً لحزب ديكتاتوري. ويرجح أنه لم يكن يرغب في مواجهة مع زملائه الحركيين، وأكثرهم من الكليين، حفاظاً على وحدة الحركة وديمومتها. فلما طرحت مسألة نقل مركز قيادة الحركة إلى بغداد، اعتبرها مخرجاً مناسباً للتخلي عن الرئاسة بهدوء، فتنحى. ولعله شاء أن يجعل الحركة تمارس عملاً ديمقراطياً، وإن بحده الأدنى، في انتخاب رئيس جديد خلفاً له في مجلس قيادة الحركة.

لم يبح قسطنطين زريق بمعاناته النفسية في رئاسة الحركة، ولم يفصح عنها جهاراً، بل احتفظ بها سراً من أسراره الخاصة، طوال سنين، حتى كشف النقاب عنها في سنواته الأخيرة. فقد جاء في سيرته الذاتية قوله ما يلي:

«ولم أكن عند ذاك أدرك تمام الإدراك أن هذه الحيوية العلمية التي كنت أغتبط في وسطها وأغبط أصحابها عليها، أنها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالنزعة الديمقراطية في الحياة العامة وما تتيحه من حركة فكرية، بل كنت في تلك السنوات وما بعدها مباشرة أتخيل أن الحكم المركز خليق أكثر مما هو الحكم الديمقراطي الموزع السلطات بإحداث الهبة المرجوة من شؤون التعليم

والبحث برعايته لها ودعمه إياها بالمدد البشري والمادي. ولكن ما لبثت أن تحققت بالاطلاع والاختبار أن جميع هذه الوسائل تبقى قاصرة، بل لعلها فاسدة ومفسدة إذا لم يصاحبها احترام للفكر واعتبار لحقوق المواطن في جو ديمقراطي رحب. وبعدها عدت إلى النزوع الديمقراطي الذي كان غرس في نفسي خلال نشأتي السابقة في دمشق وبيروت، وأخذ يتأصل فيّ بفعل خبراتي التالية في عهد دراستي بالولايات المتحدة الأميركية»[1].

لقد شكل تنحي قسطنطين زريق عن قيادة الحركة خسارة كبيرة لها، لا سيما وأنه جاء في الوقت الذي كانت فيه الحركة بأشد الحاجة إلى قيادته الحكيمة وإدارته الرشيدة.

٣ ـ الحركة بين الديكتاتورية والديمقراطية

كانت الحركة العربية السرية، في عهد رئاسة قسطنطين زريق خلال السنوات الخمس الأولى ديكتاتورية بالشكل، وديمقراطية، إلى حد ما، بالفعل والممارسة. وبعد تنحيه عن الرئاسة ونقل مركز قيادة الحركة من بيروت إلى بغداد، وانتخاب يونس السبعاوي رئيساً لها في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٠، أصبحت الحركة تنظيماً ديكتاتورياً كاملاً بالشكل والفعل معاً. فقد أصبح الرئيس السبعاوي هو الحركة، وأصبحت الحركة هي السبعاوي، على مثال ما كان هتلر والحزب النازي في ألمانيا. ولم يعد من الممكن التمييز بين ما يقوم به السبعاوي من عمل، أو يتخذ من قرارات باسمه الشخصي وعلى مسؤوليته، وبين ما يفعله باسم الحركة بصفته رئيساً لها.

إن «الأركان» الذين اجتمعوا في بغداد ومنحوا الرئيس يونس السبعاوي هذه الصلاحيات المطلقة، كانوا جماعة قليلة حاقدة على دول المعسكر الغربي الديمقراطي لأسباب سياسية قومية، ولا يخفون إعجابهم بالأنظمة الكلية والأحزاب الديكتاتورية، وتقديرهم لما حققته لأوطانها من تقدم وقوة ومكانة مرموقة ومرهوبة بين دول العالم.

---

(١) جريدة النهار، الاثنين في ١٤ آب سنة ٢٠٠٠، ص ١٨.

ولكن فريقاً آخر من «أركان» الحركة الموجودين خارج العراق كان لا يثق بالأنظمة الكلية ويكره سلطوية الأحزاب الديكتاتورية، ويؤمن بالديمقراطية ويرغب فيها ولا يقبل عنها بديلاً. وكان هذا التباين الجوهري بالمواقف المبدئية بين الفريقين، سبباً كافياً لإحداث الشرخ في كيان الحركة والانقسام في صفوف الحركيين.

٤ ـ الحركة تفقد صفتها النهضوية الشاملة

كانت الحركة العربية السرية في الأصل حركة قومية عربية نهضوية شاملة، وقامت في سنواتها الخمس الأولى بجهود عملية للنهوض بالمجتمع العربي في مختلف النواحي العقائدية، والصحية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها. وإن كانت تلك النشاطات والأعمال قد بدت متواضعة محدودة الإمكانات والانتشار، فإن نجاحها حيث عملت أثبت فوائدها، وبرهن عن حاجة المجتمع العربي إليها، وإقبال المواطنين على الترحيب بها والاستفادة منها ومن الخدمات التي تقدمها. وحمل هذا النجاح بعض الأوساط القومية على التفكير بتقليدها وتعميمها كنماذج للعمل القومي النهضوي، ونشرها في سائر الأقطار العربية.

ولكن العوامل المانعة، الناشئة من قيام الحرب العالمية الثانية، والثورة في فلسطين، والحرب العراقية البريطانية، حالت دون الاستمرار الكامل بهذه النشاطات، وقضت بوقفها لأسباب أمنية. وانصرف الحركيون القياديون الناشطون إلى تركيز اهتمامهم على الجانبين السياسي والعسكري، دون الجوانب الأخرى، من أهداف الحركة. فاشتركوا في الثورة وفي الحرب وفي الصراع السياسي، إلى الجانب المدافع، بنظرهم، عن حقوق العرب ومصالحهم الحيوية. وبهذا التطور فقدت الحركة قسماً كبيراً من صفتها النهضوية الشاملة التي قامت على أساسها سنة ١٩٣٥، وتحولت عملياً إلى شبه حزب سياسي كباقي الأحزاب السياسية الناشطة في الساحة العربية.

٥ ـ ظهور التمرد في الحركة

إن التغيير الذي أدخل على تنظيم الحركة في بغداد سنة ١٩٤٠،

وحصر السلطات والصلاحيات كلها بالرئيس السبعاوي دون سواه، حرم المجلس والأفراد والقياديين الآخرين من المشاركة الفعلية في نشاطات الحركة، وأفقدهم الدور الذي كان لهم فيها في السابق. فراح بعضهم يفتش لنفسه عن دور جديد يلعبه في حقل العمل الوطني، خارج نطاق الحركة، وبدون علم القيادة وموافقتها، مثلما فعل سعيد فتاح الإمام، ومنير الريّس، وآخرون، في سوريا ولبنان والعراق.

وإن دلّ هذا التمرد على شيء، فقد دلّ بوضوح على أن حالة الحركة ليست بخير، وأن عوامل الضعف والفوضى والخلافات قد طرقت بابها، وأصبحت تهدد وحدتها وتماسكها ووجودها ذاته.

٦ - جعل سوريا ولبنان وحدة إدارية مستقلة

إن مشاغل الرئيس يونس السبعاوي السياسية الكثيرة، أثناء الأزمة السياسية بين العراق وبريطانيا خلال ١٩٤٠ - ١٩٤١، لم تترك له الوقت الكافي لرعاية شؤون الحركة والسهر على إدارة أجهزتها ومصالحها وفق الصلاحيات المطلقة الممنوحة له. وللتخفيف عن كاهله بعض المسؤوليات المترتبة عليه بصفته رئيساً للحركة، ولا سيما المسؤوليات والقضايا السورية واللبنانية الخاصة، التي لا يملك الاطلاع الكافي على تفاصيلها وتعقيداتها، قرر بموجب صلاحياته المطلقة جعل عمالتي سوريا ولبنان وحدة إدارية مستقلة، وعين عليها كاظم الصلح مسؤولاً حركياً عاماً، ومنحه الصلاحيات المطلقة لينفرد بإدارتها وتصريف شؤونها، وفق ما يراه مناسباً، باستقلال تام.

إن كان هذا التدبير قد اعتبر في حينه تدبيراً إدارياً صرفاً، فإنه كان بالواقع صيغة ملطفة لبدء التفكك والانقسام في الحركة.

إن هذه المتغيرات التي دخلت على الحركة العربية السرية في سنواتها الخمس الأخيرة كانت، مع غيرها من الأسباب، من أهم العوامل التي أدت إلى تضعضع الحركة وتفككها وزوالها في النهاية. وإن المسؤولية في كل ما حصل مسؤولية مشتركة، ولا يجوز تحميل وزرها لفريق دون فريق. فالحركيون يتحملون بعض المسؤولية، من دون شك. ولكن الظروف القاسية

القاهرة التي رافقت الحركة في سنواتها الأخيرة، ومنها على الأخص الثورة في فلسطين، والحرب العالمية الثانية، والحرب العراقية البريطانية، كانت هي العوامل الأكثر ضرراً والأشد تأثيراً في انهيار الحركة، وفي جعلها تتوقف وتزول كلياً كتنظيم سياسي، في القطر الواحد بعد القطر الآخر، حسب الظروف التي أحاطت بوجود الحركة في كل قطر، كما سيتبين ذلك في الصفحات التالية.

٧ ـ نهاية الحركة في فلسطين

إن أول ضربة قاسمة تلقتها الحركة العربية السرية، كانت في فلسطين. لما تأسست الحركة في فلسطين بأوائل سنة ١٩٣٧ كانت ثورة فلسطين الكبرى ضد الإنكليز والصهيونيين قد بلغت أوجها. فانضم إليها معظم الحركيين القياديين، واشتركوا بالقتال الفعلي مع الثوار في مختلف الجبهات. ولما أخمد الإنكليز الثورة، اضطر هؤلاء إلى الهرب واللجوء إلى الأقطار المجاورة. وإن كان قد بقي حركيون سريون في فلسطين بعد ذلك، فإنهم كانوا يجهلون بعضهم بعضاً، ولا يعرف الواحد منهم عن الحركة أكثر مما كان قد أتيحت له معرفته في الخلية المنتسب إليها. فأخلدوا إلى السكينة، واعتصموا بالصمت وعدم الكشف عن هويتهم الحزبية ضماناً لأمنهم ومحافظة على سلامتهم. وبمغادرة الحركيين القياديين البلاد، وتجنب الحركيين الباقين داخل فلسطين كل عمل يفضح سرهم، ويعرضهم لغضب السلطات البريطانية والمنظمات الصهيونية، توقفت نشاطات الحركة العربية السرية كلياً في فلسطين وانتهت. وكان ذلك في أوائل الحرب العالمية الثانية. فكانت فلسطين أول الأقطار العربية الذي توقفت فيه الحركة كتنظيم سياسي فاعل مستقل.

٨ ـ نهاية الحركة في العراق

إن الضربة القاتلة الثانية التي تلقها الحركة العربية السرية كانت في العراق. إن الحركة والحركيين لعبوا دوراً رئيسياً في دعم حكومة رشيد عالي الكيلاني، وفي الحرب ضد الإنكليز سنة ١٩٤١. وكان للحركة، ممثلة

برئيسها يونس السبعاوي، وبالعقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب، وبالوزراء موسى الشابندر ومحمد حسن سلمان وسواهم، دور فاعل ورئيسي في تلك الحرب. فالسيطرة على الجيش كانت بيد العقداء الحركيين الأربعة، وسياسة العراق الداخلية والخارجية كانت خاضعة لإرادتهم. وإن الوصي الأمير عبدالإله نفسه ورئيس وزرائه لم تكن لهما السيطرة الفعلية على الوضع العام في العراق بقدر ما كانت للعقداء الأربعة. ولما انهارت المقاومة العراقية وخسر الجيش الحرب، انهارت معهما الحركة العربية السرية في العراق، وانتهت. فقد غادر المسؤولون العراقيون بغداد، وغادرها مثلهم، رئيس الحركة يونس السبعاوي والعقداء الحركيون الأربعة. وانضم إليهم الحركيون الفلسطينيون والسوريون واللبنانيون اللاجئون إلى العراق. وتصور أولئك اللاجئون أن متاعبهم قد انتهت، ولو إلى حين.

ولكن الأحداث توالت بسرعة بعد ذلك في غير صالح الحركة والحركيين. فبعد وقت قصير من انتهاء الحرب العراقية - البريطانية عاد الوصي الأمير عبدالإله إلى بغداد، وبدأ حملة تصفية لأعدائه السياسيين البارزين. وهاجم الإنكليز وحلفاؤهم الفرنسيون الأحرار الديغوليون سوريا ولبنان، وأخرجوا الفرنسيين الفيشيين منهما، وبسطوا سيطرتهم الكاملة عليهما. وهاجم الإنكليز وحلفاؤهم الجدد السوفيات إيران واحتلوها وأقاموا فيها حكماً موالياً لهم بدل الحكم السابق، واقتسموا فيها النفوذ بينهم، فسيطر السوفيات على القسم الشمالي المجاور لحدودهم الجنوبية، وسيطر الإنكليز على القسم الجنوبي. وأصبحت بذلك كل الرقعة الجغرافية الممتدة من إيران شرقاً، إلى مصر والسودان غرباً، ومن لبنان وسوريا وفلسطين شمالاً إلى العراق ومنطقة الخليج جنوباً، خاضعة لسيطرة البريطانيين الكاملة. ولما كان معظم الذين حاربوا البريطانيين في فلسطين والعراق قد لجأوا إلى إيران وسوريا، فقد أيقنوا أن البريطانيين سيحاولون إلقاء القبض عليهم لمحاكمتهم. ولم يكن تخوفهم هذا في غير محله. فقد تعاونت مخابرات البريطانيين مع أجهزة الأمن الخاضعة للوصي الأمير عبدالإله في مطاردة أولئك اللاجئين

بسائر أنحاء المنطقة. فوقع بعض المطلوبين في قبضتهم. وتمكن البعض الآخر من الفرار واللجوء إلى بلدان آمنة أخرى. وكان من الذين ألقي القبض عليهم من الحركيين رئيس الحركة يونس السبعاوي والعقداء الأربعة. فأعيدوا إلى العراق وحوكموا وجرى تنفيذ أحكام الإعدام شنقاً في ٥ أيار سنة ١٩٤٢ بيونس السبعاوي وفهمي سعيد ومحمود سلمان، وبكامل شبيب في ٢٠ آب سنة ١٩٤٤، وبصلاح الدين الصباغ في ١٦ تشرين الأول سنة ١٩٤٥.

وبعد الذين أعدموا، والذين أدخلوا السجون، والذين تمكنوا من الفرار واللجوء إلى بلدان أخرى، والذين نزعت منهم الجنسية العراقية وأبعدوا إلى خارج البلاد، ساد في العراق جو ثقيل من الإرهاب والانتقام والخوف. وأصبح شأن الحركيين الباقين بعد القضاء على القياديين شبيهاً بشأن الحركيين الفلسطينيين بعد فشل الثورة في فلسطين. فقد اعتصموا بالصمت المطبق وتحاشوا الإعلان عن انتمائهم الحزبي والبوح بمبادئهم القومية التحررية. ويمكن القول إن انهيار المقاومة العراقية ضد الجيش البريطاني في ٣١ أيار سنة ١٩٤١ أدّى بذات الوقت إلى انهيار الحركة العربية السرية وانتهاء وجودها في العراق.

٩ ـ نهاية الحركة في لبنان وسوريا

تشبه نهاية الحركة العربية السرية في لبنان وسوريا نهايتها في فلسطين والعراق من ناحية، وتختلف عنها من ناحيتين. تشببها في أنها انتهت إلى التوقف والزوال من حيث هي تنظيم سياسي سري فاعل. وتختلف عنها، أولاً، في أن هذه النهاية لم تكن دموية مأسوية كتلك. وثانياً، في أن القياديين الذين أوقفوا الحركة في لبنان أوجدوا لها البدائل التي تمكنهم من الاستمرار بتأدية رسالتهم القومية بهدوء واطمئنان.

لم تكن نهاية الحركة مأساوية في سوريا ولبنان لأن هذين البلدين لم يخوضا الحرب ضد القوات الحليفة مثلما حصل في فلسطين والعراق. وكان الأفراد القلائل من اللبنانيين والسوريين الذين اشتركوا في هاتين

الحربين مثل فوزي القاوقجي ومن الحركة منير الريس وسعيد فتاح الإمام وعثمان وعبد الهادي المعصراني وغيرهم، قد أفلتوا من قبضة الحلفاء وفروا من بلدهم ولجأوا إلى بلدان أخرى، وخصوصاً إلى ألمانيا.

وكانت السلطات العسكرية الفرنسية والبريطانية، منذ نشوب الحرب العالمية الثانية، تتهم الأحزاب والهيئات والأفراد ذوي الميول التحررية، ولا سيما أصحاب المبادئ العروبية الوحدوية، بأنهم معادون لمسعكر الحلفاء، ومتعاطفون مع معسكر دول المحور. ولضبط هذه العناصر قامت السلطات العسكرية الحليفة باعتقال الأشخاص الناشطين، من الحزبيين وغير الحزبيين، المشتبه بولائهم وسلوكهم، واحتجزتهم في معتقلات خاصة أنشأتها لهذه الغاية، وكان أشهرها معتقل «الميه وميه» بالقرب من مدينة صيدا. وإن عند الصحافيين الوطنيين البارزين زهير عسيران[٢] (حركي) وعبدالله المشنوق[٣]، الخبر اليقين عما كان يجري في ذلك المعتقل الذي استضافهما بضعة أشهر.

أما المتهمون الأقل خطراً، بنظر أجهزة المخابرات الحليفة، فقد ترصدتهم وضبطتهم ووضعتهم تحت مراقبتها الدائمة المباشرة. ولعل في ما جرى للحركي نديم دمشقية في سوريا خير مثال على ذلك. فقد روى نديم دمشقية في مذكراته الحادثة التالية التي جرت معه بهذا الخصوص؛ قال:

«وفيما كنت في بيروت، عرض عليّ مركز مدير عام «شركة الكونسروة» للصناعات الزراعية في دمشق... بعد دخول البريطانيين إلى دمشق والخسائر الكبيرة التي منوا بها في البحر المتوسط بفعل الغواصات الألمانية، فرضت عليهم ظروف الاحتياجات الخاصة تموين جيوش الحلفاء بضرورة إيجاد مصادر ضمن المنطقة.

وقد ساعدت معرفتي الجيدة باللغة الإنكليزية التفاهم مع المسؤولين

---

(٢) يراجع كتاب: زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر، مصدر سابق.

(٣) يراجع كتاب: عبدالله المشنوق، وراء الأسلاك الشائكة، ذكريات معتقل في الميه وميه (بيروت، دار النشر العربية، ١٩٤٨).

عن التموين في دمشق، الكولونيل ماغي، على أن تؤمن «شركة الكونسروة» احتياجات هذه الجيوش مما تنتجه... إلا أن الإقامة في دمشق لم تخل مما يقلق البال ويعكر سكرة الفرح بالنجاح في العمل، إذ حضر إلى مكتبي في الشركة ذات يوم ضابط بريطاني وطلب مقابلتي على انفراد. ظننت لوهلة أولى أنه بصدد طلب المساعدة من الاحتياجات التموينية، إلا أنه فاجأني قائلاً: «أنت نديم دمشقية؟». أجبت «نعم». وبعد أن قدم نفسه كمسؤول عن الاستخبارات البريطانية في دمشق، سألني: «معلوماتنا تشير إلى كونك أمضيت بعض الوقت في العراق، وأنك تطوعت مع رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز». أجبت «نعم». وهنا وقف قائلاً: «لا مجال للنقاش الآن، أريدك غداً في مكتبي الساعة الرابعة. ولا تفكر بالهرب أبداً».

عشت طوال نهار وليل ذلك اليوم تحت ضغط نفسي وقلق مخيف. وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى مركز الاستخبارات البريطانية ودخلت إلى الضابط المسؤول الذي بدأ الحديث معي بنبرة عالية، ثم قال: «هل تخرجت سنة ١٩٤٠ من الجامعة الأميركية في بيروت، وكان معك من متخرجي تلك السنة جلال لطيفة»؟ (جلال لطيفة هذا لبناني من طرابلس ذهب إلى العراق واعتقلته الاستخبارات البريطانية وأعدم بعد ذلك بتهمة التجسس للألمان).

صعقت لهذا السؤال وأجبت: «نعم، تخرجت سنة ١٩٤٠، وكان أحد زملائي في تلك السنة جلال لطيفة، ولكنه لم يكن صديقاً لي، ولا عدواً، وأنا لست مسؤولاً عما قام به كل من تخرج من الجامعة الأميركية عام ١٩٤٠. على كل حال يمكنني تسمية أكثر من عشرين طالباً تخرجوا تلك السنة، ويعملون الآن مع السلطات الفرنسية والبريطانية، خصوصاً وأن طلاب الأميركية يلمون باللغة الإنكليزية مما يسهل لهم التوظف مع الإنكليز». وهنا وقف عن كرسيه وقال: «في كل الأحوال سنتحقق مما قلته، عليك الحضور إلى هذا المكتب مرتين في الأسبوع لإثبات وجودك، وتقديم بيان عن التحركات التي تقوم بها».

ذات مساء، وفي الفترة التي كنت أسكن في منزل عطا بك الأيوبي، وكان معروفاً عنه أنه رجل مسالم معتدل، دعي إلى العشاء ضابط المخابرات البريطاني نفسه. وكانت دهشتي بقدر الدهشة التي لاحظتها على وجهه لوجودي هناك. وعندما ذهبت في اليوم التالي لإثبات وجودي، استقبلني قائلاً: «ماذا كنت تفعل عند عطا بك؟»

قلت: «أنا أقيم في منزله، وله صداقة مع والدي».

قال: «عطا بك رجل متزن ولا يميل إلى دول المحور».

قلت: «وأنا كذلك».

قال: «إذن لماذا تطوعت في العراق؟».

قلت: «إن حكومة العراق لم تأخذ رأيي عندما قررت إخراج البريطانيين من العراق. ولكنني كعربي كان مقيماً هناك وجدت أن من واجبي الوقوف إلى الجانب العربي بالرغم من كراهيتي للمبادئ النازية، تماماً مثلما هناك في بريطانيا أفراد يكرهون الحرب ولكنهم عندما وقعت تطوعوا لخدمة بلادهم في الجيش البريطاني... وانتهى الموضوع عند هذا الحد»[٤].

أما الحركيون الآخرون في سوريا ولبنان الذين لم ينكشف أمرهم، ولم تثر حولهم الشكوك، فلم يتعرضوا لأي أذى. وقد شكلوا في هذين القطرين، وخصوصاً في لبنان، خلال فترة الحرب مجموعة من الحركيين البارزين مثل قسطنطين زريق، وكاظم الصلح (بعد عودته من العراق)، وتقي الدين الصلح، وعادل عسيران، وفريد زين الدين، ومحمد علي حمادة، وأنيس الصغير، وحسين سجعان، وشوقي الدندشي، وقبولي الذوق، وحسني عطية، وسواهم.

إن هؤلاء الحركيين، بعد أن استعرضوا الوضع العام، وأخذوا بعين الاعتبار الظرف الاستثنائي الدقيق الذي تمر به البلاد، وبعد أن تذكروا الاعتقالات والملاحقات والتضييق على الحريات في لبنان وسوريا، وما

(٤) نديم دشمقي، محطات في حياتي الدبلوماسية، ص ٣٥ . ٣٧.

جرى من تنفيذ أحكام الإعدام والسجن والنفي في فلسطين والعراق، وفكروا بالثمن الباهظ الذي دفعته الحركة في معارك غير متكافئة، قرروا وقف الحركة وإنهاءَها من حيث هي تنظيم سياسي سري. ولكنهم لم يتوقفوا عند هذا الإجراء السلبي الذي اتخذوه مضطرين آسفين. فإنهم، في الوقت نفسه سعوا لإيجاد البدائل التي يتمكنون بواسطتها من الاستمرار في تأدية رسالة الحركة بشكل معدل مقبول، وفي جو هادئ لا يثير معارضة السلطات العسكرية الحليفة ويؤجج نار غضبها. وكان قطبا مشروع البدائل هذا قسطنطين زريق وكاظم الصلح. قسطنطين زريق حقق ورعى الجانب الفكري العقائدي من المشروع، فيما راح كاظم الصلح يسعى لإيجاد تنظيم سياسي يكون بديلاً عن الحركة العربية السرية المنحلة.

بدائل قسطنطين زريق:

كانت إدارة الجامعة الأميركية في بيروت قد قررت وعممت على طلابها وأساتذتها وجوب الامتناع كلياً عن التعاطي بالشأن السياسي بأي شكل من الأشكال داخل حرم الجامعة. فحلت جمعية العروة الوثقى التي كان يسيطر عليها الطلاب الحركيون، وأوقفت مجلتها التي تحمل اسمها عن الصدور. واحتراماً لقانون الجامعة من جهة، وللتعويض عن هذه الخسارة من جهة أخرى، قام قسطنطين زريق مع فريق من زملائه الحركيين، وبمشاركة عدد من الأشخاص ذوي الميول القومية العربية بتأسيس «النادي الثقافي العربي» ليكون منبره بديلاً عن منبر جمعية العروة الوثقى ومجلتها. وقد تم تأسيسه في سنة ١٩٤٤، واستأجر له المؤسسون مركزاً ومقراً في إحدى البنايات بشارع عمر بن عبد العزيز القريب من الجامعة الأميركية، حيث لا يزال يشغل هذا المركز عينه حتى الوقت الحاضر. وصار منبر هذا النادي، المتنفس السياسي لطلاب الجامعة، من دون أن يكون في ذلك مخالفة لقوانين الجامعة.

وكبديل عن خلايا الحركة السرية وعن جمعية العروة ومجلتها التي توقفت، نظم قسطنطين زريق ندوة أسبوعية مغلقة بتوجيهه ورئاسته يلتقي

فيها خمسة وعشرون إلى ثلاثين طالباً. فيستمعون إلى محاضرة يلقيها عليهم رئيس الندوة، في موضوع عربي، ثم يقومون ببحث شؤون العالم العربي وشجونه، وبشرح القومية العربية وتوضيح مضامينها السياسية والنظرية والاقتصادية والاجتماعية والمالية والتربوية، ويتبادلون الآراء بشكل علمي موضوعي بشأن إصلاح المجتمع العربي والنهوض به من كبوته.

وكان لهذه الندوة الأسبوعية برئاسة قسطنطين زريق تأثير كبير في نفوس روادها من الطلاب. فقد كانت بمثابة مدرسة قومية تأهّل فيها للقيام بالعمل القومي العربي الجدي عدد من الشبان المخلصين الذين أصبحوا فيما بعد في طليعة القادة البارزين في الحركات القومية في بضعة أقطار عربية. وأصدق مثال على ذلك ما كتبه رئيس ومؤسس «لجنة تحرير فلسطين» الدكتور جورج حبش عن تجربته في لقاءات هذه الندوة الزريقية حيث قال ما يلي:

«وظل هذا وضعي حتى بداية العام الدراسي الرابع في الجامعة [الجامعة الأميركية في بيروت]، أي الثاني في تخصص الطب. وفي أحد الأيام، جاءني صديق من الجامعة اسمه معتوق الأسمر من نابلس وقال لي: هناك أستاذ ـ يقصد قسطنطين زريق ـ ينظم حلقات ثقافية صغيرة مغلقة يتحدث فيها إلى عدد من الطلاب (٢٠ ـ ٢٥ طالباً) عن القومية العربية وعن الأمة العربية وكيف يجب أن تنهض. وعرض عليّ فكرة حضور تلك الحلقات. كانت محاضرات للتوعية وإثارة النقاش، ولم يكن هناك أي رابط تنظيمي»(٥).

وبتفعيل هذه البدائل التي تأمنت بجهود قسطنطين زريق الخاصة ظلت رسالة الحركة العربية السرية حية، تنمو وتنتشر من دون وجود الحركة ذاتها.

---

(٥) جورج حبش، التجربة النضالية الفلسطينية. حوار شامل مع جورج حبش. أجرى الحوار محمود سويد، مرجعيات ٣. (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨)، ص ٤.

حزب النداء القومي:

بعد انتهاء الحرب العراقية ـ البريطانية في العراق، عاد كاظم الصلح إلى لبنان. ولم يستطع أن يمارس السلطات الحزبية الممنوحة له، لأن الحركة العربية السرية كتنظيم سياسي كانت قد توقفت، وانشل نشاطها في لبنان وسوريا. ومثلما فكر قسطنطين زريق في إيجاد البدائل لها، كذلك فكر كاظم الصلح بإيجاد تنظيم سياسي بديل ليتابع سياسة الحركة المنحلة، وراح ينتظر أن تسنح الفرصة المناسبة ليقتنصها ويحقق رغبته في إقامة التنظيم السياسي البديل.

ولم يطل انتظار كاظم الصلح كثيراً. فقد سنحت الفرصة التي كان يرجوها في أواخر سنة ١٩٤٣، يوم انتهى عهد الانتداب الفرنسي، ونال لبنان استقلاله التام، وأصبح دولة حرة ذات سيادة كاملة، وفتح صفحة جديدة من الانفتاح والتعاون في علاقاته مع الدول العربية. وفي هذا المناخ السياسي الجديد زالت الأسباب التي كانت تحمل الوطنيين المطالبين بالحرية والاستقلال على اللجوء إلى تأسيس الأحزاب السياسية السرية. فقرر نفر من هؤلاء، وفي مقدمتهم كاظم الصلح، تأسيس حزب سياسي قومي بديل عن الحركة العربية السرية. فانصرفوا خلال العام ١٩٤٤ إلى إتمام المعاملات القانونية والترتيبات الأخرى اللازمة لذلك. فوضعوا القانون الأساسي للحزب، ونظامه الداخلي، وتقدموا من المراجع اللبنانية المختصة بطلب الترخيص الرسمي. وفي ١ كانون الثاني سنة ١٩٤٥ أصدر رئيس الحزب كاظم الصلح بياناً في ١٦ صفحة أعلن فيه ولادة وانطلاقة «حزب النداء القومي» البديل عن الحركة العربية السرية، والمؤسس «وفق نظام شعبي شوري رأياً وتكويناً»[٦].

كان حزب النداء القومي، بمبادئه وأهدافه وأعضائه، صورة منقحة جديدة للحركة العربية السرية. وبالرجوع إلى ميثاق الحركة في «الكتاب الأحمر»، ومقابلته «بمبادئ وآراء وخطط» حزب النداء القومي يتبين أن الحزب والحركة هما بالحقيقة والجوهر واحد، وأنهما لا يختلفان إلا في

(٦) كاظم الصلح، حزب النداء القومي ـ لبنان. مبادئه وآراؤه وخططه، ص ٧، البند ٦.

بعض الأمور الشكلية والنصوص التكتيكية التي أدخلها الحزب في صلب مبادئه (البندان ٣ و١٢)، ليتفادى مخالفة القوانين المرعية الاجراء التي تنظم عمل الأحزاب السياسية في الجمهورية اللبنانية. ففي البند الثالث في بيانه، مثلاً، نجد، كاظم الصلح يقول:

«تقضي قوانين الدولة المحترمة بأن يكون كل حزب سياسي وامتداده ضمن أراضيها أولاً. وحزبنا موصوف بذلك: إنه لم ينشأ وراء حدود الدولة... بل نشأ في لبنان. فمركزيته الطبيعية في لبنان وحده، وامتداده القانوني أو حيويته التبشيرية مقصوران على اللبنانيين في وطنهم ومهاجرهم وعلى سائر العرب حيثما كانوا»(٧).

ويتوسع كاظم الصلح في شرح هذا المبدأ في البند ١٢ من بيانه حيث يقول ما يلي:

«١٢ ـ نحن نقرر:

«أ» لزوم وجود كيان لبناني موحد مستقل ذي سيادة وطنية قومية في حدوده الحاضرة التي تقررت نهائياً سنة ١٩٤٣.

«ب» وأن لبنان بلد عربي الأرومة والطابع والمقصد.

«ج» وانه ضمن الحقائق القومية النهائية المطلقة، وضمن وطنية لبنانية صحيحة، وضمن أساليب حكيمة للتوفيق والتنسيق المستمرين بين ذينك الأمرين المقررين الواقعين ـ يباشرها قوميون صادقون ـ لا يمكن أن يقوم بينهما تعارض وتناقض، ولا يجوز.

ونحن أفراد الحزب في نشأته، فاهمون ما نقول، ونمتاز بأننا قلنا به ـ وهو قد استقر أخيراً نظاماً للدولة وشعبها ـ قبل أي جماعة أخرى.

ونحن في قولنا وفهمنا صادقون. وماضينا وحاضرنا آية»(٨).

١٠ ـ زوال الحركة العربية السرية

إن اليوم الأول من كانون الثاني سنة ١٩٤٥، يوم صدور بيان كاظم

(٧) كاظم الصلح، حزب النداء القومي، البند ٣، ص ٧.

(٨) المصدر ذاته، البند ١٢، ص ٩ ـ ١٠.

الصلح عن تأسيس حزب النداء القومي، هو اليوم الذي انتهت فيه الحركة العربية السرية بصورة رسمية كاملة. فكاظم الصلح كان آخر قيادي ذا صفة رسمية في الحركة، لكونه أمينها العام، وبموجب التفويض المطلق الممنوح له من الرئيس السابق يونس السبعاوي على «عمالتي» سوريا ولبنان. وقد أصبح هو رأس الحركة الفعلي المؤتمن عليها بصورة عامة بعد غياب الرئيس السبعاوي ومجلس «القيادة الأعلى». ولما أسس كاظم الصلح حزبه الجديد، وتولى رئاسته، يكون قد تخلى طوعاً عن الأمانة الموكولة إليه، واعترف ضمناً بزوال الحركة. لهذه الأسباب يمكن اعتبار اليوم الأول من كانون الثاني سنة ١٩٤٥، اليوم الذي انتهت فيه الحركة العربية السرية، وزالت بالحقيقة والواقع من الوجود، كتنظيم سياسي، ليس في لبنان وسوريا فحسب، بل وفي كل مكان.

وهناك دليل حي على أن الحركة العربية السرية لم تعد موجودة بعد تأسيس حزب النداء القومي. فقد ذكر لي واصف كمال أنه بعد سنة ١٩٤٦ عادت حركة القوميين العرب إلى الظهور بفصائل جديدة، وأن بعض قياديي هذه الفصائل قد اتصلوا به وبآخرين من قادة الحركة العربية السرية سابقاً، وعرضوا عليهم التعاون من أجل إحيائها[٩]. ولكن واصف كمال والقياديين الآخرين لم يتجاوبوا مع زعماء تلك الفصائل الجديدة لأسباب مختلفة لا مجال لذكرها هنا[١٠]. أما «الحركات»، و«الفصائل»، و«المنظمات»، و«الجبهات» العروبية، على حد تعبير واصف كمال، التي ظهرت بعد ذلك خلال الأربعينات والخمسينات والستينات، فهي، بالتأكيد، غير الحركة العربية السرية، بالرغم من تشابه الأهداف القومية العامة، ومن أن معظم مؤسسي تلك «الحركات» المستحدثة هم من أعضاء الحركة الأصلية الأم، أو من الذين تأثروا بها. وأن هذه «الفصائل» الجديدة هي حركات

---

(٩) ذكر لي ذلك في أول مقابلة بيننا جرت بمنزله في بيروت، في ١٩ أيلول سنة ١٩٩٤ بحضور السيد رفعت النمر. وقد كرر أمامي وأكد هذا الخبر أكثر من مرة في مقابلات لاحقة.

(١٠) واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين. وقد ألمح إلى بعض تلك الأسباب في الصفحات ٢١١ ـ ٢١٣.

مستقلة لا تخضع لقيادة عليا واحدة مثلما كانت عليه الحال في حركة ١٩٣٥. وقد غلبت عليها، مهما اختلفت أسماؤها الخاصة، تسمية عامة واحدة هي «حركة القوميين العرب». فأينما وجدت حركة من هذا النوع دعيت بهذا الاسم وعرفت بهذه الصفة، وأطلق على كل منتسب إليها وحامل رسالتها اسم «قومي عربي». إن هذا التشابه بالتسمية وبالأهداف هو بنظري السبب الأساسي في الالتباس الذي يحصل أحياناً بخصوص مصير حركة ١٩٣٥. وأنه قد جعل بعض الناس ينظرون خطأً إلى الحركات العربية التي ظهرت بعد ١٩٤٥ على أنها استمرار للحركة العربية السرية الأصلية وامتداد صحيح لها، في حين أن الأمر ليس كذلك.

١١ ـ الخاتمة:

هل ماتت الحركة العربية السرية واندثرت وزال كل أثر لها في سائر الأقطار التي كانت قد تشكلت فيها؟

إن التاريخ يؤكد عكس ذلك، ويُبيِّن أن سيرة الحركة شبيهة بسيرة سنبلة القمح، التي تنمو، وتنضج، وتنشر حباتها الذهبية في رحب الفضاء، وتموت هي وتختفي بكيانها السنبلي. ولكن الحياة لا تلبث أن تنبض في حباتها المنثورة، فتنبت في الموسم الجديد، وتنتج، كأمها، عشرات الحبات الجديدة، مستمرة في تأدية مهمتها المرسومة لها في دورة الحياة الخالدة.

هكذا كانت الحركة العربية السرية. فإنها انتهت وزالت كتنظيم سياسي آني ولكنها لم «تمت»، ولم تندثر كفكر مسؤول وعقيدة قومية راسخة. فإن الرسالة التي كانت قد غرستها واضرمت نارها في ضمائر افرادها ووجدانهم، بقيت حية واخذت تظهر في منظمات قومية عربية متعددة فاعلة في الساحة العربية، في مختلف اقطارها منذ مطلع الخمسينيات من القرن الماضي[١١].

---

(١١) يراجع بهذا الشأن كتاب: هاني الهندي وعبدالإله النصراوي، حركة القوميين العرب. نشأتها وتطورها عبر وثائقها ١٩٥١ ـ ١٩٦٨. الكتاب الأول: الجزء الأول والجزء الثاني. (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١).

الـملاحق



الملحق رقم ١

«الكتاب الأحمر»
كتاب القومية العربية ـ ميثاق الحركة

كتاب

القوميّة العربيّة

حقائق وايضاحات ومناهج



في السياسة القومية



(١) ما هي الفكرة العربية

الفكرة العربية او القضية العربية :

تعبير يطلق على الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير انفسهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل وسائر ضروب الوهن ، على ان يؤلفوا شملهم ويتحدوا في دولة قومية عربية قوية متحضرة ، فيصونوا بذلك كيانهم المادي والمعنوي ويرفعوا شأنهم ويستمروا فى تأدية رسالتهم الى الانسانية والحضارة العالمية .

(٢) ما هي القومية العربية

هي مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات التي ألفت ما بين العرب وكونت منهم امة :- كوحدة الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامح والالام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة .

٢

والقومية العربية هي محل تقديس وفخار عند العرب لانهم بها تميزوا عن سائر الامم وامتازوا عليها خلال العصور وبها نهض مجدهم الحاضر وكفل لنفسه النمو والبقاء الى الابد .

(٣) من هم العرب

العرب هم من كانت لغتهم العربية او من يقطنون البلاد العربية وليست لهم في الحالتين اية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية العربية .

(٤) ما هي البلاد العربية

البلاد العربية هي جميع الاراضي التي تتكلم او يتكلم سكانها اللغة العربية في آسيا وافريقيا .

أي هذه الاراضي الواقعة في الحدود التالية :

من الشمال : جبال طوروس والبحر المتوسط

من الغرب : المحيط الاطلسي والبحر المتوسط

من الجنوب : بحر العرب وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى

من الشرق : جبال بشتكوه والبختيارية
وخليج البصرة .

اما الجزر القريبة من الشواطيء العربية
والتي يسكنها عرب فهي عربية .

(٥) لزوم العصبية العربية وحدها

يحرم العربي العصبيات التي تضعف
العصبية العربية : كالعصبيات الطائفية والعنصرية
والطبقيةوالاقليمية والقبلية والعائليةواشباهها .

والعربي يعلم ان الاديان السماوية ليست في
ذاتها عصبية دنيوية فهو لذلك يحترمها ولا يرى
فيها ما يحمله على انقاص ولائه التام لقوميته
العربية .

(٦) وحدة الهدف في الجهاد

يؤمن العربي بأن هدفه القومي في أصله وطبعه ومنتهاه واحد لا يتجزأ ولو تنوعت أساليب الوصول اليه ؛ وبأنه الى هذا الهدف يجب ان توجه كل الجهود الفردية والجماعية .

فالعربي يرى ان المساعي القومية التحريرية التي يقوم بها العرب في هذا القطر او ذاك من اقطارهم ، لا تؤدي ولا يجوز ان تؤدي الا الى التحرر والتوحد الشاملين ؛

فالكل عربي – بل عليه – ان يعمل في كل ارض عربية بما يعجل تحقيق هذه الغاية ويوطد اركانها ويكفل بقاءها ؛

(٧) الاختلاف والتنوع في اساليب الجهاد

ليست اقطار العرب اليوم سواء : في العلم والجهل او الغنى والفقر او السيادة والاستعباد .

٩

فلذلك جاز ان تتنوع اساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها وان تختلف باختلاف القطر ، على ان يقوم بينها جميعاً ضابط يؤلفها وينسقها ويوجهها توجيهاً يضمن فعلها في ايصال الامة العربية الى هدفها القومي العام بأقل التضحيات واقصر الزمن .

(٨) التنظيم : ماهيته وخطورته

الضابط الذي يؤلف المساعي القومية ويوجهها هو التنظيم . فهو على ذلك جزء من اجزاء العقيدة ووجه من وجوهها . ولا يجوز ان يصدر الا عن وحي الارادة العامة .

وهذا التنظيم يقوم على ضبط الخواطر والنزعات والارادات الشخصية الفردية او القطرية الاقليمية عند العرب ، وتحصيل القوى منها وتسخيرها لخير القضية العربية الشامل .

٢

(٩) تحتيم الانتظام والجهاد

قعود الفرد العربي واحجامه عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة . ومثله الاخلال بالنظام بعد الانتظام .

وفي ميسور كل عربي ان يجاهد بيده وبنانه ، فان لم يستطع فبلسانه وبيانه ، وان لم يستطع فبقلبه وجنانه . ولا سيما اذ تكون الامة في ساعات البعث او الخطر .

(١٠) تعميم الحركة بين جمهرة الشعب

تفرض الفكرة العربية لنجاحها ان تؤمن بها جمهرة الشعب وتعتنقها بعد ان آمن بها الافراد واعتنقوها، لان ذلك يسهل اعمال التنظيم في صفوفه ويصون اخلاقه القومية ويضاعف قدرته على الجهاد ويعظم نباهته فيه .

٨

(١١) « السلبية » وشريعة القوة

ليس في مطامع العرب ان يعتدوا على امة ما او ارض ما اي اعتداء . فهم انسانيون متعاونون دولياً في حدود النظم والاعمال العالمية التي لاتؤذي نهضتهم وكيانهم ولا تمس بكرامتهم . ولكنهم يرون ان اكثر الامم ليست على هذه الصفات ، ولا سيما الامم المستعمرة المتسلطة على بعض ديارهم بالقوة .

فهم اذن يعتبرون هذا التسلط اعتداء على كيانهم فيأخذون بشريعة القوة ، ويعمدون الى مقابلة الاعتداء بمثله حيثما استطاعوا ، ويبررون عملهم بانه دفاع مشروع عن الحياة .

(١٢) « السلبية » كسياسة في الكفاح

اذا عجز العرب عن رد الاعتداء بالقوة فعليهم ان يقاوموه مقاومة سلبية تؤدي حتماً الى

تعطيل فعله في المستقبل قريبا كان ام بعيدا .

فالسلبية في الكفاح السياسي عندهم أصل . لانها اقرب الى العزة القومية وأهون لها وأقوى على ايجاد الوحدة والانسجام والمشابهة في اساليب الكفاح وخططه بين العرب عموما ولو اختلفت ديارهم .

والوحدة والانسجام والمشابهة عوامل تضاعف القوة وتقرب آجال اثمارها .

(١٣) « الايجابية » كسياسة في الكفاح

الايجابية او الانتهازية ـ كخطة سياسية في الكفاح ـ اسلوب كثير المزالق عظيم الاخطار فاذا جاز اللجوء اليه في ظرف ما فانما يجب :

اولا : أن تخلو مسالكه من شبهات التسليم والاستكانة للمعتدي او المستعمر حتى لا تتعود الامة الرخاوة فتسترخي حيث تجب الصلابة .

ثانيا : ان يكون النجاح فيه عاقبة مضمونة ملفا ، ابعادا له عن صفات المغامرة .

ثالثا : ان لا ينشأ من استعماله في قطر عربي ما ، ضرر يلحق اثره بالمصلحة العربية العليا .

(١٤) بطلان التنازل عن الحرية والوطن

لا يملك الفرد العربي ان يتنازل لأجنبي ما – سواء بالرضى او بالارغام – عن كرامته او عن حريته أو عن أرض من وطنه او عن جزء من هذه الثروات جميعا . ومثله العرب كجماعات . فكل تنازل او عقد من هذا القبيل فاسد باطل ولا سيما ان كان قهريا استلزمته الضرورة الانية الموقوتة .

(١٥) نجاة العرب بالعرب

يؤمن العربي ايمانا لا شك فيه بانه ما

من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة والاجلة من الفقر والجهل والاستعباد والاستعمار الا بعروبته .

وايمانه هذا منبثق من التجاريب والعقل والعلم والتاريخ .

(١٦) الامة مصدر السيادة ومستقرها

السيادة للامة وحدها أصلا ومآلا . اما المظاهر التي بها تتمثل السيادة كالحكم والتمثيل النيابي والتعامل الدولي ـ فللأمة ان تختار منها ما يلائمها وفقاً للظروف الزمانية والمكانية .

(١٧) مصلحة الامة اولا

مصلحة الامة أصل، ومصلحة الفرد تبع . فاذا تعارضتا وجبت التضحية بالثانية . فالامة العربية وحدة قومية مستمرة مع التاريخ ،

يرث اجيالها النفع والخير ويورثونها .

والقانون العادل الحازم يحول ، على كل حال ، دون ايذاء حقوق الافراد ويضمن لهم المساواة والانصاف والطمأنينة .

(١٨) النظام الاتحادي للدولة العربية

يحرم العرب العصبية القطرية والاقليمية . على انهم لبواعث جغرافية وادارية يرضون مختارين بان تكون اقطارهم مؤلفة الشمل في الدولة العربية على اساس نظام الاتحاد (فدراسيون) .

والضرورة في قيام هذا النظام تبطل اذا ما زالت تلك البواعث .

(١٩) بلاد العرب للعرب وحدهم

كل من سكن بلدا عربيا ولم يكن عربياً فهو ضيف او لاجئ او مهاجر او طارىء ، ولو

١٢

انقضى على سكناه فيه اجيال . فتطبق معه قواعد الضيافة او تجري عليه قوانين الالتجاء او المهاجرة او ما جرى مجراها .

وللدولة العربية ان تجلي عن اراضيها كل فرد او جماعة يعصون هذه القواعد والقوانين او يستعصي تطبيقها فيهم .

(٢٠) التعرب وشروطه

للساكن في البلد العربي او في غيره ان يتعرب وفقا للنواميس القومية والانظمة الدولية . وذلك :

– بأن يقطع صلته بأية عصبية قومية اخرى كل القطع

– وان يخلص للقومية العربية إخلاصا يقوم عليه الدليل .

– وان يتعلم اللغة العربية ويجعلها لغة بيته
ومرتزقه
– وان يتخذ الجنسية العربية
– وان لا يؤذي الوطن العربي بشكل ما
– وان لا يكون سبباً في ايذائه .

١٥



فِي الثَّقَافَةِ



(٢١) سهم العرب في الثقافة ونظرتهم اليها

الثقافة ثروة انسانية شائعة، يساهم العرب في خدمتها بوحي تقاليدهم . ولا سيما ما كفل منها لافرادهم وجماعاتهم : وسائل العيش والعزة القومية والغذاء الروحي السامي ونفع الجنس البشري .

(٢٢) تكوين الثقافة العربية واثرها القومي

تكفل الثقافة للعرب تحقيق غاياتهم القومية اذا استمدت عناصرها وحيويتها ومناهجها من مميزاتهم وخصائصهم النبيلة وتاريخهم المجيد ومطامحهم ومصلحتهم كأمة تامة ، ثم توفرت على مضاعفة القوة والانتاج في هذه المنابع كلها .

(٢٣) الاعتداد بالمحامد القومية والجهاد لاصلاح العيوب

تفرض الثقافة القومية على العربي :

اولا : أن يعرف حقيقة نفسه كفرد ، فيعتد ـ من ناحية ـ بما عنده من خصال وفضائل . ويجاهد ـ من ناحية أخرى ـ لاصلاح ما فيه من عيوب يلاحظ شيوعها بين افراد العرب : كطبائع الفردية المانعة للتعاون ، والاتكالية ، وضعف الثقة بالنفس ، والاحجام عن تحمل التبعات ، والافراط في الاشتغال بالمسائل الروحية .

ثانيا : أن يعرف حقيقة قومه كمجموع ، فيعتز بتاريخهم وامجادهم وسجاياهم ، ويبث في نفسه شعور الاستقواء بهم ، وينمي في خياله انهم امة المستقبل كما كانوا امة الماضي .

(٢٦) العرب هم أولى الامم بابداع الثقافة الانسانية العليا

يرمي العرب في حاضرهم ومستقبلهم الى انشاء ثقافة تستمد عناصرها من المدنيتين : الروحية الشرقية والمادية الغربية . وهي الثقافة التي تنشدها الامم لاعتبار انها تخلق الطمأنينة الفردية والدولية، وتوجد الرقي المعنوي والرخاء المادي للجنس البشري .

ويؤمن العرب كل الايمان بانهم من اقدر الامم على انشاء هذه الثقافة، يوم تقوم دولتهم المقبلة، لسببين :

أولهما جغرافي : فهم قاطنون ديارا تقع في النقطة الوسطى المعتدلة من الكرة الارضية . فبلادهم لذلك قطب بين القارات وحلقة اتصال مثلى بين امم الارض .

.... وثانيهما تاريخي : فهم وارثون مدنية حفلت بالخصائص والمميزات اللازمة لتلك الثقـافة المنشودة .

(٢٥) حرية البحث العلمي

يطلب العرب من العلوم والاداب ما صانهم كأمة،وحفظ خصائصهم ومزاياهم، وأعلى شأنهم، وأعـانهم على الابتكار والتجويد ومضاعفة الانتاج العقلي والفني والاشتراك في نفع الانسانية .

وللبحث العلمي عندهم حرية لا يحد منها الا مسلك الدفاع عن القومية العربية في طور غنائها وتحققها .

فاذاجاز البحث في الاخطاء الطبيعية او التاريخية التي تناولت هذه القومية فللتنبيه والاصلاح، لا للتشهير او تبغيض العرب بتاريخهم وحاضرهم .

(٢٦) القومية العربية والثقافة الشعوبية

مصلحة العرب القومية هي ان يكونوا امة مستقلة، لها شعائرها وخصائصها . فكل علم او فن او أدب يرمي الى الشعوبية والميعان الاممي والرخاوة في العصبية العربية مفسد لكيانهم فهم حرب عليه .

(٢٧) الثقافة القومية اداة تعريب

تفرض القومية العربية ان لا يقيم في الوطن العربي جماعات ذات عنصرية اجنبية تتحسس بعصبية غير العصبية العربية ، على الرغم من حملها جنسية الدولة .

فعلى هذه الجماعات ان تتعرب اذا شاءت البقاء في هذا الوطن ، وعلى العرب ان

يسهلوا لها ذلك استيفاء للتوحيد والانسجام بين المواطنين جميعا .

والثقافة القومية العربية وسيلة كفيلة بالتعريب المطلوب .

(٢٨) دوام الصلة الوطنية مع العرب المغتربين

الامة العربية ضنينة بحياة افرادها وبانتاجهم ونبوغهم . فيجب ان تقوم الثقافة العربية بقسطها في ابقاء العروبة على ابنائها الذين هاجروا الى الديار الاجنبية في طلب الرزق او دفع الظلم ، حتى تحبب اليهم العودة الى الوطن فيشتركوا بتعميره والدفاع عنه ، أو تظل صلتهم به ناهضة متينة فيخدموا امتهم من منازل هجرتهم .

(٢٩) بين الادب العربي والاداب العالمية

يدرك العرب احسن إدراك ما في

الاداب والفنون العالمية من جمال وقوة . فهم لذلك يقيسون الى آدابهم وفنونهم ما فاتهم منها، ويحاكونه ، ويبتكرون على غراره ، ليدعموا ثروتهم القومية الخاصة بالتجدد ، ويغذوها بالتنويع ، ويسابقوا غيرهم في الوصول الى الغنى الادبي والكمال الفني .

وتتضاعف رغبتهم في هذا الاتصال بالاداب العالمية حيث تكون الفنون وجدانية تصدر من الشعور الانساني الشامل الشائع — كما في الشعر والنحت والموسيقى والغناء .

(٣٠) التعليم : نوعه وتوحيد اصوله وتعميمه بالاجبارية والمجانية

التعليم العام في الاصل عمل من اعمال الدولة ، تمارسه الحكومة مباشرة او بالواسطة، على ان يكون كله منطويا ومنطبقا على برنامجها

٢٥

القومي الموحد .

والتعليم الابتدائي يجب ان يكون عاما اجباريا . وعلى الحكومة ان تيسره بالمجانية في مدارسها ، فان فاتها ذلك في الحال فانما هذه خطتها المفروضة للمستقبل القريب .

ويشترط في هذا التعليم كله ان يستهدف الخلق المتين والوطنية الصحيحة والتنوير الذهني وتوفير اسباب العيش .

(٣١) تعرب المعاهد الاجنبية او خضوعها لقوانين المعارف

يجب على المعاهد الاجنبية القائمة في الوطن العربي ان تتعرب لتكفل رضى الحكومة والامة وتعضيدهما لها . فان تعذر ذلك فعليها ان تخضع للبرنامج القومي الذي تفرضه عليها دوائر المعارف الرسمية وتنفذه تحت مراقبتها .

ويستوي في هذه القاعدة كل ما صح فيه معنى المعهد : كالمدرسة والكلية والجامعة والمصح والمستشفى والمصنع والملجأ ودار الموسيقى والسينما وبعثة التنقيب على الاثار وما شابه .

(٣٢) الأمية : اثرها واساليب مكافحتها

الامية بين العرب المعاصرين كارثة متوطنة عامة، لها في تأخير بعثهم الاثر الاعظم، فيجب ان تكافح كما تكافح الاوبئة الاقليمية بجميع الطرائق والاساليب : كتعميم المدارس الليلية والكتاتيب النقالة، والزام التلاميذ والجنود بتعليم الاميين من زملائهم ومواطنيهم في فترات العطلة والراحة، وحرمان الأمي ممارسة الانتخاب للمجالس، وتفضيل الادارات العامة العامل القارىء على غيره حكماً حين طلبه الارتزاق من منشآتها – الا في مهلة تحددها الدولة .

وبكلمة عامة : توجيه دوائر المعارف الحكومية وجمعيات الشبان المثقفين لحملات دورية منظمة استيفاء لذلك القصد « كما في مشاريع السنوات الخمس » .

(٣٣) وسائل النشر اذا مست بالمقدسات القومية

لا يجوز في وسيلة من وسائل النشر — الاهلية — كالصحافة والتمثيل والسينما والاذاعة اللاسلكية والاغاني والصور والاعلانات والمهرجانات ان تكون ماسة بالاداب العامة او الخصال القومية او التاريخ العربي . بل على الدولة والجماعات الوطنية ان تراقب هذه الوسائل وتوجهها وجهة حسنة في حركة التحرير الوطنية وفي تمجيد القومية العربية .

اما اذا تعذر على الدولة والجماعات : المراقبة والزجر ، بكون المساس قد حصل من

نفر اجنبي في بلاد أجنبية ، فان هذا الاعتداء يقابل بكل ما تيسر من ألوان التمع كأن تصادر المادة المنشورة وتتلف ، وان ينقطع التعامل المادي والمعنوي مع امة المعتدي .

(٣٤) اساليب نشر الثقافة في الشعب

على السلطات في الامة ان تأخذ بجميع الوسائل لنشر الثقافتين العامة والقومية ، فتنشيء المكتبات الثابتة والمتنقلة ، والمتاحف والمعارض الدائمة والدورية ، والصحف الفنية والنشرات ، وتجعلها في متناول الكافة ، وان تستخدم الاذاعات اللاسلكية والسينما والتمثيل ، لتنوير اذهان الشعب وتعليمه بسائط العلوم التي تتطلبها الحياة الحديثة كعلم الصحة والزراعة والتاريخ .

(٣٥) ضبط الوعظ الديني وتنظيمه وتوجيهه

الصلاحية المعطاة لرجال الدين بالوعظ والارشاد قوة ذات فعل خطير في توجيه الارادة عند الشعب . فيجب ان تضبط هذه الصلاحية وتنظم لهـا القواعد بحيث لا تشذ عن خطوط الفكرة القومية السليمة .

ومن الشروط الاولى المفروضة في الواعظ المرشد ان يكون حسن الخلق كريم السمعة جيد الثقافة يفهم الوطنية على وجهها الصحيح .

(٣٦) اللغة العربية : مكانتها وقبولهـا للتجديد والتطور

اللغة العربيـة حصن العرب وشرفهم ومظهر وحدتهم . فلهـا كل انواع التقديس والتكريم .

توضع القوانين والأنظمة لحفظها وتجيدها ، وتنشأ المجامع اللغوية ، وتنظم اللجان لتأليف القاموس العام حتى تتهذب اللغة باستمرار وفق تطور الزمن . والاصلاح والتبسيط في قواعدها كله مقبول الا ما اخرجها عن كيانها كلغة مستقلة خاصة بأمة مستقلة تامة .

ومن عناصر الاصلاح الاولى ان يشرع في تقريب العامية من الفصحى لينشأ جيل يكتب كما ينطق وينطق كما يكتب . على ان يؤخذ من العامية ما هو موحد في جميع الاقطار العربية او ما هان توحيده .

(٣٧) العرب المعاصرون واللغات الاجنبية

كانت اللغات الاجنبية عون المستعمرين على الاستعمار في بلاد العرب • فعلى افراد الامة

أن يقصروا اهتمامهم باللغات على ما عز او استحال نقله الى لغتهم العربية، او على ما رموا به الى التعاون مع الامم الاخرى والى الاطلاع على ثقافاتها ومدنياتها للاستفادة منها .

والعربية وحدها هي لغة دوائر الدولة والتعليم والتعامل الاهلي .

وهي محتومة في المؤسسات الاجنبية ومواطن النشر كالرديو والسينما والاعلان واللوحات والعلامات الفارقة المسجلة .

ويستثنى من هذا التحتيم ما تعطل معناه بالترجمة والتعريب كبعض المؤلفات الادبية والالفاظ العلمية والاثار الفنية .

(٣٨) البعثات العلمية وكفالة الرزق للعلماء والموهوبين

تكفل الدولة الرزق والمعاش للعلماء والفنانين المجدين ذوي الكد ، حتى لا يشغلوا به عن الاجادة والابداع والنبوغ . فهم ثروة قومية تغذى وتستغل لمصلحة الامة .

وتنظم الدولة المجامع العلمية وتساعد المنظم منها بالمال وشتى انواع المعونة . ودوائر الدولة تعمل بنصائح المجامع وتطبق ارشاداتها وقراراتها .

وتوفد الدولة البعثات من العلماء والطلبة الناجهين الى الديار الاجنبية للاطلاع والاقتباس وتستوفد بعثات العلماء الاجانب الى الوطن ليتكاتف ابناؤه معهم على الامر نفسه .

ويحسن ان تكون النسبة في الايفاد

والاستيفاد كبيرة جدا خلال العهد الذي تتعجل فيه الامة تمام نهضتها .

(٣٩) الرياضة تثقيف الزامي تؤيده الدولة

الرياضة البدنية عدة الصحة الحسنة وآية الرجولة . فتعاطيها الزامي لجميع العرب وفقاً للقواعد العصرية التي تجري عليها المؤسسات العامة كالحكومة والمدرسة والمحافل الرياضية .

وتعضد الدولة الاندية والافراد الذين ينصرفون الى التثقيف الرياضي ، وتثيب الابطال المتفوقين ، وتكافح الوهن في الصحة وتستأصل السقم والعلة كما تستأصل الامية وتكافح الجهل : وذلك بمشاريع وقوانين يكفل تنفيذها الحازم ان ينشأ للوطن ، في اقرب حين ، جيل جديد سليم البنية مستكمل الرجولة .

(٤٠) الدعوه للروح العسكري وتعميم الجندية

يفرض البعث القومي على الامة جمعاء ان تأخذ بالروح العسكري – الا ما انطوى منه على شهوة العدوان . في هذا الروح تتجمع خصال الرجولة والوطنية : كالشجاعة والبأس والسماحة والمروءة وترك الدنايا والصبر على المكاره والطاعة حيث تجب الطاعة وحب النظام واستساغته .

ويمهد هذا الروح للجندية العامة التي تقررها الدولة تمهيدا يجعلها مقبولة مرغوبة .

وفي الجندية عون على توحيد النزعات بين الافراد ، وتقريب لطبقات الناس بعضها من بعض ، وحشد وتنظيم لعنصر القوة الكبرى في الامة والوطن .



في الاجتماع والاقتصاد



« ٤١ » مرمى النهضة الاجتماعية

تستهدف النهضة الاجتماعية عند العرب ايقاظ الحيويات الكامنة فيهم ـ ما كان منها طبعياً او مكتسباً ـ وترمي الى تهذيبها وتنسيقها وتوطيدها . وبذلك تتحصل لهم القوى المادية والادبية التي بها تبنى قوميتهم ودولتهم .

وهذه النهضة الاجتماعية تنطوي على التطور التقدمي ـ فكل جمود اجتماعي ـ مناقض له، ومحكوم عليه بالزوال .

« ٤٢ » الكفاح الوطني والمذاهب الاجتماعية

ليس من مصلحة العرب ـ وهم في عهد نهضة كفاحية شاملة ضد الاستعمار الاجنبي ـ ان يشغلوا عنها بالمشاحنة حول المذاهب الاجتماعية والاقتصادية للأخذ ببعضها ومحاربة البعض الاخر ـ اشغالا يصرفهم عن تلك الضرورة الملحة

٣٩

الطارئة ، ويثلم جبهتهم ، ويوزعهم صفوفاً وطبقات متطاحنة ويوهن قواهم الكفاحية .

وانما يحل لهم التخير بين المذاهب والنضال في سبيلها — ان وجب النضال — يوم يظفرون باستقلالهم وسيادتهم ويؤلفون دولتهم ويعمدون الى اصلاح شؤونهم الداخليه .

على ان هذه النهضة الاجتماعية لها بكل حال غرض أعلى لا يتبدل ، تنصد اليه بشتى الطرق والوسائل : وهو توفير اكبر قدر ممكن من الخير لأكبر عدد ممكن من افراد الامة .

« ٤٣ » تكوين الهيئة الاجتماعية الموحدة

من مصلحة العرب ومن متممات نهضتهم العصرية ان تتألف من مجموعهم هيئة اجتماعية واحدة لا سبيل معها الى بلواهم بما يعرف بالنضال الطبقي او النضال الطائفي .

وسبيل ذلك ان يدفع النضال الطبقي باتخاذ الانصاف قاعدة في اثابة المجهود الشخصي او الكفاءة الشخصية ، وبرفع المستوى الاخلاقي حتى لا يألف الرجل المقتدر : الظلم والاذي ، ولا الرجل المستضعف العاجز : الحسد والمكيدة .

ويدفع النضال الطائفي بنشر العلم الصحيح والفكرة القومية والتسامح الانساني واحترام العقائد الشخصية في الدين احتراماً مطلقاً في حدود الاداب والنظم العامة .

« ٤٤ » دولة قومية لا دولة دينية

الدولة العربية دولة قومية لا دولة دينية . والاديان عندها هي سبيل المرء الى خالقه في العبادات . فهي مصونة ومحترمة ومقدسة وفاق ما يرد عنها في القوانين .

اما في الشؤون الدنيوية الخالصة كالادارة

والاحكام المدنية والعقوبات والتجارة والمعارف فلا دخل للدين أصلا ، اذ الوازع فيها عرف مدني يجري عليه الناس او قانون تسنه الدولة ويخضع له جميع العرب .

« ٤٥ » الحريات مصونة في حدود القانون

الحريات العامة كحرية التفكير والقول والكتابة والاجتماع ، حق من الحقوق الاساسية للفرد وللمجموع . ولكن يسوغ للقانون ان يقيدها قيداً شاملاً عاما او قيداً آنياً موضعياً شرط ان يقع القيد لمصلحه الامة لا لمصلحة الفرد وحده اوالجماعة دون الاخرى .

« ٤٦ » حرية التملك وقيودها

التملك حرٌ ومصون في جميع انواع الثروة كالارض والعقار . بل على السلطات في

الدولة ان تدعو اليه دعوة ايجابية واسعة . اذ من الخير للأمة ان يكون كل فرد من افرادها ممتلكاً . لان الملكية غالباً ما تنشيء في النفس فضيلة الاقتصاد وتروضها على تحمل التبعات وتوثق ارتباطها بالارض اي بالوطن.

اما الحد من هذه الحرية على الاسلوب المعروف بالاستملاك والاجارة الجبرية او الاستغلال القهري ، فلا يجوز ان يساق الا لمصلحة الجماعة بالنسبة الى الفرد ، اولمصلحة الكثرة بالنسبة الى القلة او لمصلحة الدولة العليا عموماً .

« ٤٧ » روح التعاون والعمل المشترك

ينزع العرب في الاصل الى روح الفردية تعلقاً منهم بالحرية او الاستقلالية . ولكن طبيعة الحياة العصرية بما فيها من قسوة وشدة وتكاليف ، ومن تنافر في المصالح وتوزع

في المعايش ، طورتهم تطويرا ، فاستساغوا روح التعاون المادي والادبي، وتطبعوا بطباع الجماعات المتعاونة المتآلفة . وهذا التطور فيه خيرهم • فعليهم ان ينموه بحذق ، شرط ان يستبعدوا اخطاره : كالاحتكار بدعوى تعاون روؤوس الاموال ، وكالفوضي باسم الشورى .

(٤٨) القضاء العادل وشروطه

العدل خلق عربي، فالقضاء العربي عادل بالطبع . اما في الوضع او في التطبيق فلايكون كذلك الا اذا اشتمل على الخصائص التالية :

ا ، استقلاله عن السلطات التنفيذية تمام الاستقلال قولا وفعلا

ب، اتجاهه الى اجتهاد أعلى واحد في جميع انحاء البلاد

ج ، بساطة اجراآته، اي أصوله ومراسمه

د، حزمه وجزمه وسرعة اخذه بالرأي وبالتنفيذ

ه، خفضه النفقـات والرسوم عن كاهل الناس عموماً ، والغاؤها عن الفقراء

(٤٩) مكافحة المفاسد الاجتماعية

كل لهوة مفسدة ، ما لم يستهدف رياضة الذهن او البدن رياضة الصحة . فالمحرمات الجنسية كما في البغاء ، والمخدرات ، والميسر، والمراهنة التي لم تصنف لقصد خيري : محرمـة تحريماً يؤيده الادب والشرع القومي والقانون .

(٥٠) الزواج

يشجع العرب الزواج لانهم يعتبرونه من وسائل تكوينهم ومن متممات بعثهم القومي .

وهم يفرضون في ذلك فروضاً شتى : كاشتراط الشرعية والقانونية في ارتباط الجنسين، وسلامة الصحة في الخاطبين والمتزوجين، وتحديد

تكاليف الزواج ، ووضع ضريبة على العزوبة المتأخرة، وحماية المرأة الحامل والمرضع، وكفالة اليتيم ، وضبط الطلاق ، وما الى ذلك .

(٥١) الصحة في العائلة

العائلة أساس الامة وخليتها الاولى . فالمحافظة على سلامتها واجب من اخطر واجبات الدولة . فهي تعنى بحمايتها خاصة من الامراض المعدية ولاسيما التناسلية منها، فتنشر الارشادات بمختلف الوسائل لمقاومتها وتيسر امر معالجتها وتنزل اشد العقوبات بمن ينشرها او يتهاون في مكافحتها .

(٥٢) تحضير البدو

البداوة مانعه لتوحيد الهيئه الاجتماعية العربية ومناقضة لمقتضيات الحياة المدنيه . فعلى الدولة ان تزيلها ، وذلك بان تهيء للبدو وسائل الاستقرار والعيش الثابت ، على ان يكون

انتقالهم من البداوة الى الحضارة المطلوبه تدريجياً لا يصيب المجموع العربي بأي اضطراب اجتماعي .

(٥٣) رفع مستوى الحياة في القرية

تحرص الدولة على ان تكون نهضة الامة شاملة لجميع افرادها وجماعاتها . لذلك هي تسعى لرفع مستوى القرية بان توءمن للفلاح عيشاً رضيا وتسهر على صحته وتهذبه تهذيباً كافياً يحفظ له اخلاقه ويبقيه متعلقاً بارضه .

(٥٤) الانصاف في اثابة العمل والعامل

تعني الدوله بالطبقة العاملة التي تتكاثر ويعظم خطرها في ظل التمدن الحديث . وتحرص على ان لا يتعرض العامل العربي لما تعرض له العامل الغربي خلال النهضه الصناعية في سائر انحاء العالم من المشاق والاضرار .

فهي لذلك تسن القوانين التي تكفل له نيل

٤٧

الاجور المتكافئة مع انتاجه وتحدد ساعات عمله وتضمن له العناية او التعويض في حالات المرض والعاهة والعجز .

(٥٥) تحريم البطالة والجوع

لا بطالة في المجموع العربي ولا جوع . فعلى الدولة ان توجد العمل لجميع رعاياها او توجد الرزق . وللفرد العربي على كل حال سهم شائع في مجموع الاموال العربية قدره ما يوازي ثمن القوت والدفء الضرورين للحياة .

والدولة تستوفي هذا السهم وتوزعه لقاء التبعة الملقاة عليها في ذلك .

(٥٦) البلاد العربية وحدة اقتصادية

البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية ، لا تنافس بين مرافقها واقطارها ولا مضاربة . ينظم استغلال كل من ترباتها وفاق ماسوتها

الطبيعة الجغرافية .

اما التعامل الاقتصادي مع البلاد الاجنبية فيجب ان يكون على اساس النفع المتبادل المشترك .

(٥٧) سياسة الاستقلال الاقتصادي

تتجه الدولة والامة الى سياسة الاستغناء بمرافقها وبمنتجاتها لكي تكون كاملة القوة بذاتها ضامنة لاستقلالها الاقتصادي جهد الطاقة .

(٥٨) مرافق البلاد العربية للعرب اولا

مرافق البلاد العربية للعرب اولا . فاذا فقد رأس المال العربي او عجز عن استغلالها جاز استقراض المال او استمداد الكفاءة من الاجنبي لقاء تمتعه المحدود بغلاتها على ان لا يمس ذلك بحق الرقبة العربي او باستقلال الوطن او بتقدمه .

وفي هذه الحالة يفضل الاستقراض والاستمداد

من الدول والشعوب التي ليس لها في بلاد العرب مطامع فتح .

(٥٩) اجبار رأس المال الاجنبي على استخدام العرب

رؤوس الاموال الاجنبية واصحابها وشركاتها مجبرة على استخدام نصاب من الموظفين والمستخدمين والعمال العرب لا يقل عن الثلاثة ارباع من المجموع .

ذلك فضلا عن خضوعها لقانون تفضيل العرب حيث تتساوى الكفاءات جملةً .

(٦٠) تعميم الآلة

يقوم التمدن الحديث معظمه على الآلة . فالدولة تسعى لتعميم الحياة الاقتصادية على اساسها . لكنها تعمل على اتقاء الاضطرابات والمضار التي اوقعتها الالة بشعوب الغرب وتسعى لجلب منافعها دون مفاسدها .

الملحق رقم ٢

رسالة فؤاد مفرج إلى واصف كمال - ١٩٣٧

FUAD K. MUFARRIJ
DEPARTMENT OF POLITICAL SCIENCE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT - LEBANON

فؤاد مفرج
استاذ العلوم السياسية في جامعة بيروت الاميركية

بيروت ٢٢/٤/٣٧

اخي الاستاذ واصف كمال حفظه الله

تحية صادقة.

وبعد فقد تلقيت رسالتك بشأن الكتاب الذي

كنت قد عرضته على المدرسة عندكم وسررت جداً بمضمونه. والواقع اني لم اكن
انتظر غير هذا لما نعرفه من الثقة المتبادلة التي بيننا. وقد نقلت الخبر الى الزملاء
هنا نتوقع من [illegible] حسناً
[illegible] ان نجتمع قريباً بزملائنا
[illegible] حتى يتاح تطبيق [illegible] والشروع بتدريس الكتاب منذ السنة
المدرسية القادمة. وهذا ما [illegible]. فما رأيكم ان يكون الموعد يوم
السبت الواقع في ٨ ايار [illegible] الاحد في ٩؟ ان بعض الزملاء ليست
لديهم [illegible] سفر [illegible] في صباح [illegible] ولم يكن
دون تيسيراً بسهولة [illegible] في حينها كما تريد. وعسى ان يجري
كل شيء [illegible].

جميع [illegible] يسلمون عليكم. ارجو تبليغ سلامي الخالص
لجميع الزملاء عندكم. والى اللقاء قريباً. على امل ان القى جواباً
قريباً منكم.

واسلم للمخلص
فؤاد خليل مفرج

الملحق رقم ٣

جدول بأسماء
أعضاء الحركة العربية السرية (*)

الاسم الحقيقي	في عمالة
أ	
سلمان محمد إبراهيم	
عبد المجيد أبو حجلة	
يوسف أبو الحسن	الولايات المتحدة
إبراهيم أبو حيدر	الولايات المتحدة
كنعان أبو خضرا	فلسطين
نجيب أبو سمرة	الولايات المتحدة
حنا أبو الصوف	الولايات المتحدة
يوسف أبو ضبة	

(*) ملاحظات:

١ ـ جدول تقريبي:

إن الأسماء الواردة في هذا الجدول التقريبي بأسماء أعضاء الحركة العربية السريّة مستقاة من المصادر المختلفة. ومن المرجح أن يكون هناك بعض الأعضاء المكتومين الذين لم ترد أسماؤهم بالمصادر الموثوقة التي اعتمدت في إعداد هذا الجدول.

٢ ـ مصادر هذا الجدول:

إن المصادر المعتمدة في إعداد هذا الجدول هي التالية:

ـ مجموعة بطاقات هوية حزبية ـ في أوراق كاظم الصلح.

ـ ثلاثة جداول غير مكتملة بأسماء أعضاء الحركة ـ في أوراق كاظم الصلح.

الاسم الحقيقي	في عمالة
حليم أبو عز الدين	لبنان
فريد أبو عز الدين	لبنان
نجلا أبو عز الدين (الدكتورة)	لبنان
رياض علي أحمد	
صلاح الدين أحمد	
سليم إدريس (الدكتور)	لبنان
جمال علي أديب	سوريا (جبلة)
عدنان الأزهري	سوريا (اللاذقية)
إبراهيم الأسطواني	سوريا
أحمد الأسطواني	سوريا (دمشق)
غانم إسماعيل	العراق (الموصل)
رمزي الألاجاتي	سوريا (حلب)

- أوراق مختلفة أخرى، بأوراق كاظم الصلح، وردت فيها أسماء بعض الحركيين.
- رسالة فؤاد خليل مفرج إلى واصف كمال - بأوراق كاظم الصلح.
- رسالة «نوري» (فؤاد مفرج) إلى «عامر» (كاظم الصلح) - بأوراق كاظم الصلح.
- مذكرات منير الريس.
- مذكرات زهير عسيران.
- مذكرات مالك المصري.
- أطروحة رغيد الصلح لشهادة الدكتوره.
- مذكرات يوسف شديد.
- مذكرات حليم أبو عز الدين.
- مذكرات نديم دمشقية.
- مجلة الشراع، حديث صحافي لمحمد علي حمادة، في العددين ٥٦ و٦٠.
- جريدة الرأي (عمان) بتاريخ ١٩٩٧/٩/١٢.
- معلومات وردت فيها أسماء بعض الأعضاء بأحاديث وتصاريح جرت بمناسبات وظروف مختلفة أطلقها حركيون قدامى، وخصوصاً: قسطنطين زريق، واصف كمال، تقي الدين الصلح، جبران شامية، نديم دمشقية، يوسف شديد، حليم أبو عز الدين.

الاسم الحقيقي	في عمالة
سعيد فتاح الإمام	سوريا (دمشق)
صلاح الدين الأيوبي (الأمير)	الولايات المتحدة
ب	
مسلم بارودي	
برهان الدين باش أعيان	العراق
أحمد بدير	الولايات المتحدة
عبد المجيد البرماني	
شريف البزري	لبنان (صيدا)
علي بزّي	لبنان
إميل بستاني	لبنان
عبدالله بشناق	فلسطين
ناجي بشناق	فلسطين
عفيف بعلبكي	لبنان (بيروت)
منير بعلبكي	لبنان (بيروت)
نعمان بكر	
أكرم بيطار (طبيب)	سوريا (دمشق)
ت	
سعيد الترمانيني	سوريا
حسن التكريتي	
بشير تلّلو	سوريا (دمشق)
ج	
شفيق جحا	لبنان (بشمزين)
عيسى جغب	العراق (بعقوبة)
نجم الدين جلميران	العراق (الموصل)
فرحان الجندلي (طبيب)	سوريا (حمص)

الاسم الحقيقي	في عمالة
سعيد الجوخدار (طبيب)	سوريا (دمشق)
عبد الرحمن الجوخدار	سوريا
حازم جودة	
نور الدين الجوهري	لبنان (صيدا)
هلال الجوهري	لبنان (صيدا)
ح	
كايد الحاج (الشيخ)	الولايات المتحدة
الحاج علي	
عدنان الحافظ	سوريا
مسلم الحافظ	سوريا (منبج)
ثابت سليمان حداد	العراق (بغداد)
محمد عباس حديد	
فائق الحسيني	فلسطين (القدس)
يوسف الحسيني	
أحمد حقي الحلي	
محمد علي حمادة	لبنان (بيروت)
خالد حمد	
أحمد حمزة	الولايات المتحدة
حسن حمود	الولايات المتحدة
عبد اللطيف حمود	الولايات المتحدة
عبد الهادي حمودة	
قاسم حمودي	
جمال حميد (محام)	فلسطين (حيفا)
رفيق حنينة (طبيب)	لبنان (صيدا)
محمد الحوت	

الاسم الحقيقي	في عمالة
أكرم حوراني	سوريا
عادل حوراني	سوريا
عثمان الحوراني	سوريا
خ	
حافظ خالد	
سعيد الخاني	سوريا (حماه)
أكمل خربوطلي	
طلعة الخربوطلي	سوريا (دمشق)
حسن مصطفى الخليل	
سعدي الخليل	
سهيب الخياط	فلسطين (نابلس)
نقولا خير	لبنان (دوما)
خلوصي الخيري	فلسطين (نابلس)
نظيف الخيري	
د	
زهير دالاتي	سوريا (دمشق)
فايز دالاتي	سوريا (دمشق)
فيصل دالاتي	سوريا (دمشق)
أطناس داوود (طبيب)	الولايات المتحدة
شاكر محمود داوود	العراق (البصرة)
عبدالله دبوس	لبنان (بيروت)
برهان الدجاني	فلسطين (يافا)
عوني الدجاني	فلسطين (يافا)
محمد الدجاني	فلسطين (يافا)
حسن الدجيلي	

الاسم الحقيقي	في عمالة
زهير دروزة	فلسطين
محمد علي دروزة	فلسطين
أنور دسوقي	
نصوح الدقاق	سوريا (دمشق)
نديم دمشقية	لبنان (بيروت)
فيصل الدملوجي	العراق
شوقي الدندشي	لبنان (طرابلس)
عبد الكريم الدندشي	سوريا
علي عبد الكريم الدندشي	سوريا
مصطفى الدندشي	سوريا
عبد المحسن الدوري	
نيقولا ديب	
ذ	
عبد الله الذُّكير	
قبولي الذوق	لبنان (طرابلس)
ر	
عمر الراوي	
عبد الهادي الرباط	
منيف الرزاز	
ظافر الرفاعي	سوريا (حلب)
عثمان الريّس	سوريا (حماه)
منير الريّس	سوريا (حماه)
ز	
قسطنطين زريق	لبنان (بيروت)
فرحان زيادة	فلسطين (رام الله)

الاسم الحقيقي	في عمالة
عبد الملك الزيبق	
قاسم زيدان	
مصطفى الزين	لبنان (صيدا)
فريد زين الدين	لبنان (قِنية)
س	
أنور سادات	سوريا (دمشق)
فائق السامرائي	العراق
شاكر السباعي	سوريا (حمص)
أحمد السبع	سوريا (حمص)
يونس السبعاوي	العراق (بغداد)
جسين سجعان	لبنان (بيروت)
ممدوح السخن	فلسطين (نابلس)
ناظم السخن	فلسطين (نابلس)
منير سخيّان	فلسطين (طول كرم)
سرحان السرحان	الكويت
جان سرور	لبنان (بيروت)
شارلي سعد	لبنان (الشويفات)
فريد السعد	فلسطين
فؤاد السعدي	فلسطين
فهمي سعيد (العقيد)	العراق
أحمد سعيدان	
عبد الباقي السعيدي	
أحمد زين الدين السقاف	اليمن (لحج)
نسيب سكري	سوريا (دمشق)
محمد حسن سلمان	العراق

الاسم الحقيقي	في عمالة
محمود سلمان (العقيد)	العراق
إميل سليم	
علي سمحات	الولايات المتحدة
محمد سنتربس	
صلاح سنجر	لبنان (صيدا)
عبد القادر السنوي	العراق (بغداد)
حسن سوس	
محمود سويدان	
جلال السيّد	سوريا (دير الزور)
سعيد السيّد	سوريا (دير الزور)
رفيق السيوفي	
ش	
جبران شامية	سوريا (دمشق)
مزاحم الشابندر	
رجا شبيب	لبنان
عبد الرزاق شبيب (محام)	العراق
كامل شبيب (العقيد)	العراق
فرحان شبيلات	العراق (بغداد)
رامز شحادة	لبنان
شفيق شحادة	سوريا (دمشق)
فوزي شحادة	لبنان
أسعد شديد	
يوسف شديد	لبنان (مرجعيون)
صبحي شراب	فلسطين - برلين
نظام شرابي	فلسطين

الاسم الحقيقي	في عمالة
أحمد الشرباتي	سوريا
عزّة شربجي	سوريا (دمشق)
بديع شريف	
حكيم شريف	العراق (بغداد)
مصطفى الشريف	سوريا (دمشق)
فؤاد شطارة	الولايات المتحدة
ضياء الدين الشطي	
محمد شقير	لبنان
أحمد الشقيري	فلسطين
صلاح شما	
رامز الشماع	سوريا (دمشق)
صدِّيق شنشل	العراق
موسى الشهبندر	سوريا (دمشق)
رشاد الشوا	فلسطين (غزة)
عز الدين الشوا	فلسطين (غزة)
رامز شوقي	لبنان (بيروت)
إبراهيم شوكة	
عبد الجبار شوكة	
فخري الشيخ	العراق
ص	
علي الصافي	العراق
عبد القادر الصالح	
نجيب الصايغ	
صلاح الدين الصباغ (العقيد)	العراق
عزت صعب	المكسيك

الاسم الحقيقي	في عمالة
محمد صعب	لبنان (الكحلونية)
محمود صعب	الولايات المتحدة
أنيس الصغير	لبنان (بيروت)
سلمان الصفواني	العراق (بغداد)
محمد صفي الدين	لبنان
عبد الله الصقر	الكويت
عبد الله صلاح	
تقي الدين الصلح	لبنان (بيروت)
حسيب الصلح	لبنان
عبد الهادي الصلح	لبنان (صيدا)
عماد الصلح	لبنان (بيروت)
كاظم الصلح	لبنان (بيروت)
كريم صليبي	الولايات المتحدة
عبد القادر الصمدي	لبنان (بيروت)
ط	
أمجد طرابلسي	سوريا
عزة طرابلسي	سوريا (دمشق)
جورج طعمة	سوريا (دمشق)
أحمد طلس	سوريا (حلب)
سامي طالو	لبنان (صيدا)
أمين طليع	العراق (الموصل)
عفيف طنوس	لبنان (بشمزين)
صلاح طه	لبنان (صيدا)
ظ	
عارف ظاهر	العراق (بغداد)

الاسم الحقيقي	في عمالة
نصوح الظاهر	
ع	
ألبرت عازار	الولايات المتحدة
عصام عاشور	فلسطين
عبد المجيد عباس	العراق
حسن عبد الحليم	الولايات المتحدة
حسن عبد الرحمن	
أحمد عبد الرحيم	
أكرم عبد الرحيم	
إبراهيم عبد الرزاق	
حيدر عبد الشافي	فلسطين
حسن عبد الصمد	
عبد الخالق عبد المجيد	
جبور عبد النور	لبنان (بيروت)
علي عارف عبد الهادي	فلسطين (نابلس)
كمال عتمة	
زهير العجلاني	سوريا (دمشق)
خالد سليمان العدساني	الكويت
علي عدي	سوريا (حماه)
حسن عسيران	لبنان (صيدا)
زهير عسيران	لبنان (صيدا)
سعيد عسيران	لبنان (صيدا)
عادل عسيران	لبنان (صيدا)
وديع عسيران	لبنان (صيدا)
حسني عطية	لبنان

الاسم الحقيقي	في عمالة
عبد الأمير عطية	
متى عقراوي	العراق
بصري علاء الدين	
سامي العلمي علوان	فلسطين
إبراهيم علوان	الولايات المتحدة
جميل علواني	سوريا (حماه)
محمد العمر	
جابر عمر	العراق
صلاح العنبتاوي	فلسطين
الياس عودة	الولايات المتحدة
بهاء الدين عوني	
جميل عيد	
عبد الرحمن فارس عيد	سوريا (دمشق)
غ	
قاسم غازي	الولايات المتحدة
عبد اللطيف الثنيان الغانم	الكويت
محمد الغانم	عدن
يوسف الغانم	الكويت
أمجد غنما	فلسطين
ف	
عبد المجيد فاضل	
دياب الفاهوم	
حمد الفرحان	فلسطين
عبد القادر الفرحان الفياض	سوريا (دير الزور)
عبد الكريم الفرحان	سوريا

الاسم الحقيقي	في عمالة
عبد اللطيف فياض الفرحان	سوريا (دير الزور)
حسن فرعون	
إبراهيم فليحان	الولايات المتحدة
عبد الله فياض	سوريا (دير الزور)
ق	
أنور القطب	سوريا
جميل قُربي	سوريا (دمشق)
عبد الستار قره غولي	
علي القزويني	
شفيق قمبرجي	فلسطين
ك	
عباس كاشف الغطاء	العراق
الياس كرم	كندا (أوتاوا)
جورج كزما	
تحسين كمال	
واصف كمال	فلسطين (نابلس)
نيازي كنعان	
ل	
شفيق لطفي	لبنان (صيدا)
م	
فؤاد ماجعلي	
عادل مارديني	سوريا (دمشق)
رستم ماضي	فلسطين
منير مالكي	
محمد المجذوب	لبنان (صيدا)

الاسم الحقيقي	في عمالة
ودود مجذوب	لبنان (صيدا)
أسعد محفل	سوريا (حلب)
رديف محمود	
علي محيي الدين	الولايات المتحدة
عبد الهادي المختار	
كامل مروّة	لبنان
صالح المسالخي	سوريا
محمد مشرف	الولايات المتحدة
مالك المصري	فلسطين (نابلس)
حامد مصطفى	
حسن مصطفى	
عبد حسن مصطفى	الولايات المتحدة
عبد العزيز العثمان المطير	العراق (البصرة)
خالد مطيع	
عواد معروف	
ناجي معروف	العراق
سليمان المعصراني	سوريا (حمص)
عبد الهادي المعصراني	سوريا (حمص)
فارس معلوف	الولايات المتحدة (بوسطن)
نصري المعلوف	لبنان (بيروت)
أحمد المغربي	
حازم المفتي	
فؤاد خليل مفرج	لبنان (بيروت)
درويش المقدادي	فلسطين ـ العراق ـ برلين

الاسم الحقيقي	في عمالة
جميل مكاوي	لبنان (بيروت)
توفيق منصور	الولايات المتحدة
مأمون المهايني	سوريا (دمشق)
ن	
سليمان الناصري	
أنطون نبتي	لبنان
عبد الله النجار	لبنان
يوسف أحمد نجيم	الولايات المتحدة
مروان نصر	لبنان
عبد الله نعمة	
سليم النعيمي	العراق
عبد الجبار نوفان	
يوسف نويهض	لبنان
هـ	
أسعد هارون	سوريا (اللاذقية)
عدنان هارون	سوريا (اللاذقية)
علي هارون	سوريا (اللاذقية)
علي الهاشمي	
عبد الحميد الهلالي	العراق
نسيب همام	لبنان
يوسف هيكل	فلسطين (يافا)
فريد يعيش	فلسطين

الملحق رقم ٤

جدول بالأسماء الرمزية المستعارة لبعض أعضاء الحركة العربية السريّة

الاسم الحقيقي	الاسم الرمزي
أحمد أسطواني	حسن مجيد
شريف البندري	طاهر الموصلاني
أكرم بيطار	صياح
سامي تلّلو	زهير علمان
سعيد الجوخدار	مفيد عليوي
نورالدين الجوهري	أبو الهدى بركات
هلال الجوهري	نمر العباس
رفيق حنينة	طارق المدني
طلعت الخربوطلي	الأمين
خلوصي الخيري	مسعود
عثمان الريّس	مردان
منير الريّس	أسامة
قسطنطين زريق	كريم
مصطفى الزين	ناصر إبراهيم
يونس السبعاوي	حيدر
ممدوح السخن	وليد
صلاح سنجر	ياسين كامل
شفيق شحادة	معاوية

الاسم الحقيقي	الاسم الرمزي
عزة شريحي	علي شريف
مصطفى الشريف	مشعل
رشاد الشوا	حمدان
عبد الهادي الصلح	رشيد العلي
كاظم الصلح	عامر
عزة طرابلسي	هشام
صلاح طه	صبحي الفارس
جميل قربي	جعفر
واصف كمال	عصام
محمد المجذوب	هاني سعيد
ودود المجذوب	نجيب زاهر
فؤاد مفرّج	نوري
مأمون مهايني	فيصل

الملحق رقم ٥

أخي عامر حفظه الله،

تحيات. وبعد فقد تلقيت منذ مدة رسالتك المفصلة ومعها الأوراق والتعليقات. ولا أكتمك يا أخي سروري بها، لا لأنها تحمل إليّ أخباركم فحسب، بل لما تجلى فيها من دلائل حسن التنظيم والترتيب اللذين كنا ننشدهما في جميع أعمالنا. حياكم الله وأخذ بيدكم فقد بعثتم في نفسي كثيراً من الغبطة والسرور.

ولم أجب على الرسالة في الوقت الذي كان عليّ أن أجيب فيه لأمرين، أولهما أخبار سورية المقلقة التي جعلتني أتريث قليلاً حتى تكون مراسلاتنا أمينة، ولا أعلم مَن من الإخوان لا يزال حراً. وثانيهما أنني أردت ألا أكتب قبل أن أكون قد قمت برحلتي التي كنت مصمماً عليها بين البلدان وأنهيت الجزء الأكبر من تشكيلاتنا بينكم. وبهذه المناسبة أقول لكم إن الأخبار التي تتلقاها جريدة هنا عن سوء صحة الأخ فيصل السريع قد أقلقتني كثيراً. وعقيدتي أنه من الضروري أن نثبت "موجودية" شديدة في هذه الظروف التي تمر بالبلاد لأن الوقت مناسب جداً لذلك، ولا أخالكم إلا توافقون عليه.

وقبل أن أنتقل إلى أخباري عما جرى هنا. بيع أسهم الشركة هنا وما يجب فعله عندكم بهذا الخصوص، أود أن أجيب أولاً معلقاً على بعض النقاط التي وردت في رسالتك الأخيرة.

وقد تمت برحلة خاصة لهذا الامر لم نتمه بعد، اذ
اكتب لكم حالياً من فيينا الى تولوز بطريقي الى تورنتو، ومرسيليا،
وبرشلونة، وروما حملة قبل انعقاد المؤتمر. وان اكتب لكم عن اسماء
من يشترون سهماً في هذه الحملات التي ذكرتها في خبر آخر او هي
آخر الرحلة التي اذ صحبا اليك قبل عودتي.

وتجد في الصفحة التالية قائمة باسماء ومناديب
الى حميث، او جدران ترسل الى كل منهم رسالة، بالعربية
فيها وبالانكليزية لثلاثة او اربعة منهم، تقول فيها ما
يلي: نقل الينا السيد فلان مندوب (شركتنا) في
الخارج خبر رغبتكم معنا في العمل وحيازتكم على
سهم فيه (مالك...) نرحب بكم ونحن على ثقة انك
ستقوى بكم وستقوون بنا، ونحييكم تحية الود. اما في
المستقبل فلتبق صلتكم مع مندوبنا عندكم وبيده رجوعه
الى الوطن الى اشعار آخر، وهو بدوره سيكون صلة
الوصل بيننا وبينكم.

او ما هو بهذا المعنى.

ومن الضروري ان ترسل هذه الرسائل فوراً، اي ان
تصل قبل اول سبتمبر، فتكون بمثابة رباط شد ما بينهم
بنا وبمؤتمرنا.

١٣

هذه هي الحال. ان ثقتي كبيرة جداً بالبيان

نعمتي اقتنعت بي كثيراً فقوي. ارجو عمل نسخة

على المستشفى وارسالها لي بسرعة.

واني عامل حالياً على الكتابة والنشر في الصحف

والمجلات وفي كراسات على هيئة عدة مقالات

واني شديد الشوق لرؤية دار الكتب الشرقية في جنيف

بالعربية وترجمتها بالانكليزية، وساكتب لكم ما

انتهي منه ان شاء الله لارسالكم الصفحات الباقية،

على امل ان اسمع منكم قريباً مع تحياتي

للجميع. المخلص

نوري

٥/٧/٣٩

الملحق رقم ٦

جدول بأسماء وأعضاء الحركة العربية السريّة في الولايات المتحدة الأميركية وكندا كما وردت في رسالة «نوري» إلى «عامر»

وهذه هي الأسماء والعناوين:

وهذه هي الاسماء والعناوين:

١ Dr. F. J. Shatara — الدكتور فؤاد شطارة.
153 Clinton St. — رئيس الجامعة العربية. [illegible]
Brooklyn. N.Y. U.S.A.

٢ Ali Mahaddine — علي محي الدين،
3771 Hudson Blvd. — نائب رئيس الجامعة العربية.
Jersey City. N.J. U.S.A. — ومن زمرة شعراء المهجر.

٣ اكتب له بالانكليزية. Albert J. Ozar — من اذكى واخلص الشباب المولودين
181 Amity St. — في هذه البلاد.
Brooklyn. N.Y. U.S.A. — نائب رئيس تشكيلات الشباب.

٤ بالانكليزية Kareem Salaby — رئيس تشكيلات الشباب،
525 4th St. — [illegible].
Brooklyn. N.Y. U.S.A.

؟ وفي بروكلين ونيويورك ثلاثة او اربعة غيرهم ايضاً
لم تنبه [illegible] بعد، ثم نكتب لكم عنهم عند رجوعي لنيويورك.

٥ J. A. Nejem — هو شهيدي نجم. نعم ٥٠٪ من
14 Washington St. — لم اره اول. اسمه يوسف احمد نجم.
Grand Haven. Mich. U.S.A.

٦ Hamed Audden — اكثر الاخرين عملاً وحماسة.
2142 Salina Ave — معتمدنا في ديترويت. لكل امر
Dearborn. Mich. U.S.A — الحاجة. يجب ان ترسل له - بالعربية

١٠

٧

Dr. T. G. David
2241 Van Dyck Ave
Detroit - Mich.

الدكتور الياس داوود.
طبيب مرحب به. ولكنه [illegible]
[illegible].

٨

Abe Alwan
6507 Vinewood St.
Detroit. Mich. U.S.A.

ثقافته الى اقصى حد. قراءته العربية
ضعيفة. اكتبوا له بعنوان احمد بدر.
ابراهيم علوان.

٩

Abe Abouhaidar
Master Market.
Binghamton. N.Y. U.S.A.

تاجر خلقي متين بلبك. له خدمات
سابقة.
ابراهيم ابو حيدر.

١٠

Tom Mansur
5605 Corona Road
Flint. Michigan. U.S.A.

توفيق منصور، ابن عم ميشال
منصور ج ع. خلقي وثقافي جيد.

١١

Salah Ayyoubi
1449 - N. York. St.
Flint. Mich. U.S.A.

الامير صلاح الدين الايوبي. اخو
ايوبي طرابلس. كان يرجى انطون
سلامة ونعتمد عليه.

١٢

Najeeb Abou-Samra
1907 Detroit St.
Flint. Mich. U.S.A.

نجيب ابو سمرا - اخوه صهر [illegible]
ع. نعتمد على ثقته.
اكتبوا بواسطة منظمة. ثقة
وطنية!

١١/ .

١٦ Ibrahim Fulehan
212 Temple St.
Syracuse N-Y. U.S.

ابراهيم فليحان . افندي زيد ماجد
فلاح دكان ... دكان .

Hassan Abdul-Halim
3929 Drexel Blvd
Chicago. Illinois.

حسن عبد الحليم . ... جامع
شيخ ... .

١٧ Ahmed Hamzeh
151 Gerald Ave
H. P. Michigan. U S A

احمد حمزه . شيخ الصادق ... مسجد
محمد جدا ... .

١٠ Kaid Al-Hajj
13428 Fleming St.
Detroit. Mich. U.S.

الشيخ كايد الحاج . رجل ...
... عليه . ... قليل
الكلام .

١٦ Mahmoud Saab
634 Michigan Ave.
Detroit. Mich. U.S.A.

محمود صعب . ... فلاح
جدا .

١٨ J. A. Joseph
229- Mack Ave.
Detroit. Mich. U.S.A

يوسف ابو ... . عقيد ...
الدرزية . فلاح دكان .

١٩ Mohammad Mishrif
2133 Howard.
Detroit. Mich. U.S.A.

محمد مشرف . من بعلبك . ...
... .

بانكليزية Elias Karam ٢ 480 Cooper St. Ottawa - Canada	الياس كرم. عقيدته جلية اولاداً نخوة وطنية. انا مرتاح جداً الكوراني.
Hassan Hamood 3101 Park Ave. Detroit. Mich. U.S.A.	حسن حمود. من بنت جبيل. طيب جداً.
Abdullatif Hamood 1505 Canterbury Ave Dearborn. Mich.	عبد اللطيف حمود. بنت جبيل. طيب جداً.
John Sauf ٢٢ 188 Labelle Ave. H.P. Mich. U.S.A	الاستاذ حنا ابو الصوف. رئيس الجمعية الوطنية في ديترويت. عقيدة وطنية. نخوة وطنية.
Allie Sambat ٢٤ 428 Peterborough St Detroit. Mich. U.S.A	علي سمحات. انسب صندوق كل اثر ريع الوطنية. عليه ان اقنعه حتى يتمتع بثقة الجميع.
Kasim Gazi ٢٥ 3510 Cass Ave. Detroit. Mich. U.S.A.	قاسم غازي. من دفنه. طيب، ولكن ليس من الدرجة الاولى.
Albert H. Mustapha ٢٧ 4042 W. Jefferson Ave. Ecorse. Mich. U.S.	عبد حسن مصطفى. بنت جبيل. طيب جداً.

المراجع

I ـ أوراق كاظم الصلح ـ من وثائق الحركة العربية السرية

١ ـ مواد لتقرير عن أعمال القيادة.

٢ ـ الموجود (أكثر) من مقررات مجلسي القيادة.

٣ ـ مقررات فرعية.

٤ ـ ضبط جلسات مجلس القيادة ـ آب ١٩٣٩.

٥ ـ إذاعة داخلية حزبية بتاريخ ١٥ آذار ١٩٣٩.

٦ ـ مجموعة بطاقات هوية حزبية تتألف من ١٠٦ بطاقات.

٧ ـ اليمين الحركي (القَسَم).

٨ ـ جدول أول يتضمن أسماء ٩٥ عضواً من أعضاء الحركة.

٩ ـ جدول ثان يتضمن أسماء ٦٥ عضواً من أعضاء الحركة.

١٠ ـ جدول ثالث يتضمن أسماء ٤ من أعضاء الحركة.

١١ ـ وثيقة منفردة: من عمالة سوريا إلى القيادة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ بشأن مسألة الاتصال بالصاحب.

١٢ ـ مذكرات كاظم الصلح عن رحلته إلى الحج في مكة في ٤ و٥ كانون الثاني ١٩٤١.

١٣ ـ رسالة فؤاد مفرّج إلى واصف كمال في ٢٢ نيسان ١٩٣٩.

١٤ ـ رسالة «نوري» إلى «عامر» في ٥ تموز ١٩٣٩.

١٥ ـ رسالة الدكتور فؤاد شطارة إلى كاظم الصلح في ١٥ تموز ١٩٣٩.

١٦ ـ رسالة كاظم الصلح إلى رئيس الدائرة السياسية بالمفوضية العليا الفرنسية في بيروت في ٧ تشرين الأول ١٩٣٩.

١٧ ـ رسالة سعيد فتاح الإمام إلى الكابيتان بورتاليس المسؤول عن الأمن الفرنسي في دمشق (ناقص الصفحة الأولى).

II ـ الكتب

١٨ ـ حليم أبو عز الدين، تلك الأيام. مذكرات وذكريات ـ سيرة إنسان وسيرة دولة ومسار أمة. في جزأين. (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢).

١٩ ـ رفائيل بطي، ذاكرة عراقية، جزءان، (دمشق، دا الممدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٠).

٢٠ ـ سهير السلطي التلّ، حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية. (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦).

٢١ ـ شفيق جحا، معركة مصير لبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩١٨ ـ ١٩٤٦، (بيروت، مكتبة رأس بيروت. ١٩٩٥).

٢٢ ـ باسم الجسر، ميثاق ١٩٤٣. لماذا كان؟ وهل سقط؟ (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٨).

٢٣ ـ محمد أحمد الجوهري، تاريخ الحركة العربية المعاصرة ـ نادي المثنى وواجهات التجمع القومي في العراق، ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢. (بغداد، دار الجاحظ، ١٩٨٤).

٢٤ ـ عثمان كمال حداد، ثورة رشيد عالي الكيلاني في سنة ١٩٤١. (صيدا، المكتبة العصرية...).

٢٥ ـ فاضل حسين، تاريخ فلسطين السياسي تحت الإدارة البريطانية. (بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦).

٢٦ ـ يوسف الحكيم، سوريا والانتداب الفرنسي، (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٣).

٢٧ ـ حسان حلاق، مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٣٦. (بيروت، دار الجامعة، ١٩٨٢).

٢٨ ـ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨. (بيروت، مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١).

٢٩ ـ عبد الهادي الخماسي، الأمير عبد الإله ١٩٣٩ ـ ١٩٥٨. (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١).
٣٠ ـ فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي، سياسة القومية العربية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥، ترجمة مؤسسة الأبحاث. (بيروت، مؤسسة الأبحاث، ١٩٩٧).
٣١ ـ محمود الدرة، الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١. (بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩).
٣٢ ـ نديم دمشقية، محطات في حياتي ـ ذكريات في السياسة والعلاقات الدولية. (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٥).
٣٣ ـ علي الدندشي، علي الدندشي باعث النهضة الكشفية العربية. حوار تضمن تذكارات علي الدندشي أجرته واعدته الانسة هالة سليمان الأسعد. (بيروت، جمعية قدامى الكشاف المسلم في لبنان، ١٩٩٦).
٣٤ ـ أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، العالم الحديث. (دمشق، مكتبة العلوم والآداب، ١٩٥٠).
٣٥ ـ منير الريس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، ٣ أجزاء: الجزء الأول عن الثورة في سوريا، الجزء الثاني عن الثورة في فلسطين، والجزء الثالث عن الثورة في العراق.
٣٦ ـ قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، المجلد الأول، الطبعة الثانية. (بيروت، مركز الدراسات العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦).
٣٧ ـ قسطنطين زريق، الوعي القومي. (بيروت، دار المكشوف. ١٩٣٩).
٣٨ ـ أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، يوميات أكرم زعيتر، الطبعة الثانية. (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٢).
٣٩ ـ يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية. ذكريات ومذكرات. (بيروت، دار النهار للنشر، ٢٠٠١).

٤٠ - نضر علي أمين الشريف، محمد فهمي سعيد، سلسلة الاعلام رقم ١، الدور العسكري والسياسي في تاريخ العراق المعاصر. (بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٠٢).

٤١ - صلاح الدين الصباغ. فرسان العروبة، مذكرات الشهيد صلاح الدين الصباغ. (الرباط، تانيت للنشر والتوزيع، ١٩٩٤).

٤٢ - زهير عسيران، زهير عسيران يتذكر المؤامرات والانقلابات في دنيا العرب. (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٨).

٤٣ - زياد عودة، عبد الرحيم الحاج محمد بطل ثورة، صفحات مشرفة من تاريخ النضال الفلسطيني إبان ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩. (الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع والنشر، ١٩٨٤).

٤٤ - محمد حرب فرزان، الحياة الحزبية في سوريا ١٩٠٨ - ١٩٥٥. (...، دار الرواد، ١٩٥٥).

٤٥ - فوزي القاوقجي، مذكرات فوزي القاوقجي. الجزء الأول ١٩١٤ - ١٩٣٢. الجزء الثاني فلسطين في مذكرات القاوقجي. إعداد خيرية قاسمية. (بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ومركز الأبحاث ودار القدس، ١٩٧٥).

٤٦ - باسل الكبيسي، حركة القوميين العرب. (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٤).

٤٧ - الكتاب الأحمر، كتاب القومية العربية. (بيروت، الحركة العربية السرية، ١٩٣٥).

٤٨ - واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية - إعداد هالة سليمان الأسعد. (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١).

٤٩ - علي محافظة، «في النشأة التاريخية للجامعة العربية» في كتاب الجامعة العربية في الواقع والطموح. (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣).

٥٠ - عبد الله المشنوق، وراء الأسلاك الشائكة - ذكريات معتقل في الميّة وميّة. (بيروت، دار النشر العربية، ١٩٤٨).

٥١ ـ مالك المصري، نابلسي بالجامعة الأميركية وحكاية زواج ١٩٣٨ - ١٩٤٣. (عمان، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٨).

٥٢ ـ فؤاد خليل مفرج، المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧. (دمشق، المكتب العربي القومي للدعاية والنشر، ١٩٣٧).

٥٣ ـ عجاج نويهض، مذكرات عجاج نويهض ـ ستون عاماً مع القافلة العربية. إعداد بيان نويهض الحوت. (بيروت، دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩٣).

٥٤ ـ هاني الهندي وعبد الله النصراوي، حركة القوميين العرب، نشأتها وتطوراتها عبر وثائقها ١٩٥١، ـ ١٩٦٨. الكتاب الأول: الجزء الأول والجزء الثاني. (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠١).

III ـ أطروحات ـ لم تنشر

٥٥ ـ Raghid Solh, Lebanon and Aab Nationalism 1936 - 1946. Thesis submitted in fulfilment of the requirements for the degree of Dotor of Philosophy in the Faculty of Social Studies in the University of Oxford. (Oxford, St. Antony's College, 1986).

٥٦ ـ خطار أسعد بو سعيد، عصبة العمل القومي ودورها في لبنان ١٩٣٣ - ١٩٥٥. بحث أعد لنيل شهادة دبلوم في علم الاجتماع السياسي، بإشراف الدكتور فارس محمود إشتي. (بيروت، معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول، ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣).

IV ـ مذكرات ـ خاصة لم تنشر

٥٧ ـ قسطنطين زريق ـ سيرة ذاتية.

٥٨ ـ واصف كمال، مذكرات الأستاذ واصف كمال في ستة أحاديث (بيروت، ١٩٩٥).

٥٩ ـ رفعت صدقي النمر، تذكارات. (بيروت، ١٩٩٥).

V ـ صحف

٦٠ ـ مجلة الشراع، ـ بيروت

٦١ ـ جريدة الحياة، بيروت ـ لندن

٦٢ ـ جريدة الرأي ـ عمان

٦٣ ـ جريدة السائح ـ نيويورك

٦٤ ـ جريدة النهار ـ بيروت

٦٥ ـ مجلة العروة الوثقى ـ بيروت

VI ـ مقابلات مع كل من:

قسطنطين زريق، واصف كمال، جبران شامية، تقي الدين الصلح، محمد شقير، نديم دمشقية، يوسف شديد، حليم أبو عزّالدين، رفعت النمر، فيصل دملوجي، هاني الهندي.

فهرس عام

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- ز -

- س -

- ش -

- غ -

- ل -

- م -

- ي -

أحدث كتب صدرت للمؤلف:

١٩٩١	الدستور اللبناني: تاريخه، تعديلاته، ونصه الحالي الطبعة الثانية ـ ١٩٩٨ الطبعة الثالثة ـ ٢٠٠٠ الطبعة الرابعة ـ ٢٠٠٣
١٩٩١	دارون وأزمة السنة ١٨٨٢ بالجامعة الأميركية في بيروت يترجم حالياً ليصدر باللغة الانكليزية قريباً.
١٩٩٥	معركة مصير لبنان في عهد الانتداب الفرنسي، ١٩١٨ ـ ١٩٤٦، في جزأين.
٢٠٠٢	الجمعية العربية السرية ـ جماعة الكتاب الأحمر ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥

